١٩٨٢

مكتبة نوبل

غابرييل غارسيا ماركيز

الحب في زمن الكوليرا

ترجمة
صالح علماني



الحب في زمن الكوليرا

١٩٨٢

مكتبة نوبل

غابرييل غارسيا ماركيز

الحب في زمن الكوليرا

ترجمة

صالح علماني



مكتبة نوبل

اسم المـــؤلف : غابرييل غارسيا ماركيز

Author: Gabriel Garcia Marquez

عنوان الكتـاب : الحب في زمن الكوليرا

Title : El Amor en Los Tiempos del Colera

ترجـــمــــة : صالح علماني

Translator: Saleh Almani

النـاشـــــر : دار المدى للثقافة والنشر

Al- Mada : P. C.
Cultural Foundation

الطبـعـة الأولى : ١٩٩٨

First Edition 1998

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢

بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١

فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or
7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,
Fax : 9611- 426252

ولد غابرييل غارسيا ماركيز عام ١٩٢٨ في أراكاتاكا ، شمال كولومبيا ، ودرس في بوغوتا العاصمة في مدرسة يسوعية ، لينتقل بعدها الى الجامعة .

عمل صحفياً وجاب كثيراً من بلدان العالم أهمها روما ، وباريس (عام ١٩٦٠ حيث كان بلا مال سوى ثمن تذكرة العودة الذي استعاده ، فاضطر الى بيع الزجاجات الفارغة والاشتراك مع آخرين من مواطني أميركا اللاتينية في تبادل العظام ليصنعوا منه الحساء!) ـ كتب حينذاك روايته «ليس للكولونيل من يكاتبه» . كما أنه أقام في مكسيكو وكتب عدة سيناريوهات سينمائية . نشر ماركيز أول قصة له عام ١٩٥٥ وكانت «غرباء الموز» ، ولم يتجاوز وقتها عدد نسخها الألف نسخة .

ذاع صيته بعد نشره لرائعته «مائة عام من العزلة» عام ١٩٦٧ ، والتي نبّهتْ العالم إليه ككاتب متميز (تُرجمت الى ٣٢ لغة بينها العربية) ؛ لا بل فجّرتْ اهتماماً استثنائياً بأدب أميركا اللاتينية ككل .

وعلى إثر ذلك ، حاز يوم الجمعة في العاشر من كانون الأول/

ديسمبر ١٩٨٢ على جائزة نوبل للأدب وذلك (لرواياته وقصصه حيث يتدفق الواقعي والغرائبي في غنىً معقد لعالمٍ شعري يعكس حياة ونزاعات محيط بأكمله) ـ كما جاء في شهادة الأكاديمية السويدية . وبذا يكون الفائز بالجائزة رقم ٧٩ ، وأول كولومبي ينالها ، ورابع أميركي لاتيني بعد ميسترال وأستورياس ، ونيرودا .

حقاً ، إن غابرييل غارسيا ماركيز يستمد من المخيلة الكثير الكثير ليشحن به كتاباته ، وبذلك يحقق تآلفاً منسجماً لعالمٍ يطفو فوق الواقع إنما جذوره متأصلة فيه ويغتني بنسغه . إنه كما الكاتب الأرجنتيني بورخس ، يعتمد الخيال أو المخيلة وسيلة كبرى في الحياة والكتابة : «إن أعظم ما يمتلكه الإنسان هو الخيال» ـ قال بورخس . أما ماركيز ، فإنه يقول في أكثر من مناسبة : «الخيال هو في تهيئة الواقع ليصبح فناً» ، وأيضاً «الغرائبي يأخذني ولا يبقى من الواقع إلا أرض القصة» . ولكنه يوضح في مكان آخر فيقول عن مائة عام من العزلة : «إنها تنتمي الى أدب الهروب من الواقع . كنتُ أود التعبير عن الإرادة الواعية ، لا أن تعدم الواقع . ولكن علينا أن ندرك أنها لم تصالح الواقع» . ويستطرد : «ليس قول الناس إننا نتهرب من الواقع معقولاً ، فمن يطالع إنتاجنا في روية يعرف أننا مُسيسون ومتورطون أكثر من أسلافنا» . وعن النقطة ذاتها يشرح قائلاً : «أعتقد أن سبر أغوار الواقع ، دون أحكام مسبقة عقلية ، يبسط أمام روايتنا بانوراما رائعة . ومهما اعتقد بعضهم أن منهجنا هروبي ، فإن الواقع سيثبت ـ إن عاجلاً أو آجلاً ـ أن المخيلة على حق» .

وهكذا نفهم لماذا رفض العروض لتحويل رواياته الى أفلام

سينمائية ، فهو يريد أن تبقى مخيلة القارئ حرة غير مؤطرة : «أنا أفضّل أن يتخيل قارئ كتابي الشخصيات كما يحلو له . أن يرسم ملامحها مثلما يريد . أما عندما يشاهد الرواية على الشاشة فإن الشخصيات ستصبح ذات أشكال محددة هي أشكال الممثلين ، وهي ليست تلك الشخصيات التي يمكن أن يتخيلها المرء أثناء القراءة» .

وعن موقع وواقع الكاتب في المجتمع وتفاعله معه ، فإن ماركيز يحدده بدقة : «إذا كان الأدب نتاجاً اجتماعياً فإن العمل الأدبي هو نتاج فردي بل الأكثر فردية في العالم . الأديب كامل الوحدة في الإبداع . من هنا أميز بين الممارسات السياسية الجماعية والممارسة الأدبية الفردية البحتة» .

أجل فماركيز الرافض لجميع أشكال الممارسات القمعية لدكتاتوريات العالم ، ودكتاتوريات أميركا اللاتينية خاصة ، والذي نفى نفسه طوعياً خارج هياكل البطش والقمع ؛ إنه هو الذي لا تختلط الأمور عليه ، إذ يراها بكل سطوعها من منظار شخصه المالك لحريته ، فيقول معرفاً واجب الكاتب الثوري : «أعتقد أن واجب الكاتب الثوري أن يكتب جيداً . ذلك هو التزامه» .

أشهر أعمال غابرييل غارسيا ماركيز : مائة عام من العزلة ، ليس للكولونيل من يكاتبه ، خريف البطريرك ، قصة موت مُعلَن ، في ساعة نحس... الخ .

الى ميرثيدس ، طبعاً

قدماً تمضي هذه الأماكن :
إذ صار لها ربة متوجة

ليناندرو دياث

لا مناص : فرائحة اللوز المر كانت تذكره دوما بمصير الغراميات غير المواتية . ذلك ما ادركه الدكتور خوفينال اوربينو منذ دخوله البيت الذي مازال غارقا في الظلام ، إذ حضر على عجل للاهتمام بحالة لم تعد مستعجلة بالنسبة له منذ سنوات عديدة ، فاللاجئ الانتيلي جيرميادي سانت - آمور ، مشوه الحرب ومصور الأطفال ، واكثر خصومه رأفة في لعبة الشطرنج ، قد تخلص من عذابات الذكرى باستنشاقه ابخرة سيانور الذهب .

وجد الجثة مغطاة بشرشف فوق السرير الضيق ، حيث كان ينام عادة ، وبجواره كرسي صغير عليه الطست المستخدم في تبخير السم . وكان يقبع على الارض ، مقيداً بقائمة السرير ، جسد كلب دانمركي ضخم ، اسود اللون ، تغطي صدره بقع بلون الثلج ، والى جانبه العكازان . الحجرة الخانقة ذات الألوان المتنافرة ، التي كانت تستخدم كحجرة نوم ومخبر تصوير في الوقت ذاته ، اضيئت قليلا ببريق الفجر المنسل من النافذة المفتوحة ، لكنه كان ضوءاً كافيا للاعتراف الفوري بسلطة الموت فقط . كانت النوافذ الأخرى ، وكذلك جميع كوى الحجرة ، مسدودة بخرق قماشية أو مختومة بورق مقوى أسود اللون ، مما ضاعف من كثافة ضيقها . وكانت هناك طاولة تحتشد بزجاجات وقنانٍ بلا لصاقات ، وطستين من التوتياء مقشري الطلاء ،

تحت مصباح عادي مغلف بورق أحمر . أما الطست الثالث ، الخاص بالسائل المثبت ، فهو الموجود الى جانب الجثة ، كانت هنالك مجلات وصحف قديمة في كل الانحاء ، وأكداس من مسودات الصور الفوتوغرافية في أطر زجاجية ، وأثاث مخلع ، لكنه محفوظ كله من الغبار بقدرة يد نشيطة ، ومع أن هواء النافذة كان قد نقّى الجو ، إلا أنه بقي لمن هو قادر على التسيير قبس فاتر من الغراميات الكئيبة لحبات اللوز المرة ، كان الدكتور خوفينال أوربينو قد فكر أكثر من مرةٍ ، دون حماسة مسبقة ، بأن تلك الحجرة ليست بالمكان المناسب للموت في رحمة الله ، لكنه انتهى مع مرور الوقت الى الافتراض بأن فوضى المكان هذه ربما هي استجابة لالهام محدد من جانب العناية الالهية .

كان مفوض شرطة قد سبقه مع طالب طب شاب يتمرن للتخصص في الطب الشرعي في المستوصف البلدي ، وهما من قام بتهوية الحجرة وتغطية الجثة ريثما يأتي الدكتور اوربينو . كلاهما صافحه بمهابة فيها من المواساة هذه المرة اكثر مما فيها من التوقير ، فلا أحد يجهل درجة الصداقة التي كانت تربطه بجيرميا دي سانت ـ آمور . شد المعلم الشهير على يد كل منهما ، كما هي عادته دائما بمصافحة كل واحد من تلاميذه قبل بدء درسه اليومي في الطب العام ، ثم رفع طرف شرشف السرير برأس ابهامه وسبابته ، كما لو كان زهرة ، وكشف عن الجثة شبرا فشبرا برصانة قدسية . كان الميت عارياً تماماً ، متيبساً ومعوجاً ، عيناه مفتوحتان وجسده أزرق ، وبدا كأنه كبر خمسين عاماً عما كان عليه في الليلة الماضية ، كانت حدقتاه صافيتين ، وشعر رأسه وذقنه ضارب الى الاصفرار ، وعلى عرض بطنه أثر جرح قديم مندمل مخيط بغرز معقودة . وكانت لصدره وذراعيه ضخامة صدر وذراعي مجذف سفينة ، وذلك للجهد الذي عليه اداؤه باستخدام العكازين . أما ساقاه الخامدتان فبدتا كساقي يتيم . تأمله الدكتور خوفينال اوربينو

لحظة بقلب يعاني ألما قلما عانى مثله خلال سنوات حربه الطويلة العقيمة ضد الموت . وقال له :

ـ أيها الجبان . الأسوأ كان قد انقضى .

ثم أعاد تغطيته بالشرشف واستعاد وقاره الاكاديمي . كان قد احتفل في العام الماضي بعيد ميلاده الثمانين في احتفال رسمي دام ثلاثة ايام ، وفي كلمة الشكر التي ألقاها رفض مجدداً اغراء التقاعد بقوله : «سيكون لدي متسع للراحة عندما أموت ، وحتى هذا الاحتمال ليس ضمن مشاريعي في الوقت الراهن» . بالرغم من ان سمع أذنه اليسرى كان يضعف اكثر فأكثر ، ورغم انه كان يستند على عكاز ذي قبضة فضية ليخفي تعثر خطواته ، فقد تابع الظهور بالمظهر الذي كان عليه في سنوات شبابه ، ببدلة كاملة من الكتان مع صدرية تقطعها سلسلة ساعة ذهبية ، ولحية كلحية باستور ، ذات لون صدفي ، وشعر له اللون ذاته ، مصفف مع فرق متقن في الوسط ، وكانت هذه الأمور تعبيراً أمينا عن طبعه ، أما تآكل الذاكرة الذي كان يقلقه اكثر فأكثر ، فكان يعوضه قدر الامكان بكتابة ملاحظات سريعة على قصاصات متفرقة ، ما تلبث ان تختلط في كل جيوبه ، كما تختلط الادوات ، وزجاجات الدواء ، وأشياء أخرى كثيرة في حقيبته المتخمة . لم يكن أكبر الأطباء سناً وأشهرهم في المدينة حسب ، بل والرجل الاكثر تجملا فيها . ومع ذلك ، فان حكمته البينة وطريقته التي لا يمكن اعتبارها ساذجة في ادارة سلطة اسمه جعلت عدد أتباعه أقل مما يستحق .

كانت تعليماته للمفوض والطبيب المتمرن محددة وسريعة : يجب عدم اجراء التشريح . فرائحة البيت كافية لتقرر أن سبب الوفاة هو استنشاق السيانور المتفاعل في طست مع حامض من احماض التصوير ، ولقد كان جيرميا دي سانت ـ آمور يعرف هذه المواد جيدا ، بحيث لا يمكن أن يكون قد فعل ذلك سهوا . وأمام استفسار من المفوض ، أوقفه الدكتور بطعنة

تقليدية هي إحدى حركاته المعتادة : «لا تنس أني أنا من سيوقع على شهادة الوفاة» . اصابت خيبة الأمل الطبيب الشاب : فهو لم يحظ يوما بدراسة تأثيرات سيانور الذهب على جثة . وقد فوجئ الدكتور خوفينال اوربينو بأن الشاب لم ير ذلك في مدرسة الطب ، لكنه فهم الامر فورا بسبب خجل الشاب السريع ولهجته الانديزية... ربما هو حديث الوصول الى المدينة . فقال له : «لن تعدم هنا وجود مجنون في الحب يمنحك الفرصة في يوم من هذه الايام» ، وعندما انتهى من الحديث فقط ، ادرك أنه بين عدد لا حصر له من المنتحرين الذين يذكرهم ، كان ذاك هو أول منتحر بالسيانور ليست تعاسة الحب هي السبب في انتحاره ، عندها طرأ تبدل ما على نبرة صوته المعتادة .

قال للمتمرن :

ـ عندما تجده ، دققْ جيداً . إذ يوجد رمل في قلوبهم عادة .

ثم تحدث الى المفوض كما لو كان يتحدث الى أحد مرؤوسيه . أمره بتجنب أية التماسات كي يتم الدفن في مساء ذلك اليوم بالذات ، وبأقصى درجات التكتم . قال : «انا سأكلم العمدة فيما بعد» . كان يعلم ان جيرميا دي سانت ـ آمور قد عاش حياة تقشف بدائي ، وانه كان يكسب بفنه أكثر مما يلزمه للعيش بكثير ، مما يستوجب وجود مال يزيد عن تكاليف الدفن في أحد الأدراج .

ـ إذا لم تجدوا المال فلا تهتموا . سأتولى أنا تكاليف الدفن .

وأمر باعلام الصحف ان المصور قد توفي وفاة طبيعية ، رغم انه فكر بأن الخبر لن يهمهم بأي حال . فقال : « اذا اقتضى الأمر ، فسأكلم الحاكم» . المفوض ، الذي كان موظفاً جدياً وذليلاً ، كان يعرف أن صرامة الأستاذ المتمدن تثير حفيظة أقرب أصدقائه اليه ، وكان مشدوها للسهولة التي يقفز بها فوق الاجراءات القانونية للاسراع في الدفن ، والشيء الوحيد الذي لم يقتحمه هو مسألة التحدث الى الأسقف ليسمح بدفن جيرميا دي

سانت ـ آمور في مقبرة المؤمنين . وحاول المفوض ، المستاء من سفاهة ذاته ، ان يعتذر ، فقال :

ـ ما أعرفه هو أن هذا الرجل كان قديساً .

وقال الدكتور اوربينو :

ـ بل هو شيء أشد غرابة : انه قديس ملحد . لكن هذا من شؤون الرب .

بعيدا ، في الجانبِ الآخر من المدينة الاستعمارية ، سمعت نواقيس الكتدرائية تدعو الى القداس الكبير . فوضع الدكتور اوربينو نظارته ذات القوس والاطار الذهبي على عينيه ، ونظر الى ساعة السلسلة ، المربعة الرقيقة ، التي يفتح غطاؤها بنابض ، انه يوشك ان يتخلف عن موعد صلاة العنصرة .

كانت في الصالة آلة تصوير ضخمة على عجلات كتلك التي في الحدائق العامة ، وستارة عليها رسم يمثل منظر شفق بحري ، وكانت الجدران مغطاة بصور أطفال عليها تواريخ تذكارية : ذكرى المناولة الأولى ، التنكر بقناع ارنب ، عيد الميلاد السعيد ، لقد رأى الدكتور اوربينو هذه الجدران وهي تتغطى تدريجيا ، سنة بعد أخرى ، أثناء تأمله المتروي في أمسيات الشطرنج ، وكان قد فكر في أحيان كثيرة ، مع اختلاجة كآبة ، بأن في معرض صور المصادفة هذا توجد نواة مدينة المستقبل ، التي ستساس وتفسد على يد هؤلاء الاطفال المجهولين ، والتي لن يبقى فيها حتى رماد مجده .

على طاولة العمل ، الى جانب علبة فيها عدة غلايين محفور عليها رسوم ذئاب بحر ، كانت رقعة الشطرنج وعليها دور غير مكتمل . ورغم تعجله واكتئابه ، لم يستطيع الدكتور اوربينو مقاومة اغراء دراستها . كان يعلم انها لعبة الليلة الماضية ، فقد كان جيرميا دي سانت ـ آمور يلعب مساء كل يوم من ايام الأسبوع ، ومع ثلاثة خصوم مختلفين على الأقل ، لكنه كان يصل دائما الى نهاية اللعب ثم يضع الرقعة مع الاحجار في علبتها ، ويضع العلبة في

أحد ادراج المكتب . وكان يلعب بالاحجار البيضاء دوما ، ولم يكن هنالك من شك في انه كان سيخسر تلك اللعبة بعد أربع حركات أخرى دون مفر . وقال لنفسه : «لو كان ثمة جريمة ، لكان هذا دليلا جيدا . فأنا لا أعرف سوى شخص واحد قادر على نصب مثل هذا الكمين المتقن» . ما كان بمقدوره العيش دون أن يبحث فيما بعد عن السبب الذي جعل ذلك الجندي الجامح ، المعتاد على الصراع حتى آخر قطرة دم ، يتخلى عن المعركة الاخيرة في حياته دون حسمها .

في الساعة السادسة صباحا ، وفيما الحارس الليلي يقوم بجولته الأخيرة ، رأى الورقة المثبتة على الباب الخارجي : **ادخل دون طرق الباب واتصل بالشرطة** . بعد ذلك بقليل هرع مفوض الشرطة مع طالب الطب المتمرن ، وقاما كلاهما بتفتيش البيت بحثا عن دليل ضد رائحة اللوز المر التي لا يمكن اخفاؤها . وأثناء الدقائق القليلة التي استغرقتها دراسة دور الشطرنج غير المنتهي ، اكتشف المفوض بين الأوراق التي على المكتب مغلفا موجها الى الدكتور خوفينال اوربينو ، مختوما بعدة أختام من الشمع الأحمر ، مما جعل تمزيقه ضروريا لإخراج الرسالة منه . أزاح الطبيب الستارة السوداء عن النافذة ليحصل على انارة أفضل ، ثم ألقى أول الأمر نظرة سريعة على الاحدى عشرة ورقة المكتوبة بخط أنيق على الوجهين ، ومذ قرأ الفقرة الأولى أدرك أنه قد تخلف عن صلاة العنصرة . قرأ بنفس مضطرب ، عائدا الى ما قرأه في عدة صفحات ليمسك مجددا بالخيط المفقود ، وعندما انتهى ، بدا وكأنه يرجع من مكان قصي وزمان سحيق . كان همودة باديا ، رغم اجتهاده للحيلولة دون ذلك : كانت شفتاه بلون الجثة الازرق ذاته ، ولم يستطع السيطرة على ارتجاف اصابعه عندما اعاد طي الرسالة واودعها جيب صدريته . عندئذ تذكر وجود مفوض الشرطة والطبيب الشاب ، فابتسم لهما من خلال غلالة الأسى وقال :

ـ لا شيء يستحق الذكر . انها تعليماته الأخيرة .

كان هذا نصف الحقيقة ، لكنهما اعتقدا انها الحقيقة الكاملة ، لأنه أمرهما بانتزاع بلاطة مخلخلة في الأرضية ، حيث وجدا دفتر حسابات مستعملا كثيرا ، وفيه كانت رموز فتح صندوق الخزنة ، لم تكن هناك نقود كثيرة كما توهموا ، لكن ما وجدوه كان يزيد عن تكاليف الدفن وتسديد التزامات أخرى ضئيلة الشأن . كان الدكتور اوربينو مدركا حينئذ أنه لن يتمكن من الوصول الى الكتدرائية قبل القداس . فقال :

ـ انها المرة الثالثة التي أتخلف فيها عن قداس الأحد ، مذ بلغت سن الرشد . لكن الله يتفهم .

وهكذا فضل البقاء بضع دقائق أخرى ليحل جميع التفاصيل ، رغم أنه لم يكن قادرا على احتمال لهفته لاطلاع زوجته على مضمون الرسالة . وعد بأن يخبر لاجئي الكاريبي الكثيرين الذين يعيشون في المدينة ، كي يحضروا ان كانوا يودون تقديم تكريمهم الأخير للاجئ الذي كان الاكثر احتراما في سلوكه ، والاكثر فعالية وجدية ، حتى بعد ان تبين بجلاء سقوطه في أحابيل خيبة الأمل . وسيخبر ايضا زملاءه لاعبي الشطرنج ، الذين كانوا يتفاوتون من مهنيين مشهورين وحتى عمال بلا اسم ، اضافة الى أصدقاء آخرين أقل مواظبة ، لكنهم ربما يودون حضور الجنازة . قبل أن يعرف بأمر رسالة الموت ، كان قد قرر أن يكون أول الحاضرين ، لكنه بعد قراءتها لم يعد متأكدا من شيء . انما سيبعث على أية حال اكليل ياسمين ، فربما يكون جيرميا دي سانت ـ آمور قد عانى لحظة أخيرة من الندم . سيتم الدفن في الخامسة ، فهي الساعة المناسبة في شهور الحر الشديد . واذا ما احتاجوه لشيء فسيجدونه منذ الساعة الثانية عشرة في البيت الريفي الخاص بالدكتور لاثيديس اوليفيا ، تلميذه النجيب ، الذي سيقيم في ذلك اليوم وليمة غداء احتفالا بيوبيله الفضي في المهنة .

كان للدكتور خوفينال اربينو نمط بسيط من العادات يتبعها منذ انقضت سنوات السلاح المضطربة الأولى ، واحرز لنفسه مكانة وسمعة لا مثيل لهما في كل المقاطعة . كان يستيقظ مع الديوك الأولى ، ويبدأ في هذه الساعة بتناول أدويته السرية : برمور البوتاسيوم لبعث النشاط ، وملح السليسين لآلام العظام في ايام المطر ، وطحالب السلت للاغماء ، وحشيشة البلادونا للنوم الهادئ . كان يتناول شيئا في كل ساعة ، ودائما في الخفاء ، لأنه في حياته الطويلة كطبيب واستاذ كان دوما ضد اعطاء الوصفات المخففة لآلام الشيخوخة : كان احتمال آلام الآخرين أسهل عليه من احتمال آلامه . وكان يحمل في جيبه دائما وسادة مشبعة بالكافور يستنشقها بعمق حين لا يكون ثمة من يراه ، لينتزع عن نفسه الخوف من كل هذه الأدوية المختلطة .

كان يبقى في مكتبه مدة ساعة ، لتحضير درس الطب العام الذي واظب على القائه في مدرسة الطب كل يوم من ايام الأسبوع ، من الاثنين الى السبت ، في الساعة الثامنة تماما ، حتى اليوم الذي سبق موته . كما كان قارئا مطلعا على المستجدات الأدبية التي يزوده بها بالبريد المكتبي الذي يتعامل معه في باريس ، أو تلك التي يوصي له عليها من برشلونة وكيله المكتبي المحلي ، رغم أنه لم يكن يتابع آداب اللغة الاسبانية بالاهتمام نفسه الذي يتابع به الأدب الفرنسي ، ولم يكن على أية حال يقرأ تلك الكتب ابدا في الصباح ، وانما لساعة بعد القيلولة ، وفي الليل قبل أن ينام . أما بعد الانتهاء من تحضير الدرس في المكتب ، فكان يمارس تمرينات التنفس لمدة ربع ساعة في الحمام ، مقابل النافذة المفتوحة ، متنفسا دوما باتجاه الجهة التي تصدح منها الديكة ، حيث الهواء النقي هناك . بعد ذلك يستحم ، ويشذب لحيته ويصمغ شاربه بمستحضر مشبع بكولونيا فارينا غيغينبر الأصلية ، ثم يلبس بدلة الكتان البيضاء مع صدرية وقبعة لينة ، وحذاء من جلد الماعز . انه يحتفظ وهو في الثمانين من العمر بالتقاليد البسيطة والروح

الاحتفالية التي رجع بها من باريس ، بعد جائحة داء الكوليرا الكبرى بقليل . ومازال شعره المسرّح جيدا مع فرق في الوسط كما كان في شبابه ، لولا اللون المعدني الذي طرأ عليه . كان يتناول فطوره مع العائلة عادة ، لكنه يتبع ريجيما خاصا : يتناول شراب زهر الافسنتين ، لراحة المعدة ، ورأس ثوم يقوم بتقشير فصوصه واحدا واحدا ويمضغها بتمهل مع قطعة خبز ، وذلك لتفادي احتشاءات القلب ، ونادرا ما يكون متحررا بعد درسه اليومي من التزام مرتبط بمبادراته التمدنية ، أو التزامه الكاثوليكي ، أو بابتكاراته الفنية والاجتماعية .

كان يتناول الغداء في بيته دوما ، ثم ينام قيلولة من عشر دقائق وهو جالس على منصة الفناء . مستمعا في نومه الى أغنيات الخادمات تحت أشجار المانغا ، ومصغيا الى نداءات الباعة في الشارع ، وصخب المحركات في الميناء الذي تفوح روائحه مرفرفة في جو البيت في الأمسيات الحارة كأنها ملاك محكوم بالتعفن . ثم يقرأ بعد ذلك مدة ساعة في الكتب الجديدة ، وخصوصا الروايات والدراسات التاريخية ، وبعد ذلك يلقن دروس اللغة الفرنسية والغناء للببغاء الداجنة التي صارت منذ سنوات محطا للاعجاب المحلي . وفي الساعة الرابعة يخرج لعيادة مرضاه ، بعد أن يتناول ابريقا كبيرا من الليموناده مع الثلج . ورغم تقدمه في السن ، كان يرفض استقبال مرضاه في العيادة ، ويصر على مواصلة علاجهم في بيوتهم ، كما فعل ذلك دائما ، مذ كانت المدينة محدودة يمكن الذهاب الى أي مكان فيها مشيا على الأقدام .

عندما جاء من أوروبا لأول مرة ، كان يستخدم عربة الخيول الخاصة بالعائلة ، والتي يقودها حصانان أشقران ذهبيان ، وحين لم تعد هذه العربة صالحة للاستعمال ، استبدلها بعربة من نوع فكتوريا يقودها حصان واحد ، واستمر في استخدامها على الدوام مع ابداء بعض الازدراء للموضة ، عندما

أخذت العربات بالاختفاء من الدنيا ، والعربات الوحيدة التي بقيت في المدينة كانت تستخدم لنزهة السياح ولحمل الاكاليل في الجنازات فقط .
ومع انه كان يرفض الاعتزال ، فقد كان مدركا انهم لا يستدعونه الا لمعالجة حالات ميؤوس منها ، لكنه كان يرى في ذلك ايضا نوعا من التخصص ، كان قادرا على معرفة ما يعانيه المريض من مظهره فقط ، وكان يفقد ثقته اكثر فأكثر في الأدوية المرخصة وينظر بذعر الى تعميم الجراحة ، ويقول : «ان المبضع هو أكبر دليل على فشل الطب» . وكان يفكر ان كل دواء اذا ما رأيناه بمقياس دقيق هو سم ، وان سبعين بالمئة من الأطعمة العادية تعجل في الموت . وقد اعتاد ان يقول في درسه : «الأدوية القليلة المعروفة على أي حال ، لا يعرفها الا بعض الأطباء» . وانتقل من حماسة الشباب الى موقع كان هو نفسه يعرفه على أنه موقع انساني جبري : «كل امرئ هو سيد موته ، والشيء الوحيد الذي بالإمكان عمله عندما تحين الساعة هو مساعدته على الموت دون خوف أو ألم» . وبرغم هذه الأفكار المتطرفة ، والتي كانت تشكل جزءا من الفلكلور الطبي المحلي ، فان تلاميذه القدماء مازالوا يستشيرونه حتى بعد أن أصبحوا أطباء راسخين في المهنة ، اذ كانوا يعترفون له بتلك التي كانت تسمى حينئذ النظرة الطبية ، ولقد كان دوم' طبيبا غاليا استثنائيا ، وكان زبائنه يسكنون البيوت الفاخرة في حي الفيريس .

كان يقوم بجولة منهجية منتظمة لدرجة أن زوجته كانت تعرف الى أين تبعث في طلبه اذا ما طرأ شيء مستعجل خلال جولته المسائية . وفي شبابه كان يتأخر في مقهى الباروكية قبل ان يرجع الى البيت ، وهكذا اتقن لعب الشطرنج مع شركاء حميه ومع بعض لاجئي الكاريبي ، لكنه منذ مطلع القرن لم يعد الى مقهى الباروكية وحاول تنظيم دوري وطني في الشطرنج تحت رعاية النادي الاجتماعي ، وكان في هذه الفترة ان جاء جيرميا دي سانت ـ

آمور ، بركبتيه الميتتين وبلا مهنة تصوير الاطفال في ذلك الحين ، وقبل انقضاء ثلاثة أشهر كان معروفا لكل من يحسن تحريك فيل على رقعة شطرنج ، لأن أحدا لم يتمكن من كسب جولة منه . لقد كان بالنسبة للدكتور خوفينال اوربينو لقاء معجزة ، في وقت أصبحت لعبة الشطرنج لديه هوى لا حدود له ولم يعد هناك خصوم كثيرون يشبعون رغبته في اللعب .

وبفضله ، أمكن لجيرميا دي سانت ـ آمور أن يصبح ما آل اليه بيننا . لقد أصبح الدكتور اوربينو حاميه اللامشروط ، وكفيله في كل شيء ، حتى دون ان يتكلف مشقة التقصي عمن هو ، أو عما يفعله ، أو من أية حرب بلا أمجاد جاء بتلك الحالة من العجز والعطل . ثم اقرضه أخيرا المال لاقامة محل التصوير ، هذا المال الذي سدده جيرميا دي سانت ـ آمور بصرامة حبال ، حتى آخر كواريتو ، مذ صور أول طفل مرتعد من بريق المغنيزيوم .

كل ذلك كان بسبب الشطرنج . كانا يلعبان أول الأمر في الساعة السابعة ليلا ، بعد العشاء وكان في ذلك منفعة أكيدة للطبيب بفعل التفوق البارز للخصم ؛ ولكن المنفعة أخذت تتناقص في كل مرة ، الى أن تساويا . وفيما بعد ، حين افتتح دون غاليليو داكونتي أول فناء سينما ، وأصبح جيرميا دي سانت ـ آمور واحدا من الزبائن المداومين ، اقتصر لعب الشطرنج على الليالي التي لا تعرض فيها أفلام جديدة . وكان قد أصبح صديقا حميما للطبيب في ذلك الحين ، فكان هذا يرافقه الى السينما ، انما بدون زوجته دوما ، ذلك انها لا تطيق متابعة خيط القصص المعقدة من جهة ، ولأن جيرميا دي سانت ـ آمور بدا لها من جهة أخرى ، وبحاسة الشم وحدها ، انه ليس بالرفيق الصالح لأحد .

يومه المختلف كان يوم الأحد . ففيه يذهب لحضور القداس الكبير في الكتدرائية ، ثم يعود الى البيت ويلبث هناك للراحة والقراءة على مصطبة الفناء . ونادرا ما كان يخرج لعيادة مريض في أيام اعتكافه ، ما لم تكن

الحاجة ماسة الى ذلك ، ولم يعد يقبل منذ عدة سنوات أي التزام اجتماعي الا إذا كان اضطراريا . في يوم العنصرة ذاك ، وبمصادفة استثنائية ، وقعت حادثتان غريبتان : وفاة صديق والاحتفال باليوبيل الفضي لتلميذ بارز . ومع ذلك ، فانه بدلا من العودة الى البيت دون تأخر ، كما كان مقررا بعد أن ثبتت وفاة جيرميا دي سانت ـ آمور ، ترك لنفسه ان تنقاد وراء الفضول .

ما ان صعد الى العربة حتى قام بمراجعة سريعة لرسالة الميت ، ثم أمر الحوذي بايصاله الى عنوان صعب في حي العبيد القديم . لقد كان ذلك القرار غريبا على عاداته ، مما جعل الحوذي يرغب بالتأكد من أنه لا يوجد ثمة خطأ . لم يكن هنالك من خطأ : العنوان كان واضحا ، ومن كتبه لديه أسباب كافية لمعرفته جيدا . عندئذ عاد الدكتور اوربينو الى الصفحة الأولى ، وغرق ثانية في ذلك المورد من الاعترافات غير المرغوب فيها والتي بامكانها تغيير مجرى حياته ، حتى وهو في هذه السن ، اذا ما استطاع اقناع نفسه بأنها ليست هذيان شخص يائس .

اخذ مزاج السماء يتبدل منذ الصباح الباكر ، كان مغيما وباردا ، انما لم تكن هناك مخاطر من هطول مطر قبل منتصف النهار . وفي محاولة لايجاد طريق اقصر ، دخل الحوذي في أزقة المدينة الاستعمارية المرصوفة بالحجارة ، واضطر للتوقف مرات عديدة كي لا يجفل الحصان من اكاليل مصنوعة من أوراق ملونة ، وموسيقى وازهار ، وفتيات يحملن مظلات ملونة ويلبسن كشاكش الموسلين ويتأملن مرور الاحتفال من الشرفات . وفي ساحة الكتدرائية ، حيث لم يكن ممكنا تمييز تمثال بطل التحرير بين أشجار النخيل الافريقية وأعمدة النور الجديدة ذات المصابيح الا بصعوبة ، كان ازدحام السيارات على أشده بسبب الخروج من الصلاة ، ولم يكن هناك موطئ قدم في مقهى الباروكية المحتشم والصاخب . كانت عربة الدكتور اوربينو هي عربة الخيول الوحيدة وكانت تتميز عن العربات الأخرى القليلة

المتبقية في المدينة باحتفاظها الدائم ببريق غطائها الجلدي ، وبأجزائها المعدنية المصنوعة من البرونز حتى لا يجعلها ملح البارود تتآكل ، وكانت عجلاتها ودعائمها الخشبية مطلية باللون الأحمر مع خطوط ذهبية ، كما هي العربات في ليالي الحفلات في اوبرا فينا . اضف الى ذلك ان أكثر العائلات حبا للمظاهر كانت تكتفي بأن يكون قميص الحوذي في عرباتها نظيفا ، بينما تابع هو مطالبة حوذي عربته بارتداء بدلة الحوذي المخملية الذاوية وقبعة مروضي السيرك ، التي فضلا عن كونها زيا قديما مهجورا ، كانت تنم عن تقليد غاشم في قيظ منطقة الكاريبي .

وبالرغم من هوسه الجنوني بالمدينة ، ومعرفته بها خيرا من سواه ، فقليلا ما وجد الدكتور اوربينو سببا كسبب يوم الأحد ذاك للمغامرة دون تحفظ في فوضى حي العبيد . وقد اضطر الحوذي للقيام بالتفافات عديدة والسؤال مرات للوصول الى العنوان المقصود . لقد تعرف الدكتور اوربينو عن قرب على كآبة المستنقعات ، وصمتها الممل ، وفسواتها التي كريح الغرين ، والتي كانت تصعد في فجر أيام كثيرة حتى مخدعه مختلطة برائحة ياسمين الفناء ، وكان يحس بها تمر كما لو انها ريح اليوم الفائت وليس لها أي شأن في حياته . لكن تلك العفونة التي احتفظ منها بتصور مثالي بفعل الحنين تحولت الى واقع لا يطاق ما ان بدأت العربة تتقافز في وحل الشوارع . حيث تتنازع طيور الرخمة بقايا المسلخ التي يدفعها البحر الى مدخل الميناء . وعلى العكس من مدينة الفيريس ، المبنية بيوتها من الحجر ، كانت البيوت هنا مشادة من أخشاب كالحة وسقوف من التوتياء ومعظمها يستقر فوق دعائم خشبية للحيلولة دون تسرب مجاري التصريف المتعاظمة والمكشوفة ، الموروثة عن الاسبان . كل شيء كان يبدو بائسا ومهجورا ، لكن قصف موسيقى جوقة عنصرة الفقراء كان يخرج من الحانات القذرة بلا رب ولا قانون . وعندما وجدا العنوان اخيرا ، كانت تلحق بالعربة عصبة أطفال عراة

يسخرون من زينة الحوذي المسرحية ، وكان على هذا أن يفزعهم بالسوط ليبتعدوا . أما الدكتور اوربين . الذي هيأ نفسه لزيارة سرية ، فقد أدرك بعد فوات الأوان انه لا سذاجة أشد خطورة من السذاجة في سنه .

لم يكن في مظهر البيت الخارجي ما يميزه عن البيوت الأقل حظا ، سوى النافذة ذات الستارة المخرمة وبوابة منتزعة من كنيسة قديمة . طرق الحوذي مقرعة الباب ، وعندما تأكد من صحة العنوان ، ساعد الطبيب على النزول من العربة . كانت البوابة قد فتحت دون ضجة ، وفي العتمة الداخلية كانت تقف امرأة ناضجة ، متشحة بالسواد المطلق وتضع وردة على أذنها . ورغم سنوات عمرها ، التي لم تكن أقل من الأربعين ، فانها مازالت تبدو خلاسية شامخة ، ذات عينين ذهبيتين قاسيتين ، وشعر مثبت على شكل الرأس وكأنه خوذة من القطن الحديدي . لم يعرفها الدكتور اوربينو ، رغم انه قد رآها عدة مرات في شرود ادوار الشطرنج في محل المصور ، وقد وصف لها في احدى المناسبات اوراق الكينا من أجل الحمى الثلاثية ، مد يده اليها ، فتناولتها بين يديها ، ليس لمصافحته وانما لمساعدته على الدخول . كانت الصالة تعبق برائحة وهسيس ايكة غير مرئية ، كانت مليئة باثاث وأشياء موزعة باتقان ، كل شيء في مكانه الطبيعي . فتذكر الدكتور اوربينو دون مرارة دكان بائع عاديات في باريس ، في يوم اثنين خريفي من أيام القرن الماضي ، في ٢٦ شارع مونتمارت .

جلست المرأة مقابله وحدثته باسبانية ركيكة قائلة :

ـ اعتبر نفسك في بيتك يا دكتور . لم أكن أنتظرك بمثل هذه السرعة .

أحس الدكتور اوربينو بأنه مكشوف . دقق فيها بقلبه ، دقق في حدادها الكثيف ، في وقار كآبتها ، وفهم عندئذ أن زيارته تلك بلا فائدة ، لانها كانت تعرف أكثر منه بكل ما هو وارد ومبرر في رسالة جيرميا دي سانت ـ آمور . وهكذا كان . لقد رافقته حتى ساعات قليلة قبيل موته ، كما

رافقته خلال ما يقرب من عشرين سنة بولاء ورقة منقادة اليه بما يشبه الحب ، ودون أن يعرف ذلك أحد في عاصمة الاقليم الناعسة هذه ، حيث أسرار الدولة ذاتها كانت مشاعة . لقد تعارفا في مشفى للعابرين في بورت ـ او ـ برنس ، حيث ولدت هي ، وحيث أمضى هو سنواته الأولى كهارب ، ثم لحقت به الى هنا بعد سنة في زيارة قصيرة ، مع انهما كلاهما كانا يعلمان دون اتفاق مسبق بأنها جاءت لتبقى الى الأبد ، كانت تتولى تنظيف وترتيب مخبر التصوير مرة في الأسبوع ، لكن أسوأ الجيران تفكيرا ما كانوا يخلطون الظاهر بالحقيقة ، لأنهم كانوا يفترضون مثل كل الناس ان عاهة جيرميا دي سانت ـ آمور ليست في المشي فقط . وحتى الدكتور اوربينو ذاته كان يفترض ذلك لأسباب طبية راسخة تماما ، ولم يظن يوما أن تكون له امرأة لو لم يكشف له ذلك في الرسالة . غير أنه لم يستطع أن يفهم كيف أن كائنين راشدين وحرين وبلا ماض ، على هامش اهتمامات مجتمع غارق في شؤونه ، قد اختارا نكبة الحب المحرم . وشرحت له ذلك : «كانت تلك هي رغبته» . ثم ان تقاسمها السرية مع رجل لم يكن رجلها تماما في يوم من الأيام ، وتعرفهما أثناء ذلك على انفجارات السعادة الفورية أكثر من مرة ، لم يكن ليبدو لها بالوضع غير المرغوب فيه ، بل على العكس : ربما أثبتت الحياة بأن تلك هي الطريقة النموذجية .

لقد ذهبا الليلة الماضية الى السينما ، كل منهما بمفرده ، وجلسا في مقعدين منفصلين ، كما يفعلان مرتين في الشهر على الأقل مذ أقام المهاجر الايطالي دون غاليليو داكونتي صالة السينما المكشوفة في اطلال دير من القرن السابع عشر . ورأيا فلما مأخوذا عن كتاب كان رائجا في العام الفائت ، وكان الدكتور اوربينو قد قرأه بقلب مكروب لبربرية الحرب : لا جديد في الجبهة . ثم اجتمعا بعد ذلك في المخبر ، وهناك وجدت أنه يقاسي التشتت والحنين ، وفكرت ان ذلك بتأثير المشاهد القاسية للجرحى

المحتضرين في الوحل . فحاولت تسليته بدعوته الى لعب الشطرنج ، وقد وافق ليرضيها ، لكنه كان يلعب دون تركيز ، بالقطع البيضاء طبعا ، الى أن اكتشف قبلها انه سيهزم بعد أربع حركات أخرى ، فاستسلم بلا كبرياء . حينئذ ادرك الطبيب أن خصم اللعبة الأخيرة كان هذه المرأة وليس الجنرال خيرونيمو ارغوتي ، كما افترض . فتمتم مدهوشا :

ـ انها لعبة متقنة! .

فأصرت بأن لا فضل لها في ذلك ، وان جيرميا دي سانت ـ آمور الهائم في ضباب الموت ، كان يحرك الأحجار دون حب ، وعندما أوقف اللعب ، في حوالي الساعة الحادية عشرة والربع ، كانت موسيقى حفلات الرقص العامة قد توقفت ، فطلب منها أن تتركه وحيدا . كان يريد كتابة رسالة الى الدكتور اوربينو ، الذي يعتبره أكثر الرجال الذين عرفهم وقارا ، اضافة الى كونه صديق الروح ، كما كان يحب أن يقول ، رغم أن التشابه الوحيد بينهما هو ادمانهما لعبة الشطرنج على أنها حوار للعقل وليست علما . عندئذ عرفت أن جيرميا دي سانت ـ آمور قد وصل الى نهاية الاحتضار ، وأنه لم يبق له في الحياة الا ما يكفي لكتابة الرسالة . لم يستطع الطبيب تصديقها ، فهتف :

ـ كنت تعلمين اذن! .

فأكدت بأنها لم تكن تعلم فقط ، وانما ساعدته أيضا على تجاوز الاحتضار بنفس الحب الذي ساعدته به على اكتشاف السعادة . لأن الشهور الأحد عشر الأخيرة في حياته كانت احتضارا قاسيا .

قال الطبيب :

ـ كان واجبك أن تبلغي عنه .

فقالت مستنكرة :

ـ أنا لا أستطيع فعل ذلك... كنت أحبه كثيرا .

الدكتور اوربينو ، الذي كان يعتقد بانه سمع بكل شيء في الدنيا ، لم يسمع قط في حياته شيئا من هذا القبيل ، يجري الاعلان عنه بكل هذه البساطة ، نظر اليها بحواسه الخمس وجها لوجه ليثبتها في ذاكرته كما هي في تلك اللحظة : كانت تبدو وكأنها إله طاف ، متماسكة في ثوبها الاسود ، بعينيها اللتين كعيني أفعى والوردة التي على أذنها . منذ سنوات بعيدة ، وعلى شاطئ متوحد من شواطئ هايتي ، حيث كانا يرقدان عاريين بعد الحب ، قال لها جيرميا دي سانت ـ آمور وهو يتنهد فجأة : « لن أصير كهلا أبدا » . وقد فهمت هي ذلك على أنه نية بطولية للنضال دون هوادة ضد نكبات الزمن ، لكنه أوضح قصده أكثر : كان لديه تصميم حاسم على وضع حد لحياته في السبعين .

لقد أتمها في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني للعام الحالي ، فحدد حينئذ عشية عيد العنصرة كموعد أخير ، لأنه أعظم اعياد المدينة المكرسة لعبادة الروح القدس . لم يكن هناك تفصيل من تفاصيل الليلة الماضية لم تكن قد عرفته مسبقا ، فكثيرا ما كانا يتحدثان في ذلك ، مكابدين معا سيل الأيام الجارف الذي لن يستطيع أي منهما ايقافه . كان جيرميا دي سانت ـ آمور يحب الحياة بعاطفة مبهمة ، كان يحب البحر والحب ، يحب كلبه ويحبها ، وكلما اقترب اليوم الموعود كان يهوي أكثر فأكثر في اليأس ، كما لو أن موته لم يكن قرارا ذاتيا وانما قدرا حتميا .

قالت :

ـ عندما تركته وحيدا في الليل ، لم يكن من أهل الدنيا .

كانت تريد أخذ الكلب معها ، لكنه تأمله وهو يغفو بجانب العكازين وداعبه بأطراف أصابعه ، وقال : « آسف ، لكن ترودرو ويلسون سيمضي معي » . طلب منها ان تربطه بقائمة السرير فيما هو يكتب ، وفعلت ذلك بعقدة زائفة ليتمكن الكلب من الافلات ، وكان هذا هو العمل الوحيد الذي

قامت به دون اخلاص ، وقد بررته برغبتها في الاستمرار بتذكر السيد من خلال عيني كلبه الشتويتين . لكن الدكتور اوربينو قاطعها ليخبرها بأن الكلب لم يفلت . فقالت : «ذلك لأنه لم يشأ الافلات اذن» . وفرحت ، لأنها تفضل أن تتذكر الحبيب الميت كما طلب منها في الليلة السابقة ، عندما قطع كتابة الرسالة التي كان قد بدأها ونظر اليها للمرة الأخيرة ، وقال :

ـ تذكريني بوردة .

كانت قد وصلت الى بيتها بعد منتصف الليل بقليل . استلقت لتدخن في السرير وهي بملابسها ، وأخذت تشعل سيجارة من عقب الأخرى متيحة له الوقت ليكمل الرسالة التي كانت تعلم أنها طويلة وشاقة ، وقبيل الثالثة بقليل ، عندما بدأت الكلاب تنبح ، وضعت الماء على النار لتصنع القهوة ، وارتدت ملابس الحداد السوداء وقطفت من الفناء أول وردة من وردات الفجر ، لقد تنبه الدكتور اوربينو قبل أن يقرر هجر ذكرى تلك المرأة التي لا تفتدى ، وظن انه يعرف السبب : بامكان انسان بلا مبادئ فقط أن يتجاوب الى هذا الحد مع الألم .

تابعت تقديم حججها له حتى نهاية الزيارة : لن تذهب الى الجنازة ، لأنها وعدت الحبيب بذلك ، رغم أن الدكتور اوربينو اعتقد انه فهم عكس هذا في احدى فقرات الرسالة . ولن تسفح دمعة واحدة ، ولن تهدر ما تبقى لها من سني الحياة بطبخ نفسها على نار هادئة في مرق الذكرى ، ولن تدفن نفسها في الحياة لتجهز كفنها بين هذه الجدران الأربعة كما هي العادة المفضلة للنساء الوطنيات . كانت تفكر ببيع بيت جيرميا دي سانت ـ آمور ، الذي أصبح بكل محتوياته ملكا لها منذ الآن كما هو وارد في الرسالة ، ستتابع العيش كما عاشت دائما دون أن تشكو شيئا في مماتة الفقراء هذه التي عاشت فيها سعيدة .

لاحقت تلك العبارة الدكتور خوفينال اوربينو وهو في طريق العودة الى بيته : «مماتة الفقراء هذه» . انه ليس بالتعبير المجاني . فالمدينة ، مدينته ، مازالت على هامش الزمن كما كانت : إنها المدينة الملتهبة القاحلة نفسها بمخاوفها الليلية وملذات البلوغ المتوحدة ، حيث تصدأ الأزهار ويفسد الملح . المدينة التي لم يصبها شيء خلال أربعة قرون سوى الهرم البطيء ما بين شجيرات الغار الذابلة والمستنقعات المتعفنة . في الشتاء ، أمطار فجائية ومخربة تجعل المراحيض تفيض وتحول الشوارع الى برك وحل نتنة . وفي الصيف ، غبار لا مرئي ، خشن كطباشير حمراء متقدة ، يتسرب حتى من أكثر فجوات الخيال احكاما ، هائجا برياح مجنونة تنتزع سقوف البيوت وتحمل الاطفال في الهواء . وفي أيام السبت ، تغادر جماعات المولدين الفقراء بصخب اكواخ الكرتون والصفيح القائمة على ضفاف المستنقعات ، مع حيواناتهم الداجنة وامتعة أكلهم وشربهم الرخيصة ، ويحتلون بهجوم مرح الشواطئ الحصوية في القطاع الاستعماري . وقد كان بعضهم ، بين اكبرهم سنا ، يحملون حتى سنوات قليلة وسم العبيد الملكي ، مطبوعا بالحديد المحمى على الصدر . وكانوا يرقصون في نهاية الأسبوع بلا رحمة ، ويسكرون حتى الموت بكحول مقطر في البيوت ، ويمارسون الحب الحر بين خمائل الايكاكو ، وفي منتصف ليل الأحد يخربون مهرجانهم بمشاجرات دامية يخوضونها جميعهم ضد جميعهم . انهم الناس المندفعون أنفسهم الذين يتسربون في بقية أيام الأسبوع الى ساحات وأزقة الأحياء القديمة ، بعربات محملة بكل ما يمكن شراؤه وبيعه ، ويبثون في المدينة الميتة جنون مهرجان بشري له رائحة السمك المقلي : حياة جديدة .

ان الاستقلال عن السيطرة الاسبانية ، ثم الغاء الرق بعد ذلك ، قد عجلا بحالة الانحطاط المشرف التي ولد وترعرع فيها الدكتور اوربينو . حيث كانت عائلات الزمن الغابر العظيمة تغرق بصمت في قصورها المجردة من

الأبهة . أما في تفرعات الشوارع المرصوفة التي قامت بفاعلية مفاجآت الحروب وانزالات القراصنة ، فكانت الشجيرات الملتفة تتدلى من الشرفات وتفتح صدوعا في جدران الجير والحجر حتى في البيوت التي مازالت في حالة حسنة . علامة الحياة الوحيدة في الساعة الثانية ظهرا هي تمارين البيانو الخافتة في عتمة القيلولة . كانت النساء تحتمين من الشمس في غرف النوم الباردة والمشبعة بالبخور كاحتمائهن من عدوى فاحشة ، بل ويغطين وجوههن بالطرحة في صلوات الفجر ، وكن يمارسن حبهن ببطء وصعوبة ، وغالبا ما تعكر هذا الحب خواطر مشؤومة ، فيما الحياة تبدو لهن أمرا لا نهائيا . وعند المغيب ، في وقت ازدحام حركة المرور ، تنطلق من المستنقعات عاصفة من البعوض السفاح ، وموجة خفيفة من بخار البراز البشري الحار والكنيب ، مثيرة في أعماق النفس قلق الموت .

ان حياة المدينة الاستعمارية ، التي اعتاد خوفينال اوربينو الشاب رسم صورة مثالية لها في لحظات حنينه الباريسية ، لم تكن حينئذ الا وهما من أوهام الذاكرة . لقد كانت أكثر مدن الكاريبي ازدهارا في القرن الثامن عشر ، خصوصاً بامتيازها كأكبر سوق للرقيق الافريقي في الامريكيتين ، وكونها مقر اقامة حكام مملكة غرناطة الجديدة ، الذين كانوا يفضلون مزاولة شؤون الحكم من هنا ، مقابل اقيانوس العالم ، بدلا من العاصمة البعيدة والمتجمدة ، التي تشوش الحس الواقعي بمطرها الأزلي . وكانت تتجمع فيها عدة مرات في السنة أساطيل السفن المحملة بكنوز بوتوسي ، وكيتو ، وفيراكوث ، وكانت المدينة تعيش سنوات مجدها في ذلك الحين . وفي يوم الجمعة ، الثامن من حزيران ١٧٠٨ ، في الساعة الرابعة مساء ، جرى اغراق السفينة سان خوسيه التي كانت قد أبحرت لتوها باتجاه قادش وعلى متنها حمولة من الاحجار والمعادن الثمينة قيمتها نصف مليون بيزو من عملة ذلك الزمن ، اغرقها اسطول انكليزي مقابل مدخل الميناء ، ولم يكن

قد جرى استخراجها بعد مرور أكثر من قرنين على غرقها . ولقد كان من عادة المؤرخين ان يذكروا تلك الثروة القابعة في القيعان المرجانية ، مع جثة القبطان الطافية على جنبها في مقر القيادة ، كرمز للمدينة الغارقة في الذكريات .

في الجانب الآخر من الخليج ، في حي لامانغا السكني ، كان منزل الدكتور خوفينال اوربينو في زمن آخر . انه بيت فسيح وبارد ، مؤلف من طابق واحد ، ورواق أعمدة متتالية في الشرفة الخارجية ، المطلة على مستنقع الابخرة العفنة وركام السفن الغارقة في الخليج . كانت أرضية البيت مرصوفة ببلاط شطرنجي ، أبيض وأسود ، من المدخل وحتى المطبخ ، وكثيرا ما عُزي هذا الى هوى الشطرنج الذي يسيطر على الدكتور اوربينو ، دون تذكر انه كان ضعفا عاما من جانب البنائين الكتلانيين الذين شادوا في بدايات القرن حي محدثي النعمة ذاك . كانت الصالة فسيحة ، وسقفها عال جدا كما هو في بقية البيت ، ولها ست نوافذ واسعة تطل على الشارع ، وكانت منفصلة عن غرفة الطعام بباب زجاجي ضخم ومزين بفروع دالية وعناقيد وفتيات فاتنات يحملن نايات آلهة الحقول في غابة من البرونز . اثاث حجرة الاستقبال ، بما في ذلك ساعة البندول التي لها شكل حارس حي في الصالة ، كان كله اثاثا انكليزيا اصيلا من أواخر القرن التاسع عشر ، والمصابيح المعلقة كانت من قطع كريستال صخري ، وكانت هناك في كل الأنحاء اصص ومزهريات من سيفريس وتماثيل آلهة من الرخام المعرق . لكن ذلك التناسق الأوروبي كان مفقودا في بقية أجزاء البيت ، حيث ارائك الخيزران تختلط مع كراسٍ هزازة من فينا ومقاعد جلدية من الصناعة اليدوية المحلية . وفي غرف النوم ، كانت توجد اضافة الى الأسرة ، شباك نوم معلقة رائعة من سان خاثينتو مطرز عليها بخيوط حريرية اسم صاحب البيت بحروف قوطية ، وكانت حوافها محاطة بهداب ملون . أما الردهة المصممة في الاصل من أجل

حفلات العشاء ، الى جوار صالة الطعام . ، فقد استخدمت كصالة موسيقى صغيرة تقام فيها حفلات موسيقية للخاصة عندما يحضر عازفون شهيرون . وقد جرت تغطية البلاط بالسجاد التركي المشترى من معرض باريس الدولي لتعميق الصمت في جو البيت . وهناك فونوغراف من طراز حديث الى جانب رف عليه اسطوانات حسنة الترتيب . وكان البيانو الذي لم يعزف عليه الدكتور اوربينو منذ سنوات يقبع في احد الاركان مغطى بشرشف من مانيلا ، وفي سائر أرجاء البيت كان يظهر حرص وحكمة امرأة راسخة الاقدام في الأرض .

لم يكن هنالك في البيت ، رغم ذلك ، مكان يكشف جلال المكتبة المرتبة ، والتي كانت هيكل الدكتور اوربينو قبل أن تقوده الشيخوخة . فهناك ، وحول طاولة خشب الجوز الخاصة بوالده ، وأرائك الجلد الوثيرة ، جدران مغطاة حتى النوافذ بخزائن ذات رفوف وأبواب زجاجية ، رتب فيها بنظام شبه جنوني ثلاثة آلاف كتاب متماثلة مجلدة بجلد عجل وعلى عقبها الحروف الأولى من اسمه مكتوبة بماء الذهب . وعلى عكس الحجرات الأخرى ، التي كانت تحت رحمة صخب وروائح الميناء الكريهة ، كانت المكتبة تنعم دوما بصمت دير وروائحه . كان الدكتور اوربينو وزوجته اللذان ولدا وترعرعا في ظل الخرافة الكاريبية القائلة بفتح الأبواب والنوافذ لادخال البرودة غير الموجودة في الواقع ، قد أحسا في البدء بقلبيهما يضيقان بفعل الحبس . لكنهما ما لبثا أن اقتنعا بفعالية الطريقة الرومانية لمواجهة الحر ، التي تتلخص باغلاق البيوت في قيظ آب حتى لا يدخل هواء الشارع الملتهب ، وفتحها على مصارعها لريح الليل ، فأصبح بيته منذ ذلك الحين أكثر البيوت رطوبة تحت شمس لامانغا الحارقة ، وكان نوم القيلولة في عتمة المخادع يبعث على السعادة ، وكذلك الجلوس على الرواق لرؤية مرور سفن الشحن الثقيلة الرمادية القادمة من نيو اورليانز ، والسفن الخشبية ذات

العجلة الخلفية وهي تضيء أنوارها في العشية ، وتنقي بنثار الموسيقى المنبعثة منها مزبلة الخليج الراكدة . وكان بيته هو الأكثر مقاومة ما بين كانون الأول وآذار ، حين تهدم ريح الشمال المدارية سقوف البيوت ، وتقضي الليل مدومة كالذئاب الجائعة حول البيت بحثا عن منفذ تدخل منه . ولم تكن الشكوك تراود احدا في وجود أسباب تحول دون سعادة الزوجين المقيمين فوق تلك الأسس .

لكن الدكتور اوربينو لم يكن كذلك في صباح ذلك اليوم ، عندما رجع الى بيته قبل الساعة العاشرة ، مشوشا من الزيارتين اللتين لم تحولا بينه وبين قداس العنصرة وحسب ، بل وهددتا بتغيير يطرأ عليه وهو في سن ظن أن كل شيء فيها قد انجز . كان يريد أن ينام نوم كلب ريثما يحين موعد وليمة الغداء عند الدكتور لاثيديس اوليفييا ، لكنه وجد الخدم هائجين ، يحاولون امساك الببغاء التي طارت الى أعلى فرع في شجرة المانغا حين أخرجوها من القفص ليقصوا لها جناحيها . كانت ببغاء منتوفة ومعتوهة ، لا تتكلم عندما يطلبون منها الكلام ، انما عندما ينساها الجميع ، وتتكلم حينئذ بوضوح ودقة ليست متوفرة بكثرة لدى الكائنات البشرية . لقد دربها الدكتور اوربينو شخصيا ، وكان هذا امتيازا لم يحظ به احد من أفراد الأسرة ، حتى ولا أولاده عندما كانوا أطفالا .

كانت في البيت منذ أكثر من عشرين سنة ، ولا أحد يعرف كم سنة عاشت قبل ذلك ، وكان الدكتور اوربينو يجلس مساء كل يوم ، بعد القيلولة على شرفة الفناء ، وهو المكان الأكثر برودة في البيت ، مستخدما أصعب الأساليب التربوية ، حتى توصل الى جعل الببغاء تتحدث بالفرنسية كأكاديمي . بعد ذلك ، وبدوافع الفضيلة المحضة ، علمها مرافقة القداس باللاتينية ، وبعض المقاطع المختارة من انجيل القديس متّى ، وحاول دون نجاح تلقينها العمليات الحسابية الأربع بشكل آلي . وفي احدى رحلاته الى

أوروبا ، أحضر معه فونوغرافا ذا نفير ، وعددا كبيرا من الاسطوانات الشائعة اضافة الى مقطوعات الكلاسيكيين الأثيرين لديه . ويوما بعد يوم ، ومرة بعد أخرى خلال عدة شهور ، أسمع الببغاء أغنيات ايفيت جيلبرت وارستيد براون ، اللذين كانا بهجة فرنسا وطربها في القرن الماضي ، الى أن حفظتها الببغاء عن ظهر قلب ، وكانت تغني بصوت امرأة اذا كانت الأغنية لها ، وبصوت رجل اذا كان المغني هو ، وتنهي الغناء بقهقهة ماجنة هي انعكاس متقن للقهقهات التي تطلقها الخادمات عندما يسمعنها تغني بالفرنسية ، وقد وصلت اخبار ظرافتها بعيدا جدا ، مما جعل بعض الزوار البارزين الذين يأتون في السفن النهرية من اقاليم الداخل يطلبون الاذن أحيانا لرؤيتها ، وقد حاول بعض السائحين الانكليز الذين كانوا يتوافدون بكثرة في تلك الأثناء على متن سفن نيو اورليانز المحملة بالموز ، ان يشتروها بأي ثمن . لكن يوم مجدها الأكبر هو اليوم الذي جاء فيه رئيس الجمهورية دون ماركو فيدل سواريز ، مع وزراء حكومته بكاملهم ، الى البيت للتأكد من صحة سمعتها . وصلوا في حوالي الساعة الثالثة مساء ، مختنقين بقبعات وبذلات المراسم التي لم يخلعوها طوال ايام الزيارة الرسمية الثلاثة ، تحت سماء آب المتقدة ، وقد اضطروا للانصراف مخذولين كما جاؤوا ، لأن الببغاء رفضت أن تقول حتى ان هذا المنقار هو منقاري ، خلال ساعتين من اليأس ، رغم التوسلات والتوعدات والخجل العام الذي أحس به الدكتور اوربينو ، الذي أصر على تلك الدعوة الجريئة رغم تحذيرات زوجته الحكيمة .

ان مجرد احتفاظ الببغاء بامتيازاتها بعد حادثة العجرفة التاريخية هذه كان دليلا نهائيا على مكانتها المقدسة . لم يكن مسموحا ابقاء أي حيوان آخر في البيت ، باستثناء السلحفاة البرية ، التي عادت للظهور في المطبخ بعد ثلاث أو أربع سنوات ظنوا خلالها أنها قد ضاعت الى الأبد . وهذه لم يكن ينظر اليها ككائن حي ، وانما كانت أشبه بتميمة جامدة من اجل حسن

الطالع ، ولم يكن احد يدري على التحديد مكانها . كان الدكتور اوربينو يصر على اعلان كراهيته للحيوانات ، ويعلل ذلك بكل أنواع الخرافات العلمية والحجج الفلسفية التي تقنع الكثيرين ، لكنها لا تنفع في اقناع زوجته ، كان يقول ان الذين يفرطون في حب الحيوانات هم القادرون على اقتراف ابشع القساوات مع البشر . وكان يقول ان الكلاب ليست وفية وانما هي ذليلة ، وان القطط انتهازية وخائنة ، وان الطواويس ليست الا عراقيل مزركشة ، وان الارانب تثير الجشع ، والقرود تعدي البشر بحمى الشبق والديكة ملعونة لأنها استخدمت لانكار المسيح ثلاث مرات .

أما فيرمينا داثا ، زوجته ، والتي كان لها من العمر حينئذ اثنتان وسبعون سنة وكانت قد فقدت مشيتها الغزلانية التي كانت لها في زمن مضى ، فهي مولعة حد العبادة بالأزهار الاستوائية والحيوانات الداجنة ، ولقد استغلت في بدء الزواج تأجج الحب لتقتني منها في البيت أكثر بكثير مما ينصح به العقل السليم . كان أول ما اقتنته هو ثلاثة كلاب دلماسية لها اسماء اباطرة رومان تنازعت فيما بينها افضال انثى متشرقة باسم ميسالينا ، ما تكاد تلد تسعة جراء حتى تحبل بعشرة أُخر . بعد ذلك جاءت القطط الحبشية بوجوهها التي كوجوه النسور واخلاقها الفرعونية ، والقطط الفارسية الحولاء ذات العيون البرتقالية ، التي كانت تذرع حجرات النوم كظلال شبحية وتملأ الليل صخبا بموائها في اجتماعات حبها التي كاجتماعات الساحرات . وكان هناك لبضع سنوات قرد أمازوني مقيد من خاصرته الى شجرة المانغا في الفناء ، وكان يثير نوعا من العاطفة لوجهه الكئيب كوجه الاسقف اوبدوليو ، كما كانت لعينيه سذاجة عيني الاسقف ، وطلاقة يديه ذاتها ، ولم يكن هذا هو السبب الذي دفع فيرمينا داثا للتخلص منه ، وانما عادته الرذيلة بالاستمناء على شرف سيدات المجتمع .

كانت هناك جميع انواع عصافير غواتيمالا في أقفاص تملأ الممرات ،

وكانت توجد كراوين متبنة وبلشونات المستنقعات ذات القوائم الطويلة الصفراء ، وغزال صغير يطل من النوافذ ليأكل ورود المزهريات . وقبل الحرب الأهلية الأخيرة بقليل ، عندما دارت للمرة الأولى احاديث عن زيارة محتملة للبابا ، احضروا من غواتيمالا طائر الجنة الذي تأخر في المجيء وقتا أطول مما تأخره في العودة الى وطنه ، بعد أن تبين أن الاعلان عن الزيارة البابوية كان اشاعة اطلقتها الحكومة لاخافة الليبراليين المتآمرين . وفي مناسبة أخرى ، اشتروا من مراكب مهربي كوراثاو الشراعية قفصا من الاسلاك المعدنية فيه ستة غربان معطرة ، كتلك التي كانت تمتلكها فيرمينا داثا وهي صبية في بيت والدها ، ورغبت في اقتنائها وهي متزوجة ، لكن أحدا لم يحتمل خفقات أجنحتها الدائمة التي كانت تضمخ جو البيت برائحة اكاليل الموتى . كما جلبوا افعى أنكندة طولها اربعة أمتار ، كانت أنفاسها الساهرة تبعث القلق في ظلمة غرف النوم ، رغم أنهم حققوا ما أرادوه منها ، فأنفاسها الأبدية كانت تبعد الخفافيش والسمندر ، ومختلف أنواع الحشرات المؤذية التي تهاجم البيت في شهور المطر ، أما الدكتور خوفينال اوربينو المنهمك في ذلك الحين بمسؤولياته المهنية ، والغارق في نشاطاته الحضارية والثقافية ، فكان يكفيه الافتراض بأن زوجته ، وسط كل هذه الحيوانات البغيضة ، ليست أجمل امرأة في منطقة الكاريبي وحسب ، بل وأكثرهن سعادة ايضا . ولكن في أحد الأيام الماطرة ، وبعد يوم عمل منهك ، وجد في البيت كارثة اعادته الى الواقع . فمن صالة الاستقبال وعلى مدى البصر كانت تتناثر حيوانات ميتة غارقة في بركة من الدماء ، فيما الخادمات المتسلقات على الكراسي دون أن يدرين ما الذي عليهن عمله ، لم يكن قد استعدن السيطرة على انفسهم من هول المجزرة بعد .

القضية هي أن أحد الكلاب البوليسية الألمانية ، أصيب بنوبة سعار جنونية مفاجئة ، وراح يمزق كل حيوان يجده في طريقه من أي جنس كان ،

الى أن واتت جنائني البيت المجاور الشجاعة لمواجهته وتمزيقه بمنجله . ما كانوا يعرفون كم هي الحيوانات التي عضها ، أو نقل اليها العدوى بزبد ريقه الأخضر ، فأمر الدكتور اوربينو والحال هذه بقتل ما بقي حيا من الحيوانات واحراق اجسادها في حقل مهجور ، ثم طلب من خدمات مستشفى الرحمة تعقيم البيت تعقيما شاملا . والحيوان الوحيد الذي نجا لأن أحدا لم يتذكره ، كان ذكر السلحفاة حسن الطالع .

وللمرة الأولى رأت فيرمينا داثا أن زوجها محق في أحد الشؤون البيتية وحاذرت من الحديث بعد ذلك عن الحيوانات فترة طويلة من الزمن . وكانت تعزي نفسها بصور ملونة من كتاب التاريخ الطبيعي للينيو ، قامت بوضعها في أطر وعلقتها على جدران الصالة ، وربما كانت ستفقد الأمل في رؤية اي حيوان في البيت ثانية ، لولا أن اللصوص خلعوا في فجر أحد الأيام نافذة الحمام وسرقوا المرحاض الفضي الموروث من خمسة أجيال . ركب الدكتور اوربينو اقفالا مزدوجة في حلقات النوافذ ، وأحكم اقفال الأبواب من الداخل بمزالج حديدية ، وخبأ الأشياء الثمينة في صندوق الكنوز ، واعتاد متأخرا على العادة الحربية بالنوم والمسدس تحت الوسادة . لكنه اعترض على شراء كلب باسل ، ملقح أو غير ملقح ، مفلت أو مقيد ، حتى لو تركه اللصوص على العظم .

قال :

ـ لن يدخل هذا البيت كائن لا يحسن الكلام .

قال ذلك ليضع حدا لحجج زوجته الواهية ، المصرة مجددا على شراء كلب ، دون أن يعلم أن ذلك القرار المتعجل سيكلفه حياته ، اذ تمكنت فيرمينا داثا ، التي كان طبعها الجاف قد رق بفعل السنين ، وتشبثت بزلة لسان زوجها : وبعد شهور من السرقة ذهبت الى مراكب كوارثاو الشراعية واشترت ببغاء ملكية من باراماريبو كانت تحسن اطلاق شتائم البحارة

فحسب ، لكنها تنطقها بصوت انساني مما جعلها تستحق ثمنها الغالي البالغ اثني عشر سنتافو .

كانت ببغاء جيدة ، أخف مما يخيل لمن يراها ، رأسها أصفر ولسانها أسود ، وهو الشيء الوحيد الذي يميزها عن ببغاوات المانغلير والتي لا تتعلم الكلام حتى ولا بتحاميل زيت البطم . وقد انحنى الدكتور اوربينو ، الخاسر الجيد ، أمام ذكاء زوجته ، وفوجئ هو نفسه بالظرافة التي أضفاها تعليم الخادمات على الببغاء الشعثاء . ففي الأمسيات الماطرة ، حين تنحل عقدة لسانها لسعادتها بريشها المبتل ، كانت تنطق عبارات من أزمان أخرى لا يمكن أن تكون قد تعلمتها في البيت ، مما يحمل على التفكير بأنها أكبر سنا مما تبدو عليه . وقد انهارت آخر تحفظات الطبيب عندما حاول اللصوص في احدى الليالي دخول البيت ثانية من كوة السقف ، واخافتهم الببغاء بنباح ما كان له أن يكون أكثر شبها بالنباح لو أن صاحبه كان كلبا حقيقيا ، وبالصراخ : نشالين نشالين نشالين ، وهما ظرافتان منقذتان لم تتعلمهما في البيت . وكان حينئذ ان تولى الدكتور اوربينو مسؤوليتها ، فأمر باقامة عمود حمالة تحت شجرة المانغا مع اناء للماء وآخر للموز الصغير الناضج ، وأرجوحة للقفز عليها . وفي الفترة ما بين كانون الثاني وآذار ، عندما يصبح الليل باردا والجو في الخارج غير صالح للحياة بسبب رياح الشمال المدارية ، ينقلونها للنوم في غرف النوم داخل قفص مغطى بحرام ، رغم ان الشكوك كانت تساور الدكتور اوربينو من أن داء الخَنَب المزمن لدى الببغاء ، قد تكون له آثار خطيرة على تنفس البشر . وكانوا طوال عدة سنوات يقصون ريش جناحيها ويفلتونها لتسير على هواها بمشيتها المائلة التي كمشية فارس عجوز . لكنها راحت تتظارف في أحد الأيام بحركات بهلوانية بين دعائم المطبخ فهوت في قدر الطبيخ وهي تعربد بصيحتها البحرية فلينج من يستطيع النجاة . ولحسن الحظ ان الطاهية تمكنت من

انتشالها بالمغرفة ، وهي مسلوقة وبلا ريش ، ولكنها على قيد الحياة . منذ ذلك الحين صاروا يبقونها في القفص حتى أثناء النهار ، رغم الاعتقاد الشعبي السائد بأن الببغاوات الحبيسة في أقفاص تنسى ما تعلمته ، وما عادوا يخرجونها الا في برودة الساعة الرابعة لتلقي دروس الدكتور اووربينو على شرفة الفناء ، ولم ينتبه أحد في الوقت المناسب الى أن أجنحتها قد نمت وأصبحت طويلة بما فيه الكفاية ، حتى صباح ذلك اليوم حين كانوا يستعدون لقصها ، فطارت هاربة الى أعلى شجرة المانغا .

لم يتمكنوا من الامساك بها طوال ثلاث ساعات . وقد لجأت الخادمات ، بمساعدة خادمات الجوار ، الى كل الحيل لجعلها تنزل ، لكنها بقيت متشبثة بمكانها ، صارخة وهي تكاد تنفجر من الضحك : **يحيا الحزب الليبرالي** ، اللعنة . فليحيا الحزب الليبرالي ، وهي صرخة جريئة قد تكلف أربعة سكارى منتشين حياتهم . ما كاد الدكتور اوربينو يراها بين أوراق الشجرة ، حتى حاول اقناعها بالاسبانية والفرنسية ، بل وباللاتينية ، والببغاء ترد عليه باللغات ذاتها والتأكيد ذاته ونبرة الصوت ذاتها ، لكنها لم تتحرك عن قمة الشجرة وحين اقتنع ان أحدا لن يستطيع اقناعها بالحسنى ، أمر الدكتور اوربينو أن يطلبوا مساعدة رجال الإطفاء ، الذين كانوا لعبته الحضارية الأكثر حداثة .

وفعلا ، كان يطفئ الحرائق حتى وقت قريب ، متطوعون يستخدمون سلالم بنائين وسطول ماء تجلب كيفما اتفق ، وكانت أساليبهم مشوشة ، بحيث كانوا يسببون في معظم الأحيان أضرارا تفوق أضرار الحريق . إنما منذ العام الماضي ، وبفضل حملة تبرعات قامت بها جمعية الترقي العام ، والتي كان خوفينال اوربينو رئيس شرف لها ، أصبح هناك فريق اطفاء محترف وسيارة صهريج مزودة بصفارة وناقوس ، وخرطومي ماء عالي الضغط ، وكان رجال الاطفاء هم تقليعة تلك الأيام ، لدرجة أنهم في المدرسة

كانوا يوقفون الدروس عندما يسمعون نواقيس الكنائس تقرع بذعر ، كي يذهب الأطفال لرؤيتهم وهم يطفئون النار . وكان هذا هو كل ما يفعلونه في البدء . لكن الدكتور اوربينو روى للسلطات البلدية بأنه رأى رجال الاطفاء في هامبورغ يبعثون الحياة في طفل عثروا عليه متجمدا في أحد الأقبية بعد ثلج استمر هطوله عدة أيام . كما أنه رآهم في أحد أزقة نابولي ، ينزلون ميتا في تابوت من شرفة طابق عاشر ، لأن أدراج المبنى كانت شديدة الانحناء ولم يتمكن ذوو الميت من اخراجه الى الشارع . وهكذا كان أن تعلم رجال الاطفاء المحليون تقديم خدمات مستعجلة أخرى ، كخلع أقفال أو قتل أفاع سامة ، وقدمت لهم مدرسة الطب دورة خاصة بمبادئ الاسعاف الأولي في الحوادث الصغرى . وبهذا لم يكن سخفا ان يطلب منهم المساعدة في انزال ببغاء عن شجرة ، ولا سيما هذه الببغاء المتميزة بخصال كثيرة كسيد نبيل . قال الدكتور اوربينو : «قولوا لهم ان هذا بناء على طلبي» . ومضى الى حجرة النوم ليرتدي ملابس حفلة الغداء . والحقيقة أن مصير الببغاء في هذه اللحظة ، التي يشعر فيها بالضيق من رسالة جيرميا دي سانت ـ آمور ، لم يكن يهمه .

كانت فيرمينا داثا قد ارتدت فستانا حريريا ، فضفاضا ومفلتا ، خصره عند الوركين ، ووضعت قلادة من اللآلئ الأصيلة بست لفات طويلة متدرجة ، وانتعلت حذاء أملس ذا كعب عال لا تستخدمه الا في المناسبات الرسمية ، فالسنون لم تعد تسمح لها بعسف كثير . لم يكن ذلك الزي الذي على الموضة بالزي المناسب لجدة وقورة ، لكنه كان ملائما تماما لجسدها ذي العظام الطويلة ، والذي مازال نحيلا وممشوقا ، وليديها اللدنتين الخاليتين من أية شامة شيخوخة ، ولشعرها الفولاذي الأزرق ، المقصوص بشكل مائل على مستوى الخد . والشيء الوحيد الذي مازالت تحتفظ به من صورة زفافها هو عيناها اللوزيتان الصافيتان وكبرياء الامة ، لكن ما كان

ينقصها بفعل السن كانت تعوضه بخلقها وتجعله يفيض بجدها . كانت تشعر أنها على ما يرام : فعصور مشدات الخصر المعدنية ، والخصور المقيدة ، والأرداف المرفوعة بحيل تعتمد على الخرق القماشية ، أصبحت كلها غابرة ، وصارت الأجساد المتحررة ، المتنفسة حسب مشيئتها ، تعرض كما هي ، حتى في الثانية والسبعين من العمر .

*وجدها الدكتور اوربينو جالسة مقابل خوان الزينة ، تحت رياش المروحة الكهربائية البطيئة ، واضعة القبعة التي لها شكل الناقوس والمزينة بأزهار بنفسج مصنوعة من اللباد . كانت حجرة النوم فسيحة ومشعة ، فيها سرير انكليزي مغطى بكلة وردية ، ونافذتان مفتوحتان تطلان على أشجار الفناء حيث ينفذ صرير الزيزان الذاهلة لاحساسها باقتراب المطر . لقد اعتادت فيرمينا داثا ، ومنذ العودة من رحلة الزفاف ، على اختيار ملابس زوجها بما يتلاءم مع حالة الطقس والمناسبة ، ووضعها مرتبة على كرسي منذ الليلة السابقة ليجدها جاهزة لدى خروجه من الحمام . وهي لا تذكر منذ متى بدأت بمساعدته على ارتداء ملابسه ، ثم أخيرا على إلباسه ، وكانت واعية أنها بدأت تفعل ذلك بدافع الحب في أول الأمر ، ولكنها أصبحت مضطرة لعمل ذلك منذ نحو خمس سنوات لأنه لم يعد قادرا على ارتداء ملابسه بنفسه . لقد احتفلا منذ وقت قريب باليوبيل الذهبي لزواجهما ، وليس بامكان احدهما العيش لحظة واحدة دون الآخر ، أو دون التفكير به ، مع أنهما يعيان ذلك أقل فأقل كلما استفحلت الشيخوخة . ولم يكن بمقدور أي منهما القول ان كانت تلك العبودية المتبادلة ترتكز على الحب أم على الراحة ، لكنهما لم يتساءلا عن ذلك أبدا وأيديهما على القلب ، اذ فضل كلاهما دوما تجاهل الجواب . لقد بدأت تكتشف شيئا فشيئا تعثر خطى زوجها ، واضطراب مزاجه ، وتصدع ذاكرته ، وعادته الأخيرة بالبكاء وهو نائم ، لكنها لم تر في ذلك علامات صدأ نهائي بيِّن ، بل عودة سعيدة الى

الطفولة . ولذا لم تعامله على أنه شيخ صعب وإنما كطفل هرم ، ولقد كانت تلك الخدعة إلهاماً من العناية الإلهية لكليهما لأنها وضعتهما بمنأى عن الشفقة .

لابد أن الحياة كانت ستصبح شيئا آخر لكليهما ، لو أنهما عرفا في الوقت المناسب أن تصريف كوارث الزواج العظيمة أسهل من تصريف المناكفات اليومية الصغيرة ، واذا كانا قد تعلما شيئا معا فهو أن الحكمة تأتينا في الوقت الذي لا تعود به ذات نفع . لقد احتملت فيرمينا داثا بقلب مثقل ، طوال سنوات ، استيقاظات زوجها الاحتفالية الباكرة . كانت تتشبث بآخر خيوط النعاس كي لا تواجه قدر صباح جديد يحمل معه نذير الشؤم فيما يستيقظ هو ببراءة طفل وليد : كل يوم جديد هو يوم يكسبه في الحياة . كانت تسمعه ينهض مع الديكة ، وأول علامة من علائم الحياة يقوم بها هي كحة لا مبرر لها يبدو وكأنه يتعمدها لايقاظ زوجته . كانت تسمعه يهمهم ، ليقلقها فحسب ، فيما يبحث باللمس عن خفيه اللذين يجب أن يكونا الى جوار السرير . وتسمعه يخطو نحو الحمام متلمسا خطواته في الظلام . وبعد أن يقضي ساعة في مكتبه وحين تكون قد عادت لتغفو من جديد ، تسمعه يعود ليرتدي ملابسه دون أن يشعل النور حتى هذا الوقت . لقد سألوه يوما ، في لعبة من ألعاب الصالون ، كيف يُعرّف نفسه ، فقال : «انني رجل يرتدي ملابسه في العتمة» . كانت تسمعه وهي عارفة أنه لاحاجة لأي صوت من تلك الأصوات التي يصدرها ، وأنه يفعل ذلك متعمدا ومتظاهرا العكس ، تماما مثلما هي مستيقظة وتتظاهر أنها ليست كذلك . وكانت أسبابه صحيحة : فهو لم يحتج اليها أبدا حية وصاحية ، كما يحتاج اليها في هذه اللحظات العصيبة .

لم تكن هناك من هي أكثر منها أناقة في النوم ، اذ كانت تنام في وضعية راقصة ، مسندة احدى ذراعيها على جبهتها . كما لم يكن هنالك من

هو أكثر وحشية منها عندما يقلقون احساسها بالاعتقاد أنها نائمة وهي ليست كذلك ، كان الدكتور اوربينو يعرف أنها تبقى مصغية الى أدنى ضجة يثيرها ، بل وتكون شاكرة له ، لأنها تجد بذلك من تلقي عليه اللوم في ايقاظها منذ الخامسة صباحا ، وقد كان الأمر كذلك حقا ، لدرجة أنه في المناسبات القليلة التي كان يتلمس فيها بحثا عن خفيه في الظلام في مكانهما المعتاد ، كانت تقول له فجأة بصوت ناعس : «لقد تركتهما البارحة في الحمام» . ثم تردف في الحال بصوت صاح وغاضب :

ـ ان أكبر مصيبة في هذا البيت هي أن المرء لا يجد فيه الى النوم سبيلا .

وعندئذ تتقلب في الفراش ، وتشعل النور دون أن تأخذها اية رحمة بنفسها ، سعيدة بانتصارها الأول لهذا النهار . لقد كانت في العمق لعبة لكليهما ، لعبة خرافية وشريرة ، لكنها منعشة في الوقت نفسه : انها سعادات الحب المدجن الخطيرة . ولكن بسبب احدى هذه الالعاب التافهة كانت الثلاثين سنة الأولى من الحياة المشتركة على وشك الانهيار لأن الصابون لم يكن موجودا في الحمام في أحد الأيام .

بدأ الأمر ببساطة روتينية . كان الدكتور اوربينو قد رجع الى حجرة النوم ، في الزمن الذي كان مايزال يستحم فيه دون مساعدة ، وبدأ بارتداء ملابسه دون اشعال النور . أما هي ، فكانت ماتزال في وضعها الجنيني الدافئ كعادتها في مثل هذا الوقت : عيناها مغمضتان ، تنفسها هادئ ، وهذه الذراع المستندة الى الجبهة وكأنها في رقصة مقدسة . لكنها كانت نصف نائمة ، كما هي العادة ، وكان يعرف ذلك . وبعد صرصرة طويلة من بدلة الكتان المنشاة في العتمة ، كلم الدكتور اوربينو نفسه قائلا :

ـ منذ أسبوع وأنا أستحم بلا صابون .

عندئذ استيقظت ، وتذكرت ، وانقلبت غضبا ضد العالم ، لأنها نسيت

بالفعل وضع صابونة جديدة في الحمام . لقد لاحظت غياب الصابون منذ ثلاثة ايام ، وكانت قد اصبحت تحت الدوش ، ففكرت باحضار قطعة صابون فيما بعد ، لكنها نسيت فيما بعد الى اليوم التالي . وفي اليوم الثالث حدث لها الشيء نفسه . لم يكن قد مضى اسبوع في الواقع ، كما يدعي ليضاعف من احساسها بالذنب ، وانما ثلاثة أيام لا تغتفر ، ثم أن الغضب من احساسها بأنها فوجئت وهي على خطأ أخرجها عن طورها ، فسارعت كعادتها للدفاع عن نفسها بالهجوم :

صرخت دون وعي :

ـ لقد استحممت كل هذه الأيام ، وكان الصابون دوما في مكانه .

وبرغم معرفته الجيدة لأساليبها في الحرب ، فانه لم يستطع تحملها هذه المرة . ومضى ليعيش في غرف القسم الداخلي في مشفى الرحمة تحت أية ذريعة مهنية ، ولم يعد يظهر في البيت الا لاستبدال ملابسه عند المساء ، قبل أن يقوم بجولة عيادته على بيوت المرضى . وكانت تذهب الى المطبخ عندما تسمع وقع مجيئه ، متصنعة عمل أي شيء ، وتبقى هناك الى أن تسمع وقع حوافر حصاني العربة في الشارع ، وكلما حاولا حل الخلاف في الشهور الثلاثة التالية ، فان الشيء الوحيد الذي كانا يتوصلان اليه هو تعقيده . لم يكن مستعدا للعودة الى البيت مادامت لا توافقه على أنه لم يكن يوجد صابون في الحمام ، ولم تكن مستعدة لاستقباله مادام لا يعترف بأنه كذب وهو واع لتعذيبها .

ومنحهما الحادث طبعاً فرصة لاستحضار حوادث أخرى ، وتذكر الكثير من المسائل الصغيرة والصباحات القلقة . وبعثت الاحقاد احقاداً أخرى ، وفتحت جراحاً قديمة كانت ملتئمة لتنزف من جديد ، وقد فزع كلاهما لليقين المدمر بأنهما لم يفعلا شيئا خلال سنوات طويلة من الصراع الزوجي سوى رعاية الاحقاد . ووصل به الامر لأن يقترح عليها التقدم معا للاعتراف

المفتوح أمام نيافة الاسقف اذا اقتضى الأمر ، ليكون الرب هو الحكم الأخير الذي يقرر اذا كان في مصبنة الحمام صابون أم لا . أما هي التي كانت تمتلك مرتكزات قوية حتى ذلك الحين ، فقد اضاعتها بصرخة هستيرية :

ـ فليذهب السيد الأسقف الى الخراء! .

هزت تلك الشتيمة ركائز المدينة ، وكانت منطلقا لحكايات وأقاويل ليس من السهل تكذيبها ، وبقيت عالقة في المأثور الشعبي كتعبير شائع : «فليذهب السيد الاسقف الى الخراء!» . ومدركة انها قد تجاوزت الحد ، سارعت الى اتخاذ ردة الفعل التي انتظرتها من زوجها ، فهددته بالانتقال وحدها الى بيت أبيها القديم ، الذي مازال ملكا لها ، رغم أنه مؤجر كمكاتب عامة . لم يكن ذلك تبجحا : كانت تريد الذهاب حقا ، غير مبالية بالفضيحة الاجتماعية ، وقد تنبه الزوج الى ذلك في الوقت المناسب . ولم تكن لديه الشجاعة الكافية لتحدي تهورها... فاستسلم ليس بمعنى القبول بأنه كان يوجد صابون في الحمام ، لأن ذلك سيكون اهانة للحقيقة ، وانما وافق على أن يستمرا بالعيش في البيت نفسه ، ولكن في حجرتين منفصلتين ، ودون أن يكلم أحدهما الآخر . وهكذا كانا يأكلان ، ويصرفان المواقف ببراعة فائقة بتبادل الطلبات من أحد أطراف المائدة الى الطرف الآخر بواسطة ابنيهما ، دون أن ينتبه الابنان الى أنهما لا يتبادلان الحديث .

وبما أنه لا وجود لحمام في مكتبه ، فان هذه الصيغة قد حلت الخلاف حول الضوضاء الصباحية ، لأنه أصبح يدخل للاستحمام بعد أن ينتهي من تحضير درسه ، ويتخذ الاحتياطات الحقيقية كي لا يوقظ زوجته . وفي أحيان كثيرة كانا يلتقيان وينتظران بالدور لتنظيف اسنانهما قبل النوم . وبعد أربعة شهور ، استلقى ليقرأ في الفراش الزوجي فيما هي خارجة الى الحمام ، كما كان يحدث كثيراً ، فغلبه النعاس ، فاستلقت الى جانبه بحركة مفرطة في الخشونة لتجعله يستيقظ وينصرف . واستيقظ بالفعل شبه استيقاظ ، ولكنه

بدلا من أن ينهض اطفأ مصباح السرير واستراح على وسادته . فهزته من كتفه لتذكره بأن عليه الذهاب الى مكتبه ، لكنه كان يشعر مجددا بأنه في حالة جيدة على فراش الريش الموروث عن اسلافه ، ففضل الاستسلام .

قال لها :

ـ دعيني هنا ، نعم ، كان هناك صابون .

حين كانا يتذكران هذا الحادث ، بعد أن أصبحا عند منعطف الشيخوخة ، ما كانا ليصدقا الحقيقة المذهلة بأن ذلك الشجار كان الاخطر خلال نصف قرن من الحياة المشتركة ، والشجار الوحيد الذي بعث فيهما كليهما رغبة الاذعان والبدء في حياة أخرى . وحتى عندما أصبحا عجوزين وديعين كانا يحاذران من ذكره ، لأن الجراح قليلة الالتئام سرعان ما تعاود النزيف وكأنها جراح الأمس .

كان هو أول رجل سمعته فيرمينا داثا يتبول . سمعته في ليلة الزفاف في قمرة السفينة التي حملتهما الى فرنسا ، فيما الدوار ينهكها ، وبدا لها وقع ينبوعه الحصاني قويا ومتسلطا ، مما ضاعف رعبها من الأذى الذي يخيفها . وقد كانت تلك الذكرى تعاود مخيلتها بكثرة ، كلما أضعفت السنون من قوة الينبوع ، لأنها لم تستطع الصبر ابدا على تلويثه حافة مقعد المرحاض كلما استخدمه . وقد حاول الدكتور اوربينو اقناعها ، بحجج سهلة الفهم لمن يرغب في فهمها ، ان ذلك الحدث يتكرر يوميا ليس بسبب اهماله ، كما كانت تصر هي ، وانما لسبب عضوي : فتدفق بوله في سنوات صباه كان محددا ومستقيما ، حتى أنه كسب وهو في المدرسة بطولة التسديد لملء زجاجات ، ولكنه لم يضعف فحسب مع استخدامات السن ، وانما أصبح زائغا كذلك ، وأخذ يتشعب ، الى أن أصبح في نهاية الأمر ينبوعا وهميا يستحيل توجيهه ، رغم الجهود الكثيرة التي يبذلها لتصحيح مساره . كان يقول : «لابد ان مخترع المرحاض ذا المقعد لا يعرف شيئا عن الرجال» . وكان

يساهم في السلام البيتي بعمل يومي هو أقرب الى الذل منه الى التواضع : كان يمسح بورق صحي حواف مقعد المرحاض كلما استخدمه ، وكانت تعرف انه يفعل ذلك ، لكنها لم تكن تقول شيئا ما لم تفح روائح الامونياك في الحمام ، عندئذ تعلن الأمر وكأنه اكتشاف جريمة : «ان هذا يثير قرف حظيرة أرانب» . وعلى مشارف الشيخوخة ، ادى تثاقل جسد الدكتور اوربينو الى إلهامه الحل النهائي : صار يبول وهو جالس ، كما تفعل هي ، مما حافظ على مقعد المرحاض نظيفا ، وجعله يتخذ وضعا ظريفا .

كان يقوم بشؤونه حينئذ بشكل سيئ . لكن انزلاقا في الحمام كاد يودي بحياته جعله يتخذ موقفا من الدوش . فالبيت ، رغم كونه من البيوت الحديثة ، كان يفتقد حوض البانيو المعدني ذا القوائم التي كقوائم الأسد ، والذي كان استخدامه شائعا في بيوت المدينة الاستعمارية ، فقد أمر بانتزاعه متذرعا بحججه الصحية : ان حوض البانيو هو احدى قذارات الاوروبيين الكثيرة ، الذين لا يستحمون إلا في يوم الجمعة الأخير من كل شهر ، ثم انهم يفعلون ذلك وسط الماء المتسخ بالوساخة نفسها التي يريدون ازالتها عن اجسادهم . وهكذا طلبوا صنع صفيحة كبيرة من الصفيح على قوائم من خشب غواياكان المتين ، حيث اصبحت فيرمينا داثا تحمم زوجها بنفس طقوس تحميم الاطفال حديثي الولادة . كان الحمام يستمر أكثر من ساعة ، بماء فاتر غليت فيه أوراق العطرة وقشور البرتقال ، وكان للحمام تأثير مهدئ عليه يجعله يغفو في النقيع المعطر أحيانا . وبعد تحميمه ، تساعده فيرمينا داثا على ارتداء ملابسه ، وترشه ببودرة التالك ما بين ساقيه ، ، وتدهنه بدهن جوز الهند في مواضع السماط ، وتلبسه سرواله الداخلي بحنان شديد كما لو كان حفاضة طفل رضيع ، وتتابع الباسه الثياب قطعة قطعة ، من الجورب حتى ربطة العنق ذات المشبك الياقوتي . وصارت الصباحات الزوجية اكثر سكونا ، لأنه عاد الى طفولته التي انتزعها منه

الأولاد . وانتهت هي من جانبها الى الانسجام مع النظام العائلي ، لأن السنوات كانت تمضي بالنسبة لها أيضا ، فأصبحت تنام أقل فأقل ، وقبل أن تتم السبعين صارت تستيقظ قبل زوجها .

في يوم أحد العنصرة ، عندما رفع الشرشف عن جثة جيرميا دي سانت ـ آمور ، انكشف للدكتور اوربينو امر كان يرفض التفكير فيه حتى ذلك الحين في ابحاراته الجلية كطبيب ومؤمن . فبعد سنوات طويلة من التعايش مع الموت ، وبعد صراعه ولمسه باطنا وظاهرا لسنوات عديدة ، كانت تلك هي المرة الأولى التي تجرأ فيها على النظر الى وجه الموت ، وكان الموت ينظر اليه أيضا . لم يكن احساسه خوفا من الموت ، لا : فالخوف كان بداخله منذ سنوات ، يحيا معه ، كان ظلا آخر فوق ظله ، منذ ليلة استيقظ فيها قلقا لرؤيته حلما مشؤوما جعله يدرك أن الموت ليس احتمالا ماثلا فقط ، كما أحسه دائما ، وانما هو واقع قائم . وبالمقابل ، فان ما رآه يومذاك هو حضور جسدي لشيء لم يكن قد تجاوز كونه تصورا يقينيا حتى ذلك الحين . وقد أسعده أن يكون اداة العناية الالهية لهذا الكشف هو جيرميا دي سانت ـ آمور ، الذي اعتبره دوما قديسا يجهل فضل ذاته ، ولكن عندما كشفت له الرسالة حقيقة هويته ، وماضيه الفاسد ، وقدرته اللامعقولة على الخداع ، أحس بأن شيئا نهائيا لا رجعة فيه قد طرأ على حياته .

ومع ذلك فان فيرمينا داثا لم تسمح له بنقل عدوى مزاجه المكفهر اليها . لقد حاول ذلك بالطبع فيما هي تساعده على دس ساقيه في البنطال وتزرر صف أزرار القميص الطويل . لكنه لم يصل الى ما يريد لأن التأثير على فيرمينا داثا لم يكن سهلا ، وخصوصا في موت رجل لم تكن تحبه . كانت تعرف بالكاد ان جيرميا دي سانت ـ آمور هو رجل مقعد ذو عكازين لم تره ابدا ، وانه قد فر من فصيلة الاعدام في احدى التمردات الكثيرة في واحدة من جزر الانتيل العديدة . وانه عمل مصور أطفال بدافع الحاجة وصار

الأكثر شهرة في الاقليم كله ، وانه قد كسب دور شطرنج من شخص تتذكر هي أن اسمه توريمولينوس بينما الحقيقة ان اسمه كابا بلانكا .

قال لها الدكتور اوربينو :

ـ لم يكن سوى هارب من كايينا ، ومحكوم بالمؤبد على جريمة فظيعة اقترفها . وتصوري ان الأمر وصل به الى أكل اللحم البشري .

أعطاها الرسالة التي كان يريده حمل اسرارها معه الى القبر ، لكنها خبأت الأوراق المطوية في خوان الزينة ، دون أن تقرأها ، وأقفلت الدرج بالمفتاح ، كانت معتادة على قدرة زوجها الكبيرة على الاندهاش ، وعلى احكامه المبالغ فيها والتي أخذت تصبح اكثر تعقيدا مع مرور السنوات ، وعلى ضيق افق لا يتلاءم مع صورته العامة . لكنه في تلك المرة تجاوز حدوده المعتادة . وافترضت أن زوجها ليس معجبا بجيرميا دي سانت ـ آمور لما كان عليه فيما مضى ، وانما لما بدأ يكونه منذ قدومه بلا متاع سوى حقيبة المنفيين التي كان يحملها ، ولم تستطع ان تفهم لماذا فجع الى ذلك الحد باكتشاف هويته متأخرا . ولم تفهم لماذا يبدو له فظيعا ان يكون على علاقة بامرأة سرية اذا كان هذا الأمر عادة وراثية بين الرجال الذين هم من صنفه ، بما في ذلك هو نفسه في لحظة جحود . وقد رأت في مساعدتها له على تنفيذ قراره بالموت دليلا مؤثرا على الحب . وقالت : «واذا ما قررت انت عمل ذلك ايضا لأسباب جدية كتلك التي كانت لديه ، فان واجبي ان أفعل مثلما فعلت هي» . ووجد الدكتور اوربينو مرة أخرى نقطة عدم الفهم البسيطة التي أثارت حفيظته طوال نصف قرن .

قال :

ـ انت لا تفهمين شيئا . ان ما يغيظني ليس ما كانه أو ما فعله ، وانما الخدعة التي جعلها تنطلي علينا جميعا خلال هذه السنوات الطويلة .

بدأت عيناه تغرورقان بدموع سهلة ، فيما تصنعت هي التجاهل وردت :

ـ حسناً فعل . فلو أنه قال الحقيقة لما كنت أنت ولا هذه المرأة المسكينة ، ولا أحد في البلدة أحبه كما أحببتموه .

ثبتت الساعة ذات السلسلة في عروة الصدرية . وعقدت له ربطة العنق ووضعت له المشبك الياقوتي . ثم مسحت دموعه ونظفت لحيته الباكية بالمنديل المبلل بعطر اغوا فلوريدا ، ووضعته في جيب الجاكيت على الصدر فاتحة اطرافه كزهرة مانوليا . دقت ساعة البندول دقاتها الاحدى عشرة في البيت الراكد ، فقالت وهي تقوده من ذراعه :

ـ اسرع . سنصل متأخرين .

كانت امينتا ديتشامباس ، زوجة الدكتور لايثديس اوليفيا ، وبناتها السبع المتحمسات ، قد أعددن كل شيء من أجل أن يكون غداء اليوبيل الفضي هو حدث السنة الاجتماعي . منزل العائلة القائم في مركز المدينة التاريخي وهو بيت المال سابقا ، كان قد غير من طرازه المعماري مهندس فلورنسي مر من هنا مثل ريح شؤم ، وحوّل الى كنائس على الطراز الفينيسي بقايا أكثر من أربعة معابد من القرن السابع عشر . كان في البيت ست حجرات نوم وصالونان للطعام والاستقبال ، واسعان وحسنا التهوية ، لكنهما لا يتسعان لمدعوي المدينة ، فضلا عن النخبة التي ستأتي من الخارج . كان الرواق أشبه بباحة دير ، في وسطه نافورة حجرية يغرد الماء فيها ، وجنائن من الهيليوتربو تعطر البيت عند المغيب ، لكن الفسحة المقنطرة لم تكن كافية لكل تلك الالقاب العظيمة . ولهذا قرروا اقامة حفل الغداء في بيت العائلة الريفي ، على بعد عشر دقائق في السيارة على الطريق العام ، ففيه ساحة فسيحة وشجيرات غار هندية كثيفة ونيلوفر مهجن في مسيل ماء وديع . رجال مطعم دون سانتتشو ، نصبوا بتوجيه من السيدة اوليفيا ، مظلات شوادر ملونة في الاماكن التي لا ظلال فيها ، واقاموا تحت أشجار الغار مستطيلا من الطاولات يتسع لمئة واثنين وعشرين شخصا ، مع شراشف

كتانية بيضاء لجميع الطاولات ، وأغصان ورد طازجة على طاولة الشرف . كما أقاموا منصة لفرقة موسيقى الآلات الهوائية التي كان برنامجها يقتصر على موسيقى راقصة وفالسات وطنية ، ولرباعي وتري من مدرسة الفنون الجميلة ، هي مفاجأة السيدة اوليفيا لأستاذ زوجها الموقر ، الذي سيرأس الغداء ، ومع أن اليوم المحدد للاحتفال لم يكن يتفق تماما مع ذكرى التخرج ، فقد اختاروا يوم أحد العنصرة ليضاعفوا من ضخامة معنى الحفلة .

بدأت الاستعدادات قبل ثلاثة شهور ، خوفا من نسيان شيء أو عدم انجازه في الموعد المحدد ، احضروا الدجاج الحي من ثيناغا دي اورو ، لشهرة هذا الدجاج في منطقة الساحل كلها ، ليس بحجمه وطعمه اللذيذ وحسب ، وانما لأنه في الزمن الاستعماري كان يعفر في أراضي الطمي ، فكانوا يجدون في حوصلته حصيات من الذهب الخالص ، وكانت السيدة اوليفيا شخصيا ، برفقة بعض بناتها وبعض الخدم ، تصعد الى متن السفن العابرة الفخمة لتنتقي افضل ما يصل من كل مكان لتشريف مكانة زوجها . لقد احتاطت لكل شيء ، باستثناء ان الحفلة ستكون يوم أحد حزيراني في سنة متأخرة الأمطار . وقد ادخلت أمر خطر كهذا في حسابها صباح يوم الحفلة بالذات ، عندما خرجت الى القداس الكبير وفزعت لرطوبة الهواء ، ورأت أن السماء كثيفة وواطئة وان البصر لا يصل لرؤية الأفق البحري . ورغم علائم النحس هذه ، فقد ذكرها مدير الأرصاد الجوية ، الذي التقت به في الصلاة ، بأنه لم يحدث في تاريخ المدينة المشؤوم جدا ، حتى ولا في أقسى فصول الشتاء ، ان هطل المطر في يوم العنصرة . وبرغم ذلك ، فعندما دقت الساعة معلنة الثانية عشرة ، وفيما كان معظم المدعوين يتناولون المقبلات في الهواء الطلق ، جعل انفجار الرعد الأرض تهتز ، وأطاحت ريح بحرية عنيفة بالموائد وحملت المظلات في الجو ، وانهارت السماء بمطر كالكارثة .

لقد تمكن الدكتور خوفينال اوربينو من الوصل بجهود مضنية في فوضى العاصفة ، مع آخر الضيوف الذين التقى بهم في الطريق ، وكان يريد الوصول الى البيت قافزا من العربات مثلهم فوق الاحجار ، عبر البهو المضطرب ، لكنه قبل أخيرا مذلة ان يحمله رجال دون سانتشو على الأذرع تحت مظلة من قماش أصفر ، وجرى إعداد الطاولات المنفصلة من جديد على أحسن وجه ممكن داخل البيت ، وحتى في غرف النوم ، ولم يقم المدعوون بأي جهد لاخفاء مزاجهم الغارق بالماء ، كان الحر في البيت كأنه مرجل سفينة ، اذ أنهم اغلقوا النوافذ ليمنعوا دخول المطر الذي يهطل مائلا بفعل الريح . كان يوجد على الطاولة في الفناء بطاقة تحمل اسم كل مدعو وتحدد مكانه ، وكان مقررا ان يكون هناك جانب للرجال وآخر للنساء ، كما هي العادة في ذلك الحين ، لكن البطاقات التي تحمل الاسماء اختلطت داخل البيت ، وجلس كل واحد كيفما استطاع ، بفوضى هائلة خالفت لمرة واحدة على الأقل تقاليدنا الاجتماعية البالية ، ووسط الكارثة ، كانت امينتا دي اوليفييا تبدو وكأنها في كل مكان ، بشعرها المبلل وثوبها الرائع الملطخ بالوحل ، لكنها تعلو على المصيبة بابتسامة لا تقهر تعلمتها من زوجها كي لا تتيح للعواذل ان يشمتوا . وبمساعدة بناتها ، المصاغات في الكور نفسه ، تمكنت الى حد ما من حجز الاماكن على طاولة الشرف ، فكان الدكتور خوفينال اوربينو في الوسط والاسقف اوبدوليو اي ري الى يمينه . وجلست فيرمينا دائما الى جانب زوجها ، كما اعتادت ان تفعل دوما ، خوفا من أن يغلبه النعاس أثناء الغداء أو أن يسكب الحساء على ياقة سترته . واحتل الموقع المقابل الدكتور لاثيديس اوليفييا . وهو خمسيني ذو مظهر انثوي ، محتفظ جيدا بقواه ، ولا علاقة لروحه الاحتفالية بتشخيصاته الطبية الصائبة . وامتلأت بقية مقاعد الطاولة بممثلي السلطات الاقليمية والبلدية ، وملكة جمال العام الفائت ، التي قادها الحاكم من ذراعها ليجلسها الى جواره ،

وعلى الرغم من انه لم تكن هناك عادة طلب زي خاص في الدعوات ، ولا سيما في غداء ريفي ، فقد كانت السيدات يرتدين بدلات سهرة وحلي من أحجار كريمة ، ومعظم الرجال يلبسون بدلات قاتمة مع ربطة عنق سوداء ، وبعضهم يرتدي الستر الرسمية البيضاء ، وذوو المشاغل الكثيرة وحدهم ، ومنهم الدكتور اوربينو ، كانوا يرتدون بذلات يومية ، وفي كل مكان كانت توجد نسخة من المينو[1] ، مطبوعة بالفرنسية مع رسوم مذهبة .

ذرعت السيدة اوليفيا ، المرتعبة من أهوال الحر ، البيت راجية من الجميع خلع سترهم لتناول الغداء ، لكن احدا لم يجرؤ على أن يكون قدوة للآخرين . ولقد لفت الاسقف انتباه الدكتور اوربينو الى أن ذلك الغداء هو غداء تاريخي بطريقة ما : فهناك يجتمع لأول مرة على طاولة واحدة ، وبعد التئام الجروح وتبدد الاحقاد ، فريقا الحروب الأهلية التي أغرقت البلاد بالدم منذ الاستقلال . كان هذا التفكير يتلاءم مع حماسة الليبراليين ، وخصوصا الشباب منهم الذين تمكنوا من اختيار رئيس من حزبهم بعد خمس وأربعين سنة من هيمنة المحافظين . ولم يكن الدكتور اوربينو متفقا في ذلك : فرئيس ليبرالي لا يبدو له أقل أو أكثر من رئيس محافظ ، سوى أنه أسوأ هنداما . ومع ذلك ، لم يشأ معارضة الأسقف . على الرغم من أنه رغب بأن يلمح له الى أن أحدا لم يدع لحضور الغداء من أجل أفكاره وانما لشرف محتده ، وان هذه كانت دائما فوق نكبات السياسة وفظائع الحرب . واذا نظرنا بهذا المنظار ، فليس هنالك أي خلل حقا .

توقف وابل المطر كما بدأ ، والتهبت الشمس في السماء الصافية فورا ، لكن العاصفة كانت من العنف بحيث انتزعت بعض الأشجار من جذورها ، وتحول الماء المتجمع حول الفناء الى مستنقع راكد ، اما الكارثة الكبرى فكانت في المطبخ ، حيث أقيمت عدة مواقد من الطوب في القسم الخلفي من البيت ، في العراء ، وما كاد الطهاة يضعون القدور بمنأى عن

---

(١) قائمة بأصناف الطعام .

المطر ، حتى راحوا يضيعون وقتا ثمينا في نزح الماء من المطبخ الغارق واقامة مواقد جديدة على عجل في الرواق الخلفي ، ولكن حالة الطوارئ انتهت في الواحدة ظهرا ، ولم يكن ينقص سوى الحلوى التي كلفت بصنعها راهبات سانتا كلارا ، اللواتي وعدن بارسالها قبل الساعة الحادية عشرة . وكانت الخشية من ان تكون ساقية الطريق الرئيسي قد فاضت كثيرا ، كما يحدث عادة في فصول شتاء أقل قساوة ، ففي هذه الحالة لا يمكن وضع الحلوى في الحساب قبل مرور ساعتين . ما ان توقف المطر حتى فتحوا النوافذ ، فلطف الهواء المنقى بكبريت العاصفة جو البيت . ثم امروا بأن تعزف الفرقة الموسيقية برنامجها على مصطبة الرواق ، لكن ذلك لم ينفع سوى في زيادة الجزع ، لأن دوي النحاس داخل البيت كان يضطرهم لتبادل الحديث صراخا . فأمرت امينتا دي اوليفيبا المنهكة من الانتظار ، والتي كانت تبتسم وهي على حافة الدموع ، بتقديم الطعام .

بدأت فرقة مدرسة الفنون الجميلة الوترية بالعزف وسط صمت رسمي استمر حتى النغمات الأولى من معزوفة لاتشاس لموزارت . وبرغم الاصوات التي أخذت تعلو أكثر فأكثر وتصبح أشد اختلاطاً ، وبرغم عرقلة خدم دون سانتشو الزنوج الذين لم يكن الفراغ بين الموائد يكفي لمرورهم وهم يحملون الصواني التي يتصاعد منها البخار ، فقد تمكن الدكتور اوربينو من الاحتفاظ بقناة مفتوحة على الموسيقى حتى نهاية البرنامج . كانت قدرته على التركيز تتناقص سنة بعد أخرى ، حتى انه كان يضطر الى تسجيل كل حركة شطرنج يقوم بها على الورق ليعرف أين صار في اللعب . ومع ذلك ، فهو مازال قادرا على مواصلة محادثة جدية دون أن يفلت خيط الموسيقى ، على الرغم من أنه لا يصل في ذلك الى الحد الذي يصله قائد اوركسترا الماني ، كان صديقا حميما له خلال فترة اقامته في النمسا ، اذ كان يقرأ نوتة موسيقية لدون جيوفاني فيما هو يسمع تانهاوزر .

المقطوعة الثانية في البرنامج كانت الموت والصبية ، لشوبرت ، وبدا له أنها تعزف بدرامية سهلة . وفيما هو يستمع اليها بمعاناة شديدة ، من خلال الجلبة الجديدة التي أثارتها أدوات الطعام في الصحون ، كان يحتفظ بنظره معلقا بشاب ذي وجه وردي حياه بانحناءة من رأسه . لا شك أنه رآه في مكان ما ، لكنه لا يذكر أين . ان هذا يحدث له كثيرا مع الأسماء ، فهو ينسى أحيانا أسماء أقرب الناس اليه ، وكذلك مع ألحان زمن آخر ، مما يثير فيه قلقا مخيفا ، جعله يفضل الموت في احدى الليالي على الاحتمال حتى الفجر . وكان على وشك الوصول الى هذه الحالة عندما اضاء له بريق مشفق ذاكرته : الشاب هو أحد تلاميذه من العام الفائت . وفوجئ برؤيته هنا ، في مملكة الصفوة ، لكن الدكتور اوليفيبا ذكره بأنه ابن وزير الوقاية الصحية ، وقد جاء الى هنا لتحضير اطروحة في الطب الشرعي . وأشار له الدكتور خوفينال اوربينو بتحية سعيدة من يده ، فوقف الشاب ورد على التحية باحترام . انما لم يخطر للدكتور اوربينو حينئذ ، ولا فيما بعد ، بأنه المتمرن الذي كان معه صباح هذا اليوم في بيت جيرميا دي سانت ـ آمور .

مع احساسه بالراحة لهذا الانتصار الجديد على الشيخوخة ، غادر الغنائية الصافية المنسابة لآخر مقطوعة موسيقية في البرنامج ، لم يستطع تحديد هويتها . وقد أخبره بعد ذلك عازف الكمان الشاب في المجموعة ، الذي رجع من فرنسا منذ وقت قريب ، بأن المقطوعة هي الرباعية الوترية لغابرييل فاوريه ، الذي لم يكن الدكتور اوربينو قد سمع باسمه رغم ترصده الدائم لكل جديد من أوروبا . فيرمينا داثا ، المنتبهة اليه ، كعادتها ، وخصوصا عندما تراه ساهما وسط الناس ، توقفت عن تناول الطعام ووضعت يدها الدنيوية على يده ، وقالت له : «لا تفكر في الأمر أكثر» . فابتسم لها الدكتور اوربينو من الضفة الأخرى للغيبوبة ، وكان ان عاد حينئذ للتفكير فيما كانت هي تخشاه . تذكر جيرميا دي سانت ـ آمور ، موسدا في هذه

الساعة في التابوت بزيه العسكري الزائف وميدالياته الكاذبة ، تحت نظر أطفال الصور المتهمة . التفت نحو الاسقف ليطلعه على خبر الانتحار ، لكنه كان عارفا به . كان قد تحدث مطولا في هذا الأمر بعد القداس الكبير ، بل انه تلقى طلبا من الكولونيل جيرونيمو ارغوتي ، باسم لاجئي الكاريبي ، لدفنه في الأرض الطاهرة . قال : «ان الطلب بحد ذاته برأيي هو قلة احترام» ثم ، بلهجة أكثر آدمية ، سأله ان كان يعرف سبب الانتحار . ورد عليه الدكتور اوربينو بكلمة صحيحة ظن أنه اخترعها في تلك اللحظة : خوف الشيخوخة . الدكتور اوليفيا ، الذي كان منصرفا باهتمامه الى أقرب الضيوف منه ، تركهم برهة ليشارك في الحوار مع استاذه . قال : «من المؤسف أننا مازلنا نلتقي بمنتحر دافعه للانتحار ليس الحب» . ولم يفاجأ الدكتور اوربينو من التعرف على أفكاره في آراء تلميذه النجيب . فقال :

ـ بل الأسوأ من ذلك ان الانتحار تم بسيانور الذهب .

ما ان قال ذلك حتى أحس بأن الشفقة قد عادت لتتغلب على مرارة الرسالة ، ولم يرجع الفضل في ذلك الى زوجته وانما الى معجزة من معجزات الموسيقى ، حينئذ حدث الاسقف عن القديس الملحد الذي تعرف هو نفسه عليه في أمسيات الشطرنج البطيئة ، حدثه عن تكريسه لفنه من اجل اسعاد الأطفال ، وعن سعة اطلاعه العجيبة على كل شؤون الدنيا ، وعن عاداته الاسبارطية ، وقد فوجئ هو نفسه بنقاء الروح الذي مكنه من الانفصال فجأة وبشكل كامل عن ماضيه . ثم حدث العمدة عن أهمية شراء ارشيف مسودات الصور لحفظ صور جيل ربما لن يعود للشعور بالسعادة خارج صوره ، جيل في يديه مستقبل المدينة . لقد ذعر الأسقف لأن كاثوليكيا مواظبا ومطلعا تجرأ على التفكير بقدسية منتحر ، لكنه وافق على المبادرة الى أرشفة مسودات الصور ، وأراد العمدة أن يعرف ممن عليه أن يشتريها . فكوى الدكتور اوربينو لسانه بجمرة السر : لكنه استطاع احتمالها دون

الكشف عن وارثة الارشيف السرية ، وقال : «أنا سأتولى الأمر» . وأحس بأنه افتدى بوفاته المرأة التي تركها قبل خمس ساعات . لاحظت فيرمينا داثا ذلك ، وجعلته يعاهدها بصوت واطئ على حضور الدفن . طبعا سأفعل ـ قال مفرجا عن نفسه ـ كل شيء إلا هذا .

كانت الخطب قصيرة وبسيطة ، وبدأت فرقة الآلات النفخية بعزف موسيقى غوغائية ، غير مقررة في البرنامج ، وانتقل المدعوون الى الشرفات بانتظار أن ينتهي رجال فندق دون سانتشو من نزح الماء المتجمع في الفناء ، ليروا ان كان هنالك من سيتحمس للرقص . والوحيدون الذين بقوا في الصالة هم مدعوو طاولة الشرف ، الذين كانوا يحتفلون باحتساء الدكتور أوربينو نصف كأس من البراندي دفعة واحدة في نخب أخير . ليس هناك من يذكر أنه فعل ذلك قبل اليوم ، ما عدا ارتشافه كأس نبيذ من صنف فاخر ، مع وجبة خاصة جدا في مناسبات قليلة ، لكن قلبه طلب هذا في ذلك اليوم ، وكان ضعفه حسن الاثابة : اذ أحس مجددا ، بعد سنوات وسنوات ، برغبة في الغناء . وكان سيفعل ذلك دون شك ، بناء على طلب عازف الكمان الشاب الذي تطوع لمرافقته ، لولا أن سيارة من السيارات الجديدة اجتازت أوحال الفناء بسرعة ، ملوثة الموسيقيين بالوحل ومثيرة طيور البط في الاقفاص بنفيرها الذي كصوت البط ، وتوقفت أمام مدخل البيت . نزل الدكتور ماركو اوريليو اوربينو داثا وزوجته وهما غارقان بالضحك ، يحملان في كل يد صينية مغطاة بقماش مخرم . وكانت هناك صوان أخرى مماثلة في المقاعد الخلفية ، وعلى أرضية السيارة الى جانب السائق أيضا . انها الحلوى المتأخرة . وبعد أن توقف التصفيق وصفير السخرية الودود ، شرح الدكتور أوربينو داثا بجدية كيف أن الراهبات طلبن منه نقل الحلوى قبل أن تبدأ العاصفة ، لكنه رجع من الطريق العام لأن أحدهم قال له بأن بيت والديه يحترق ، أصاب الذعر الدكتور خوفينال أربينو دن أن ينتظر انتهاء ابنه من

الحكاية . لكن زوجته ذكرته بأنه هو نفسه قد أمر باستدعاء رجال الاطفاء للامساك بالببغاء ، وقررت امينتا دي اوليفييا المتألقة بهجة أن تقدم الحلوى على الشرفات ، حتى ولو كان ذلك بعد تناولهم القهوة ، لكن الدكتور أوربينو وزوجته انصرفا دون تذوقها ، لأن الوقت المتبقي لا يكاد يكفيه لنوم قيلولته المقدسة قبل أن يذهب الى الجنازة .

نام قيلولته ، انما لوقت قصير وبشكل سيئ ، لأنه عندما عاد الى البيت ، وجد أن رجال الاطفاء قد تسببوا باضرار تقارب بخطورتها اضرار حريق ، ففي محاولتهم لافزاع الببغاء ، اسقطوا احدى الاشجار بخراطيم الضغط المرتفع ، ودخلت دفقة ماء سيئة التصويب من نافذة حجرة النوم الرئيسية محدثة أضرارا لا مجال لاصلاحها في الأثاث وفي صور الأجداد المجهولين المعلقة على الجدران . وقد هرع الجيران عندما سمعوا جرس سيارة الاطفاء ، معتقدين أن حريقا قد شب . واذا كانت لم تحدث قلاقل اسوأ ، فلأن المدارس كانت مغلقة لأن اليوم هو يوم أحد ، وعندما أيقنوا أنهم لن يتمكنوا من الوصول الى الببغاء حتى باستخدام السلالم ذات الأجزاء الاضافية ، أخذ رجال الاطفاء يحطمون الأغصان بالفؤوس ، وكان ظهور الدكتور اوربينو داثا هو الذي منعهم من بتر جذع الشجرة . فتوقفوا بعد أن وعدوا بالرجوع بعد الساعة الخامسة ليروا ان كانوا يخولنهم بتقليم الشجرة . وفي طريقهم لوثوا الشرفة والصالة بالوحل ، ومزقوا سجادة تركية هي المفضلة لدى فيرمينا داثا ، فكانت كارثة بلا طائل . اضافة الى أن الرأي السائد كان القائل بأن الببغاء قد انتهزت فرصة الفوضى لتهرب عبر الباحات المجاورة ، وقد بحث عنها الدكتور اوربينو فعلا بين اوراق الشجرة ، ولم يتلق ردا بأية لغة ، ولا حتى بالصفير والغناء ، فاعتبرها مفقودة ومضى لينام في حوالي الساعة الثالثة وقبل ذلك تلذذ بمتعة بوله المصفى بالهليون الدافئ .

ايقظه الأسى . ليس الأسى الذي أحسه صباحا وهو أمام جثة صديقه ، وانما الغمامة اللامرئية التي كانت تضمخ روحه بعد القيلولة ، والتي اعتبرها اخطاراً إلهياً بأنه يعيش آخر أمسياته ، لم يكن يعي حتى بلوغه سن الخمسين حجم أو وزن أو حالة احشائه . وشيئا فشيئا ، وفيما هو يرقد مغمض العينين بعد القيلولة اليومية ، بدأ يشعر باحشائه في جوفه ، جزءا جزءا ، بدأ يحس حتى بشكل قلبه المسهد ، وكبده الغامض ، وبنكرياسه الكتيم ، وراح يكتشف ان جميع الناس ، بما فيهم أولئك الأكبر منه سنا ، كانوا أصغر منه ، وأنه الوحيد على قيد الحياة من بين أبناء صور جيله النائي . وعندما تنبه الى حالات نسيانه الأولى ، سارع لاستخدام طريقة سمعها من أحد أساتذته في مدرسة الطب : «من لا ذاكرة له فليصنع ذاكرة من الورق» . لكنها لم تكن سوى وهم زائل ، اذ وصل الى اقصى درجات النسيان بنسيانه ما تعنيه ملاحظات التذكير التي كان يدسها في جيوبه ، وصار يذرع البيت بحثا عن نظارته التي يضعها على عينيه ، ويعيد ادارة المفتاح بعد أن يكون قد أقفل الباب ، ويضيع خيط القراءة بنسيانه مقدمات البراهين أو أوصاف الشخصيات . لكن أكثر ما كان يقلقه هو ارتيابه بقدرته العقلية ذاتها : وشيئا فشيئا ، في غرق محتم ، كان يشعر بأنه يضيع معنى العدالة .

ومن خلال التجربة وحدها ، وذلك دون مرتكزات علمية ، كان الدكتور خوفينال اوربينو يعرف أن معظم الأمراض القاتلة لها رائحة خاصة ، لكن أيا منها ليس محدد الرائحة كما هو داء الشيخوخة . كان يلمس ذلك في الجثث المفتوحة على طاولة التشريح ، ويتعرفه حتى في أكثر المرضى اتقانا في اخفاء سنهم الحقيقي ، وفي عرق ثيابه بالذات ، وفي التنفس الاعزل لزوجته النائمة . ولولا أنه كان في أعماقه ، مسيحيا على الطريقة القديمة ، فربما كان قد اتفق مع جيرميا دي سانت ـ آمور بأن الشيخوخة هي حالة تردد

يجب تفاديها مسبقا . ان العزاء الوحيد ، حتى بالنسبة لمن كان رجلا جيدا في السرير مثله ، هو الانطفاء البطيء والرؤوف للرغبة : السلام الجنسي . لقد كان وهو في الحادية والثمانين يتمتع بوعي يجعله يدرك انه مشدود الى هذا العالم بخيوط واهية قد تنقطع دون ألم بمجرد حركة بسيطة أثناء النوم ، واذا كان يفعل كل ما يمكنه للاحتفاظ بتلك الخيوط فذلك لخوفه من الا يجد الرب في ظلمات الموت .

كانت فيرمينا داثا قد انهمكت في ترتيب حجرة النوم التي عاث فيها رجال الاطفاء ، وقبيل الساعة الرابعة بقليل حملت الى زوجها كأس الليمونادة اليومي مع الثلج المكسر ، وذكرته بأن عليه أن يرتدي ملابسه ليذهب الى الجنازة ، كان تحت متناول يد الدكتور هذا المساء كتابان اثنان : الانسان ، ذلك المجهول لالكسيس كاريل ، وتاريخ سان ميشيل لاكسيل مونث . ولم يكن الكتاب الأخير قد فتح بعد ، فطلب من ديغنا باردو ، الطاهية ، ان تأتيه بفتاحة الكتب العاجية التي نسيها في حجرة النوم . ولكن عندما جاؤوه بها كان قد بدأ القراءة في كتاب الانسان ذلك المجهول في الصفحة المعلمة بمغلف رسالة : كانت لاتزال أمامه بضع صفحات قليلة لانهاء الكتاب . قرأ بتمهل ، شاقا الطريق عبر منعطفات نقطة الم في الرأس عزاها الى نصف كأس البراندي الذي شربه في النخب الأخير . وفي وقفاته عن القراءة كان يتناول رشفة من الليمونادة ، أو يتمهل في قضم قطعة من الثلج ، كان لابسا جوربيه ، وقميصه دون وضع الياقة المنفصلة ، فيما حمالتا البنطال المطاطيتان بخطوطهما الخضراء تتدليان على جانبي خصره ، وكان يزعجه مجرد التفكير بأن عليه استبدال ملابسه من أجل الجنازة . ما لبث أن توقف عن القراءة ، ووضع الكتاب فوق الكتاب الآخر ، وبدأ يتأرجح على مهل في كرسي الخيزران الهزاز ، متأملاً من خلال الأسى شجيرات الموز في مستنقع الفناء ، وشجرة المانغا ملتفة الأغصان ، ونمل ما

بعد المطر الطيار ، والضياء الفاني لمساء آخر ينقضي الى الأبد . كان قد نسي أنه كان يملك ببغاء في أحد الأيام وانه أحبها كما يحب كائنا بشريا ، عندما سمعها فجأة : «ببغاء ملكي» . سمعها قريبا جدا منه ، الى جواره تقريبا . ثم رآها في الحال على أوطأ أغصان شجرة المانغا . فصرخ بها :

ـ عديمة الحياء .

وردت الببغاء بصوت مطابق تماما :

ـ عديم الحياء هو أنت يا دكتور .

تابع الحديث معها دون أن يرفع نظره عنها ، ريثما لبس جزمته بحذر شديد حتى لا يخيفها ، ودس يديه في حمالتي البنطال ، ونزل الى الفناء الذي مازال موحلا متلمسا الطريق بعكازه كي لا يصطدم بدرجات المصطبة الثلاث . بقيت الببغاء بلا حراك . وكانت تقف على ارتفاع منخفض جدا ، لدرجة أنه مد لها العكاز لتقف على قبضته الفضية ، كما تفعل عادة ، لكن الببغاء أعرضت عنها . قفزت الى غصن مجاور ، أعلى قليلا لكن الوصول اليه أسهل ، حيث كان السلم الخاص بالبيت مسندا قبل مجيء رجال الاطفاء . قدر الدكتور اوربينو الارتفاع ، وفكر بأنه بارتقاء عارضتين من عوارض السلم سيتمكن من الامساك بها . صعد الدرجة الأولى ، مغنيا أغنية يعرفها كلاهما ليشتت انتباه الطائر الفظ الذي كان يكرر الكلمات بلا موسيقى ويبتعد على الغصن بحركات جانبية . صعد العارضة الثانية دون مشقة وهو يمسك السلم بكلتا يديه ، وبدأت الببغاء بترديد الأغنية كاملة دون أن تبدل مكانها . ارتقى العارضة الثالثة ، ثم الرابعة في الحال ، اذ أنه أساء تقدير ارتفاع الغصن ، وحينئذ تشبث بيده اليسرى بالسلم وحاول امساك الببغاء باليمنى . كانت ديغنا باردو ، الخادمة العجوز قادمة لتنبيهه الى أنه يكاد يتأخر عن موعد الجنازة ، فرأت ظهر الرجل الصاعد على السلم ، ولم تكن لتصدق انه هو لولا الخطوط الخضراء التي على حمالة البنطال المطاطية .

صرخت :

ـ يا ربنا المقدس! سيقتل نفسه!

أمسك الدكتور اوربينو بعنق الببغاء وهو يتنهد ظافرا : انتهى الأمر ، لكنه افلتها فورا ، لأن السلم انزلق تحت قدميه وبقي هو معلقا برهة في الهواء ، فأدرك حينئذ أنه قد مات دون قربان رباني ، ودون أن يتاح له الوقت ليندم على شيء أو ليودع أيا كان ، في الساعة الرابعة وسبع دقائق من مساء يوم أحد العنصرة .

كانت فيرمينا داثا في المطبخ تتذوق حساء العشاء ، عندما سمعت صرخة الرعب التي اطلقتها ديغنا باردو وجلبة خدم البيت ثم خدم البيوت المجاورة . القت بملعقة التذوق وحاولت الركض بقدر ما استطاعت مع ثقل سنها الذي لا سبيل الى هزيمته ، صارخة كمجنونة ، دون أن تعرف حتى الآن حقيقة ما جرى تحت أوراق شجرة المانغا ، وقفز قلبها مفتتا عندما رأت رجلها مطروحا على ظهره في الوحل ، ميتا في الحياة ، لكنه مازال يقاوم ضربة الموت الأخيرة ريثما تصل هي . تمكن من التعرف عليها وسط الحشد ومن خلال دموع الألم التي لا تتكرر لموته من دونها ، وتطلع اليها لآخر مرة والى الأبد بعينين أشد بريقا ، وأكثر حزنا ، وأعظم امتنانا مما رأته طوال نصف قرن من الحياة المشتركة ، واستطاع أن يقول لها مع النفس الأخير :

ـ الله وحده يعلم كم أحببتك .

كانت ميتة مشهودة ، وليس ذلك من فراغ ، فما أن أنهى دراسته التخصصية في فرنسا ، حتى ذاع صيت الدكتور خوفينال أوربينو في البلاد بأنه من درأ مسبقا ، بأساليب مستحدثة وصارمة ، أخطار جائحة الكوليرا الأخيرة التي تعرض لها الاقليم . فالجائحة السابقة ، التي جاءت وهو ما يزال في أوروبا ، تسببت في موت ربع عدد السكان على الأقل خلال ثلاثة شهور ، بما في ذلك أبوه ، الذي كان طبيبا بارزا أيضا . بهذه الشهرة

السريعة وبأعانة من الارث العائلي ، أسس المؤسسة الطبية ، وهي المؤسسة الأولى والوحيدة في اقليم الكاريبي لسنوات طويلة ، وكان رئيسا لها مدى الحياة ، ثم أنشأ أول تمديدات لمياه الشرب بعد ذلك ، وأول نظام للصرف ، ودعا لاقامة السوق العام المسقوف الذي جعل شاطئ لاس اينماس صحيا بعد أن كان مجمعا للنتانة . كما كان رئيسا لاكاديمية اللغة وأكاديمية التاريخ... وقد نصّبه بطريرك القدس فارسا من مرتبة سانتو سيبولكر لخدماته التي قدمها للكنيسة ، ومنحته الحكومة الفرنسية وسام جوقة الشرف من مرتبة فارس . كما كان محركا فعالا في جميع الجمعيات الدينية والمدنية التي أقيمت في المدينة ، وخصوصا الجمعية الوطنية ، المؤلفة من مواطنين مؤثرين ليست لديهم طموحات سياسية ، يمارسون نفوذهم على الحكومات والتجارة المحلية بأفكار متنورة تتسم بالجرأة بالمقارنة مع الظرف التاريخي . من هذه الأفكار ، وأكثرها جدارة بالذكر ، كانت تجربة منطاد حمل في طيرانه الأول رسالة الى بلدة سان خوان دي لاثييناغا ، قبل زمن طويل من التفكير بالبريد الجوي كوسيلة عقلانية ، ومن أفكاره أيضا اقامة المركز الفني ، الذي أسس مدرسة الفنون الجميلة في المبنى ذاته الذي مازالت تحتله حتى الآن ، كما رعى طوال سنوات عديدة مهرجان الزهور والشعر في نيسان .

وهو وحده تمكن من تحقيق ما اعتبر مستحيلا خلال قرن من الزمن : اعادة افتتاح مسرح الكوميدي ، الذي تحول الى ملعب لصراع الديكة ومربي ديوك منذ العهد الاستعماري . كان ذلك تتويجا لحملة مدنية استعراضية شاركت بها جميع قطاعات المدينة بلا استثناء ، في تحرك حاشد اعتبره الكثيرون جديرا بقضية أهم . ومع ذلك ، فقد جرى افتتاح مسرح الكوميدي في الوقت الذي لم تكن توجد فيه مقاعد ولا مصابيح ، وكان على الحضور أن يجلبوا معهم ما يجلسون عليه وما يستضيؤون به في الاستراحات بين

الفصول . وفرضت آداب الاتكيت القائمة في أعظم مسارح أوروبا ، حيث انتهزت سيدات المجتمع الراقي الفرصة لعرض فساتينهن الطويلة ومعاطف الفراء في حر الكاريبي الخانق ، انما كان لا بد من السماح للخدم بالدخول ليحملوا المقاعد والمصابيح ، وكذلك بعض الأطعمة التي كانوا يرون أنها ضرورية لتحمل البرامج الطويلة التي لا تنتهي ، والتي استمر احدها حتى ساعة صلاة الفجر الأولى . وافتتح الموسم بفرقة اوبرا فرنسية كان الجديد لديها استخدام قيثارة في الاوركسترا ، وكان مجدها التليد في الصوت النقي والموهبة الدرامية لمغنية تركية تغني وهي حافية وتضع خواتم ذات أحجار كريمة في أصابع قدميها . ومنذ الفصل الأول لم تعد مرئية تقريبا وفقد المغنون أصواتهم بفعل الدخان المنطلق من مصابيح زيت الكوروثو ، لكن كتبة وقائع المدينة اهتموا بمحو هذه العوائق الصغيرة وتعظيم ما هو جدير بالذكر . وقد كانت هذه دون شك أكثر مبادرات الدكتور اوربينو انتشارا ، اذ انتقلت عدوى حمى الأوبرا الى قطاعات في المدينة لا تخطر على بال ، وكانت منطلقاً لجيل كامل من الاسولدات والعطيلين ، ومن العايدات والسيجفريدين[1] ، لكن ذلك كله لم يصل الى الحد الذي تمناه الدكتور اوربينو ، الا وهو رؤية انصار الموسيقى الايطالية وانصار فاغنر يواجهون بعضهم بعضا بالعكاكيز أثناء الاستراحات .

لم يقبل الدكتور اوربينو مطلقا أي منصب رسمي من المناصب التي كثيرا ما كانت تعرض عليه دون شروط ، وكان ناقدا قاسيا للأطباء الذين يستغلون سمعتهم المهنية ليرتقوا المناصب السياسية . وعلى الرغم من انه اعتُبِر ليبراليا دوما ، واعتاد على التصويت في الانتخابات لمرشحي هذا الحزب ، فربما كان كذلك آخر أبناء الأسر الكبيرة الذي يركع في الشارع لدى مرور مركبة الاسقف . وكان يعرف نفسه كنصير طبيعي للسلام ،

---

(١) صيغة جمع لأسماء : اسولدة ، عطيل ، عايدة ، سيجفريد ، وهي شخصيات درامية مشهورة .

ونصير للصلح النهائي بين الليبراليين والمحافظين من أجل مصلحة الوطن . لكن سلوكه العام كان ذاتيا لدرجة أن أحدا لم يعتبره مواليا له : فالليبراليون يرون فيه قوطيا من قوطيي الكهوف ، والمحافظون يقولون ان ما ينقصه هو أن يكون ماسونيا فقط ، ويبتعد عنه الماسونيون باعتباره كاهنا متخفيا يعمل في خدمة الكرسي البابوي . واقل نقاده دموية كانوا يفكرون بأنه ليس سوى ارستقراطي غارق في ملذات العاب عيد الزهور ، فيما الأمة تنزف في حرب أهلية لا تنتهي .

عملان وحيدان قام بهما فقط وبديا غير منسجمين مع هذه الصورة . الأول هو انتقاله الى بيت جديد في حي محدثي الثراء ، بدلا من قصر الماركيز دي كاسالدويرو القديم ، والذي كان بيت العائلة لأكثر من قرن . والعمل الآخر هو زواجه من آية جمال شعبية ، بلا ألقاب ولا ثروة ، تلك التي كانت تسخر منها سرا السيدات ذوات الألقاب الطويلة الى أن اقتنعن بالقوة أنها قادرة على اللف بهن سبع لفات برشاقتها وطبعها . وقد كان الدكتور اوربينو يضع في اعتباره دوما هذه العثرات وغيرها مما يحيط بصورته العامة ، ولم يكن هناك من هو أكثر منه وعيا لحالته كآخر رجل من أبناء لقب آخذ في الانقراض . فابناه كانا نهاية سلالة لا بصيص أمل لها في الاستمرار . ابنه الذكر ، ماركو اوريليو ، طبيب مثله ومثل كل أسلافه في كل جيل ، لم يفعل شيئا يستحق الذكر ، حتى أنه لم ينجب ابنا ، على الرغم من تجاوزه الخمسين من العمر . واوفيليا ، ابنته الوحيدة ، متزوجة من موظف مرموق في مصرف بينو اورليانز ، وقد بلغت سن اليأس ولم تنجب سوى ثلاث بنات دون أي مولود ذكر . مع ذلك ، وبرغم أن انقطاع رحمه في ينبوع التاريخ كان يسبب له الأسى ، فان أكثر ما كان يقلق الدكتور اوربينو من الموت هو الحياة المتوحدة التي ستعيشها فيرمينا داثا بدونه .

لقد أثارت المأساة على كل حال قلقا ، ليس بين ذويه فحسب ، بل

انها انتقلت بالعدوى الى عامة الشعب ، الذي خرج الى الشوارع على أمل التعرف ولو على بريق الأسطورة . أعلنت ثلاثة أيام من الحداد ، ونكست الأعلام على الدوائر العامة ، وقرعت نواقيس جميع الكنائس دون توقف الى أن ختم الضريح في مدفن العائلة . وقامت مدرسة الفنون الجميلة بطبع وجه الجثة لاستخدامها كقالب لتمثال نصفي بالحجم الطبيعي ، ولكن تم التخلي عن المشروع لأن أحدا لم ير تقاطيع الوجه أمينة بعد التحول الذي أصابه اثر رعب اللحظة الأخيرة ، ثم رسم فنان شهير مر من هنا مصادفة ، وهو في طريقه الى أوروبا ، لوحة زيتية ضخمة بواقعية مؤثرة ، يظهر فيها الدكتور اوربينو متسلقا السلم في اللحظة القاتلة التي مد فيها يده للامساك بالببغاء . والشيء الوحيد الذي كان يناقض الحقيقة الخام في القصة هو أنه لم يكن يرتدي في اللوحة قميصه الذي بلا ياقة وحمالتي السروال المخططتين بالأخضر ، وانما القبعة المدورة والسترة السوداء المأخوذة عن صورة منشورة في الصحف خلال سنوات الكوليرا . وقد عرضت هذه اللوحة بعد شهور قليلة من المأساة كي يراها الجميع بلا استثناء ، في صالة السلك الذهبي الفسيحة ، وهي دكان لبيع المواد المستوردة يؤمها سكان المدينة بأسرها . بعد ذلك علقت على جدران عدد من المؤسسات العامة والخاصة التي رأت أنه من الواجب تقديم فروض الاحترام لذكرى نبيل شهير ، ونقلت أخيرا في جنازة ثانية لتعلق في مدرسة الفنون الجميلة ، حيث أخرجها من هناك بعد سنوات طويلة طلاب الرسم بالذات لاحراقها في ساحة الجامعة كرمز لجمالية وأزمنة مكروهة .

منذ اللحظة الأولى في حياتها كأرملة ، بدا أن فيرمينا داثا ليست بائسة كما خشي زوجها . فقد اتخذت موقفا متصلبا بالاصرار على عدم السماح باستخدام الجثة في سبيل أية قضية ، كما اتخذت موقفا مماثلا من برقية رئيس الجمهورية ، الذي أمر بعرض الجثمان في الحجرة الخانقة في صالة

الاحتفالات التابعة للسلطة المحلية ، وعارضت بنفس الصرامة ان يجري السهر على الجثمان في الكتدرائية ، كما طالب الاسقف شخصيا ، ووافقت على نقله الى هناك خلال قداس الجسد الحاضر في المراسم الجنائزية . وبرغم توسط ابنها ، المذهول لكثرة هذه المطالب وتنوعها ، حافظت فرمينا داثا باصرار على فكرتها الريفية القائلة بأن الموتى لا ينتمون الى أحد سوى عائلاتهم ، وبأنه سيجري السهر على الجثة في البيت مع تقديم القهوة المرة وكعك الجبن والدقيق ، وافساح المجال لكل من يشاء لأن يبكيه كما يرغب ، لم يجر السهر التقليدي الذي يدوم سبع ليال ، بل أغلقت الأبواب بعد الدفن ولم تعد تفتح الا لزيارات حميمة .

وضع البيت تحت نظام الموت . كل شيء ذي قيمة نقل الى مكان آمن ، ولم يبق على الجدران العارية سوى آثار الصور المنزوعة من مكانها . وصفت الكراسي الخاصة وتلك المستعارة من الجيران بمحاذاة الجدران في الصالة ، وحتى في غرف النوم ، وبدت المساحات الفارغة فسيحة جدا ، وكان للاصوات رنين خاص ، لأن قطع الأثاث الكبيرة قد ابعدت ، ما عدا بيانو الكونشيرتو القابع في ركنه تحت شرشف أبيض . وفي وسط المكتبة ، فوق طاولة والده ، كان ممددا في التابوت من كان خوفينال اوربينو دي لاكايي ، وقد تصلبت على وجهه حالة الرعب الأخيرة التي أحسها ، ومعه في التابوت العباءة السوداء وسيف فرسان سانتو سيبولكرو الحربي . بينما فيرمينا داثا الى جانبه ، مرتعشة ولكن مسيطرة على نفسها تماما ، تتلقى التعازي بلا دراماتيكية ، ودون أن تتحرك تقريبا ، حتى الساعة الحادية عشرة من صبيحة اليوم التالي ، عندما ودعت زوجها من الرواق الخارجي قائلة له وداعا بمنديل في يدها .

لم يكن من السهل عليها أن تتماسك هكذا مذ سمعت صرخة ديغنا باردو في الفناء ، ووجدت شيخ حياتها يحتضر في الوحل ، وقد كانت ردة

فعلها الأولى مشبعة بالأمل ، لأن عينيه كانتا مفتوحتين وبهما بريق ضوء مشع لم تره في حدقتيه أبدا من قبل . رجت الله أن يمنحه لحظة من الحياة على الأقل ، كي لا يمضي دون أن يعرف كم أحبته فوق شكوكهما كليهما ، وأحست باستعجال لا يقاوم للبدء معه بالحياة ثانية منذ البداية لتقول له كل ما لم تقله ، ولتفعل على أحسن وجه كل شيء كانت قد أساءت صنعه في الماضي . لكنها اضطرت للاستسلام أمام عناد الموت ، لقد تحلل ألمها الى غضب أعمى ضد العالم ، بل وضد نفسها بالذات ، وهذا ما رسخ سيطرتها على نفسها ومنحها الشجاعة لمواجهة العزلة منفردة . لم تجد هدنة منذ ذلك الحين ، لكنها حاذرت من الاتيان بأية حركة قد يبدو فيها ما ينم عن ألمها . واللحظة الوحيدة التي أحست فيها بشيء من التأثر ، وكان تأثرا لاإراديا ، كانت في الساعة الحادية عشرة من ليل الأحد ، عندما حملوا التابوت الذي مازالت تنبعث منه روائح كروائح السفن ، بمقابضه النحاسية وتنجيده الحريري الوثير . لقد أمر الدكتور اوربينو داثا باغلاقه فورا ، فجو البيت كان مخلخلا بروائح كل تلك الزهور في الحر الخانق ، وأحس بأنه قد رأى أول الظلال البنفسجية على عنق أبيه . وفيما هي ساهية ، سمعت في الصمت : «ان المرء ليصبح شبه متعفن وهو حي في مثل هذه السن» . وقبل أن يغلقوا التابوت ، نزعت فيرمينا داثا خاتم الزواج من يدها ووضعته في يد زوجها الميت ، ثم غطت يده بيدها كما كانت تفعل دائما كلما فاجأته شاردا وسط الناس . قالت له :

ـ سنلتقي قريبا جدا .

أحس فلورنتينو اريثا ، المختفي بين جموع الوجهاء والأعيان ، بحربة تخترق خاصرته ، لم تكن فيرمينا داثا قد ميزته وسط صخب التعزيات الأولى ، مع أن أحدا لم يكن أكثر حضورا ولا أكثر فائدة منه في شؤون تلك الليلة المستعجلة . فهو الذي نظم العمل في المطابخ الغاصة حتى لا تنقص

القهوة . وحصل على كراسٍ اضافية عندما لم تعد كراسي الجيران كافية ، وأمر بوضع الاكاليل الزائدة في الفناء عندما لم يعد في البيت متسع لاكليل آخر . وتولى أمر عدم انقطاع البراندي من أجل ضيوف الدكتور لاثيديس أوليفيبا ، الذين علموا بالخبر المشؤوم وهو في أوج الاحتفال باليوبيل الفضي ، فجاؤوا فزعين ليتابعوا احتفالهم وهم جالسون على شكل دائرة تحت شجرة المانغا . وكان هو وحده من أحسن التصرف حين ظهرت الببغاء الهاربة عند منتصف الليل في صالة الطعام رافعة رأسها وفاتحة جناحيها ، مما أشاع قشعريرة ذهول في البيت ، اذ كانت تبدو وكأنها تقدم عرض توبة وتكفير . أمسكها فلورنتينو اريثا من عنقها دن أن يتيح لها الوقت لتصرخ بأي من صرخاتها الحمقاء ، وحملها الى الاصطبل في قفص مغطى . لقد فعل كل تلك الأمور بصمت كامل وفعالية فائقة ، لم تتيحا مجالا لأحد كي يفكر بأن ما يفعله هو تدخل في شؤون الآخرين ، وانما مساعدة لا تثمن في ساعة الشؤم التي يمر بها البيت .

وكان يبدو عليه أنه شيخ هرم خدوم وجدي . جسده عظمي ومعتدل ، بشرته بنية ومرداء ، وعيناه شرهتان تطلان من وراء النظارة المستديرة ذات الاطار المعدني الأبيض ، له شارب رومنسي طرفاه المدببان مثبتان بمادة مثبتة ، بطريقة متخلفة بعض الشيء عن العصر . وكان آخر ما تبقى له من الشعر على الصدغين مسرحا الى أعلى ومثبتا بمثبت شعر في وسط رأسه اللامع ، كحل أخير لصلعة متكاملة . ان مروءته الطبيعية وأساليبه الهادئة تسلب اللب في الحال ، ولكن كان هناك أمران يثيران الشكوك في عازب متماد في عزوبيته : لقد انفق مالا كثيرا ، وحيلة واسعة وتصميما شديدا كي لا تظهر آثار السنوات الستة والسبعين التي أتمها في شهر آذار الأخير ، وكان مقتنعا في عزلة روحه بأنه قد أحب بصمت أكثر بكثير من أي كان في هذا العالم .

في ليلة موت الدكتور اوربينو كان يرتدي الملابس التي كانت عليه عندما فاجأه الخبر ، وقد كانت نفس الملابس التي يرتديها دائما بالرغم من حر حزيران الجهنمي : بذلة من القماش الأسود مع صدرية ، وشريط حريري معقود على الياقة القاسية ، وقبعة من اللبد ، ومظلة من مخمل اسود كان يستخدمها كعكاز أيضا . ولكن ما ان بدأ الفجر ينبلج حتى اختفى من مكان السهر على الميت لمدة ساعتين ، عاد بعدهما مع أول أشعة الشمس بمظهر طازج ، فقد حلق ذقنه جيدا وتطيب بمستحضرات تجميل ، وارتدى سترة سوداء من تلك التي لم تعد تستخدم الا في الجنازات أو في مراسم الاحتفال بالجمعة الحزينة ، وياقة ذات ربطة عنق مع شريطة الفنان بدلا من الكرافتة ، وقبعة مستديرة . كما كان يحمل المظلة ، وليس ذلك بفعل العادة وحدها ، وانما لأنه كان متأكدا من أن المطر سيهطل قبل الثانية عشرة ، وقد أخبر بذلك الدكتور اوربينو داثا ليرى ان كان بالامكان تقديم موعد الدفن ، وحاولوا ذلك فعلا ، لأن فلورنتينو اريثا ينتمي الى عائلة ملاحين وهو نفسه يرأس شركة الكاريبي للملاحة النهرية ، مما يسمح بالافتراض أنه يفهم بالأرصاد الجوية . لكنهم لم يتمكنوا من اخطار السلطات المدنية والعسكرية في الوقت المناسب ، وكذلك المؤسسات العامة والخاصة ، والفرقة الموسيقية الحربية وفرقة موسيقى الفنون الجميلة ، والمدارس والجمعيات الدينية التي كانت متفقة على الساعة الحادية عشرة ، وهكذا فان الجنازة التي كان مقررا لها أن تكون حدثا تاريخيا انتهت شذر مذر بفعل وابل المطر المدمر . وكان قليلا عدد الذين تمكنوا من الغوص في الوحل للوصول الى مدفن العائلة الذي تظلله شجرة ثيبيا استعمارية تمتد ايكتها الى ما فوق جدار المقبرة . وتحت هذه الايكة بالذات ، انما في المنطقة الخارجية المخصصة للمنتحرين ، كان لاجئو الكاريبي قد دفنوا في عصر اليوم السابق جيرميا دي سانت ـ آمور ، وكلبه بجواره ، تنفيذا لمشيئته .

كان فلورنتينو اريثا أحد القلائل الذين واصلوا لحين الانتهاء من الدفن . لقد ابتلت حتى ملابسه الداخلية ، ووصل الى بيته مذعورا من تعرضه للاصابة بنزلة صدرية بعد كل هذه السنوات من الرعاية الدقيقة والاحتياطات المفرطة . اعد لنفسه ليموناداة دافئة مع قليل من البراندي ، وتناولها في السرير مع قرصين من الاسبرين وتعرق عرقا غزيرا وهو متدثر بحرام صوفي الى أن استعاد جسده حرارته العادية . وعندما رجع الى بيت العزاء أحس بالحماس الكامل . كانت فيرمينا داثا قد تولت من جديد قيادة البيت المكنوس والمهيأ لاستقبال المعزين ، وكانت قد وضعت على المذبح الذي في المكتبة صورة لزوجها الميت مرسومة بالباستل ، وعلى اطارها شريط حداد . في الساعة الثامنة كان هناك حشد كبير من الناس وكان الحر خانقا كما في الليلة السابقة ، ولكن بعد قداس الصباح بث أحدهم رجاء يطلب الى الناس الانصراف باكرا كي تستريح الأرملة للمرة الأولى منذ عصر يوم الأحد .

ودعت فيرمينا داثا معظم المعزين وهي الى جانب المذبح ، لكنها رافقت المجموعة الأخيرة من الأصدقاء الحميمين حتى الباب الخارجي ، لتغلقه بنفسها ، كما اعتادت ان تفعل دائما ، وكانت تستعد لعمل ذلك بآخر نفس متبق في صدرها عندما رأت فلورنتينو اريثا مرتديا ملابس الحداد في وسط الصالة الخاوية . أحست بالسعادة ، لأنها كانت قد محته من حياتها منذ سنوات طويلة ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تراه فيها بوعي طهره النسيان . ولكن قبل ان تتمكن من شكره لهذه الزيارة ، وضع قبعته فوق موقع القلب ، وشق الدمل الذي كان قوام حياته ، بأن قال لها بصوت مرتعش ووقور :

ـ فيرمينا... لقد انتظرت هذه الفرصة لأكثر من نصف قرن ، لأكرر لك مرة أخرى قسم وفائي الأبدي وحبي الدائم .

ظنت فيرمينا داثا انها تقف امام معتوه ، ولم تكن لديها الأسباب لتفكر بأن فلورنتينو اريثا كان ملهما في تلك اللحظة بنعمة الروح القدس . وكان رد فعلها الأولي أن لعنته لانتهاكه حرمة البيت فيما جثة زوجها مازالت ساخنة في القبر . لكن الوقار منعها من الغضب ، فقالت له : «انصرف . ولا تدعني أراك ثانية في السنوات المتبقية لك في الحياة» ثم أعادت فتح الباب الخارجي على اتساعه بعد أن كانت قد بدأت باغلاقه ، واختتمت قائلة :

ـ وأرجو أن تكون سنوات قليلة .

عندما سمعت خطواته تنطفئ في الشارع المقفر ، أغلقت الباب ببطء شديد ، وأقفلته بالقفل والرتاجات ، وواجهت قدرها وحيدة ، لم تكن تعي تماما ، حتى اليوم ، وزن وحجم المأساة التي اثارتها وهي في الثامنة عشرة من عمرها ، والتي ستلاحقها حتى موتها . بكت لأول مرة منذ مساء المصيبة ، دون شهود ، وكانت هذه هي طريقتها الوحيدة في البكاء . بكت لموت زوجها ، لعزلتها وغضبها ، وعندما دخلت مخدعها الخاوي بكت نفسها ، لأنها لم تنم في هذا الفراش وحيدة منذ فقدت عذريتها الا مرات قليلة . كل أشياء زوجها كانت تستثير بكاءها : الخف ذو الشرابة ، البيجاما التي تحت الوسادة ، مكانه الفارغ في خوان الزينة ، رائحته الشخصية على بشرتها بالذات ، وهزها خاطر مبهم : «على الناس الذين يحبهم المرء أن يموتوا مع كل أشيائهم» . لم تكن بحاجة لمساعدة أحد كي تنام ، ولم ترغب بأكل شيء قبل النوم ، ورجت الله ، وهي مثقلة بالأسى ، أن يبعث لها الموت في هذه الليلة بالذات وهي نائمة ، وعلى هذا الأمل نامت . نامت دون أن تدري بأنها نائمة ، لكنها كانت تدري أنها حية في نومها ، وأن لديها نصف سرير فائض عن حاجتها ، وأنها ترقد على جنبها في الطرف الأيسر ، كما هي عادتها ، انما ينقصها توازن الجسد الآخر على الطرف المقابل من السرير .و فيما هي نائمة تفكر ، فكرت بأنها لن تستطيع النوم أبداً بهذه

الحال ، وبدأت تنتحب وهي نائمة ، ونامت منتحبة دون أن تغير وضعها على حافة السرير ، الى ما بعد انتهاء صياح الديكة بكثير . وأيقظتها شمس الصباح غير المرغوبة من دونه . وحينئذ فقط أدركت بأنها قد نامت طويلا دون أن تموت ، منتحبة في الحلم ، وفيما هي تنام منتحبة كانت تفكر بفلورنتينو اريثا أكثر من تفكيرها بزوجها الميت .

أما فلورنتينو اريثا فلم يتوقف عن التفكير بفيرمينا داثا لحظة واحدة منذ أن رفضته بلا استئناف إثر غراميات طويلة متناقضة ، وقد انقضت منذ ذلك الحين احدى وخمسون سنة وتسعة شهور وأربعة أيام . لم يكن عليه حمل حساب النسيان بوضع خط صغير يومي على جدران زنزانة ، لأنه لم يكن يمر يوم إلا ويحدث شيء يذكره بها . كان له من العمر عند القطيعة اثنتان وعشرون سنة وكان يعيش وحيداً مع أمه ، ترانسيتو اريثا ، في نصف بيت مُستأجر في شارع لا سبينتاناس ، حيث كانت لأمه منذ سنوات شبابها تجارة خردوات وحيث كانت تنسل كذلك نسيج قمصان ومزق قماشية قديمة لتبيعها كقطن لجرحى الحرب . وكان هو ابنها الوحيد ، انجبته من لقاء عابر مع صاحب السفن المعروف دون بيو الخامس لوايثا ، أكبر الأشقاء الثلاثة الذين أسسوا شركة الكاريبي للملاحة النهرية ، مقدمين بذلك دفعة جديدة للملاحة البخارية في نهر مجدلينا .

لقد مات دون بيو الخامس لوايثا عندما كان ابنه في العاشرة من العمر . وعلى الرغم من أنه كان يتولى دوماً أمر نفقاته سراً ، فانه لم يعترف به أبداً كابن له أمام القانون ، ولم يترك له ما يضمن مستقبله ، وهكذا بقي فلورنتينو اريثا يحمل لقب أمه فقط ، مع أن حقيقة نسبه كانت معروفة

للجميع . وبعد موت الوالد ، كان على فلورنتينو اريثا أن يترك المدرسة ليعمل كمتمرن في وكالة البريد ، حيث كانوا يكلفونه بفتح الأكياس وترتيب الرسائل ، وإعلام الجمهور بوصول البريد عن طريق رفع راية البلد المرسل فوق باب المكتب .

ولقد لفتت حصافته انتباه عامل التلغراف ، المهاجر الألماني لوتاريو توغوت ، الذي كان يعزف الارغن أيضاً في حفلات الكتدرائية الكبيرة ويعطي دروساً في الموسيقى في البيوت . علمه لوتاريو توغوت منهاج رموز المورس وطريقة استخدام جهاز التلغراف ، وكانت دروس الكمان الأولى كافية ليتابع فلورنتينو اريثا العزف السماعي كمحترف . عندما تعرف على فيرمينا داثا ، وهو في الثامنة عشرة من عمره ، كان أكثر الشبان شهرة في وسطه الاجتماعي ، فهو أفضل من يرقص على أنغام الموسيقى الدارجة ويلقي القصائد العاطفية التي يحفظها عن ظهر قلب ، كما كان دوماً رهن طلب اصدقائه الذين يريدون من يعزف لهم سيرناد كمان منفرد تحت شرفات خطيباتهم . كان نحيلاً منذ ذلك الحين ، له شعر هندي يبسطه بمرهم ذي رائحة ، ويضع نظارة قصر النظر التي تضاعف من حدة مظهره المخذول . واضافة إلى قصر النظر ، كان يعاني من امساك مزمن اضطره الى استخدام الحقن الشرجية الملينة طوال حياته . كانت لديه بدلة احتفالية واحدة ، ورثها عن أبيه المتوفى ، لكن ترانسيتو اريثا كانت تحافظ عليها جيداً بحيث تبدو جديدة في كل يوم أحد . وبالرغم من هزاله، وعزلته ، وطريقة لبسه الكئيبة ، فإن فتيات مجموعته كن يضربن قرعة سرية ليلعبن لعبة البقاء معه ، وكان هو نفسه يلعب ليبقى معهن ، حتى اليوم الذي تعرف فيه على فيرمينا داثا وانتهت براءته .

لقد رآها للمرة الأولى في عصر يوم كلفه فيه لوتاريو توغوت بإيصال برقية إلى شخص بلا عنوان واضح اسمه لورينثو داثا ، وجده في منطقة

حديقة البشارة ، في واحد من أقدم البيوت ، شبه مهدم ، وفناؤه الداخلي يبدو كفناء دير ، فيه شجيرات كثيفة في الأجزاء المزروعة ونافورة حجرية بلا ماء . لم يشعر فلورنتينو اريثا بأي صوت آدمي وهو يتبع الخادمة الحافية تحت قناطر الممر ، حيث كانت توجد صناديق أمتعة لم تفتح بعد ، ومواد بناء بين بقايا الجص والاسمنت المتراكم ، لقد كانوا يقومون باصلاح شامل للبيت . وفي نهاية الممر كانت توجد غرفة مكتب مؤقت ، حيث كان ينام القيلولة وهو جالس وراء الطاولة رجل بدين جداً له سوالف طويلة مجعدة تختلط بشاربيه . وكان اسمه فعلاً لورينثو داثا ، ولم يكن معروفا تماماً في المدينة لأنه وصلها منذ أقل من سنتين ، ولم يكن رجلا ذا صداقات كثيرة .

تلقى البرقية كما لو أنها استمرار لحلم مشؤوم ، ولاحظ فلورنتينو اريثا العينين الزرقاوين الضاربتين إلى السواد بنوع من الشفقة الرسمية ، والاصابع المرتعشة تحاول تفتيت شمع الختم ، وخوف القلب الذي رآه مرات كثيرة على وجوه الذين يتلقون البرقيات ممن لم يعتادوا بعد على التفكير بالبرقيات دون أن يربطوها بالموت . عندما قرأها استعاد السيطرة على نفسه . تنهد : «أخبار حسنة» . ومنح فلورنتينو اريثا خمس ريالات ، موضحاً له بابتسامة مطمئنة أنه ما كان سيعطيه النقود لو أن الأخبار كانت سيئة . ثم ودعه مصافحاً ، وهي ليست عادة شائعة في معاملة موزع البرقيات ، ورافقته الخادمة حتى الباب المؤدي إلى الشارع ، ليس ذلك لإرشاده بقدر ما هو لمراقبته . سارا في نفس الطريق باتجاه معاكس عبر الممر المقنطر ، لكن فلورنتينو اريثا أدرك هذه المرة بأن هناك أحداً في البيت ، لأن ضوء البهو كان مفعماً بصوت امرأة تردد درس قراءة ، ولدى مروره مقابل حجرة الخياطة رأى عبر النافذة امرأة مسنة وصبية ، تجلسان على مقعدين متجاورين ، وكلتاهما تتابعان القراءة في الكتاب ذاته الذي تحمله المرأة مفتوحاً في حضنها . بدا له الأمر كرؤيا غريبة : الابنة تعلم أمها . كان

تقديره خاطئاً جزئياً ، لأن المرأة هي عمة الصبية وليست أمها ، رغم أنها ربتها كما لو كانت أمها . لم يتوقف الدرس ، لكن الصبية رفعت نظرها لترى من الذي يمر عبر النافذة ، وكانت هذه النظرة العابرة أصل كارثة حب لم تنته بعد مرور نصف قرن من الزمان .

الشيء الوحيد الذي استطاع فلورينتينو اريثا أن يتحراه عن لورينثو داثا هو أنه قدم من سان خوان دي لاثييناغا مع ابنته الوحيدة وشقيقته العزباء بعد فترة قصيرة من جائحة الكوليرا ، والذين رأوه ينزل إلى البر لم يراودهم الشك بأنه قد جاء ليقيم ، اذ كان يحضر معه كل ما يحتاجه بيت حسن التجهيز . كانت زوجته قد توفيت فيما ابنته لاتزال طفلة صغيرة . واسم أخته اسكولاستيكا ، ولها من العمر أربعون سنة وهي تفي نذراً بلبس مسوح لقديس سان فرانشيسكو عند خروجها الى الشارع ، وتكتفي بربط حبل الطائفة على خصرها فقط حين تكون في البيت . أما الصبية فعمرها ثلاث عشرة سنة وتدعى باسم أمها الميتة نفسه : فيرمينا .

كان يُفترض أن لورينثو داثا رجل ذو موارد ، لأنه يعيش في بحبوحة دون ممارسة مهنة معروفة ، وقد اشترى نقداً بيت البشارة غير المكتمل ، والذي كان اصلاحه يتطلب على الأقل ضعف المئتي بيزو التي دفعها ثمناً له . وكانت الابنة تدرس في مدرسة ظهور العذراء المقدسة ، حيث كانت تتعلم آنسات المجتمع الراقي منذ قرون فن ومهنة التحول إلى زوجات مدبرات ومطيعات . في العهد الاستعماري وخلال السنوات الجمهورية الأولى كانوا لا يقبلون في المدرسة إلا وارثات الألقاب الكبيرة فقط . ثم اضطرت العائلات القديمة المنهارة بفعل الاستقلال إلى الخضوع لوقائع الأزمنة الجديدة ففتحت المدرسة أبوابها لجيمع المتقدمات اللواتي يستطعن دفع نفقاتها ، دون الاهتمام بأنسابهن ، والشرط الوحيد الجوهري الذي بقي قائماً هو أن يكن بنات شرعيات لزواج كاثوليكي . لقد كانت مدرسة غالية التكاليف على أية

حال ، ومجرد كون فيرمينا داثا تدرس هناك هو بحد ذاته مؤشر على الوضع المادي للعائلة ، وان لم يكن مؤشرا على وضعها الاجتماعي . لقد شجعت هذه الأخبار فلورينتينو اريثا ، اذ أوضحت له أن الصبية الجميلة ذات العينين اللوزيتين كانت في متناول أحلامه . ولكن سرعان ما ظهر نظام أبيها الصارم كعائق لا سبيل الى تجاوزه . فعلى العكس من التلميذات الأخريات ، اللواتي كن يذهبن الى المدرسة جماعات أو برفقة خادمة متقدمة في السن ، كانت فيرمينا داثا تمضي دوماً مع عمتها العزباء ، وكان سلوكها يشير الى أنه ليس مسموحاً لها بأي نوع من اللهو .

هكذا كان أن بدأ فلورينتينو اريثا حياته الصامتة بقلب مكبوت . كان يجلس منذ الساعة السابعة صباحاً وحيداً على أقل مقاعد الحديقة ظهوراً للعيان ، متظاهرا بقراءة ديوان شعر في ظل أشجار اللوز ، إلى أن يرى مرور الصبية المستحيلة بزيها المدرسي ذي الخطوط الزرقاء ، وجرابها ذي الرباط الذي يصل حتى الركبتين ، وحذائها الرجالي برباطه المتقاطع ، وبضفيرة وحيدة ثخينة مربوطة في طرفها بشريط ومتدلية على الظهر حتى خصرها . كانت تمشي بكبرياء طبيعي ، رأسها مرفوع ، نظرها ثابت ، وخطوتها سريعة ، وانفها شامخ ، وحقيبة كتبها المدرسية مضغوطة بيديها المتصالبتين على صدرها ، وبمشية غزالة تجعلها تبدو محصنة على الرصانة . وإلى جانبها ، تمضي عمتها بمسوحها البني وحزام طائفة سان فرانشيسكو ، شادة خطواتها بصعوبة ، بحيث لا تترك أدنى ثغرة للاقتراب . كان فلورينتينو اريثا يراهما تمران في الذهاب والإياب أربع مرات في اليوم ، ومرة واحدة أيام الآحاد عند الخروج من القداس الكبير ، وكانت رؤية الصبية تكفيه . وشيئا فشيئا ، أخذ يرسم لها في مخيلته صورة مثالية . بمشاعر خيالية ، وبعد مرور أسبوعين لم يعد يفكر بأي شيء سواها . وهكذا فكر بأن يبعث لها رسالة مكتوبة على ورقة بخطه الرائع كخطاط . لكنه احتفظ بها

عدة أيام في جيبه ، مفكراً بطريقة لتسليمها اليها ، وفيما هو يفكر كان يكتب عدة ورقات جديدة قبل أن ينام ، بحيث أخذت الرسالة الأصلية تتحول الى معجم في الغزل المتأثر بالكتب التي حفظها غيباً لكثرة ما قرأها وهو ينتظر في الحديقة .

وفي بحثه عن وسيلة لايصال الرسالة ، حاول التعرف على بعض تلميذات المدرسة ، لكنهن كن بعيدات جداً عن عالمه . كما بدا له بعد تفكير طويل أنه ليس من الحكمة اطلاع أحد على نواياه . ورغم ذلك ، توصل لأن يعرف أن فيرمينا داثا كانت قد دعيت إلى حفلة رقص من حفلات السبت بُعيد مجيئها إلى البلدة ، وأن أباها لم يسمح لها أن تذهب متعللاً بعبارة حاسمة : «كل شيء في وقته المناسب» . أصبحت الرسالة تضم أكثر من ستين ورقة مكتوبة على الوجهين عندما لم يعد بمقدور فلوينتينو اريثا احتمال ضغط سره أكثر . ففتح قلبه دون تحفظ لأمه ، وهي الشخص الوحيد الذي كان يبيح لنفسه مفاتحتها ببعض أسراره . انفعلت ترانسيتو اريثا حتى الدموع لسذاجة ابنها في شؤون الحب ، وحاولت توجيهه بأنوارها . بدأت باقناعه بعدم تسليم المجلد الغنائي ، الذي لن يتوصل من خلاله إلا إلى افزاع فتاة أحلامه ، التي يُفترض بأنها ليست ذات خبرة في أمور القلب مثله . وقالت له إن الخطوة الأولى هي جعلها تنتبه إلى اهتمامه بها ، حتى لا يأخذها بالتصريح لها عن حبه على حين غرة ويكون لديها متسع من الوقت للتفكير .

وقالت له :

ـ ومن عليك الوصول اليها أولاً وقبل كل شيء هي العمة وليس الفتاة .

كلا النصيحتين كانت حكيمة دون شك ، لكنهما جاءتا متأخرتين . فالواقع أنه منذ اليوم الذي أهملت فيه فيرمينا داثا لبرهة قصيرة درس القراءة الذي كانت تلقنه لعمتها ، ورفعت بصرها لترى من الذي يمر في الرواق ، كان فلورينتينو اريثا قد أثر فيها بمظهره المخذول . وفي الليل ، أثناء تناول

الطعام ، تحدث والدها عن البرقية ، وهكذا كان أن عرفت ما الذي جاء يفعله فلورينتينو اريثا في البيت ، وما هي مهنته . وقد ضاعفت هذه المعلومات من اهتمامها ، اذ كان اختراع التلغراف بالنسبة لها ، كما هو بالنسبة لأناس كثيرين في تلك الحقبة ، أمراً له علاقة بالسحر . وهكذا تعرفت على فلورينتينو اريثا منذ المرة الأولى التي رأته فيها يقرأ تحت أشجار الحديقة ، وعلى الرغم من أنه لم يثر فيها أي نوع من القلق إلى أن لفتت العمة نظرها إلى أنه كان يجلس هناك منذ عدة أسابيع . وعندما رأتاه فيما بعد أثناء الخروج من القداس ، ترسخت قناعة العمة بأن كل هذه اللقاءات لا يمكن أن تكون مصادفة ، وقالت : «ليس من أجلي يحتمل هذا الازعاج» . اذ رغم سلوكها الصارم ومسوح العفة التي تتسربل بها ، كانت العمة اسكلاستيكا تحمل غريزة الحياة وتميل الى المشاركة فيها ، وهما أفضل صفتين فيها . ومجرد الفكرة بأن هناك رجلاً مهتماً بابنة أخيها كان يثير فيها انفعالاً لا يقاوم . أما فيرمينا داثا فكانت ماتزال بمنجى حتى من مجرد الفضول بشأن الحب ، الشيء الوحيد الذي أثاره فيها فلورينتينو اريثا هو قليل من الأسى ، اذ بدا لها عليلاً . لكن العمة قالت لها إنه لا بد من العيش طويلاً لمعرفة الطبيعة الحقيقية للرجل ، وكانت مقتنعة ان ذاك الذي يجلس في الحديقة ليراهما تمران ، لا يمكن إلا أن يكون مريضاً بداء الحب .

كانت العمة اسكلاستيكا ملجأ تفهم وعطف للابنة الوحيدة لزواج بلا حب . لقد ربتها منذ موت أمها ، وبالمقارنة مع لورينثو داثا ، كانت تتصرف كشريكة أكثر منها كعمة . وهكذا كان ظهور فلورينتينو اريثا بالنسبة لهما تسلية جديدة تضاف الى التسليات الكثيرة التي تبتدعانها لتمضية وقتهما الميت . أربع مرات في اليوم ، كلما اجتازتا حديقة البشارة ، كانتا تسرعان للبحث بنظرة فورية عن ذلك الحارس الضامر ، الخجول ، ضئيل الشأن ، الذي يرتدي بشكل شبه دائم ملابس سوداء ، رغم الحر ، ويتظاهر بالقراءة تحت

الأشجار . «ها هو هناك» ، تقول التي تكتشفه أولاً ، كاتمة ضحكتها ، قبل أن يرفع نظره ويرى المرأتين الصارمتين ، البعيدتين عن حياته ، وهما تجتازان الحديقة دون أن تنظرا اليه .

قالت العمة في احدى المرات :

يا للمسكين . لا يجرؤ على الاقتراب لأنني معك ، لكنه سيحاول ذلك يوماً اذا كانت نواياه جدية ، وعندها سيسلمك رسالة .

واحتياطاً لأي نوع من المصائب علمتها التواصل بحروف يدوية ، وكان تلك وسيلة ضرورية للغراميات المحرمة . وقد أثارت المشاوير العرضية ، وشبه الصبيانية ، فضول فيرمينا داثا إلى الجديد ، ولكن لم يخطر لها أبداً طوال عدة شهور أن تمضي إلى أبعد من ذلك . لم تعرف أبداً متى بدأت تسليتها تتحول إلى قلق ، ويتحول دمها إلى زبد للاسراع برؤيته ، وقد استيقظت في إحدى الليالي مذعورة لأنها رأته يتأملها في الظلام من طرف السرير . عندئذ تمنت من أعماقها أن تتحقق تكهنات العمة ، وصارت تدعو الله في صلواتها أن يمنحه الشجاعة كي يسلمها الرسالة ، لتعرف فقط ما الذي سيقوله فيها .

لكن دعواتها لم تُستجب ، وكانت الوقائع معاكسة لذلك . حدث هذا في الفترة التي صارح فيها فلورينتينو اريثا أمه وثنته هذه عن عزمه بتسليم السبعين ورقة من الغزل ، وهكذا كان على فيرمينا داثا أن تتابع الانتظار بقية تلك السنة . أخذ قلقها يتحول إلى يأس كلما اقتربت عطلة كانون الأول المدرسية ، اذ أخذت تتساءل عما ستفعله لتراه ويراها ، خلال الشهور الثلاثة التي لن تذهب خلالها الى المدرسة ، وقد ألحت عليها الشكوك دون أن تجد لها حلاً في ليلة الميلاد ، حين هزها احساس بأنه ينظر اليها بين جموع المصلين في القداس ، ولقد أثار هذا القلق في قلبها . ولم تكن لتجرؤ على الالتفات وهي تجلس بين أبيها وعمتها ، وكان عليها أن تكبح نفسها

كي لا يلاحظ اضطرابها . ولكنها أحست به في فوضى الخروج قريباً جداً منها ، وواضحاً جداً وسط الحشد ، ودفعتها قوة لا تقاوم للنظر من فوق كتفها وهي تغادر المعبد من الممر الأوسط ، ورأت حينئذ على بعد شبرين من عينيها العينين الأخريين الجليديتين ، والوجه الملوح ، والشفتين المتحجرتين برعب الحب . اضطربت لجسارتها ، وتشبثت بذراع العمة اسكولاستيكا كي لا تسقط على الأرض ، فأحست هذه بالعرق البارد على اليد عبر القفاز المخرم ، وشجعتها باشارة موافقة لا مشروطة خفية . ووسط دوي الألعاب النارية والطبول ، وسط أعمدة الانارة الملونة المنصوبة أمام الأبواب ، وصخب الجموح المتعطشة للسلام ، هام فلورينتينو اريثا كمن يسير وهو نائم حتى الفجر مراقباً الاحتفال من خلال دموعه ، ومذهولاً في التخيل بأنه هو ، وليس الرب ، من ولد في تلك الليلة .

ازداد هذيانه في الأسبوع التالي ، حين مر وقت القيلولة ببيت فيرمينا داثا دون أمل . ورآها تجلس مع عمتها تحت أشجار اللوز في الفناء . كان المشهد تكراراً للوحة التي رآها في مساء اليوم الأول في حجرة الخياطة : الصبية تلقن العمة درس القراءة . لكن فيرمينا داثا كانت مختلفة الهيئة وهي بدون زيها المدرسي ، اذ كانت ترتدي عباءة من الكتان الأبيض بها ثنايا كثيرة تنسدل من كتفيها وكأنها رداء اغريقي . وعلى رأسها اكليل من أزهار الياسمين الطبيعية يمنحها مظهر إلهة متوجة . جلس فلورينتينو اريثا في الحديقة ، حيث تأكد أنه سيكون مرئياً ، ولم يلجأ عندئذ إلى أسلوب التظاهر بالقراءة ، وانما جلس ، والكتاب مفتوح ، مركزاً بصره على الآنسة السامية ، التي لم تبادله ولو نظرة شفقة .

ظن في البدء أن الدرس تحت أشجار اللوز هو تغيير طارئ ، ربما بسبب الاصلاحات التي لا تنتهي في البيت ، لكنه أدرك في الأيام التالية أن فيرمينا داثا ستكون هناك . تحت نظره ، في مساء كل يوم وفي الساعة

ذاتها طوال شهور العطلة الثلاثة ، وألهمه هذا اليقين حماسة جديدة . لم يشعر بأنها رأته ، ولم يلمح أية علامة تدل على اهتمام أو اهمال . ولكن في لامبالاتها كان ثمة بريق مختلف شجعه على المثابرة . وفجأة ، في عصر يوم من أيام كانون الثاني ، وضعت العمة شغلها على الكرسي وتركت ابنة أخيها وحدها في الفناء بين نثارة الأوراق الصفراء المتساقطة من أشجار اللوز . ومدفوعا باعتقاده المتهور بأنها الفرصة المناسبة ، اجتاز فلورينتينو اريثا الشارع وانتصب أمام فيرمينا داثا ، قريباً جداً منها بحيث شعر بشهقتها وبتنفسها الوردي الذي سيميزها فيه طوال حياته المتبقية . حدثها برأس مرفوع وبتصميم لن يصل اليه ثانية إلا بعد نصف قرن ولنفس السبب .

قال لها :

ـ الشيء الوحيد الذي أطلبه منك هو أن تتقبلي رسالة مني .

لم يكن الصوت الذي انتظرته فيرمينا داثا منه : كان صوتاً واثقاً ومتسلطاً لا علاقة له بأساليبه الخاملة . ودون أن ترفع نظرها عن التطريز ، أجابته : «لا أستطيع قبولها دون اذن والدي» . ارتعش فلورينتينو اريثا بدفء ذلك الصوت الذي لن ينسى جرسه المنطفئ طوال حياته . لكنه استمر على ثباته ، ورد في الحال : «احصلي على الاذن» . ثم رقق من لهجة الأمر برجاء : «انها مسألة حياة أو موت» . لم تنظر فيرمينا داثا اليه ، ولم تتوقف عن التطريز ، لكن قرارها فتح له باباً يتسع للعالم بأسره ، حين قالت له :

ـ عد مساء كل يوم وانتظر إلى أن أبدل مقعدي .

لم يفهم فلورينتينو اريثا ما عنته حتى يوم الاثنين من الاسبوع التالي ، عندما رأى وهو على مقعده في الحديقة المشهد نفسه الذي يراه كل يوم مع تبدل وحيد : حين دخلت العمة اسكولاسيكا إلى البيت ، نهضت فيرمينا داثا وجلست على المقعد الآخر . عندئذ اجتاز فلورينتينو اريثا الشارع وهو يضع زهرة كاميليا بيضاء في عروة سترته ، وانتصب أمامها . قال : «هذه هي أعظم

لحظة في حياتي» . لم ترفع فيرمينا داثا نظرها اليه ، وانما تفحصت الجوار بنظرة دائرية ورأت الشوارع المقفرة في سبات الجفاف وزوبعة أوراق ميتة تتقاذفها الريح . فقالت :

ـ اعطني اياها .

كان فلورينتينو اريثا قد فكر بأن يحمل اليها الورقات السبعين التي صار قادراً على استظهارها من الذاكرة لكثرة ما أعاد قراءتها ، لكنه حسم أمره بعد ذلك بالاكتفاء بنصف ورقة مختصرة وواضحة يعاهدها فيها على ما هو جوهري فقط : وفاؤه تحت أية ظروف ، وحبه الأبدي . أخرجها من جيب سترته الداخلي ، ووضعها أمام عيني المُطَرِزة الحزينة التي لم تتجرأ حتى ذلك الحين على النظر اليه . رأت المغلف الأزرق يرتعش في يد جمدها الرعب ، ورفعت طارة التطريز ليضع الرسالة ، اذ أنها غير قادرة على السماح له برؤية ارتعاش أصابعها . وحدث حينئذ أن ارتعش عصفور بين أوراق أشجار اللوز ، وأفلت في الوقت ذاته ذرقة على التطريز . فأبعدت فيرمينا داثا الطارة ، وخبأتها وراء المقعد كي لا ينتبه لما حدث ، ونظرت اليه للمرة الأولى بوجه ملتهب . فقال فلورينتينو اريثا المتجمد والرسالة في يده : «ان هذا فأل خير» . شكرته بابتسامتها الأولى اليه ، وانتزعت منه الرسالة ، ثم طوتها وأخفتها في صدريتها . قدم لها حينئذ زهرة الكاميليا التي كانت في عروته ، فرفضتها : «انها زهرة التزام» . وعادت فورا للاختباء في رصانتها . وقد وعت أن الوقت قد نفد .

قالت :

ـ اذهب الآن ولا ترجع الى أن أخبرك .

عندما رآها فلورينتينو اريثا لأول مرة ، اكتشفت أمه ذلك قبل أن يخبرها ، لأنه فقد النطق والشهية وراح يقضي الليالي مسهدا يتقلب في الفراش . لكنه حين بدأ ينتظر الرد على رسالته الأولى ، تضاعف الجزع

وتحول الى اختلاطات مترافقة مع براز وقيء أخضرين ، وفقد القدرة على التوجه وعانى من اغماءات مفاجئة ، ففزعت أمه لأن حالته لا تنتمي الى اضطرابات الحب وانما الى اختلاطات الكوليرا . وكذلك عراب فلورينتينو اريثا ، وهو طبيب مثليّ عجوز ، وأمين أسرار ترانسيتو داثا مذ كانت عشيقة سرية ، فزع أيضا للوهلة الأولى من حالة المريض ، لأن نبضه كان ضعيفاً وتنفسه رملياً وعرقه شاحبا كحالة المحتضرين . لكن الفحص كشف له عدم وجود حمى ، ولا آلام في أي موضع ، والشيء الوحيد الذي كان يشعر به هو حاجة مستعجلة للحب واكتفى باستجواب مخاتل ، للابن أولا ثم للأم ، ليتأكد مرة أخرى من أن أعراض الحب هي نفس أعراض الكوليرا . فوصف له نقيع أزهار الزيزفون لتتماسك أعصابه واقترح عليه تغيير الجو للبحث عن العزاء في البعد ، لكن ما كان يشتاقه فلورينتينو اريثا هو عكس ذلك تماما : الاستمتاع بعذابه .

كانت ترانسيتو اريثا امرأة أربعينية حرة ، لديها ميل محبط الى السعادة بفعل الفقر ، وكانت تشارك في آلام ابنها كما لو أنها آلامها ، فهي تقدم له المشروبات المهدئة حين تلاحظ أنه أخذ يهذي أو تدثره بأغطية صوفية لتخدع القشعريرة التي تنتابه ، لكنها تشجعه في الوقت ذاته على التسلية بانهاك نفسه ، فهي تقول له :

ـ انتهز الفرصة لتتألم بقدر ما تستطيع الآن وأنت شاب ، لأن هذه الأمور لا تدوم طول الحياة .

أما في وكالة البريد فلم يكونوا يفكرون بهذه الطريقة طبعا . اذ كان فلورينتينو اريثا يهمل في عمله ، ويمضي ساهيا فيخلط بين الأعلام التي يعلن بها عن وصول البريد ، ففي أحد أيام الأربعاء رفع العلم الألماني بينما كانت السفينة القادمة تابعة لشركة ليلاند وتحمل بريد ليفربول ، وكان يرفع في أي يوم آخر علم الولايات المتحدة مع أن السفينة القادمة تابعةً لشركة

جنرال ترانساتلانتك وتحمل بريد سانت ـ نازير . وقد كانت تشوشات الحب تلك تسبب تأخيرا في توزيع البريد وتثير احتجاجات كثيرة من جانب الجمهور ، واذا كان فلورينتينو اريثا لم يطرد من عمله فلأن لوتاريو توغوت احتفظ به في قسم التلغراف وأخذه ليعلمه العزف على الأرغن في كورال الكتدرائية . كانا يرتبطان بحلف عصي على الفهم بسبب فارق السن بينهما ، اذ كان بالامكان اعتبارهما جدا وحفيدا ، لكن علاقتهما كانت حسنة جدا سواء في العمل أم في حانات الميناء ، حيث يلتقي محبو السهر حتى ساعة متأخرة من الليل دون وساوس طبقية ، اعتبارا من سكارى الصدقات وحتى الشبان الراقين ذوي الملابس البروتوكولية الذين يهربون من حفلات النادي الاجتماعي ليأكلوا فطائر الجبن المقلية مع أرز جوز الهند . لقد اعتاد لوتاريو توغوت الذهاب الى هناك بعد وردية التلغراف الأخيرة ، وكان يدركه الصباح في معظم الأحيان وهو مايزال يشرب البنوتش الجمايكي ويعزف الأوكرديون مع طواقم ملاحي سفن جزر الانتيل الحمقى . كان بدينا ، يشبه السلحفاة ، له لحية مذهبة ويضع عند خروجه ليلا طاقية من تلك التي تمثل رمز الجمهورية الفرنسية ، ولم يكن ينقصه الا درع مضيء ليصبح مشابها تماما للقديس نيقولا . وكان يجهز مرة واحدة كل أسبوع على الأقل على واحدة من عصفورات الليل ، كما اعتاد تسمية أولئك اللواتي يبعن الحب الطارئ في فندق للعابرين من البحارة . وكان أول ما فعله بشيء من اللذة المتقنة ، حين تعرف على فلورينتينو اريثا ، هو تعريفه على أسرار فردوسه . كان يختار له العصفورات اللواتي يبدون له أفضل من سواهن ، ويساومهن في السعر والطريقة ، ثم يعرض عليه أن يدفع له من ماله الخاص مقابل الخدمات التي يقدّمنَها . لكن فلورينتينو اريثا لم يكن يوافق : كان في عذريته ، ولقد قرر أن يبقى كذلك ما لم يفعل ذلك عن حب .

كان الفندق عبارة عن قصر استعماري متهاو ، قسمت صالوناته الكبيرة

وغرف المرمر فيه إلى مخادع صغيرة بورق مقوى مليء بثقوب أحدثتها المطاوي ، وكانت تؤجر لممارسة الحب أو للتفرج على من يمارسه . وثمة أحاديث تدور عن متلصص سملوا له عينه بمسلة حياكة ، وعن آخر تعرف على زوجته بالذات فيما هو يتلصص ، وعن نبلاء من الطبقة الراقية كانوا يتنكرون بزي بائعات خضار ليغرقوا أنفسهم مع العسكريين العابرين ، وعن حوادث أخرى حول متلصصين ومتلصص عليهم ، مما جعل مجرد التفكير بالنظر إلى الحجرة المجاورة أمراً مرعباً بالنسبة لفلورينتينو اريثا . ولم يتمكن لوتاريو توغوت من اقناعه بأن الرؤية والسماح للآخرين بالمشاهدة هي من آداب امراء أوروبا .

وعلى العكس من الاعتقاد الذي قد تثيره بدانته ، كانت للوتاريو توغوت دوامة شاروبيم تبدو وكأنها برعم وردة ، ويبدو أن هذا كان عيباً حسن الطالع ، لأن أكثر العصفورات استعمالاً كن يتنازعن النوم معه ، وكانت صراخاتهن المذبوحة تهز أدراج القصر . وتبعث رعشة الرهبة في أشباحه . كان يقال بأنه يستخدم مرهماً محضراً من سم الثعابين يلهب به أرحام النساء ، لكنه كان يقسم بأنه لا يملك أية وسائل سوى تلك التي وهبه الله اياها . كان يقول منفجراً بالضحك : «انه الحب وحده» . وكان لا بد من انقضاء سنوات طويلة ليدرك فلورينتينو اريثا بأنه ربما كان يقول الصدق . ثم انتهى إلى الاقتناع من خلال تربيته العاطفية في زمن متأخر ، حين تعرف على رجل يعيش حياة ملك باستغلاله ثلاث نساء في الوقت ذاته ، كانت النساء الثلاث يقدمن له الحساب في الفجر ، ذليلات عند قدميه ليغفر لهن احتفاظهن بمبالغ زهيدة ، والمكافأة الوحيدة التي كن يرغبن فيها هي قبوله الاضطجاع مع من تأتيه بأكبر قدر من المال . وكان فلورينتينو اريثا يعتقد بأن الخوف وحده قادر على ايصالهن إلى مثل هذا الذل . لكن احدى الفتيات الثلاث فاجأته بالحقيقة المعاكسة حين قالت له :

- ان هذه الأمور لا يمكن تحقيقها إلا بالحب .

ولم يكن السبب في توصل لوتاريو توغوت لأن يكون أحد أهم زبائن الفندق هو فجوره ، بقدر ما كان ظرافته الشخصية . ولقد كسب فلورينتينو اريثا كذلك احترام صاحب المحل لكونه صموتاً ومرناً ، وقد اعتاد في أقسى مراحل كربه أن يحبس نفسه ليقرأ الأشعار وكتيبات الدموع في الحجرات الخانقة ، وكانت أحلامه تخلف أعشاش سنونوات سوداء على الشرفات وهمس قبلات وخفق أجنحة في خمود الظهيرة . وفي المساء ، حين يخف الحر ، كان يستحيل عليه ألا يستمع إلى أحاديث الذين يأتون لاغراق أنفسهم من العمل في حب سريع ، وهكذا أصبح فلورينتينو اريثا يعرف خيانات زوجية كثيرة ، بل وبعض أسرار الدولة ، من الزبائن المرموقين ، ومن رجال السلطات المحلية الذين كانو يأتمنون عشيقاتهم العابرات دون أن يحتاطوا كي لا يسمعهم من هم في الغرف المجاورة . وكان هكذا أن علم أيضاً بأنه على بعد أربعة فراسخ بحرية إلى الشمال من سوتافينتو ترقد غارقة ، في قاع البحر منذ القرن السابع عشر ، سفينة اسبانية محملة بأكثر من خمسمئة ألف مليون بيزو من الذهب الخالص والأحجار الكريمة . لقد أذهلته القصة ، لكنه لم يعد للتفكير فيها إلا بعد مضي عدة شهور ، عندما أثار جنون الحب شوقه لاستخراج الثروة الغارقة كي يجعل فيرمينا داثا تستحم في أحواض من الذهب .

وبعد سنوات من ذلك ، حين كان يحاول أن يتذكر كيف كانت في الواقع تلك الصبية التي رسم لها في ذهنه صورة مثالية بسيمياء الشعر ، لم يكن يستطيع تمييز ملامحها وسط أمسيات تلك الأزمنة المؤثرة ، وحتى حين كان يلمحها دون أن تراه ، في أيام الجزع التي انتظر فيها الرد على رسائله الأولى ، كان يراها بصورة مختلفة في وهج الساعة الثانية ظهراً تحت وابل من زهر اللوز ، حيث كان الوقت نيساناً في أي شهر من شهور السنة .

كان اهتمامه الوحيد في ذلك الحين منصباً على مرافقة لوتاريو توغوت بالكمان على المنصة المخصصة للكورال ، وذلك ليرى كيف تتموج عباءتها بنسيم الانشاد . لكن هذيانه بالذات كان السبب في القضاء على متعته هذه ، اذ أصبحت الموسيقى الدينية الصوفية مناسبة جداً لحالة روحه ، مما جعله يحاول إلهابها بفالسات حب ، ورأى لوتاريو توغوت نفسه مضطراً لطرده من الكورال . وكان أن استسلم في هذه الفترة لأكل أزهار الياسمين التي كانت تزرعها ترانسيتو اريثا في أحواض الفناء فتعرف بهذه الطريقة على طعم فيرمينا داثا . وفي هذه الفترة أيضاً وجد في قاع أحد صناديق أمه زجاجة تحتوي لتراً من ماء الكولونيا التي كان يبيعها مهربة بحارة شركة هامبورغ اميركان لاين ، ولم يقاوم اغراء تذوقها للبحث فيها عن طعم آخر للمرأة المحببة . وتابع شرب الزجاجة حتى الفجر ، منتشياً بفيرمينا داثا من خلال رشفات كاوية ، في حانات الميناء أولاً ثم إلى جوار البحر بعد ذلك وهو غائب عن الوعي فوق ملطم الأمواج حيث يتعزى العشاق الذين لا سقف لديهم بممارسة الحب ، إلى أن راح في غيبوبة . انتظرته ترانسيتو اريثا حتى السادسة صباحاً بروح معلقة في خيط ، ثم مضت تبحث عنه في المخابئ التي لا تخطر ببال أحد ، وبعيد منتصف الليل وجدته يتخبط في بركة من القيء المعطر في إحدى تعرجات الشاطئ حيث يقذف البحر الغرقى .

انتهزت فترة النقاهة لتؤنبه على سلبيته في انتظار الرد على الرسالة . وذكرته بأنه لا يمكن للضعفاء دخول مملكة الحب ، لأنها مملكة قاسية وصارمة ، وأن النساء لا يستسلمن إلا للرجال المصممين ، لأنهم يبعثون فيهن الطمأنينة التي يتعطشن اليها لمواجهة الحياة . وربما استوعب فلورينتينو اريثا الدرس أكثر مما ينبغي . فلم تستطع ترانسيتو اريثا اخفاء احساسها بالفخر ، كقوادة أكثر منها كأم ، حين رأته يخرج من دكان

الخردوات بالبذلة السوداء والقبعة القاسية وربطة الشاعر على الياقة الصلبة ، فسألته مازحة ان كان ذاهباً إلى جنازة فأجاب وأذناه تتقدان : «يكاد الأمر يكون سواء» . وقد انتبهت إلى أنه يكاد لا يستطيع التنفس من الخوف ، لكن تصميمه كان حاسماً . قدمت له النصائح النهائية ، وباركته ، ووعدته وهي غارقة في الضحك بزجاجة أخرى من ماء الكولونيا ليحتفلا معاً بانتصاره .

منذ سلم الرسالة ، قبل شهر ، نقض عدة مرات الوعد الذي قطعه بعدم العودة إلى الحديقة ، لكنه كان حذراً جداً في التخفي . كل شيء كان يسير على حاله : ينتهي درس القراءة تحت الأشجار في حوالي الثانية ظهراً ، حين تستيقظ المدينة من القيلولة ، ثم تتابع فيرمينا داثا التطريز مع عمتها حتى انخفاض الحر . لم ينتظر فلورينتينو اريثا إلى أن تدخل العمة إلى البيت ، بل اجتاز الشارع بخطوات عسكرية أتاحت له تجاوز ارتعاش ركبتيه . لكنه لم يتوجه إلى فيرمينا داثا وانما الى العمة .

قال لها :

ـ تفضلي واتركيني على انفراد مع الآنسة لحظة ، فلدي شيء هام أود أن أقوله لها .

فقالت العمة :

ـ وقح! لا يوجد أمر من أمورها لا أستطيع سماعه .

قال :

ـ لن أقول شيئا اذن ، لكنني أحذرك بأنك ستكونين المسؤولة عما سيحدث .

لم يكن هذا هو الأسلوب الذي انتظرته اسكولاستيكا داثا من العريس المثالي ، لكنها نهضت مرتعبة ، لأنها أحست لأول مرة بإحساس مفاجئ أن فلورينتينو اريثا انما كان يتكلم بوحي من الروح القدس . وهكذا دخلت الى

البيت لاستبدال ابر التطريز ، وتركت الشابين وحدهما تحت أشجار اللوز عند مدخل البيت .

لم تكن فيرمينا داثا تعرف في الواقع إلا القليل عن معدن العاشق الصامت الذي ظهر في حياتها مثل سنونوة شتوية ، والذي لم تكن تعرف حتى اسمه لولا توقيعه على الرسالة . ولقد استقصت حينئذ وعرفت أنه ابن بلا أب لامرأة عزباء مجدة وجدية ، لكنها موسومة بوسم ناري لا شفاء منه لخطيئتها الوحيدة وهي شابة . وقد علمت أنه ليس صبي التلغراف ، كما افترضت ، وانما هو مساعد جيد التأهيل وذو مستقبل واعد ، وفكرت بأنه أوصل البرقية إلى أبيها كذريعة ليراها فقط . وقد فتنها هذا الافتراض . كما كانت تعرف أنه واحد من موسيقيي الكورال ، ورغم أنها لم تتجرأ أبداً على رفع بصرها لتتأكد من وجوده أثناء القداس ، إلا أنها في أحد ايام الآحاد وفيما مجموعة الآلات تعزف للجميع ، أحست بأن الكمان يعزف لها وحدها . لم يكن نموذجاً للرجل الذي كانت ستختاره . لكن نظارته وزيه الكهنوتي ، وأساليبه الغامضة أثارت فيها فضولاً من الصعب مقاومته ، لكنها لم تتصور أبداً أن يكون الفضول هو أحد مصائد الحب الكثيرة .

هي نفسها لم تستطع أن تفهم كيف قبلت الرسالة . لم تؤنب نفسها ، لكن وعدها الملح برد الجواب أخذ يتحول إلى عائق أمام الحياة . ان كل كلمة من أبيها ، وكل نظرة عابرة ، وأدنى حركة يقوم بها كانت تبدو لها مصيدة لكشف سرها . على هذه الحال من الذعر كانت ، فهي تمتنع عن الحديث على المائدة خوفاً من زلة لسان تفضحها ، وأصبحت مراوغة حتى في تعاملها مع العمة اسكولاستيكا ، على الرغم من أن هذه كانت تشاطرها جزعها المكتوم كما لو كان خاصاً بها . وصارت تحبس نفسها في الحمام في أي وقت ، دونما حاجة ، وتعيد قراءة الرسالة محاولة اكتشاف رموز سرية ، أو معادلة سحرية مخبأة في واحد من الثلاثمئة وأربعة عشر حرفاً في

الثماني وخمسين كلمة ، على أمل أن تجد فيها أكثر مما تقوله . لكنها لم تجد شيئاً أكثر مما فهمته في القراءة الأولى ، عندما هرعت لتحبس نفسها في الحمام بقلب مجنون ، ومزقت المغلف آملة برسالة مطولة ومحمومة ، ولم تجد سوى ورقة صغيرة معطرة أفزعها اقتضابها .

لم تفكر أول الأمر جدياً بأنها مجبرة على الرد ، لكن الرسالة كانت واضحة جداً بحيث لم تكن هناك وسيلة لتصريفها . وفي أثناء ذلك ، ووسط اضطراب شكوكها ، فاجأت نفسها وهي تفكر بفلورينتينو اريثا أكثر وباهتمام أكبر مما تريده لنفسها ، بل كانت تتساءل مكدرة لماذا لم يأت إلى الحديقة في موعده المعتاد ، دون أن تتذكر انها هي التي طلبت منه عدم الرجوع إلى أن تفكر بالرد . وهكذا صارت تفكر به بشكل لم تتصور يوماً أنها ستفكر فيه بأحد ، كانت تهجس به حيث لا يكون ، متمنية وجوده حيث لا يمكن أن يكون ، مستيقظة فجأة يراودها احساس بأنه يراقبها وهي نائمة في الظلام ، لدرجة أنها حين سمعت وقع خطواته الحاسمة فوق نثارة أوراق الحديقة الصفراء ، لم تستطع أن تصدق أنها ليست سخرية أخرى من خيالها . ولكن عندما طالبها بالرد على رسالته بتسلط لا علاقة له بنحافته ، تمكنت من السيطرة على ذعرها وحاولت مداراته بقول الحقيقة : انها لا تعرف بماذا ترد عليه . ومع ذلك فان فلورينتينو اريثا لم ينج من هاوية ليتردد أمام التي تليها ، فقال لها :

ـ اذا كنت قد قبلت استلام الرسالة ، فمن قلة الذوق عدم الرد عليها .

كانت هذه هي نهاية المتاهة . فقد اعتذرت فيرمينا داثا ، التي سيطرت على نفسها ، عن تأخرها ووعدته رسمياً بأنه سيحصل على الرد قبل انتهاء العطلة المدرسية . ووفت بوعدها . ففي يوم الجمعة الأخير من شهر شباط ، وقبل ثلاثة أيام من اعادة افتتاح المدارس . ذهبت العمة اسكولاستيكا إلى مكتب التلغراف لتسأل عن تكلفة ارسال برقية إلى قرية بيدرا دي مولير ،

التي لا يرد ذكرها في قائمة الخدمات البرقية ، وسعت لأن يتولى الرد على استفسارها فلورينتينو داثا ، متظاهرة بأنها لم تره أبداً من قبل ، لكنها عند الخروج تعمدت أن تنسى على الطاولة كتاب صلوات مجلد بجلد ضب ، فيه مغلف من ورق مبطن ومزين بصورة مذهبة . أمضى فلورينتينو اريثا ، الذي اختل من السعادة ، بقية ذلك المساء وهو يأكل الورود ويأكل الرسالة ، ويراجعها حرفاً حرفاً مرة بعد أخرى ، وكلما قرأ أكثر كان يأكل المزيد من الورد ، وعند منتصف الليل كان قد قرأها مرات ومرات وأكل ورداً كثيرا جعل أمه تشده من أذنه كخروف وتجبره على شرب زيت الخروع .

كانت تلك هي سنة الحب العنيف . ولم يكن في حياة أي منهما شيء سوى التفكير بالآخر ، وانتظار الرسائل بشوق كشوق الرد عليها . ولم يحدث طوال ذلك الربيع من الهذيان . ولا في السنة التالية أن أتيحت لهما فرصة التواصل بصوت عال . بل وأكثر من ذلك : منذ أن رأيا بعضهما لأول مرة وإلى أن كرر عليها قراره بعد نصف قرن ، لم يحصلا أبداً على فرصة للقاء منفردين ولا لتبادل الحديث عن حبهما . ولكن لم يمر يوم واحد خلال الشهور الثلاثة الأولى دون أن يتبادلا الرسائل ، بل كانا يكتبان لبعضهما الرسائل مرتين يومياً في احدى الفترات ، الى أن فزعت العمة اسكولاستيكا لشراهة النار التي ساهمت هي نفسها في اضرامها .

بعد أن حملت الرسالة الأولى إلى مكتب التلغراف وكأنها تريد أن تثأر من حظها بالذات ، راحت تسهل عملية تبادل الرسائل شبه اليومية ، في لقاءات تبدو عرضية في الأزقة ، ولكن لم تكن تملك الشجاعة لرعاية تبادل حديث بينهما ، مهما كان ذلك الحديث تافهاً وقصيراً . ثم أدركت بعد مرور ثلاثة شهور أن ابنة أخيها ليست مؤهلة لغرام فتي ، كما بدا لها أول الأمر ، وأصبحت حياتها هي مهددة بفعل نار الحب تلك . لم تكن لدى اسكولاستيكا بالفعل وسيلة أخرى للمعيشة سوى احسان أخيها ، وكانت تعلم أن طبعه

المتسلط لن يغفر لها أبداً تلاعباً كهذا بالثقة التي منحها اياها . ولكن قلبها لم يطاوعها في نهاية الأمر على تعريض ابنة أخيها لمحنة قاسية كالتي رعتها هي منذ شبابها ، فسمحت لها باستخدام وسيلة تمنحها وهم الاحساس بالبراءة . وكانت وسيلة بسيطة : تضع فيرمينا داثا رسالتها في مخبأ في طريقها اليومي بين البيت والمدرسة ، وفي هذه الرسالة تخبر فلورينتينو اريثا عن المكان الذي ستجد الجواب فيه . ثم يفعل فلورينتينو اريثا الشيء ذاته ، هكذا أخذ تأنيب الضمير الذي كانت تحسه العمة اسكولاستيكا ينتقل إلى زوايا الكنائس ، وفجوات الأشجار ، وشقوق أنقاض الحصون الاستعمارية ، كانا يجدان الرسائل مبللة بالمطر أحياناً ، أو ملوثة بالوحل ، أو ممزقة لضيق الفجرة ، كما فُقدت بعض الرسائل لاسباب مختلفة ، لكنهما كانا يجدان دوماً وسيلة لاعادة الاتصال .

كان فلورينتينو اريثا يكتب كل ليلة دون أن تأخذه رحمة بنفسه ، متسمماً حرفاً فحرفاً بدخان مصباح زيت الكوروزو في القسم الخلفي من دكان الخردوات ، كانت رسائله تصبح أكثر اسهاباً وجنوناً كلما أجهد نفسه في محاكاة شعرائه المفضلين الذين تُنشر أعمالهم في سلسلة المكتبة الشعبية ، التي وصل عدد أجزائها في ذلك الحين إلى أكثر من ثمانين مؤلفاً . أما أمه التي حثته على التمتع في عذابه ، فأخذت تصاب بالذعر لاعتلال صحته ، وصارت تصيح به من غرفة النوم عندما تسمع صياح أول الديكة : «ستستنزف دماغك . ليس من امرأة تستحق كل هذا .» فهي لا تذكر أنها عرفت أحداً بمثل هذه الحالة من الضياع . أما هو فلم يكن يعيرها اهتماماً . كان يصل إلى المكتب أحياناً دون أن يكون قد نام ، شعره مشعث من الحب ، بعد أن يكون قد أودع الرسالة في المخبأ المتفق عليه لتجدها فيرمينا داثا وهي في طريقها إلى المدرسة . أما هذه بالمقابل ، فكانت خاضعة لحراسة الأب ولرصد الراهبات المشين ، ولم تكن تستطيع إلا بالكاد

مَلء نصف صفحة من الدفتر المدرسي وهي حابسة نفسها في الحمام أو متظاهرة بتسجيل ملاحظات أثناء الدرس . وليس بسبب السرعة وخوف المفاجآت فقط ، انما بسبب طبعها أيضاً ، كانت رسائلها تتجنب أية اشارات عاطفية وتقتصر على سرد وقائع حياتها اليومية بأسلوب يوميات الرحلات البحرية المتسرع . لقد كانت في الواقع رسائل لهو ، تسعى الى الاحتفاظ بالجمر متقداً ولكن دون أن تضع يدها في النار ، فيما فلورينتينو اريثا يحترق ويتحول الى رماد في كل سطر يخطه . وفي سعيه لينقل اليها عدوى جنونه ، كان يرسل لها أبيات شعر محفورة برأس دبوس على وريقات زهرة كاميليا . وكان هو ، وليس هي ، من تجرأ على وضع خصلة من شعره في احدى الرسائل ، لكنه لم يتلق أبداً الاجابة المرجوة ، ألا وهي تيلة من ضفيرة فيرمينا داثا . انما تمكن من جعلها تخطو خطوة أخرى على الأقل ، اذ أصبح يتلقى منذ ذلك الحين أوراق زهور مجففة في قواميس ،و أجنحة فراشات ، وريش عصافير فاتنة ، ثم انها أهدته في عيد ميلاده سنتمتراً مربعاً من مسوح القديس بيدرو كلافير ، تلك التي كانت تباع بالخفاء في تلك الأيام بسعر لا يمكن لتلميذة في سنها أن تدفعه . وفي احدى الليالي ، ودون سابق انذار ، استيقظت فيرمينا داثا مرتعدة لسماعها سيرناد كمان منفرد تعزف فالساً محدداً . لقد اهتزت فرحاً وهي تشعر أن كل نغمة انما هي بمثابة شكر على نباتاتها المجففة ، وعلى الوقت الذي تختلسه من درس الحساب لتكتب رسائلها ، وعلى خوفها من الامتحانات وهي تفكر به أكثر من تفكيرها بالعلوم الطبيعية ، لكنها لم تتجرأ أن تصدق بأن فلورينتينو اريثا قادر على اقتراف هذا التهور .

في صباح اليوم التالي ، وأثناء تناول الفطور ، لم يستطع لورينثو داثا مقاومة الفضول . أولاً ، لأنه لم يكن يعرف ما تعنيه معزوفة واحدة في لغة السيرناد ، وثانياً ، انه برغم اهتمامه في الاصغاء لم يستطع أن يحدد في أي

بيت كان العزف . وأكدت العمة اسكولاستيكا ، بهدوء أعصاب أعاد النفس إلى ابنة الأخ ، انها رأت من خلال ستارة نافذة غرفة نومها ان عازف الكمان المنفرد كان في الجانب الآخر من الحديقة ، وقالت ان معزوفة وحيدة على أية حال هي ابلاغ بالقطيعة . وفي رسالته لهذا اليوم ، أكد فلورينتينو اريثا انه هو صاحب السيرناد ، وأن هذا الفالس من تأليفه وأنه أطلق عليه نفس الاسم الذي يطلقه على فيرمينا داثا في قلبه : الربة المتوجة . لم يعد لعزف هذا اللحن في الحديقة ، لكنه كان يختار الليالي المقمرة ليعزفه في أماكن منتقاة بحيث تسمعه دون أن يتولاها الذعر في مخدعها . وقد كان أحد أماكنه المفضلة هو مقبرة الفقراء ، المكشوفة للشمس والمطر فوق تلة جرداء كانت طيور الرخمة تتخذها مكاناً للنوم ، حيث كانت الموسيقى تصدح بأصداء ما ورائية . ثم تعلم فيما بعد التعرف على اتجاه الريح ، وبهذا صار يتأكد ان صوته يصل الى حيث يريده أن يصل .

في شهر آب من هذه السنة ، نشبت حرب أهلية جديدة من تلك الحروب الكثيرة التي خربت البلاد منذ أكثر من نصف قرن ، وكانت تهدد بالاتساع لتشمل البلاد بأسرها ، ففرضت الحكومة قوانين الطوارئ وحظر التجول منذ الساعة السادسة مساء في ولايات ساحل الكاريبي . ورغم حدوث بعض الاضطرابات واقتراف القوات العسكرية لجميع أنواع التنكيل التعسفي ، استمر فلورينتينو اريثا في غيبوبته غير عابئ بحال الدنيا ، وفاجأته دورية عسكرية في فجر أحد الايام وهو يقلق عفة الموتى باستفزازاته الغرامية . ولقد نجا بمعجزة من تحقيق أولي بتهمة أنه جاسوس يبعث الاخبار باشارات ضوئية إلى السفن الليبرالية التي تجوب المياه المجاورة متحينة الفرصة للانقضاض .

قال فلورينتينو اريثا :

ـ أي جاسوس وأية لعنة . أنا لست سوى عاشق بائس .

نام ثلاث ليال مكبلاً من كاحليه في زنازين الحامية المحلية . حين أطلقوا سراحه أحس بأنه قد غُبن لقصر مدة الحبس ، وبقي حتى أيام شيخوخته ، عندما أصبحت تختلط في ذاكرته ذكرى حروب أخرى كثيرة ، يفكر بأنه الرجل الوحيد في المدينة ، وربما في البلاد ، الذي جر بقدميه أصفاداً زنتها خمسة أرطال من أجل قضية حب .

كادت تنقضي سنتان على بريدهما المحموم عندما عرض فلورينتينو اريثا في احدى رسائله الزواج رسمياً على فيرمينا داثا . كان قد بعث اليها عدة مرات في الشهور الستة السابقة زهرة كاميليا بيضاء ، لكنها كانت تعيدها اليه في الرسالة التالية ، حتى لا يرتاب من استمرار كتابتها اليه ، انما دون مخاطر الالتزام . والحقيقة أنها كانت ترى دائماً في ذهاب زهرة الكاميليا ومجيئها مداعبة غرامية ، ولم يخطر لها يوماً أن تفكر فيها كنقطة انعطاف في مصيرها . أما عندما وصلها عرض الزواج الرسمي ، فقد أحست أنها تتمزق بأول مخالب الموت . وروت الأمر للعمة اسكولاستيكا وهي هلعة ، فتناولت العمة الاستشارة بالشجاعة والفطنة التي لم تمتلكها وهي في العشرين من عمرها عندما كان عليها أن تقرر مصيرها .

قالت لها :

ـ أجيبيه بنعم ، حتى ولو كنت تموتين فزعاً ، وحتى لو ندمت فيما بعد ، لأنك على أية حال ستندمين طوال حياتك ان أنت أجبته بلا .

ولكن فيرمينا داثا كانت مشوشة برغم هذه النصيحة ، فطلبت مهلة للتفكير في الأمر . طلبت شهراً في البدء ، ثم شهراً آخر وآخر ، وعندما اتمت الشهر الرابع دون أن تعطي ردها عادت تتلقى زهرة الكاميليا البيضاء ولكن ليس الزهرة وحدها كما في مرات سابقة ، وانما هي مرفقة باخطار حازم انها ستكون المرة الأخيرة : اما الآن واما القطيعة النهائية . حينئذ كان فلورينتينو اريثا هو الذي رأى وجه الموت في مساء ذلك اليوم بالذات حين

تلقى مغلفاً به قصاصة ورقة طويلة منتزعة من هامش دفتر مدرسي ، كتب عليها الرد في سطر واحد بقلم رصاص : حسناً ، **أوافق على الزواج منك ان أنت وعدتني بألا تجبرني على أكل الباذنجان .**

لم يكن فلورينتينو اريثا مهيئاً لمثل هذا الرد ، لكن أمه كانت كذلك . فمذ كلمها لأول مرة ، قبل ستة أشهر ، عن نيته بالزواج ، بدأت ترانسيتو اريثا بمشاوراتها لاستئجار كامل البيت الذي كانت تتقاسمه حتى ذلك الحين مع عائلتين أخريين . لقد كان البيت بناء مدنياً من القرن السابع عشر ، مؤلفا من طابقين ، حيث كانت توجد ادارة التبغ ابان السيطرة الاسبانية ، وقد أفلس مالكوه واضطروا لتأجيره مجزءاً لافتقارهم إلى الموارد اللازمة لاستمراره في العمل . قسم من البيت كان يطل على الشارع ، حيث كانت صالة البيع سابقاً ، وقسم آخر في نهاية باحة مرصوفة حيث كان المعمل ، وهنالك اسطبل واسع جداً يستخدمه المستأجرون الحاليون جميعهم لغسل الملابس ونشرها . كانت ترانسيتو اريثا . تشغل القسم الأول ، وهو الأكثر ملاءمة والأفضل حالاً ، برغم كونه الاضيق أيضاً . في صالة البيع القديمة أقامت دكان خردواتها ، ببوابة تطل على الشارع ، والى جانبها المستودع القديم الذي لا وجود فيه لأية فتحة تهوية سوى كوة السقف ، وفيه كانت تنام ترانسيتو اريثا . وما وراء الدكان هو نصف الصالة الآخر ، المقسوم بباب خشبي ثلاثي المصاريع ، وكانت توجد فيه طاولة حولها أربعة كراسٍ تستخدم للطعام والكتابة في الوقت ذاته ، وهناك كان يعلق فلورينتينو اريثا أرجوحة نومه حين يباغته الفجر وهو يكتب . كان المكان مناسباً لهما ، ولكنه غير كاف لشخص آخر معهما ، وخصوصاً اذا كان هذا الشخص احدى آنسات مدرسة ظهور العذراء المقدسة ، التي رمم أبوها انقاض بيت مهدم حتى أعاده وكأنه جديد ، بينما العائلات ذات السبعة ألقاب تنام خائفة من انهيار اسقف المنازل فوقها أثناء النوم ، وقد تمكنت ترانسيتو اريثا من

الحصول على وعد من صاحب البيت بالسماح لها بشغل رواق الفناء لمدة خمس سنوات ، على ان ترمم البيت وتجعله في حالة حسنة .

كانت تمتلك الموارد اللازمة . فالى جانب دخلها الحقيقي من دكان الخردوات ومن نسالات النسيج موقفة النزف ، الذي كان يكفيها لعيش حياتها المتواضعة ، كانت قد ضاعفت مدخراتها بتقديمها القروض لزبائنها من الفقراء الجدد الخجولين الذين يوافقون على فوائدها الباهظة لكتمانها الاسرار ، وكنَّ سيدات لهن مظهر الملكات ينزلن من العربات الفاخرة أمام دكان الخردوات ، دون وصيفات أو خدم مزعجين ، فيتظاهرن بأنهن يردن شراء مطرزات هولندية وحواشي من الحرير المحبوك ، ثم يرهن بين دمعتين أخر مصاغ فردوسهن المفقود . وتخرجهن ترانسيتو اريثا من حرجهن بتقديرها الشديد لأصلهن النبيل ، لدرجة أن معظمهن كن ينصرفن وهن يحمدن الشرف أكثر من حمدهن المعروف . وخلال أقل من عشر سنوات كانت من ممتلكاتها الحلي المستردة مرات عديدة والمعادة للرهن وسط الدموع مجدداً ، وكذلك الأرباح المتحولة إلى ذهب والمدفونة في جرة تحت السرير عندما اتخذ ابنها قرار الزواج . حينئذ راجعت حساباتها . واكتشفت انها لا تستطيع القيام بعملية صيانة البيت من الانهيار لمدة خمس سنوات فحسب ، بل ربما تستطيع ببعض الحيلة وشيء من الحظ أن تشتريه لأحفادها الاثني عشر الذين كانت ترغب ان ينجبهم ابنها . وكان فلورينتينو اريثا قد عُيّن معاوناً أول لمسؤول مكتب التلغراف بصفة مؤقتة ، وكان لوتاريو تورغوت يريد تسليمه ادارة المكتب حين يذهب هو لتولي ادارة مدرسة التلغراف والمغنطة المنتظر افتتاحها في العام التالي .

وهكذا كان الجانب العملي من الزواج محلولاً . ومع ذلك ، رأت ترانسيتو اريثا ضرورة الاهتمام بشرطين نهائيين . الأول هو الاستعلام عن حقيقة لورينثو داثا ، الذي لا تترك لهجته أية شكوك حول أصله ، أما هويته

ووسائله في الحياة فليس هناك من يعرف عنها خبراً يقيناً . والثاني هو أن الخطوبة يجب أن تطول حتى يتعارف الخطيبان بعمق عبر العلاقة الشخصية وأن يُحفظ أمر الخطوبة طي الكتمان الصارم إلى أن يتأكدا كلاهما من عواطفهما . واقترحت أن ينتظرا حتى تنتهي الحرب . وقد وافق فلورينتينو اريثا على الاحتفاظ بالسرية المطلقة ، سواء للاسباب التي عرضتها أمه أو لطبعه المحب للكتمان . وكان موافقاً كذلك على اطالة مدة الخطوبة لكن النهاية بدت له لا واقعية ، لأن البلد لم يعرف خلال نصف قرن من الاستقلال يوماً واحداً من السلام الأهلي . فقال :

ـ سنشيخ بهذا ونحن ننتظر .

ولم يكن عرابه ، الطبيب التجانسي ، والذي كان يشارك مصادفة بالحديث ، يعتقد بأن الحرب عائق . وكان يرى أنها ليست سوى مشاكل فقراء يسوقهم ملاكو الأرض كالجواميس ، ضد جنود حفاة تسوقهم الحكومة . وقال :

ـ الحرب في الجبل . ومذ أدركت أنا بأنني أنا ، لم يقتلونا هنا في المدينة بالرصاص وانما بالقرارات .

لقد حُلّت على أي حال جميع تفاصيل الخطوبة في رسائل الاسبوع التالي . ووافقت فيرمينا داثا ، بناء على نصيحة العمة اسكولاستيكا ، على استمرار الخطوبة لمدة سنتين وعلى الكتمان المطلق ، واقترحت أن يطلب فلورينتينو اريثا يدها عندما تنتهي من المدرسة الثانوية في عطلة أعياد الميلاد . وأن يتفقا في الوقت المناسب على طريقة اعلان الخطوبة حسب درجة القبول التي ستكون قد حصلت عليها من أبيها . وحتى ذلك الحين ، تابعا تبادل الرسائل بنفس الحماسة ونفس الكثرة ، ولكن دون المخاوف السابقة . وأخذت رسائلهما تميل الى لهجة عائلية تبدو كأنها رسائل زوجين . ولم يكن هناك ما يعكر احلامهما .

ولقد طرأ تبدل على حياة فلورينتينو اريثا . اذ منحه الحب المتبادل أماناً وقوة لم يعرفهما أبداً ، وأصبح دؤوباً في العمل مما سمح للوتاريو توغوت بتعيينه نائباً له في السلطات دون بذل أي مجهود . وكان مشروع مدرسة التلغراف والمغنطة قد فشل في ذلك الحين ، فكرس الألماني وقت فراغه للأمر الوحيد الذي يحبه فعلاً ، ألا وهو الذهاب إلى الميناء لعزف الاكورديون وتناول البيرة مع البحارة ، ثم الانتهاء من كل ذلك في فندق العابرين . وقد انقضى زمن طويل قبل أن يعرف فلورينتينو اريثا أن تأثير لوتاريو توغوت في مكان اللذة ذاك انما هو عائد الى امتلاكه المحل ، وكونه رب عمل عصفورات الميناء . لقد اشتراه شيئا فشيئاً ، بمدخراته خلال سنوات طويلة ، لكن من كان يدير الفندق بدلاً منه هو رجل قصير ، نحيل وأعور ، رأسه كالفرشاة ، وقلبه طيب وأليف لدرجة أن أحداً لم يكن يفهم كيف بامكانه أن يكون وكيلاً مناسباً . لكنه كان كذلك . أو على الأقل هذا ما بدا لفلورينتينو اريثا عندما قال له الوكيل ، دون أن يكون هو قد طلب منه ، بأنه هيأ له غرفة دائمة في الفندق لا ليحل فيها مشاكل ما تحت البطن فقط ، حين يقرر ذلك ، بل ليجد مكاناً أكثر هدوءاً لمطالعته ولرسائل الحب التي يكتبها . وفيما كانت الشهور المتبقية لاعلان الخطوبة تمضي ، أخذ يقضي في الفندق وقتاً أطول مما يقضيه في المكتب والبيت ، وجاءت فترات لم تعد ترانسيتو اريثا تراه إلا عندما يأتي لاستبدال ملابسه .

صارت المطالعة رذيلة لا يرتوي منها . فمنذ علمته أمه القراءة ، كانت تشتري له كتب المؤلفين الشماليين المزينة بالرسوم ، والتي كانت تباع على أنها حكايات للأطفال ، لكنها في الواقع كانت أقسى وأفسد ما يمكن قراءته في جميع الأعمار . كان فلورينتينو اريثا يسردها عن ظهر قلب وهو في الخامسة ، سواء في الدروس أو في سهرات المدرسة ، لكن تآلفه معها لم يهدئ من رعبه . بل على العكس ، كان يفاقمه . وهكذا فقد كان لتحوله

إلى الشعر مفعول المسكّن . فما ان بلغ سن الرشد حتى كان قد استهلك حسب ترتيب صدورها ، جميع كتيبات المكتبة الشعبية التي كانت تشتريها له ترانستو أريثا من المكتبيين الذين يعرضون بضاعتهم عند بوابة الكتبة العموميين ، حيث توجد جميع أنواع الكتب ، ابتداء من هوميروس وحتى أقل الشعراء المحليين قيمة . ولم يكن يميز ما يقرأه : كان يقرأ الكتيب الذي يأتيه ، كما لو كان شأناً من شؤون القدر . ولم تكفه كل سنوات القراءة ليعرف الغث من السمين في العالم الذي قرأه . والشيء الوحيد الذي كان واضحاً لديه هو انه عند المفاضلة بين النثر والشعر يفضل الشعر ، ومن بين الاشعار يفضل أشعار الحب ، التي كان يحفظها غيباً دون قصد منذ القراءة الثانية ، وبسهولة أكبر حين تكون مقفاة موزونة جيداً ، وعندما تكون مؤثرة كثيراً .

كان هذا هو المنهل الأساسي لرسائله الأولى إلى فيرمينا داثا ، حيث كان يورد مقاطع كاملة دون طهي من أشعار الرومنسيين الاسبان ، وبقيت رسائله كذلك إلى ان اضطرته الحياة الواقعية إلى الاهتمام بالشؤون الدنيوية أكثر من الاهتمام بشجون القلب . وكان في ذلك الحين قد خطا خطوة أخرى نحو قصص الدموع المسلسلة وأنواع أخرى أكثر دنيوية من نثر عصره . وكان قد تعلم البكاء مع أمه وهو يقرأ الشعراء المحليين الذين يباعون في الساحات وتحت القناطر في كتيبات بسنتافين لكل منها . لكنه كان قادراً في الوقت نفسه على القاء أفضل أشعار العصر الذهبي القشتالي عن ظهر قلب . وعموماً كان يقرأ كل ما بين يديه ، حسب ترتيب وقوعه بين يديه ، حتى أنه بعد زمن طويل من سنوات حبه الأول القاسية تلك ، وعندما لم يعد شاباً ، قرأ من أول صفحة وحتى آخر صفحة مجلدات كنز الشباب العشرين ، ومجموعة الكلاسيكيين الكاملة حسب طبعة جارنير هنس المترجمة ، والأعمال الأكثر سهولة التي كان ينشرها دون فيثنتي بلاسكو ايبانيث في سلسلة « الواعدون » .

ولم تكن فترة فتوته في فندق العابرين على أية حال تقتصر على المطالعة وكتابة الرسائل المحمومة ، وانما ادخلته أيضاً في أسرار ممارسة الحب دون حب . كانت الحياة تدب في البيت بعد انتصاف النهار ، عندما تستيقظ صديقاته العصفورات عاريات كما ولدتهن أمهاتهن ، وهكذا كان فلورينتينو اريثا يجد نفسه لدى عودته من العمل في قصر مسكون بحوريات عاريات ، يعلقن صارخات على أسرار المدينة ، التي يطلعن عليها بوشايات أصحابها بالذات . وكانت كثيرات منهن يعرضن في عريهن آثاراً من الماضي : ندوب طعنات خناجر في البطن ، أو آثار أعيرة نارية تبدو كالنجوم ، أو أخاديد ضربات بسكاكين الحب . أو خياطات عمليات قيصيرية يجريها الجزارون . وتحضر بعضهن خلال النهار ابناءهن الصغار ، ابناء مرارة الشباب وتهوره التعساء ، وينزعن عنهم ملابسهم فور دخولهم حتى لا يشعر الصغار بأنهم مختلفون في جنة العراة . وقد كانت كل منهن تطهو طعامها وحدها ، ولم يكن هناك من يأكل خيراً من فلورينتينو اريثا عندما يدعونه ، لأنه يختار أفضل ما لدى كل منهن . كان ذلك احتفالاً يومياً يستمر حتى المساء ، حين تصطف العاريات لدخول الحمام وهن يغنين ، بينما يستعرن من بعضهن الصابون ، أو فرشاة الاسنان ، أو المقصات ، وكانت بعضهن تقص شعر الأخريات ، ثم يرتدين ملابسهن سهلة الخلع ، ويطلين وجوههن كمهرجات مبكيات ، ويخرجن لاصطياد أول طرائدهن الليلية . وحينئذ تصبح حياة البيت غامضة ولا انسانية وتصبح المشاركة فيها مستحيلة دون دفع الثمن .

لم يكن لفلورينتينو اريثا مكان أفضل منه يقضي فيه وقته مذ تعرف على فيرمينا داثا ، ، فهو المكان الوحيد الذي لا يشعر فيه بالوحدة . بل وأكثر من ذلك : انه المكان الوحيد الذي صار يشعر وهو فيه بأنه معها . وربما لهذه الاسباب نفسها كانت تعيش هناك امرأة متقدمة في السن ، أنيقة ذات رأس

مفضض بديع ، لا تشارك في حياة العاريات الطبيعية ، ويكنن جميعهن لها احتراماً مقدساً . لقد حملها الى هناك خطيب ما وهي شابة ، وبعد أن تمتع بها لبعض الوقت هجرها لمصيرها . وقد توصلت برغم وصمتها إلى زواج سعيد ، وعندما أصبحت كبيرة في السن ، ووحيدة ، تنازع ابناها وبناتها الثلاث متعة حملها للعيش معهم ، أما هي فلم يخطر لها مكان أكثر جدارة بالحياة من فندق الماجنات الحنونات ذاك . وكانت حجرتها الدائمة هناك هي بيتها الوحيد ، وهذا ما جعلها تتوافق فوراً مع فلورينتينو اريثا ، الذي كانت تقول عنه انه سيصير عالماً مشهوراً في العالم بأسره ، لأنه قادر على اغناء روحه بالمطالعة في جنة الشبق . وقد أبدى لها فلورينتينو اريثا من جانبه عطفاً شديداً ، فكان يساعدها في شراء حاجاتها من السوق ، واعتاد أن يمضي بعض الأماسي متحدثاً اليها ، وكان يفكر بأنها امرأة عالمة في الحب ، اذ قدمت له اضاءات كثيرة حول حبه ، دون أن يكشف لها عن سره .

واذا كان لم يسقط في الاغراءات الكثيرة التي في متناول يده قبل أن يعرف حب فيرمينا داثا ، فانه لن يفعل ذلك بعد أن أصبحت خطيبته الرسمية . وهكذا كان فلورينتينو اريثا يعيش مع الفتيات ، يقاسمهن الافراح والاتراح ، دون أن يخطر بباله أو ببالهن المضي إلى ما هو أبعد من ذلك . وقد جاء حادث طارئ ليؤكد صرامة قراره . ففي الساعة السادسة من مساء أحد الايام ، فيما الفتيات يرتدين ملابسهن استعداداً لاستقبال زبائن الليل ، دخلت إلى حجرته العاملة المكلفة بتنظيف الأرضية : امرأة شابة لكنها مترهلة وشاحبة ، ترتدي ملابسها كتائبة في مملكة العاريات . وكان يراها يومياً دون أن يشعر بانها تراه . كانت تنتقل بين الحجرات حاملة المكانس ، وسطل القمامة وممسحة خاصة تلتقط بها عن الأرض مانعات الحمل المستخدمة . دخلت إلى الغرفة حيث كان فلورينتينو اريثا يقرأ كعادته ، وكنست الأرض بحذر شديد كعادتها ، كي لا تزعجه وفجأة مرت بمحاذاة

السرير ، وأحس باليد الدافئة والطرية فوق صليب بطنه ، أحس بها تبحث عنه ، أحس بها تجده ، وأحس بها تحلّ الأزرار فيما تنفسها يملأ الغرفة . تظاهر بأنه يقرأ إلى أن لم يعد قادراً على الاحتمال ، فاضطر للاعراض عنها بجسده .

فزعت المرأة ، فالتحذير الأول الذي أعطوها اياه لمنحها وظيفة عاملة هو ألا تضاجع أحداً من الزبائن . ولم يكن عليهن أن يقلن لها ذلك ، لأنها كانت ممن يفكرن بأن الدعارة ليست في المضاجعة مقابل المال ، وانما في مضاجعة الغرباء . كان لها ابنان ، كل منهما من زوج مختلف ، وليس ذلك في مغامرات عرضية ، وانما لأنها لم تتمكن من حب رجل يرجع اليها بعد المرة الثالثة . لقد كانت حتى ذلك الحين امرأة ليست على عجلة من أمرها ، وكانت مهيأة بطبعها للانتظار دون يأس ، ولكن الحياة في ذلك البيت كانت أقوى من عفتها . كانت تدخل إلى العمل في السادسة مساء ، وتقضي الليل كله متنقلة من حجرة إلى أخرى ، كانسة الأرض بأربع ضربات من مكنستها ، جامعة موانع الحمل المستخدمة ، مستبدلة شراشف الأسرة . ولم يكن سهلاً تصور كمية الأشياء التي يخلفها الرجال بعد الحب . انهم يتركون قيئاً ودموعاً ، وهذا كان يبدو لها مفهوماً . لكنهم كانوا يخلفون كذلك الكثير من ألغاز العلاقات الجنسية : بقع دم ، لطخات براز ، عيون زجاجية ، ساعات ذهبية ، اسنان اصطناعية ، علب تحتوي على خصل شعر ذهبية ، رسائل حب ، رسائل تجارية ، رسائل تعزية... رسائل من كل صنف . كان بعضهم يعود بحثاً عن أشيائه المفقودة ، لكن معظم الأشياء كانت تبقى هناك ، وكان لوتاريو توغوت يحفظها تحت قفل ، مفكراً بأن ذلك القصر الساقط في المحنة ، مع آلاف الأشياء الشخصية المنسية ، سيتحول عاجلاً أم آجلاً إلى متحف للحب .

كان العمل قاسياً وأجره ضئيلاً ، لكنها كانت تقوم به على أحسن

وجه . أما ما لم تكن قادرة على احتماله فهو التنهدات ، والتأوهات ، وصرير نوابض الأسرّة التي كانت تترسب في دمها بحرقة وألم شديدين ، وما ان يأتي الفجر حتى تكون عاجزة عن احتمال تلهفها للاضطجاع مع أول شحاذ تلتقي به في الشارع ، أو مع أي سكير مبدد يقدم لها هذه الخدمة دون مطالب أو أسئلة أخرى . كان ظهور رجل بلا امرأة ، كفلورينتينو اريثا ، فتي ونظيف ، بمثابة هدية من السماء بالنسبة لها . ذلك أنها لاحظت منذ اللحظة الأولى أنه مثلها : معوز للحب . أما هو فلم يكن يحس بما تعانيه . لقد احتفظ بعذريته في سبيل فيرمينا داثا ، وليست هناك قوة أو منطق في هذا العالم يثنيه عن عزمه .

وعلى هذا المنوال كانت حياته تسير قبل أربعة شهور من الموعد المحدد لاعلان الخطوبة ، عندما ظهر لورينثو داثا في الساعة السادسة صباحاً في مكتب التلغراف ، وسأل عنه . وبما أنه لم يكن قد حضر بعد ، فقد انتظره جالساً على المقعد حتى الساعة الثامنة وعشر دقائق ، ناقلاً من اصبع الى آخر الخاتم الذهبي الثقيل المرصع بياقوتة نقية ، عندما رآه يدخل عرفه فوراً على أنه موظف التلغراف ، فأمسكه من ذراعه وقال له :

ـ تعال معي أيها الشاب . لدينا ما نتحدث فيه معاً لخمسة دقائق حديث رجل لرجل .

وانقاد فلورينتينو اريثا ، الذي صار لونه أخضر مثل ميت... لم يكن مهيئاً لهذا اللقاء ، لأن فيرمينا داثا لم تجد الفرصة ولا الوسيلة لانذاره . والقضية هي أنه في يوم السبت الفائت ، دخلت الاخت فرانكا دي لالوث ، رئيسة راهبات مدرسة ظهور العذراء المقدسة ، إلى درس المعرفة الكونية بصمت أفعى ، وفيما هي تتجسس على التلميذات من فوق أكتافهن ، اكتشفت أن فيرمينا داثا تتظاهر بأنها تسجل ملاحظات على الدفتر بينما هي في الواقع تكتب رسالة حب . كانت هذه الخطيئة ، حسب قوانين المدرسة ،

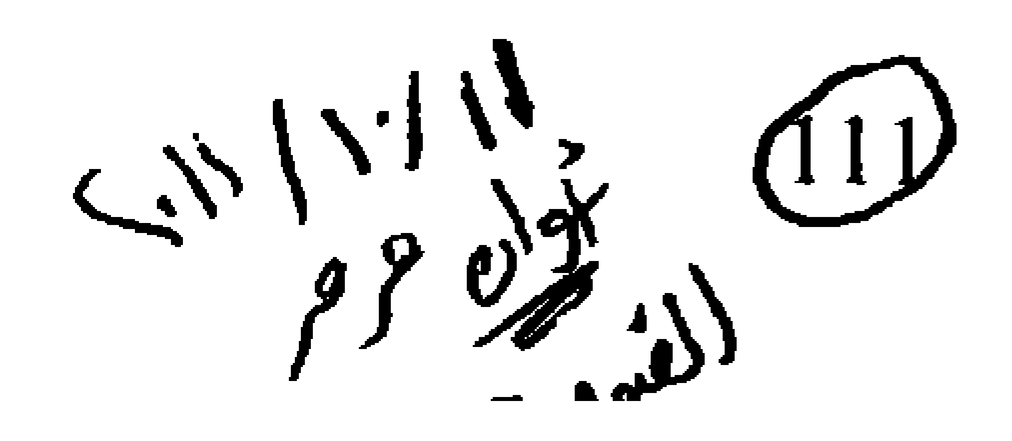
سبباً كافياً للطرد . ولدى استدعائه على عجل إلى مكتب الادارة ، اكتشف لورينثو داثا الثقب الذي كان يتسرب منه نظامه الحديدي . وقد اعترفت فيرمينا داثا ، بقوة طبعها ، بخطيئة الرسالة ، لكنها رفضت الكشف عن هوية الحبيب السري . وعادت ترفض أمام محكمة الانضباط ، التي أقرت لهذا السبب حكم الطرد . ورغم ذلك ، فقد قام الأب بتفتيش غرفة نومها التي كانت حتى ذلك الحين مكاناً مقدساً لا يجوز خرق حرمته ، ووجد في الصندوق ذي القاع المزدوج رسائل ثلاث سنوات ، مخبأة بمحبة تضاهي المحبة المبذولة في كتابتها . لم يكن توقيع المرسل يحتمل الخطأ ، لكن لورينثو داثا لم يستطع أن يصدق حينئذ ، ولا فيما بعد ، أن ابنته لا تعرف عن خطيبها الخفي سوى مهنته في التلغراف وهوايته في عزف الكمان .

ولقناعته أن علاقة على هذا القدر من الصعوبة لا يمكن فهمها إلا بتستر شقيقته ، فانه لم يسمح لهذه حتى بنعمة الاعتذار ، وانما أجبرها على الابحار دون استئناف في مركب إلى سان خوان دي لاثييناغا ، لم تسترح فيرمينا داثا إلى الأبد من عذاب ذكراها الأخيرة ، في مساء اليوم الذي ودعتها فيه عند البوابة وهي تتقد بالحمى في مسوحها البني ، ورأتها تختفي بعظامها البارزة وشحوبها تحت مطر الحديقة حاملة متاعها الوحيد المتبقي لها في الحياة : حقيبة العزباء ، وبعض النقود ، التي تكاد لا تكفيها للحياة شهراً ، ملفوفة بمنديل في طرف كمها . وما ان تحررت من سلطة والدها فيما بعد حتى بعثت من يبحث عنها في مقاطعات الكاريبي ، سائلة عنها كل من قد تعرف اليها ، ولم تجد أي خبر عن آثارها إلا بعد مرور حوالي ثلاثين سنة ، عندما تلقت رسالة تناقلتها أيد كثيرة خلال زمن طويل ، وفيها يخبرونها بأنها ماتت في حوالي المئة من العمر في محجر اغوادي ديوس الصحي . لم يتنبأ لورينثو داثا بالشراسة التي سترد بها ابنته على العقاب الظالم الذي راحت ضحيته العمة اسكولاستيكا ، تلك العمة التي كانت ترى

فيها أمها التي تكاد لا تتذكرها . لقد حبست نفسها مقفلة الباب بالرتاج في غرفة النوم ، دون طعام أو شراب ، وعندما تمكن أخيراً من جعلها تفتح الباب ، بالتهديد أولاً ثم بالتوسلات المنافقة ، وجد نفسه أمام لبوة جريح لن تعود ابنة خمس عشرة سنة إلى الأبد .

حاول اغراءها بكل أنواع التملق . حاول افهامها أن الحب في سنها ما هو إلا سراب ، وحاول اقناعها بالحسنى أن تعيد الرسائل وترجع الى المدرسة لتطلب الصفح جاثية ، ووعدها بكلمة شرف أنه سيكون أول من يساعدها لتكون سعيدة مع خطيب محترم . لكنه كان كميت يحدث ميتاً . أحس بالهزيمة ، وانتهى إلى فقدان أعصابه أثناء غداء يوم الاثنين ، وفيما هو يشرق بالسباب والشتائم على حافة الهيجان ، تناولت سكين اللحم ووضعتها على عنقها ، بلا دراماتيكية وبنبض ثابت ، وعينين ذاهلتين لم يجرؤ على تحديهما . وكان أن قرر حينئذ المخاطرة بالحديث كرجل لرجل ، لمدة خمس دقائق ، مع الدخيل المشؤوم الذي لا يذكر أنه رآه يوماً ، والذي وقف في طريق حياته في ساعة نحس . وبمحض العادة تناول المسدس قبل أن يخرج ، لكنه حرص على حمله مخبأ تحت القميص .

لم يكن فلورينتينو اريثا قد استرد أنفاسه عندما قاده لورينثو داثا من ذراعه عبر ساحة الكتدرائية حتى رواق الأقواس في مقهى الباروكية ، ودعاه للجلوس على المصطبة الخارجية ، لم يكن هناك زبائن آخرون في مثل هذا الوقت ، وكانت امرأة زنجية تمسح بلاط الصالة الضخمة ذات الواجهات الزجاجية المتشظية والمغبرة ، حيث كانت الكراسي ماتزال موضوعة بالمقلوب فوق الطاولات الرخامية . كان فلورينتينو اريثا قد رأى لورينثو داثا مرات كثيرة وهو يلعب ويشرب النبيذ هناك مع استوريي السوق العام ، الذين يشتبكون في مشادات صارخة حول حروب مزمنة أخرى غير حروبنا . ولقد تساءل مرات كثيرة ، وهو يعي قدرية الحب ، كيف سيكون لقاؤه الذي



سيتم عاجلاً أم آجلاً مع هذا الرجل ، ذلك اللقاء الذي لن تحول دونه قوة انسانية ، لأنه مكتوب منذ الأزل في قدر كل منهما . لقد رأى في الأمر شجاراً لا متكافئاً ، ليس لأن فيرمينا داثا لم تكن قد نبهته في رسائلها إلى طبع أبيها العاصف فحسب ، بل لأنه هو نفسه لاحظ من قبل أن له عينين غاضبتين حتى حين يقهقه ضاحكاً على طاولة اللعب . ان كل ما فيه كان محصلة شراسة : كرشه اللئيم ، وطريقته المُفخّمة في الكلام ، وساقاه اللتان كساقي وشَق ، ويداه الغليظتان مع البنصر المختنق بفص الياقوت . الشيء اللين الوحيد فيه ، والذي تنبه اليه فلورينتينو اريثا مذ رآه يمشي لأول مرة ، هو مشيته الغزلانية التي كمشية ابنته . ومع ذلك ، فانه لم يره فظاً كما كان يظن حين أشار له إلى الكرسي ليجلس ، ثم أنه استرد أنفاسه عندما دعاه لتناول كأس من خمرة لها طعم اليانسون . لم يكن فلورينتينو اريثا قد تناول مشروباً كهذا في الثامنة صباحاً من قبل لكنه وافق شاكراً ، لأنه كان بحاجة اليه وبسرعة .

لم يتأخر لورينثو داثا فعلاً أكثر من خمس دقائق في عرض غرضه ، وفعل ذلك بصراحة مجردة جعلت الأمر يختلط على فلورينتينو اريثا . لقد وضع نصب عينيه ، منذ وفاة زوجته ، هدفاً وحيداً ، هو أن يجعل من ابنته سيدة عظيمة . وكان السبيل الى ذلك طويلاً شائكاً بالنسبة لتاجر بغال لا يحسن القراءة ولا الكتابة ، رغم أن سمعته كلص مواشي لم تكن مؤكدة بنفس درجة انتشارها في مقاطعة سان خوان دي لاثييناغا . أشعل سيجار بغّال ، وقال متحسراً : «الشيء الوحيد الذي اعتبره أسوأ من اعتلال الصحة هو سوء السمعة» . ومع ذلك ـ قال ـ ان سر ثروته الحقيقي هو أنه لم يكن يجعل أي من بغاله يعمل بقدر ما كان هو نفسه يعمل وبتصميمه ، حتى في أكثر أزمان الحرب مرارة ، حين كانت القرى تستيقظ متحولة إلى ركام والحقول إلى هشيم . ورغم أن ابنته لم تطلع يوماً على مخطط مصيرها ، إلا

أنها كانت تتصرف كشريكة متحمسة . فهي ذكية ومنظمة ، حتى أنها علمت أباها القراءة بالسرعة نفسها التي تعلمت هي بها . وفي الثانية عشرة من عمرها كانت مطلعة على الواقع بشكل يؤهلها لتسيير شؤون البيت دون حاجة للعمة اسكولاستيكا . وتنهد : «انها بغلة ذهبية» . وعندما انهت ابنته المدرسة الابتدائية ، بدرجات قصوى في كل المواد ، مع تنويه شرف في حفل الختام ، أدرك أن بلد سان خوان دي لاثييناغا أصبحت ضيقة على أحلامه . عندئذ صفى ممتلكاته من الأراضي والمواشي ، وانتقل بقوى جديدة وسبعين ألف بيزو ذهباً إلى هذه المدينة المنهارة ، ذات الامجاد المنخورة ، ولكن حيث المجال متاح لامرأة جميلة ومؤدبة على الطريقة القديمة أن تولد من جديد بزواج محظوظ . لقد كان اقتحام فلورينتينو اريثا حياتهما عائقاً غير منتظر في ذلك المخطط الصارم . «إنني آت لأتقدم منك برجاء» . قال لورينثو داثا . ثم بلل عقب السيجار بخمر اليانسون ، وأخذ منه نفساً بلا دخان ، واختتم بصوت مغموم :

ـ ابتعد عن طريقنا .

كان فلورينتينو اريثا قد أصغى اليه وهو يتناول رشفات من خمر اليانسون ، منذهلاً من اكتشاف ماضي فيرمينا داثا ، حتى أنه لم يسأل نفسه عما سيقوله عندما سيتكلم . ما أن حان وقت الكلام حتى انتبه الى أن تقرير مصيره متوقف على ما سيقوله . فسأل :

ـ هل كلمتها ؟

قال لورينثو داثا : .

ـ هذا ليس من اختصاصك .

وقال فلورينتينو اريثا :

ـ انني أسأل لأنني أرى أنها هي التي عليها أن تقرر .

فقال لورينثو داثا :

ـ لا شيء من هذا . فالقضية قضية رجال ويجب تسويتها بين الرجال .

أصبحت نبرة صوته متوعدة ، والتفت زبون على طاولة مجاورة لينظر اليهما . وتكلم فلورينتينو اريثا بأخفض صوت ممكن ولكن بأقصى ما لديه من تصميم .

قال :

ـ لا أستطيع اجابتك على أية حال دون أن أعرف رأيها ، لأن ذلك سيكون خيانة .

حينئذ شد لورينثو داثا نفسه إلى الوراء في المقعد ، بأجفانه المحمرة والرطبة ، ودارت عينه اليسرى في محجرها لتستقر مائلة إلى الخارج . ثم خفض صوته أيضاً وقال :

ـ لا تجبرني على قتلك باطلاق النار عليك .

أحس فلورينتينو اريثا أن أحشاءه قد امتلأت برغوة باردة ، لكن صوته لم يرتعش ، لأنه أحس أيضاً بأنه ملهم بوحي من الروح القدس . فقال ويده على صدره :

ـ أطلق .

كان على لورينثو داثا أن ينظر اليه مجانبة ، كالببغاوات ، ليراه بالعين المائلة . ولم ينطق الكلمات الثلاث ، وانما بدا وكأنه يبصقها مقطعاً مقطعاً :

ـ يا ـ ابن ـ العا ـ هر ـ ة!

في ذلك الأسبوع بالذات حمل ابنته إلى رحلة النسيان . لم يقدم لها أي تفسير ، سوى أنه اقتحم غرفة نومها وشاربه ملوث بالغضب المختلط مع السيجار الممضوغ ، وأمرها بأن تجهز أمتعة السفر . سألته إلى أين سيذهبان ، فأجابها : «إلى الموت» . وحاولت وهي فزعة من هذا الجواب الذي يشابه الحقيقة كثيراً ، مواجهته بشجاعة الأيام الماضية ، لكنه نزع حزامه ذا الابزيم النحاسي ، وطواه على قبضته ، ثم هوى على الطاولة بجلدة

دوت في أرجاء البيت كأنها طلقة بندقية ، فعرفت فيرمينا داثا جيداً مدى قوتها ومناسبتها ، ،هكذا أعدت أمتعة السفر ولفتها ببساطين وارجوحة نوم ، ووضعت كل ملابسهما في صندوقين كبيرين ، وهي متأكدة من أنها رحلة بلا عودة . وقبل أن ترتدي ثيابها ، حبست نفسها في الحمام وتمكنت من كتابة رسالة وداع قصيرة إلى فلورينتينو اريثا على ورقة منتزعة من مجموعة الورق الصحي . ثم قصت ضفيرتها كاملة من مستوى الرقبة بمقص تقليم ، ولفتها في علبة من المخمل مطرزة بخيوط ذهبية وبعثت بها مع الرسالة .

كانت رحلة مجنونة . مرحلتها الأولى وحدها استغرقت أحد عشر يوماً برفقة قافلة بغّالي الانديز ، على صهوة بغلة فوق جروف سلسلة سييرا نيفادا الوعرة ، وقد أمضوها وهم مخدرون بالشموس اللاهبة أو مبللين بأمطار تشرين الأفقية ، وبأنفاس مخدرة في معظم الاحيان بفعل الروائح المنومة التي تنبعث من الجروف . وفي اليوم الثالث للرحلة انزلقت بغلة هائجة بسبب ذباب الدواب وهوت مع فارسها ساحبة معها مجموعة البغال المربوطة واياها كلها ، استمرت زعقة الرجل وعنقوده المؤلف من سبع بهائم مربوطة إلى بعضها تتردد في الأودية والوهاد لعدة ساعات بعد الكارثة ، وبقيت تطن في ذاكرة فيرمينا داثا لسنوات وسنوات . لقد هوى كل متاعها مع البغال ، ولكنها في لحظة القرون التي استغرقها السقوط إلى أن انطفأت صرخة البغال في القاع ، لم تفكر بالرجل المسكين الذي مات ولا بالقافلة التي تمزقت ، وانما كانت ترى الكارثة في أن بغلتها التي تمتطيها لم تكن مربوطة مع البغال الأخرى .

كانت المرة الأولى التي تمتطي فيها صهوة بهيمة ، ولكن رعب الرحلة وآلامها التي لا حصر لها ما كانت لتبدو لها بهذه المرارة لولا قلقها من كونها لن ترى فلورينتينو اريثا بعد اليوم ولن تتعزى برسائله . منذ بدء الرحلة لم

تبادل والدها الحديث ، وهذا كان قلقاً بدوره حتى أنه لم يكلمها إلا في بعض الأمور الضرورية ، أو اكتفى بارسال بعض التعليمات اليها مع البغالين . وحين كان الحظ يحالفهم ، يجدون نزلاً على الطريق يُقدم فيه طعام جبلي ترفض تناوله ، ويؤجرونهم فراشاً متسخاً بعرق وبول زنخين . أما غالبية الليالي فكانوا يقضونها في أكواخ خشبية ذات سقوف من النخيل ، حيث لكل من يصل الحق بالبقاء حتى الفجر . لم تتمكن فيرمينا داثا من النوم ليلة كاملة وهي تتعرق خوفاً ، وتحس في الظلام بحركة المسافرين الرشيقة وهم يربطون دوابهم في الأكواخ الخشبية ويعلقون اراجيح نومهم حيث يستطيعون .

في المساء ، وعند وصول أول المسافرين ، يكون المكان بهياً وهادئاً ، لكنه يتحول عند الصباح إلى ساحة مهرجان ، مليئة بحشد من أراجيح النوم المعلقة على عدة مستويات ، وهنود ارواكو الجبليين الذين ينامون مقرفصين ، وتململ الماعز المربوطة وصخب ديكة المصارعة في صناديقها الفرعونية ، والصمت اللاهث للكلاب الجبلية المدربة على عدم النباح خوفاً من مخاطر الحرب . لقد كانت تلك الأجواء مألوفة للورينثو داثا ، الذي عمل تاجراً في المنطقة خلال نصف حياته ، وكان يلتقي بشكل دائم مع أصدقاء قدماء عند الفجر . أما بالنسبة للابنة فكان احتضاراً مؤبداً . ان نتانة شحنات السمك المملح ، مضافة إلى فقدانها الشهية شوقاً ، توصلا إلى اتلاف عادة الأكل لديها ، واذا لم يصبها مسّ من اليأس فلأنها وجدت الفرج دوماً في ذكرى فلورينتينو اريثا . ولم تشك ، لحظة ، في أن تلك الأرض هي أرض النسيان .

وكان هناك رعب دائم آخر هو رعب الحرب . فمنذ بدء الرحلة جرى حديث عن خطر الالتقاء بالدوريات المنتشرة ، وقد دربهم البغالون على مختلف الاساليب لمعرفة الجهة التي ينتمون اليها ليتصرفوا بما يتلاءم مع

ذلك . وكثيراً ما كانوا يلتقون بارسالية جند على الخيول ، تحت امرة ضابط ، تقوم بحملة تجنيد اجباري لمجندين جدد وذلك بربطهم كالعجول واجبارهم على الجري . ومثقلة بكل هذه المخاوف ، نسيت فيرمينا داثا ذاك الذي بدا لها أكثر خرافية من الأمور الوشيكة الحدوث ، إلى أن اختطفت دورية بلا انتماء معروف مسافرين من القافلة في احدى الليالي وشنقتهما على شجرة كابلي على بعد فرسخ واحد من المنامة . لم يكن للوريثنو داثا أية علاقة بهما ، لكنه انزلهما عن الانشوطة ودفنهما كمسيحيين وذلك بدافع الحمد لكونه لم يلق المصير نفسه . وكان هذا أقل ما يمكن عمله . لأن المهاجمين كانوا قد ايقظوه وفوهة بندقية مصوبة إلى بطنه ، واقترب منه قائد بأسمال ، وجهه مطلي بسناج أسود ، وصوب نحوه ضوء مصباح يدوي ، وسأله ان كان ليبرالياً أم محافظاً . فقال لورينثو داثا :

ـ لست هذا ولا ذاك . أنا مواطن اسباني .

فقال الكومندان :

ـ يا لك من محظوظ! ـ ثم ودعه رافعاً إلى أعلى وقال : ـ فليحيا الملك!

بعد يومين من ذلك نزلوا إلى السهل الساطع ، حيث تقبع بلدة فاييدوبار السعيدة . كانت تقام هناك مصارعات ديكة في الباحات ، وتُعزف موسيقى اوكورديون في المنعطفات ، كما كان هناك فرسان يمتطون صهوات جياد كريمة ، وألعاب نارية وقرع نواقيس . وكانوا قد نصبوا كذلك قلعة من الاسهم النارية . لكن فيرمينا داثا لم تعر أي اهتمام حتى للجوقة الموسيقية . استضافهما الخال ليسيماكو سانتشيث ، شقيق أمها ، الذي خرج لاستقبالهم على الطريق الرئيسي ترافقه كوكبة من الفرسان الاقارب الشباب الذين يمتطون بهائم من أفضل سلالات المقاطعة ، وقادوهما عبر شوارع البلدة وسط فرقعة الألعاب النارية . كان البيت في نطاق الساحة الكبرى ، إلى جوار الكنيسة الاستعمارية المرممة عدة مرات ، والتي كانت أشبه بمستودع

محصولات بحجراتها الفسيحة والمظلمة ، وممرها العابق برائحة عصير قصب السكر الدافئ ، مقابل بستان أشجار مثمرة .

وما ان ترجلوا في الاصطبلات ، حتى امتلأت صالات الاستقبال باعداد من الاقارب المجهولين الذين كانوا يزعجون فيرمينا داثا بسيل عواطفهم الذي لا يطاق ، لأنها كانت عاجزة عن حب أحد آخر في هذا العالم ، اضافة إلى تسلخ بشرتها من امتطائها البهيمة ، وانهاكها من النعاس والاسهال ، الشيء الوحيد الذي كانت تتشوق اليه هو مكان منعزل وهادئ لتبكي فيه . وكانت ابنة خالها هيلديبراندا ، التي تكبرها بسنتين ولها كبرياؤها الامبراطوري ذاته ، هي الوحيدة التي تفهمت حالتها مذ رأتها لأول مرة ، لانها كانت تكتوي كذلك بجمرات حب متهور . رافقتها عند المساء إلى حجرة نومها التي أعدتها لتتقاسمها واياها ، ولم تستطع أن تفهم كيف مازالت على قيد الحياة بهذه القروح النارية في اليتيها . وبمساعدة أمها ، وهي امرأة عذبة شبيهة جداً بزوجها حتى ليبدوا وكأنهما توأمان ، أعدت لها مغطساً وخففت لها حرارة الحمى بكمادات من أزهار جبلية ، فيما كانت أسهم قلعة البارود النارية تهز أعماق البيت .

انصرف الزوار عند منتصف الليل ، وتفرقت الحفلة العامة إلى جذوات مبعثرة ، أعارت ابنة الخال هيلديبراندا قميص نوم قطنياً أبيض لفيرمينا داثا ، وساعدتها على الاستلقاء في سرير ذي شراشف نظيفة ووسادة ريش أوحت لها بغتة برعب السعادة المفاجئ . وعندما بقيتا وحدهما أخيراً ، أغلقت الباب بالمزلاج وأخرجت من تحت فرشة سريرها مغلفاً مختوماً بشعار التلغراف الوطني . وكانت رؤية تعابير المكر المشعة من وجه ابنة الخال تبرعم في ذاكرة قلب فيرمينا داثا رائحة أزهار الياسمين البيضاء ، قبل أن تفتت بأسنانها خاتم الشمع الأحمر وتبقى حتى الفجر متخبطة في بركة دموع البرقيات الاحدى عشرة الخارقة .

وعرفت حينئذ كل شيء . فقبل الانطلاق بالرحلة ، ارتكب لورينثو داثا خطيئة اخطار حماه ليسيماكو سانتشيث بالتلغراف ، وبعث هذا بدوره الخبر إلى حلقة أقربائه الواسعة والمعقدة ، المنتشرة في عدد كبير من قرى ودروب المقاطعة . وهكذا لم يتمكن فلورينتينو اريثا من معرفة طريق السفر كله فقط ، وانما أقام كذلك جمعية واسعة من عاملي التلغراف لاقتفاء آثار فيرمينا داثا حتى آخر قرية في كابو دي لافيلا . وقد اتاح له ذلك الاحتفاظ باتصال مكثف معها منذ وصولها إلى فييدوبار ، حيث أقامت ثلاثة شهور ، وحتى نهاية الرحلة في ريو هاتشا ، بعد سنة ونصف ، حين هُيئ للورينثو داثا أن ابنته قد نسيت ، وقرر الرجوع إلى بيته . ربما لم يكن هو نفسه واعياً مدى تراخي مراقبته ، في انشغاله بمداهنات انسبائه السياسيين ، الذين تخلوا بعد كل هذه السنين عن أوهامهم القبلية وقبلوه بقلب مفتوح كواحد منهم . لقد كانت زيارة مصالحة متأخرة ، رغم ان الغرض الأساسي منها لم يكن كذلك . كانت عائلة فيرمينا سانتشيث قد عارضت فعلاً ، وبكل اصرار زواجها من مهاجر بلا أصل ، متوحش وكثير الكلام ، كان يمضي عابراً في كل الاماكن ، بتجارة بغال شبقة تبدو شديدة البساطة حتى ليُشك في نظافتها . كان لورينثو داثا يلعب لعبة كبيرة ، لأن محبوبته هي أفضل فتاة في عائلة تقليدية من عائلات المنطقة : قبيلة متشابكة من النساء الباسلات والرجال طيبي القلب وسهلي الزناد ، الذين يهيجون إلى حد الجنون في مسائل الشرف . ومع ذلك ، فقد أصرت فيرمينا سانتشيث بكبريائها على قرار حبها الأعمى ، وتزوجت منه رغم غضب العائلة بسرعة كبيرة واسرار كثيرة ، فبدت وكأنها لم تفعل ذلك بدافع الحب وانما لاخفاء زلة مبكرة بغطاء مقدس .

وبعد خمس وعشرين سنة ، دون أن ينتبه لورينثو داثا إلى أن عناده أمام حب ابنته هو تكرار لتاريخه المعيب ذاته ، كان يشكو من بلواه أمام

أحمائه الذين عارضوا زواجه ، كما شكا هؤلاء في حينهم أمام أحمائهم . لكن الوقت الذي كان يضيعه في حسراته كانت ابنته تكسبه في غرامياتها . وفيما هو منصرف إلى خصي العجول وترويض البغال في أرض احمائه السعيدة ، كانت تمضي مُفلَتة الأعنة مع فوج من بنات خؤولتها تقودهن هيلديبراندا سانتشيث ، أجملهن وأسرعهن في تقديم الخدمات ، والتي كانت تكتفي بنظرات مختلسة في حبها الطائش لرجل يكبرها بعشرين سنة ، متزوج وأب لأولاد .

بعد اقامة طويلة في فاييدوبار ، تابعا الرحلة عبر المرتفعات المجاورة لسلسلة الجبال ، مجتازين مروجاً مزهرة وتلالاً حالمة ، واستقبلوا في جميع القرى بمثل الاستقبال الأول ، مع الموسيقى والمفرقعات ، وبنات خؤولة جديدات متواطئات ورسائل منتظمة في مكاتب التلغراف . وسرعان ما تنبهت فيرمينا داثا إلى أن وصولها إلى فاييدوبار لم يكن مختلفاً ، وان جميع أيام الأسبوع في تلك المقاطعة الغنية كانت تعاش وكأنها أيام أعياد . كان الضيوف ينامون حيث يفاجئهم الليل ويأكلون حيث يصادفهم الجوع ، فالبيوت مشرعة الابواب فيها دائماً ارجوحة نوم معلقة وطبيخ به بضع قطع من اللحم يغلي على موقد ، تحسباً لقدوم أحد قبل وصول برقية الاعلان عن مجيئه ، كما كان يحدث بشكل شبه دائم . رافقت هيلديبراندا سانتشيث ابنه عمتها في بقية مراحل الرحلة ، وقادتها بسعادة عبر تشابكات الدم حتى منابع أصلها . وتعرفت فيرمينا داثا على ذاتها ، وأحست بأنها سيدة نفسها للمرة الأولى ، وأحست بأنها مرافقة ومحمية ، وأن رئتيها ممتلئتان بهواء حرية أعاد لها الطمأنينة وارادة الحياة . وبقيت تذكر تلك الرحلة حتى سنواتها الأخيرة ، وتشعر بها أقرب عهداً في ذاكرتها ، مع صحوات الحنين المضللة .

في احدى الليالي رجعت من جولتها اليومية مصعوقة لاكتشافها أن المرء لا يمكن أن يكون سعيداً دون الحب فحسب بل وضده أيضاً . وقد أفزعها

هذا الاكتشاف لأن احدى بنات أخوالها استمعت مصادفة الى حديث بين آبانهن ولورينثو داثا ، لمح هذا الأخير خلاله إلى موافقته على فكرة زواج ابنته من وارث ثروة كليوفاس موسكوتي الخيالية . كانت فيرمينا داثا تعرفه . فقد رأته وهو يذرع الساحات على متن جياده الكريمة ، ذات السروج الفاخرة التي تبدو كأنها زينة القداس ، وكان أنيقاً وجذاباً ، له رموش حالمة تجعل الاحجار تتنهد ، لكنها قارنته في ذاكرتها بفلورينتينو اريثا الجالس تحت أشجار اللوز في الحديقة ، بائساً وضامراً ، مع كتاب الأشعار في حضنه ، ولم تجد في قلبها ظلاً من الشك .

كانت هيلديبراندا سانتشيث تمضي في تلك الأيام مهووسة بالاحلام بعد زيارة قامت بها لعرافة أذهلتها دقة بصيرتها . فذهبت فيرمينا داثا ، المرتعبة من نوايا أبيها ، لاستشارتها كذلك . وقد أنبأها الورق بأنه لا وجود في مستقبلها لأي عائق أمام زواج طويل وسعيد ، وقد أعادت لها تلك النبوءة انفاسها ، لأنها لم تكن تتصور بأنه يمكن لمصير موفق إلى هذا الحد أن يكون مع رجل آخر سوى الذي تحبه . وتولت حينئذ مقاليد اختيارها وهي سعيدة بهذا اليقين . وهكذا لم تعد مراسلاتها مع فلورينتينو اريثا مجرد كونشيرتو من النوايا والوعود الخيالية ، بل عادت لتصبح منهجية وعملية ، وأكثر زخماً من كل ما سبق . حددا المواعيد ، وأقرا الاساليب ، ورهنا حياتهما بقرارهما المشترك في الزواج دون الرجوع إلى أحد ، في أي مكان وبأية طريقة ، وذلك فور لقائهما من جديد . كانت فيرمينا داثا تعتبر هذا الوعد حاسماً ، لدرجة أنه في الليلة التي سمح لها فيها أبوها حضور الحفلة الراقصة الأولى كراشدة ، في بلدة فنسيكا ، لم تر أنه من الوقار القبول بالذهاب دون موافقة خطيبها . وفي تلك الليلة كان فلورينتينو اريثا يلعب الورق مع لوتاريو توغوت في فندق العابرين ، عندما أخبروه بأنه مطلوب في اتصال برقي مستعجل .

كان المتصل هو موظف التلغراف في فونسيكا . الذي عشّق سبع محطات وسيطة لتطلب فيرمينا داثا الاذن بحضور الحفلة الراقصة . ولكنها حين حصلت على التصريح ، لم تكتف بمجرد الرد الايجابي ، وانما طلبت ما يثبت أن فلورينتينو اريثا هو من يضرب مفاتيح الارسال في الطرف الآخر من الخط فعلاً . فصاغ وهو مذهول أكثر منه مغازلاً عبارة تحدد هويته : قل لها أنني أقسم بالربة المتوجة . وهكذا تعرفت فيرمينا داثا على الاشارة ، وبقيت في حفلتها الراقصة الأولى كراشدة حتى الساعة السابعة صباحاً ، عندما أصبح عليها الذهاب لاستبدال ملابسها كي لا تصل متأخرة إلى القداس .

كانت تمتلك حينئذ في قاع صندوقها كمية من الرسائل والبرقيات أكبر من تلك التي انتزعها ابوها منها . وكانت قد تعلمت أن تسلك سلوك النساء المتزوجات . وقد اعتبر لورينثو داثا تلك التبدلات التي طرأت على سلوكها بأنها شفاء لا شك فيه من أوهام شبابها أوصلها اليه البعد والزمن ، لكنه لم يطرح عليها أبداً مشروع الزواج المتفق عليه . وأصبحت علاقتها بأبيها أكثر انسياباً ، ضمن التحفظات التي فرضتها منذ طرد العمة اسكولاستيكا ، مما أتاح لهما نوعاً من التعايش المريح ما كان لأحد أن يشك بأنه ليس قائماً على المحبة .

وكان أن قرر فلورينتينو اريثا في هذه الفترة اخبار فيرمينا داثا في رسائله بأنه مشغول في الكشف لها عن كنز السفينة الغارقة . كان يفعل ذلك حقاً ، ولقد خطر له الأمر كنفحة الهام ، ذات مساء منير بينما البحر يبدو وكأنه مرصوف بالألمنيوم ، لكميات السمك الطافية على سطح الماء بفعل أزهار البارباسكو . كانت جميع طيور السماء قد هاجت للمجزرة ، بينما تولى الصيادون أمر افزاعها بالمجاذيف كي لا تشاركهم ثمار تلك المعجزة المحرمة . فاستخدام البارباسكو ، الذي يخدر الأسماك فقط ، كان محظوراً في القانون منذ العهد الاستعماري ، لكنه بقي سائداً ومستخدماً في وضح

النهـار بين صيـادي الكاريبي ، إلى أن استـبدل بالديناميت . ان احـدى متع فلورينتينو اريثا ، أثناء رحلة فيرمينا داثا ، كانت مشاهدة الصيادين ، من فـوق حائل الأمواج ، وهم يملأون زوارقـهم بالشبـاك المتـرعة بـالأسمـاك المخدرة . كما كانت هناك عصبة صبيان يسبحون كأسماك القرش ويطلبون من الفضوليين القاء قطع نقدية لاستخراجها من قاع الماء . انهم اولئك الذين ينطلقـون سابحين للغرض ذاته للقاء عابرات المحيطات ، الذين كُتبت عنهم مقالات وتحقيقات رحالة كثيرة في الولايات المتحدة وأوروبا ، لمهارتهم في فن الغوص . لقد كان فلورينتينو اريثا يعرفهم منذ الأزل ، بل وقبل أن يعرف الحب ، ولكن لم يخطر بباله يوماً انهم قادرون على استخراج كنز السفينة سباحة . وقد فكر بذلك مساء اليوم ، ومنذ الأحد التالي وحتى عودة فيرمينا داثا ، بعد حوالي سنة ، كان لديه سبب آخر للهذيان .

لقد فُتن اوكليديس ، أحد الصبية السباحين ، كثيراً كما فتن هو بفكرة الاستكشاف تحت الماء ، بعد محادثة لم تتجاوز عشر الدقائق . لم يكشف له فلورينتينو اريثا عن حقيقة مشروعه ، بينما استفسر منه بالتفصيل عن امكاناته كغـواص وبحار . سأله ان كان يستطيع النزول دون هواء الى عمق عشرين متراً ، وقال له اوكليديس نعم . سأله ان كان في وضع يؤهله لقيادة زورق صياد بمفرده في عرض البحر وسط عاصفة ، دون أية ادوات أخرى سوى غريزته ، وقال له اوكليديس اي نعم . سأله ان كان قادراً على تحديد موقع معين على بعد ستة عشر ميلاً بحرياً إلى الشمال الشرقي من الجزيرة الكبرى في أرخبيل سوتافينتو ، وقال له اوكليديس اي نعم . سأله ان كان مستعداً للعمل معه بالأجر نفسه الذي يدفعه له الصيادون لقاء مساعدتهم في الصيد ، وقال له اوكليديس اي نعم ، انما مع اضافة خمس ريالات في أيام الآحاد . سأله ان كان يحسن حماية نفسه من أسماك القرش ، وقال له اوكليديس اي نعم ، وان لديه تعاويذ سحرية لافزاعها . سأله ان كان قادراً

على كتمان السر حتى ولو وضعوه على آلات التعذيب في قصر محكمة التفتيش ، وقال له اوكليديس اي نعم . لم يقل له «لا» عن أي شيء اذن ، وكان يعرف كيف يقول نعم بخصوصية لا يرقى اليها الشك . ثم عرض عليه أخيراً حساب النفقات : استئجار الزورق ، استئجار المجداف ، استئجار عدة صيد حتى لا يرتاب أحد بحقيقة رحلاتهم . اضافة إلى حمل الطعام ، وقربة ماء عذب ، ومصباح زيت ، وحزمة شموع من الشحم ، وقرن صياد لطلب النجدة في حالة الطوارئ .

كان عمره حوالي اثني عشر عاماً ، وكان سريعاً وماكراً ، ومتحدثاً لا يمل الكلام ، له جسد حَنكليس يبدو وكأنه قد تكوّن ليمر بخفة من نافذة سفينة . وكانت عوامل الجو قد دبغت بشرته بحيث أصبح مستحيلاً معرفة لونها الأصلي ، وهذا جعل عينيه الواسعتين الصفراوين تبدوان أكثر بريقاً . وقرر فلورينتينو اريثا على الفور بأنه الشريك المناسب لمغامرة بمثل هذا الحجم ، وانطلقا في تلك المغامرة يوم الأحد التالي دون أية اجراءات أخرى .

ابحرا من مرفأ الصيادين عند الفجر ، ممنونين جيداً وعاقدين العزم أكثر . كان اوكليديس شبه عار ، يكاد لا يغطي جسده سوى المئزر الذي يضعه دوماً حول وسطه . وكان فلورينتينو اريثا يرتدي السترة الرسمية ، والقبعة القائمة ، وجزمته الصقيلة ، ويضع ربطة الشاعر حول عنقه ، يحمل الكتاب الذي سيشغل نفسه به أثناء الرحلة إلى الجزر . منذ يوم الأحد الأول انتبه الى أن اوكليديس كان بحاراً حاذقاً كما هو غواص ماهر ، وانّ له قَدرة مذهلة على الحديث عن طبيعة البحر وخردة الحديد التي على الشاطئ . فهو قادر على سرد حكاية كل هيكل من هياكل السفن التي عاث فيها الصدأ بأدق تفاصيلها التي لا ترد على بال ، ويعرف عمر كل جسم طافٍ ومنشأ كل حطام ، وعدد حلقات السلسلة التي كان الاسبان يغلقون بها الخليج . وخشية أن يكون قد عرف كذلك الغرض من هذه الحملة ، وجه اليه

فلورينتينو اريثا بعض الأسئلة المراوغة ، وعرف من خلالها انه لا تراود اوكليديس أية شكوك حول مسألة السفينة الغارقة .

مذ سمع حكاية الكنز لأول مرة في فندق العابرين ، جمع فلورينتينو اريثا كل ما أمكنه من معلومات عن دروب ذلك النوع من السفن . وعرف ان السفينة سان خوسيه ليست السفينة الوحيدة في الأعماق المرجانية . لقد كانت بالفعل سفينة القيادة في أسطول تييرا فيرميه ، وقد جاءت هنا بعد شهر أيار من عام ١٧٠٨ ، قادمة من مهرجان بورتوبيلو الخرافي في بنما ، حيث حملت جزءاً من كنزها : ثلاثمئة صندوق من فضة البيرو وفير اكروث ومئة وعشر لآلئ جمعت واحصيت في جزيرة كونتا دورا . وخلال اقامتها التي دامت أكثر من شهر هنا ، كانت ايامها ولياليها عبارة عن مهرجانات شعبية ، قاموا بتحميلها ببقية الكنز المرصود لاخراج مملكة اسبانيا من الفقر : مئة وستة عشر صندوقاً من زمرد موثو وسوموندوكو ، وثلاثين مليون مسكوكة ذهبية .

كان اسطول تيرا فيرميه مؤلفاً مما لا يقل عن اثنتي عشرة سفينة متنوعة الاحجام . وقد أبحر من هذا الميناء في رحلة يحميها اسطول فرنسي حسن التسليح ، لم يستطع برغم ذلك حماية الحملة من مدافع الاسطول الانكليزي الصائبة ، بقيادة القمندان كارلوس واغير ، الذي كان ينتظر في أرخبيل سوتا فينتو ، عند مخرج الخليج . وهكذا لم تكن سان خوسيه هي السفينة الوحيدة الغارقة ، مع أنه لا وجود لتوثيق دقيق لعدد السفن التي تحطمت وعدد تلك التي استطاعت النجاة من نيران الانكليز . لكن الذي لا شك فيه هو ان سفينة القيادة كانت من السفن الأولى التي غرقت بكامل طاقمها مع قائدها الذي لم يتزحزح من مقصورة القيادة ، وانها هي وحدها التي كانت تحمل الشحنة الكبيرة .

لقد تعرف فلورينتينو اريثا على طريق السفن القديمة من خلال رسائل

قباطنة السفن في ذلك العصر ، وظن بأنه حدد مكان الغرق أيضاً . خرجا من الخليج ما بين حصني بوكاتشيكا ، وبعد أربع ساعات من الابحار دخلا في الماء الراكد ما بين جزر الارخبيل ، ذلك الماء ذي الأعماق المرجانية ، حيث بالامكان امساك اسماك جراد البحر النائمة باليد . كان الهواء خفيفاً ، والبحر هادئاً وصافياً ، حتى ان فلورينتينو اريثا رأى نفسه معكوساً في الماء . بعد التجديف لمدة ساعتين من الجزيرة الكبرى ، وصلا إلى موقع الغرق .

أشار فلورينتينو اريثا المحتقن بالشمس الجهنمية في ملابسه المأتمية على اوكليديس أن يحاول النزول الى عمق عشرين مترا وجلب أي شيء يجده في القاع . لقد كان الماء صافيا لدرجة أنه رآه وهو يتحرك في الأسفل ، مثل سمكة قرش متسخة بين أسماك القرش الزرقاء التي تمر الى جانبه دون أن تمسه . ثم رآه يختفي في عرق مرجاني ، وعندما فكر بأنه لم يعد لديه أي قدر من الهواء سمع الصوت وراء ظهره . كان اوكليديس واقفا في القاع ويداه مرفوعتان والماء يغمره حتى خصره . وتابعا البحث على هذا المنوال عن أماكن أعمق ، متوجهين دائما نحو الشمال ، ومبحرين فوق أسماك الماتاراتا الدافئة ، والحباري الهيابة ، وورود الظلمات ، الى أن أدرك اوكليديس بأنهما يضيعان وقتهما . فقال له :

ـ اذا لم تقل ما الذي تريدني أن أجده ، فلست أدري كيف سأتمكن من العثور عليه . لكنه لم يخبره . عندئذ اقترح عليه اوكليديس نزع ملابسه والنزول معه ، ولو لمجرد رؤية هذه السماء الأخرى للكون التي في الأعماق المرجانية . لكن فلورينتينو اريثا اعتاد على القول بأن الله خلق البحر لنراه من النافذة ، ولم يحاول يوما أن يتعلم العوم . بعد ذلك بقليل أصبح المساء غائما ، وصار الهواء رطبا وبأردا ، وأظلمت الدنيا بسرعة مما اضطرهما للاسترشاد بالفنار ليصلا الى المرفأ . وقبل أن يدخلا الخليج ، رأيا عابرة المحيطات الفرنسية تمر قريبا جدا منهما وجميع أنوارها مضاءة ، كانت

ضخمة وبيضاء ، خلفت وراءها أثرا من رائحة لحم طازج مطبوخ وقُنّبيط يغلي .

لقد أضاعا ثلاثة آحاد على هذه الحال ، وكانا سيضيّعان جميع أيام الآحاد لو لم يقرر فلورينتينو اريثا مشاركة اوكليديس في سره . فقام هذا عندئذ بتعديل خطة البحث كلها ، ومضيا للابحار في القنال القديم الذي كانت تسلكه السفن ، والذي كان يبعد أكثر من عشرين فرسخا بحريا الى الشرق من المكان الذي خمنه فلورينتينو اريثا . وقبل انقضاء شهرين ، في مساء يوم بحري ماطر ، بقي اوكليديس وقتا طويلا في القاع ، وكان الزورق قد انحرف كثيرا مما جعله يسبح حوالي نصف ساعة للحاق به ، حيث أن فلورينتينو اريثا لم يستطع تقريبه بالمجذاف . وعندما تمكن من الامساك بالزورق أخيرا ، أخرج من فمه قطعتي حليّ نسائية وعرضهما باحساس المثابر الفائز .

ان ما رواه حينئذ كان أخاذاً ، مما جعل فلورينتينو اريثا يقطع على نفسه عهداً بتعلم السباحة ، والغوص إلى حيث يستطيع ، ليتأكد من ذلك بعينيه فقط . وروى أنه توجد في ذلك المكان ، وعلى عمق ثمانية عشر متراً فحسب ، أعداد من السفن الشراعية القديمة جاثمة بين الصخور المرجانية ، وأنه يستحيل عليه حصر عددها ، وأنها موزعة في مجال فسيح لا يحيط به البصر ، وروى أن أكثر ما فاجأه هو أنه لا يوجد قارب واحد بين القوارب الكثيرة الطافية في الخليج ، أحسن حالاً من السفن الغارقة . روى أن هناك عدة سفن شراعية مازالت أشرعتها في حالة جيدة ، وان السفن الغارقة كانت تبدو للنظر في الأعماق كما لو أنها غرقت بمكانها وزمانها ، حتى انها مازالت مضاءة بشمس الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السبت ، التاسع من حزيران ، الذي غرقت فيه . وروى ، مختنقاً باندفاع خياله ، ان أسهل سفينة يمكن تمييزها هي سان خوسيه ، التي يبدو اسمها للعيان مكتوباً على

مقدمتها بحروف من الذهب ، لكنها في الوقت ذاته السفينة التي لحق بها أكبر ضرر من مدافع الانجليز . وروى أنه رأى بداخلها أخطبوطاً عمره أكثر من ثلاثة قرون ، تخرج ملامسه من فتحات المدافع ، وأنه قد تضخم كثيراً في صالة الطعام لدرجة أن اخراجه يستوجب تفكيك السفينة . وروى أنه رأى جسد قبطان السفينة بزيه الحربي طافياً على جانبه في الحوض المائي المتشكل في مقصورة القيادة ، وقال انه اذا كان لم ينزل الى عنابر الكنز فلأن هواء رئتيه لم يكفه لذلك . وها هي الادلة : قرط به زمردة ، وميدالية عليها صورة العذراء مع سلسلتها المتآكلة بفعل الأملاح .

هكذا ذكر فلورينتينو اريثا الكنز لأول مرة في رسالة موجهة إلى فيرمينا داثا بعثها اليها في فونسيكا قبل عودتها بقليل . لقد كانت قصة السفينة الغارقة مألوفة لديها ، اذ سمعت بها عدة مرات من لورينثو داثا ، الذي أضاع وقتاً ومالاً في محاولة لاقناع مؤسسة غواصين ألمان للتعاون معه في استخراج الكنز الغارق . وكان سيلح على المهمة ، لولا أن عدداً من أعضاء أكاديمية التاريخ أقنعوه بأن اسطورة السفينة الغارقة ابتدعها أحد حكام المستعمرات اللصوص الذي استولى بهذه الوسيلة على ثروات التاج . وكانت فيرمينا داثا تعرف ، على أية حال ، أن السفينة تجثم على عمق مئتي متر ، حيث لا يستطيع كائن بشري الوصول اليها ، وليس على عمق عشرين متراً كما يقول فلورينتينو اريثا . لكنها كانت معتادة جداً على شطحاته الشاعرية لدرجة أنها احتفلت بمغامرة السفينة على أنها واحدة من أكبر شطحات خياله . ولكنها حين توالى تلقيها لرسائل أخرى تتضمن تفاصيل أكثر غرابة ، مكتوبة بجدية تضاهي جدية وعوده في الحب ،.اضطرت للاعتراف أمام هيلديبراندا بمخاوفها من أن يكون خطيبها المخبول قد فقد عقله .

كان اوكليديس قد خرج في هذه الايام بأدلة عديدة على اسطورته ، بحيث لم تعد القضية هي متابعة اللعب بأقراط وخواتم مبعثرة ما بين الصخور

المرجانية ، وانما تمويل عملية ضخمة لاستخراج الخمسين سفينة مع الثروة البابلية التي تحملها في جوفها . حينئذ حدث ما كان سيحدث عاجلاً أو آجلاً ، اذ طلب فلورينتينو اريثا من أمه أن تساعده للوصول بمغامرته إلى نهايتها الطبيعية ، واكتفت هي بعضّ معدن الحلي بأسنانها ، والتمعن في الاحجار الزجاجية أمام الضوء لتدرك أن هناك من يتعيش على سذاجة ابنها . وأقسم اكليديس لفلورينتينو اريثا وهو جاث على ركبتيه أنه لا وجود لأية شائبة تشوب أعماله ، لكنه اختفى من ميناء الصيادين في يوم الأحد التالي ، ثم اختفى نهائياً ولم يعد يظهر في أي مكان .

الشيء الوحيد الذي بقي لفلورينتينو اريثا من كل تلك المغامرة الفاشلة هو ملجأ الهوى في الفنار . كان قد وصل الى هناك في الزورق مع اوكليديس ، في ليلة فاجأتهم فيها العاصفة وهما في عرض البحر ، واعتاد منذ ذلك الحين الذهاب في المساء لتبادل الحديث مع عامل الفنار حول عجائب البر والبحر التي لا حصر لها ، والتي كان عامل الفنار يعرفها . وكانت تلك بداية صداقة عاشت متجاوزة التبدلات الكثيرة التي طرأت على الدنيا . وتعلم فلورينتينو اريثا هناك تغذية ضوء الفنار بشحنات من الحطب أول الأمر ، ثم ببراميل الزيت . قبل أن تصلنا الطاقة الكهربائية . كما تعلم توجيه الضوء ومضاعفته بالمرايا ، وكان يحرس ليل البحر من أعلى البرج حين يحول عائق دون قيام عامل الفنار بعمله . فتعلم التعرف على السفن من اصواتها ، ومن حجم أنوارها في الأفق ، وصار يحس بأن شيئاً منها يصله عائداً مع ومضات الفنار .

أما المتعة أثناء النهار فكانت شيئاً آخر ، وخصوصاً أيام الآحاد . ففي حي البيريّس حيث كان يعيش أثرياء المدينة القديمة ، كان الشاطئ المخصص للنساء مفصولاً عن الشاطئ المخصص للرجال بجدار من الطين ؛ شاطئ إلى يمين الفنار وآخر الى يساره . وقد نصب عامل الفنار منظاراً يمكن بواسطته ، وبدفع سنتافو واحد ، مراقبة شاطئ النساء . ودون أن

يعلمن بأنهن مراقبات ، كانت آنسات المجتمع الراقي يعرضن خير ما لديهن في ملابس الاستحمام ذات الكشاكش الكبيرة مع أحذية خفيفة وقبعات تخفي الاجساد كما ملابس الخروج تقريباً ، اضافة الى كونها أقل جاذبية . وكانت الأمهات يقمن بالحراسة من الشاطئ وهن جالسات على كراسي الخيزران الهزازة تحت الشمس بنفس الملابس ، وقبعات الريش ، والمظلات التي يذهبن بها إلى القداس الكبير ، خوفاً من ان يغوي بناتهن رجال الشاطئ المجاور من تحت الماء ، والحقيقة انه لم يكن ممكناً من خلال المنظار رؤية أي شيء اكثر اثارة مما يمكن رؤيته في الشارع . لكن زبائن كثيرين كانوا يتهافتون كل يوم أحد متنازعين المنظار لمجرد اللذة التافهة بتذوق ثمار ما هو غريب ومحرم .

وكان فلورينتينو اريثا واحداً منهم ، دافعه إلى ذلك الملل أكثر مما هو اللذة ، دون ان يكون هذا الدافع الاضافي هو السبب في توطيد صداقته مع عامل الفنار . فالسبب الحقيقي هو انه بعد أن صدّ فيرمينا داثا ، وعندما عاكس حمى الحب المبدد في محاولة لاستبداله ، لم يعش أسعد الساعات في أي مكان آخر سوى الفنار ، ولم يجد عزاء أفضل منه لمحنته . كان الفنار مكانه الأثير ، حتى أنه حاول خلال سنوات اقناع أمه أولاً ، ثم عمه ليون الثاني عشر ، لمساعدته في شرائه . اذ كانت فنارات الكاريبي في ذلك الحين ملكية خاصة ، وكان أصحابها يتقاضون حق العبور الى الميناء بحسب حجم السفينة . فاعتقد فلورينتينو اريثا بأنها الوسيلة الشريفة الوحيدة لأداء عمل مناسب الى جانب الشعر . أما أمه ، وعمه أيضاً ، فلم تكن لتفكر بشيء من هذا ، وعندما أصبح بامكانه شراء الفنار من موارده الخاصة ، كانت الفنارات قد انتقلت الى ملكية الدولة .

ومع ذلك ، لم يضع أي من هذه الأحلام سدى . فأسطورة السفينة الغارقة ، ثم قصة الفنار فيما بعد ، خففت عنه من غياب فيرمينا داثا ،

وعندما لم يعد يفكر في ذلك كثيراً ، جاءه خبر عودتها . وفعلاً ، كان لورينثو داثا قد قرر العودة بعد اقامة طويلة في ريوهاتشا . لم يكن الوقت الأنسب للسفر في البحر ، بسبب رياح كانون الأول الموسمية . فالسفينة الشراعية التاريخية ، الوحيدة التي تتجرأ على مثل هذه الرحلة ، قد تجد نفسها عند الفجر عائدة الى المرفأ الذي خرجت منه ، مدفوعة برياح معاكسة . كان هذا ما حدث . كانت فيرمينا داثا قد أمضت ليلة من الاحتضار ، متقيئة الصفراء ، ومقيدة الى سرير قمرة تبدو كأنها مرحاض حانة ، لا بسبب ضيقها الخانق فقط ، وانما بسبب النتانة والحر أيضاً . وكانت حركة السفينة عنيفة حتى خيل اليها عدة مرات أن أحزمة السرير ستتقطع ، وكانت تصلها من سطح المركب نتف من صرخات محزونة تبدو وكأنها صرخات غرقى ، وشخير والدها في السرير المجاور ، الذي يشبه شخير النمر ، كان عنصراً آخر من مكونات الرعب . وللمرة الأولى منذ ما يقارب الثلاث سنوات ، أمضت ليلة كاملة دون أن تفكر لحظة واحدة بفلورينتينو اريثا ، بينما كان هو مؤرقا في أرجوحة النوم في الفناء الخلفي ، يحصي الدقائق السرمدية التي تفصله عن موعد عودتها دقيقة فدقيقة . عند الفجر ، توقفت الرياح فجأة ، وعاد الهدوء الى البحر ، وتنبهت فيرمينا داثا الى أنها قد نامت رغم آلام الدوار ، اذ أيقظها صخب سلاسل المرساة . نزعت عنها الأحزمة حينئذ وتطلعت من خلال النافذة آملة برؤية فلورينتينو اريثا في فوضى الميناء ، لكن ما رأته كان عنابر الجمارك بين أشجار النخيل الذهبية بفعل أول أشعة الشمس ، ورصيف ميناء ريوهاتشا ذي العوارض الخشبية المنخورة ، الذي أبحرت منه السفينة في الليلة الماضية .

انقضت بقية النهار كالحلم في البيت نفسه الذي كانا فيه حتى يوم أمس ، يستقبلان الزوار ذاتهم الذين ودعوهم ، ويتحدثان معهم في الأمور نفسها ، وذهلت لاحساسها بأنها تعيش للمرة الثانية جزءاً من الحياة كانت

قد عاشته . وبعثت تلك الاعادة الأمينة للأحداث قشعريرة في فيرمينا داثا لمجرد تفكيرها بأن رحلة السفينة ستكون كذلك أيضاً ، لأن ذكراها كانت تسبب لها الهلع . لكن الاحتمال الآخر الوحيد للعودة الى البيت هو في قضاء أسبوعين على متن بغلة فوق نتوءات الجبال ، وفي ظروف أشد خطورة من المرة الأولى ، لأن حرباً أهلية جديدة كانت قد نشبت في ولاية كاوكا في جبال الأنديز ، وأخذت تتسع منتشرة في مقاطعات الكاريبي . وهكذا انطلقت ثانية الى المرفأ في الساعة الثامنة ليلاً ، برفقة موكب الأقارب الصاخب نفسه ، وبدموع الوداع نفسها ، والصرر المتنوعة نفسها التي تضم هدايا اللحظة الأخيرة والتي لا تتسع لها القمرات . وفي لحظة الابحار ، ودع رجال العائلة السفينة باطلاق النار في الهواء معاً ، فرد عليهم لورينثو داثا من سطح السفينة باطلاق رصاصات مسدسه الخمس . وما لبث قلق فيرمينا داثا أن تبدد سريعاً ، لأن الريح كانت مواتية طوال الليل ، وكانت للبحر رائحة زهور ساعدتها على النوم نوماً هادئاً دون أحزمة الأمان . حلمت بأنها ستعود لرؤية فلورينتينو اريثا ، وأن هذا قد نزع الوجه الذي رأته فيه دوماً ، لأنه كان قناعاً في الحقيقة ، لكن الوجه الحقيقي كان مطابقاً . استيقظت باكراً ، مفكرة بأحجية الحلم ، وجدت أباها يتناول القهوة مع البراندي في مقصورة القبطان ، وقد حرف الكحول عينه ، انما بقدر قليل لا يشير الى وجود شك في العودة .

كانوا يدخلون الميناء ، وكانت السفينة تنزلق بصمت عبر متاهة القوارب الشراعية الراسية في خليج السوق العام ، الذي تصل رائحته إلى عدة فراسخ في البحر ، كان الفجر مشبعاً برذاذ خفيف ما لبث أن تحول إلى وابل غزير . تعرف فلورينتينو اريثا ، الذي كان قابعاً على شرفة مكتب التلغراف ، على السفينة وهي تعبر خليج لاس انيماس بأشرعة أخمدها المطر وترسو مقابل مرفأ السوق . لقد انتظر في اليوم السابق حتى الساعة الحادية عشرة

صباحاً ، عندما عرف من خلال برقية عابرة بتأخر السفينة بسبب الرياح المعاكسة ، وعاد للانتظار في ذلك اليوم منذ الساعة الرابعة صباحاً . وتابع الانتظار دون أن يرفع نظره عن الزوارق التي تحمل الى الشاطئ قلة من المسافرين قرروا النزول الى البر برغم العاصفة . وقد اضطر معظمهم إلى مغادرة الزوارق التي توقفت في منتصف المسافة ، والوصول الى الرصيف متخبطين في الوحل . وفي الساعة الثامنة ، بعد انتظار لا طائل منه لتوقف المطر ، تقدم حمال زنجي غاطس في الماء حتى وسطه وأنزل فيرمينا داثا عن حافة السفينة وحملها بين ذراعيه حتى الشاطئ ، لكنها كانت مبتلة الى الحد الذي لا يستطيع معه فلورينتينو اريثا التعرف عليها .

لم تكن هي نفسها تعي كم نضجت خلال الرحلة ، إلى أن دخلت البيت المقفل وبدأت على الفور بالعملية البطولية لاعادته صالحاً للمعيشة بمساعدة غالا بلاثيديا ، الخادمة الزنجية ، التي عادت الى موقعها السابق كعبدة بمجرد أن أعلموها بالعودة . لم تعد فيرمينا داثا هي الابنة الوحيدة ، مدللة ابيها ضحيته في الوقت ذاته ، بل أصبحت ربة وسيدة مملكة من الغبار ونسيج العنكبوت لا يمكن انقاذها إلا بقوة حب عصي على الهزيمة . لم تخف ، لأنها أحست بأنها ملهمة بروح صعود كافية لجعلها قادرة على تحريك العالم . وفي ليلة العودة بالذات ، وفيما هم يتناولون الشوكولاته مع فطيرة الجبن على طاولة المطبخ ، فوضها ابوها السلطات لادارة البيت . وفعل ذلك بطقوس كطقوس عمل قدسي ، قائلاً لها :

ـ اني اسلمك مفاتيح البيت .

تولت المسؤولية بحزم ، مع اكمالها السبعة عشر عاماً من العمر ، واعية ان كل شبر من الحرية المكتسبة انما حصلت عليه بقدرة الحب . وفي اليوم التالي ، بعد ليلة من الأحلام الكابوسية ، عانت للمرة الأولى كآبة العودة عندما فتحت نافذة الشرفة ورأت من جديد رذاذ الحديقة الحزين ،

وتمثال البطل مقطوع الرأس ، والمقعد الرخامي حيث اعتاد فلورينتينو اريثا الجلوس مع كتاب الأشعار . ما عادت تفكر فيه كخطيب مستحيل ، انما كزوجها الذي عليها الارتباط به تماماً . وأحست كم كان ثقيلاً الزمن الضائع منذ ذهابها ، وكم يكلفها بقاؤها على قيد الحياة من جهد ، كم من الحب يلزمها لتحب رجلها كما يشاء الله . فوجئت بأنه ليس في الحديقة ، كما كان يفعل في أحيان كثيرة غير عابئ بالمطر ، وبأنها لم تتلق أية اشارة منه بأي وسيلة ، ولا حتى بالايحاء . وفجأة فكرت ان يكون قد مات . لكنها استبعدت فكرة الشؤم في الحال ، لأنها في احتدام برقيات الأيام الأخيرة ، وأمام اقتراب موعد العودة ، نسيت الاتفاق معه على وسيلة لمتابعة الاتصال عندما تعود .

والحقيقة ان فلورينتينو اريثا كان يظن موقنا أنها لم ترجع بعد ، الى أن أكد له عامل التلغراف في ريوهاتشا بأنها قد أبحرت منذ يوم الجمعة في السفينة ذاتها التي لم تصل في اليوم السابق بسبب الرياح غير المواتية . وهكذا أمضى نهاية الأسبوع مترصداً أية علامة حياة في بيتها ، وفي مساء يوم الاثنين رأى من خلال النوافذ ضوءاً متنقلاً ما لبث أن انطفأ بعد الساعة التاسعة بقليل في حجرة النوم المطلة على الشرفة . لم ينم تلك الليلة ، وطاردته الأشواق الهائجة نفسها التي أقلقت ليالي حبه الأولى . نهضت ترانسيتو اريثا مع الديوك الأولى ، مذعورة لأن ابنها قد خرج إلى الفناء ولم يعد للدخول منذ منتصف الليل ، ولكنها لم تجده في البيت . لقد مضى يتسكع هائماً على حائل الأمواج ، وراح يلقي أشعار الحب على الريح ، ويبكي طرباً حتى مطلع الفجر . وفي الثامنة صباحاً كان يجلس تحت قناطر مقهى الباروكية ، وقد أفقده السهر توازنه ، محاولاً ابتداع طريقة يوصل بها إلى فيرمينا داثا ترحيبه بقدومها ، حين أحس بهزة مزلزلة تمزق أحشاءه .

كانت هي ، تجتاز ساحة الكتدرائية برفقة غالا بلاثيديا ، التي كانت

تحمل سلال المشتريات ، للمرة الأولى رآها تسير بملابس غير الزي المدرسي ، تبدو أطول مما كانت عليه عند ذهابها ، وأكثر كمالاً ونضوجاً ، وبجمال مصفى بمقدرة امرأة واعية . كانت ضفيرتها قد نمت مجدداً ،لكنها لم تكن تسدلها على ظهرها انما تتنكبها فوق كتفها الأيسر ، ولقد نزع عنها ذلك التغيير الطفيف كل أثر للطفولة . وقف فلورينتينو اريثا في مكانه مصعوقاً ، الى ان اجتازت مخلوقة الحلم الساحة دون أن ترفع بصرها عن طريقها . ولكن القوة التي جمدته هي نفسها التي دفعته بعد ذلك للاسراع في اثرها حين انعطفت عند زاوية الكتدرائية وضاعت في زحمة السوق التي تبعث على الصمم .

لاحقها دون أن تراه ، مستكشفاً الحركات اليومية ، والنضج المبكر ، وظرافة أكثر الكائنات محبة في هذا العالم ،والتي كان يراها لأول مرة وهي منطلقة على سجيتها . أذهلته السهولة القي تشق بها طريقها وسط الجمع . فبينما كانت غالا بلاثيديا تصطدم بالناس ، وسلالها تتشابك وتضطر للركض كي لا تضيع أثرها ، كانت هي تبحر في فوضى الشارع بجو خاص بها وزمن مختلف ، دون أن تصطدم بأحد ، وكأنها خفاش في الظلام . لقد خرجت مرات كثيرة إلى السوق من قبل مع العمة اسكولاستيكا ، لكن المشتريات كانت ضئيلة القيمة ، فوالدها كان يتولى شخصياً مسؤولية تزويد البيت بالمؤن ، وليس بالاثاث والمأكولات فحسب ، بل وبالملابس النسائية أيضاً .ولهذا كان خروجها الأول ذاك مغامرة أخاذة تمثلتها أحلامها كطفلة .

لم تعر اهتماماً لتسرع المشعوذين الذين كانوا يقدمون لها اكسيراً للحب الابدي ، ولا لرجاء المتسولين المستلقين في الدهاليز بقروحهم المدخنة ، ولا للهندي المزيف الذي يحاول بيعها تمساحاً أليفاً . لقد قامت بجولة واسعة ومفصلة دون مسار مدروس ، وبتوقفات لا سبب لها سوى متعة عدم التسرع في روح الأشياء . ودخلت في كل زقاق يوجد فيه شيء للبيع ،

وفي كل مكان وجدت فيه شيئاً غذّى رغبتها في الحياة . تمتعت بحفيف أزهار الاقمشة في الصناديق الكبيرة المزخرفة ، لفت نفسها بالحرير المزين بالرسوم ، وضحكت لضحكتها ذاتها وهي ترى نفسها متشحة بالملابس الشعبية مع مشط زينة ومروحة مزينة برسوم أزهار مقابل مرآة كبيرة في محلات السلك الذهبي . وفي دكان البحريات رفعت غطاء برميل يحتوي اسماك رنكة في ماء مملح ذكرها بليالي الشمال الشرقي ، وهي طفلة صغيرة ، في سان خوان دي لاثييناغا . وقدموا لها سجقاً من اليكانتي لتتذوقه فكان له طعم عرق السوس ، فاشترت قطعتين منه لفطور يوم السبت ، كما اشترت بضع شرائح من سمك القد وقطرميز كشمش مع الخمر . في دكان البهارات ، ومن أجل التمتع بالرائحة فقط ، عصرت بين كفيها أوراق مريمية وصعتر ، واشترت حفنة قرنفل ذي رائحة ، وحفنة يانسون مطحون ، وحفنات أخرى من الزنجبيل والعرعر ، وخرجت مبللة بدموع الضحك لكثرة ما عطست من روائح فلفل كايينا . وفي البوتيك الفرنسي ، وبينما هي تشتري صابون روتير وعطر البان الهندي ، وضعوا لها وراء أذنها لمسة من عطر كان شائع الاستعمال في باريس يومها ، أهدوها حبة مزيلة للرائحة تستعمل بعد التدخين .

كانت تلعب لعبة الشراء حقاً ، لكنها كانت تشتري ما هي بحاجة اليه فعلاً بلا مواربة ، وبمقدرة لا تسمح بالظن بأنها انما تفعل ذلك للمرة الأولى ، فقد كانت مدركة أنها لا تشتري لنفسها فقط انما له كذلك... اثنتي عشرة ياردة من الكتان كشراشف لمائدتهما معاً ، ونسيجاً قطنياً لشراشف سرير الزفاف ولتهتكهما معاً عند الصباح ، و من كل صنف ما هو أكثر روعة ليتمتعا به معاً في بيت الحب . كانت تطلب تخفيضاً وتتقن طلبه ، وتجادل بظرافة ووقار حتى تحصل على أفضل الاصناف ، وتدفع بمسكوكات ذهبية يقوم الباعة بتجريبها للاستمتاع فقط بسماع رنينها على الطاولة .

كان فلورينتينو اريثا يراقبها مبهوراً ، ويلاحقها مقطوع الانفاس ، فاصطدم عدة مرات بسلال الخادمة التي كانت ترد بابتسامة على اعتذاراته ، وقد مرت هي نفسها قريباً جداً منه حتى أنه شم نسيم رائحتها ، واذا كانت لم تره فليس لعجزها عن ذلك وانما لشموخ طريقتها في المشي . كانت تبدو له جميلة جداً ، فاتنة جداً ، ومختلفة جداً عن الناس العاديين ، بحيث لم يدرك كيف لا يختل الآخرون مثله بصناجات كعبيها على بلاط الشارع ، ولا تضطرب قلوبهم بهواء تنهدات كشكشها ، ولا يصاب العالم كله بالجنون حباً بحركة ضفيرتها ، وطيران يديها ، ولجين ضحكتها . لم يضيع حركة واحدة من حركاتها ، ولا علامة واحدة من علامات طبعها ، لكنه لم يكن ليجرؤ على الاقتراب منها خوفاً من أن يُفسد السحر . ولكن عندما ولجت زحمة زقاق الكتبة العموميين تنبه إلى أنه يخاطر بتبديد الفرصة التي تشوق لها خلال سنوات .

كانت فيرمينا داثا تشاطر زميلاتها في المدرسة الفكرة الغريبة السائدة بأن زقاق الكتبة العموميين هو مكان ضياع ، وأرض محرمة ، على الآنسات المحترمات طبعاً . كان عبارة عن رواق ذي قناطر مقابل ميدان صغير حيث تتوقف عربات الأجرة وطنابر الشحن التي تجرها الحمير ، وحيث تصبح التجارة الشعبية أكثر زخماً وصخباً . اسمه موروث من أيام المستعمرة ، فهناك كان يجلس منذ ذلك الحين الكتبة المكفهرون ذوو الستر الكتانية والأكمام المنفصلة التي تصل حتى المرفقين ، الذين كانوا يكتبون جميع أنواع الوثائق بأسعار بائسة : مذكرات اتهام أو استرحام ، واستدعاءات قانونية ، وبطاقات تهنئة أو تعزية ، ورسائل حب في أي سن كان . ليسوا هم ، بكل تأكيد ، سبب سوء السمعة التي لحقت بذلك السوق الصاخب ، وانما الباعة المتجولون المحدثون الذين كانوا يقدمون من تحت طاولاتهم جميع أنواع الحيل الغامضة التي تصل تهريباً في السفن القادمة من اوروبا ،

ابتداء من بطاقات صور الداعرات والمراهم المهيجة ، وحتى واقيات الحمل الكتلانية الشهيرة ذات الأعراف العظانية التي تتحرك أثناء العملية ، أو تلك التي تنتهي بأزهار تتفتح أوراقها حسب مشيئة المنتفع . لقد ولجت فيرمينا داثا ، عديمة الخبرة في الشوارع ، ذلك الزقاق دون أن تنتبه إلى أين هي ماضية ، باحثة عن ظل يخفف عنها وطأة شمس الساعة الحادية عشرة .

غرقت في ضجة ماسحي الأحذية وبائعي العصافير ، عارضي الكتب الرخيصة ومشعوذي التداوي ومناديات الحلوى اللاتي يعلن بصراخ أعلى من الضجة عن حلوى كوكدا الاناناس للصبايا ، وحلوى جوز الهند للحمقى ، وحلوى السكر بالعجين لميكانيلا . ولكنها كانت تسير غير مبالية بالصخب ، وفتنها على الفور ورّاق كان يقدم عرضاً لأنواع من حبر الكتابة السحري : حبر أحمر له لون الدم ، وحبر ذي بريق حزين لبطاقات التعزية ، وحبر فوسفوري لقراءته في الظلام ، وحبر خفي ينكشف ببريق الضوء . كانت تريد من كل الأنواع لتلعب مع فلورينتينو اريثا ، وتذهله باستنباطها ، ولكنها بعد عدة تجارب قررت شراء زجاجة حبر ذهبي ، وبعد ذلك مضت إلى بائعات الحلوى الجالسات وراء صناديقهن الزجاجية الكبيرة ، واشترت ست قطع حلوى من كل صنف ، مشيرة إلى ما تريد بإصبعها من وراء الزجاج لأنها لم تكن لتتمكن من اسماعهن ما تريده بسبب الضوضاء : ست قطع من شعر الملاك ، وستة قوالب صغيرة من حلوى الحليب ، وستة مكعبات سمسمية ، وست قطع من كعكة اليكة ، وستة أقراص من الشوكولاته ، وست قطع من البسكويت المحشي ، وست من لقمة الملكة ، وستة من هذا وستة من ذاك ، وستة من كل شيء ، وكانت تضع كل ذلك في سلال الخادمة بظرافة لا تُقاوم ، غير عابئة بسحابة الذباب السوداء الهائجة فوق المربى ، وغير مبالية بالتعفن المتواصل ، وغير مبالية برائحة العرق الزنخ الذي يلمع في الحر القاتل . ايقظتها من هذا الخدر زنجية سعيدة تضع خرقة ملونة على

رأسها المكور والبديع ، قدمت لها قطعة اناناس مغروسة في رأس سكين جزار . فتناولتها ودستها كاملة في فمها ، تذوقتها ، وكانت تتذوقها ونظرها شارد في الجموع ، عندما سمرتها اختلاجة اضطراب في مكانها . فوراءها وقريباً جداً من أذنها بحيث لم يسمع في الضجة أحد سواها الصوت الذي قال لها :

ـ ليس هذا بالمكان المناسب لربة متوجة .

التفتت ورأت على بعد شبرين من عينيها العينين الأخريين الجامدتين ، والوجه الأزرق الضارب إلى السواد ، والشفتين المتصلبتين خوفاً ، تماماً كما رأتها في زحمة صلاة منتصف الليل عندما كان قريباً منها لأول مرة ، ولكنها لم تشعر بهيجان الحب كما في المرة السابقة وانما بهاوية خيبة الأمل . بلحظة واحدة انكشف لها حجم الورطة التي أوقعت نفسها فيها ، وتساءلت مذعورة كيف استطاعت أن تحتضن طوال هذا الوقت وبكل هذه القسوة حرقة قلب كتلك . وبالكاد استطاعت أن تفكر : «رباه ، يا للرجل البائس!» . ابتسم فلورينتينو اريثا ، وحاول أن يقول شيئاً ، حاول اللحاق بها لكنها محته من حياتها بحركة من يدها قائلة له :

ـ لا ، أرجوك ، انس كل شيء .

في مساء ذلك اليوم ، وبينما والدها ينام قيلولته ، بعثت إليه مع غالا بلاثيديا رسالة في سطرين : عندما رأيتك اليوم ، أدركت أن ما كان بيننا ليس إلا وهماً . وحملت اليه الخادمة كذلك برقياته ، وأشعاره ، وأزهار كاميليلاه الجافة ، وطلبت منه أن يعيد الرسائل والهدايا التي بعثتها اليه : كتاب صلوات العمة اسكولاستيكا ، أوراق النباتات المجففة ، والسنتمتر المربع من مسوح سان بيدرو كلافير ، وميداليات القديسين ، وضفيرتها وهي في الخامسة عشرة مع شريط الزي المدرسي الحريري . فكتب في الأيام التالية ، وهو على حافة الجنون ، عدداً كبيراً من الرسائل اليائسة ، وحاصر

الخادمة لتحمل تلك الرسائل ، لكن هذه نفذت التعليمات الصارمة بعدم استلام أي شيء سوى الهدايا المعادة . وأصرت على ذلك بحزم جعل فلورينتينو اريثا يعيد كل شيء ما عدا الضفيرة ، التي لم يشأ اعادتها ما لم تستقبله فيرمينا داثا شخصياً ليتحدثا معاً ولو لحظة واحدة . ولم يتمكن من ذلك . ونزلت ترانسيتو اريثا عن كبريائها ، خشية أن يتخذ ابنها قراراً قاتلاً ، وطلبت من فيرمينا داثا أن تمنحها خمس دقائق من وقتها ، فاستقبلتها لحظة واحدة في دهليز البيت ، واقفة ، دون أن تدعوها إلى الدخول ، وبلا ذرة وهن . بعد يومين من ذلك ، ومع انتهاء مشادة مع أمه ، نزع فلورينتينو اريثا عن جدار غرفة نومه العلبة الزجاجية المغبرة حيث كان يعلق الضفيرة كأنها أيقونة مقدسة ، وأعادتها ترانسيتو اريثا بنفسها في علبة المخمل المطرزة بخيوط ذهبية ، ولم تتح لفلورينتينو اريثا الفرصة أبداً لرؤية فيرمينا داثا على انفراد ، ولا التحدث اليها أثناء لقاءاتهما الكثيرة في حياتيهما الطويلتين ، إلا بعد انقضاء إحدى وخمسين سنة وتسعة شهور وأربعة أيام ، عندما كرر لها يمين الوفاء الأبدي والحب الدائم في ليلتها الأولى كأرملة .

كان خوفينال اوربينو ، العازب المرغوب وهو في الثامنة والعشرين ، قد عـاد من اقـامـة طويلة في باريس ، حـيث أجـرى دراسـات عليـا في الطب والجراحة ، منذ نزوله إلى البر قدم أدلة دامغة على أنه لم يضيع لحظة واحدة من وقته . لقد رجع أكثر تجملاً مما كان عليه عند ذهابه ، وأكثر تحكماً بطبائعه ، ولم يكن أي من زملاء جيله ليبدو أكثر صرامة منه وأكثر معرفة بعلومه ، كما لم يكن أي منهم ليرقص خيراً منه على الموسيقى الدارجة أو يعزف مرتجلاً أفضل منه على البيانو . وكانت فتيات وسطه الاجتماعي ، المفتونات بمحاسنه الشخصية والمتيقنات من ثروته العائلية ، يقترعن سراً ليلعبن أيهن ستبقى معه ، وكان هو يلعب كذلك للبقاء معهن ، لكنه تمكن من الحفاظ على نفسه في حالة الملاحة ، صحيحاً ومغرياً ، إلى أن سقط دون مقاومة أمام مفاتن فيرمينا دائا العاميّة .

كان يحب أن يقول ان.ذلك الحب هو ثمرة تشخيص طبي خاطئ . ولم يكن يصدق بأن ذلك قد حدث ، خصوصاً في تلك الفترة من حياته ، حين كان كل احتياطه من الهوى منصباً على مصير مدينته ، التي كثيراً ما قال عنها دون تردد انها لا مثيل لها في العالم . ففي باريس ، وفيما هو يتنزه ممسكاً بذراع خطيبة عرضية في خريف متأخر ، كان يرى أنه من المستحيل تخيل

الكستناء الجبلية فوق مواقد الجمر ، وأنغام الاكورديونات الخافتة ، والعشاق الذين لا يرتوون من قبلات متصلة لا تنتهي على الشرفات المفتوحة ، وبرغم ذلك ، لقد قال هو نفسه ، ويده على قلبه ، انه غير مستعد لاستبدال هذا كله بلحظة واحدة من لحظات موطنه الكاريبي في نيسان . كان مايزال شاباً لا يعرف أن ذاكرة القلب تمحو كل الذكريات السيئة وتضخم الذكريات الطيبة ، واننا بفضل هذه الخدعة نتمكن من تحمل الماضي . ولكنه حين عاد ورأى من شرفة السفينة رابية الحي الاستعماري البيضاء ، وطيور الرخمة الجاثمة فوق السطوح ، وملابس الفقراء المنشورة لتجف على الشرفات ، حينئذ فقط أدرك إلى أي حد كان ضحية سهلة لأحابيل الحنين الخادعة .

شقت السفينة طريقاً لها في الخليج عبر فرشة طافية من الحيوانات الغارقة ، والتجأ معظم المسافرين إلى القمرات هرباً من الرائحة النتنة . نزل الطبيب الشاب من السفينة على جسر المرور الصغير مرتدياً بدلة كاملة من الألبكة ، مع صدرية وواقية من الغبار ، بلحية كلحية باستور شاب وشعر مفروق من وسطه بفرق واضح وشاحب ، وبسيطرة كافية لاخفاء عقدة الحنجرة التي لم يكن سببها الحزن ، وانما الرعب . كان الميناء شبه خاو ، يحرسه جنود حفاة بلا زي عسكري ، وكانت شقيقتاه وأمه ينتظرن برفقة أحب أصدقائه إليه . وجدهم شاحبين وبلا مستقبل ، رغم مظهرهم الدنيوي ، وكانوا يتحدثون عن الأزمة وعن الحرب الأهلية كأمر بعيد وغريب ، ولكن أصواتهم جميعاً كانت تشي برعشة مراوغة ، وحدقات عيونهم بلمعة يقين تخون كلماتهم . وكانت أمه هي أكثر من أثار أشجانه ، تلك المرأة التي فرضت نفسها على الحياة وهي لا تزال صبية بأناقتها واندفاعها الاجتماعي ، يراها الآن تذوي على نار هادئة وسط روائح الكافور التي تعبق من ملابسها كأرملة . ولا بد أنها رأت نفسها في اضطراب ابنها ، فسارعت تسأله كأنها تدافع عن نفسها ، لماذا هو عائد بهذه البشرة الشفافة كالبارفان .

وقال لها :

ـ انها الحياة يا أماه . فالمرء يصير أخضر في باريس .

بعد ذلك ، وفيما هو إلى جانبها يغرق في حر العربة المغلقة ، لم يعد يحتمل قسوة الواقع الذي ينفذ اليه غلياناً من النافذة . كان البحر يبدو وكأنه من رماد ، وقصور النبلاء القديمة كانت على وشك الانهيار أمام تكاثر المتسولين ، وكان العثور على رائحة الياسمين اللاهبة فيما وراء أبخرة المجارير المكشوفة مستحيلاً . كل شيء بدا له أضأل مما كان عليه عند ذهابه ، وأشد فقراً وكآبة ، وكانت هناك أعداد كبيرة من الجرذان الجائعة في مزابل الشوارع تجعل حصاني العربة يجفلان فزعين . وعلى امتداد الطريق الطويل من الميناء الى البيت ، في حي البيريّس ، لم يجد ما هو جدير بمشاعر الحنين التي كانت تملأه . رأى نفسه مهزوماً ، فأدار وجهه كي لا تراه أمه ، وأطلق لبكائه الصامت العنان .

لم يكن قصر المركيز دي كاسالدويرو القديم ، ومقر الاقامة التاريخي لآل اوربينو دي لاكايه ، بالقصر الذي ما زال يحتفظ بشموخه وسط الانهيار . وقد اكتشف الدكتور خوفينال اوربينو ذلك وقلبه يتفتت مذ عبر الدهليز المظلم ورأى نافورة الحديقة الداخلية المغبرة ، والأعشاب البرية التي بلا أزهار تعيث بها السحالي ، وانتبه الى نقص عدد كبير من بلاط المرمر ، اضافة الى تهشم عدد من درجات السلم الرخامي الفسيح ذي الدرابزين النحاسي الذي يقود الى الحجرات الرئيسية . لقد مات والده ، الذي كان طبيباً متفانياً أكثر منه عالماً ، في جائحة الكوليرا الآسيوية التي محقت السكان منذ ست سنوات ، ومعه ماتت روح البيت . فدونيا بلانكا ، الأم ، المختنقة بحداد أبدي ، استبدلت السهرات الغنائية والحفلات الموسيقية بصلوات مسائية يومية لذكرى الزوج المتوفى . وتحولت الشقيقتان برغم طبيعتيهما وميلهما الاحتفالي الى وقود للدير .

لم يغف الدكتور اوربينو في ليلة وصوله ، مرتعبا من الظلمة والصمت . وردد صلاة الروح القدس بعدد ثلاث سبحات وكذلك كل الصلوات التي يذكرها لدرء الرزايا والانهيارات وأنواع المصائب الليلية الأخرى ، فيما دخل كروان الى حجرة النوم من النافذة غير المحكمة ، وأخذ يصدح كل ساعة ، عند تمام الساعة بالضبط . عذبته صرخات الهذيان التي تطلقها المجنونات في مستشفى الراعية الالهية للمجاذيب ، والقطرة عديمة الرحمة التي ترشح من الجرة الفخارية الى الجفنة ويملأ صداها جو البيت ، وخطوات الكروان الطويلة التائهة في حجرة النوم ، وخوفه الخِلْقي من الظلمة ، والحضور اللامرئي للأب الميت في البيت الرحب الهاجع . عندما صدح الكروان في الساعة السادسة ، مرافقا بذلك ديكة الجوار ، أسلم الدكتور اوربينو نفسه جسداً وروحا الى كنف العناية الالهية ، لأنه لم يعد يشعر بالحماسة للحياة يوما آخر في وطنه المنهار أنقاضا . ولكن عطف ذويه ، وأيام الآحاد الريفية ، وتملقات عازبات طبقته الجشعة خففت كلها من مرارة الوهلة الأولى . وأخذ يعتاد شيئاً فشيئاً على قيظ تشرين الأول ، وعلى الروائح الحادة ، وعلى آراء اصدقائه المبكرة : غداً نرى يا دكتور ، فلا تبال . الى أن انتهى للاستسلام الى شعوذة العادة . ولم يتأخر طويلاً في وضع تبرير بسيط لخذلانه . وقال ان هذه هي دنياه ، دنياه الكئيبة والجائرة التي منحه الرب إياها ، وهو مدين لها .

أول ما فعله هو الاستيلاء على عيادة أبيه . احتفظ بالاثاث الانكليزي نفسه في مكانه ، ذلك الاثاث الصلب والصارم ، الذي تتنهد أخشابه مع برودة الفجر ، لكنه بعث الى حجرة المهملات مؤلفات العلم من زمن الحكام الاستعماريين وكتب الطب الرومنطيقي ، ووضع في الخزائن ذات الواجهات الزجاجية كتب المدرسة الفرنسية الجديدة . وانتزع عن الجدران جميع الرسوم الباهتة ، باستثناء رسم الطبيب الذي ينازع الموت مريضة عارية ،

وقسم أبقراط المكتوب بحروف قوطية ، وعلق مكانها ، الى جانب شهادة والده الوحيدة ، الشهادات الكثيرة والمتنوعة التي نالها من مدارس أوربية مختلفة .

حاول أن يفرض معايير تجديدية في مستشفى الرحمة ، ولكن لأمر لم يكن بالبساطة التي ظنها هو في اندفاع الشباب . فبيت الطب القديم المتمسك بخرافاته الموروثة ، مثل وضع قوائم الأسرّة في أوعية مليئة بالماء لمنع صعود الأمراض اليها ، أو المطالبة بارتداء ملابس الاتيكيت وقفازات الشمواه في صالة الجراحة ، اذ كان الاعتقاد السائد حينئذ هو أن الأناقة شرط جوهري للتعقيم . وما كانوا يطيقون تذوق الطبيب الشاب القادم حديثا ، بول المريض ليكتشف وجود السكر ، أو استشهاده بآراء شاركوت وتروسو كما لو كانا زميلاه في الحجرة ، وتحذيره الصارم في درسه من مخاطر اللقاحات القاتلة وإيمانه مقابل ذلك ايمانا مريبا بالاختراع الجديد المدعو تحاميل . لقد كان يتعثر بكل شيء : روحه المجدده ، تحضره الجنوني ، وميله البطيء لفهم المزاح في أرض المزاح السرمدي . وكانت جميع فضائله الملموسة تثير في الحقيقة حسد زملائه الكبار وسخرية المنافقين من الشباب .

كان وضع المدينة الصحي هو هاجسه الدائم . فلجأ الى أعلى المراتب مطالباً بردم المجاري المكشوفة منذ العهد الاستعماري ، والتي تشكل مرتعاً رحبا للجرذان ، واقامة مجاري مغلقة بدلا منها لا تصب بقاياها في خليج السوق ، كما هو الحال منذ الأزل ، وانما في مجمع ناء للفضلات . كانت توجد في البيوت الاستعمارية حسنة التجهيز مراحيض ذات حفر عميقة تتخمر فيها الفضلات ، أما ثلثا الأهالي المكدسين في أكواخ على ضفاف المستنقعات فكانوا يقضون حاجتهم في العراء . فكان البراز يجف تحت الشمس ، متحولا الى غبار ، يتنفسه الجميع ببهجة فصح مع نسمات كانون

الباردة السعيدة . لقد حاول الدكتور خوفينال اوربينو أن يفرض في المجلس الاداري اقامة دورة تأهيل اجبارية ، كي يتعلم الفقراء بناء مراحيضهم الخاصة . وناضل دون جدوى لوقف رمي النفايات بين أشجار المنغلار ، التي تحولت منذ قرون الى مستودعات عفونة ، ولجمع تلك النفايات مرتين في الأسبوع على الأقل واحراقها في مكان مهجور .

لقد كان واعيا لشرك مياه الشرب القاتل . لكن مجرد التفكير ببناء شبكة مائية كان يبدو فكرة خيالية ، لأن من يستطيعون دعمها كانوا يملكون آبارا تحت الأرض يخزنون فيها مياه أمطار سنوات عديدة تحت قشدة كثيفة من الاخضرار الطحلبي . ومن بين أبرز قطع أثاث تلك الحقبة كانت خزائن تصفية الماء المصنوعة من خشب منقوش ، حيث تقطر مساماتها الحجرية ليل نهار في الخوابي . ولمنع أي كان من شرب الماء بطاسة الالمنيوم التي يخرجون بها الماء ، كانوا يسننون حواف تلك الطاسة لتبدو وكأنها تاج ملك المساخر . كان الماء رائقاً وبارداً في عتمة الفخار ، يترك في الفم طعماً كطعم الزهر . لكن الدكتور خوفينال اوربينو لم يكن لينساق وراء خدع النقاء هذه ، لأنه يعرف أن قاع الخوابي ، برغم كل الاحتياطات ، كان هيكلا لكل أنواع الدويبات ، لقد أمضى ساعات طفولته البطيئة وهو يتأملها باندهاش شبه صوفي ، مقتنعا مثل معظم الناس حينئذ ان الدويبات هي الأرواح ، وانها مخلوقات ماورائية تزف الى الانسان من رواسب المياه الراكدة ، وانها قادرة على الاتيان بانتقامات حب خانقة . لقد رأى وهو طفل خراب بيت لازار كوندي ، معلمة المدرسة التي تجرأت على صد الأرواح ، ورأى نتف الزجاج المنثور في الشارع وأكوام الحجارة التي قذفت طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال على النوافذ . ولقد انقضى وقت طويل قبل أن يتعلم أن تلك الدويبات هي في الحقيقة يرقات ذباب الزنكودو ، لكنه تعلم ذلك كي لا ينساه أبدا ، لأنه أدرك منذ ذلك الحين أن ليس الدويبات

وحدها ، وانما أرواح شريرة أخرى كثيرة ، قد تمر بسلام عبر مصافينا الحجرية الساذجة .

لقد عزي فتق كيس الخصية خلال زمن طويل وبفخر شديد الى مياه آبار الجمع ، ذلك الفتق الذي يصبر على تحمله عدد كبير من رجال المدينة ليس دون خجل فحسب ، بل وبنوع من الكبرياء الوطنية أيضا . وعندما كان خوفينال اوربينو طفلا يذهب الى المدرسة الابتدائية ، لم يكن يستطيع كبح اختلاجة الرعب لدى رؤيته المفتوقين وهم يجلسون أمام بيوتهم في الأمسيات الحارة ، ويهوون بمروحة يدوية على الخصية الضخمة كما لو كانت طفلا ينام بين أفخاذهم . وكان يشاع أن الفتق يحاكي تغريد عصفور حزين في الليالي العاصفة ، وأنه يتلوى بألم لا يطاق حين يحرقون قريبا منه ريشة طائر رخمة ، لكن أحدا لم يكن يتذمر من تلك المحن ، لأن فتقا كبيرا ومحتملا بصبر هو شرف للرجل قبل كل شيء ، عندما رجع الدكتور خوفينال اوربينو من أوربا كان يعرف جيدا التفسير العلمي لهذه المعتقدات ، ولكنها كانت متأصلة في الايمان الخرافي المحلي الى حد دفع الكثيرين لمعارضة اغناء مياه الابار بالمعادن خوفا من ان ينتزعوا منها خاصية تسبيب فتق مشرف .

وكقلقه من تلوث المياه ، كان الدكتور خوفينال أوربينو قلقا كذلك للحالة الصحية في السوق العام ، ذلك الامتداد الفسيح مقابل خليج لاس اينماس ، حيث ترسو سفن جزر الانتيل الشراعية . والذي وصفه أحد الرحالة الشهيرين بأنه واحد من اكثر الأسواق غنى وتنوعا في العالم . وقد كان غنيا ووافراً وصاخبا حقا ، ولكنه ربما كان كذلك أكثر الأسواق مدعاة للقلق . كان يقوم فوق مزبلته ذاتها ، تحت رحمة أهواء البحر المرتفع ، حيث تجشؤات الخليج تعيد الى اليابسة نفايات المجاري . وكانت ترمى هناك فضلات المسلخ المجاور من رؤوس مقطوعة ، وأحشاء متعفنة ، وروث الحيوانات

الطافي بهدوء تحت الشمس في مستنقع من الدماء . وتأتي طيور الرخمة لتتنازع تلك الفضلات مع الجرذان والكلاب في ازدحام دائم ، وسط الغزلان وديوك سوتافينتو المخصية والمعلقة على أفاريز العنابر ، وخضروات ارخونا الربيعية المعروضة فوق حصر على الأرض . وكان الدكتور اوربينو يريد جعل المكان صحيا بنقل المسلخ الى مكان آخر ، وتشييد سوق جديد مسقوف بقباب من زجاج ملون كذلك السوق الذي رآه في برشلونة ، حيث البضائع والمؤن زاهية ونظيفة حتى أن أكلها يثير الحسرة . ولكن هذا جعل أقرب أصدقائه مجاملة يضيقون ذرعا باحلامه الخيالية . فهم يقضون حياتهم متغنين بأصلهم المجيد ، وبمزايا المدينة التاريخية ، وقيمة آثارها الدينية ، وبطولتها وجمالها ، ولكنهم لا يرون سوس السنين الذي ينخرها . أما الدكتور اوربينو بالمقابل ، الذي يكنّ لها حباً عظيماً يجعله يراها بعيني الحقيقة ، فكان يقول :

ـ كم هي نبيلة هذه المدينة التي ما فتئنا نحاول القضاء عليها منذ أربعمئة سنة ، ولم نتوصل الى ذلك بعد .

ومع ذلك فقد كانوا على وشك القضاء عليها . فوباء الكوليرا الذي سقطت أولى ضحاياه في مستنقعات السوق ، تسبب خلال أحد عشر أسبوعا بأعلى نسبة وفيات في تاريخنا . كان بعض الموتى البارزين يدفنون تحت بلاط الكنائس ، الى جوار الأساقفة والمستشارين ، والآخرون الأقل ثراء يدفنون في فناء الأديرة ، أما الفقراء فيمضون بهم الى المقبرة الاستعمارية ، على الرابية التي تصفعها الرياح وتفصلها عن المدينة قناة مياه جوفية ، لجسرها الطيني لوحة بمظلة نحت عليها بأمر أحد الحكام المتبصرين : Lasciate og- nisperanza voichentrate في الأسبوعين الأولين للكوليرا فاضت المقبرة ، ولم يكن هناك من مكان للدفن في الكنائس ، على الرغم من أنهم نقلوا الى مستودع العظام العام الرفات المتآكل لعدد كبير من الأعيان الذين ضاعت

أسماؤهم . ولقد اختلط هواء الكتدرائية بأبخرة سراديب الدفن غير المحكمة الاغلاق ، مما اضطرهم الى عدم فتح أبواب الكتدرائية الا بعد ثلاث سنوات ، في الحقبة التي رأت فيها فيرمينا داثا للمرة الأولى عن قرب فلورينتينو اريثا في صلاة الفجر . وامتلأ رواق دير سانتا كلارا بالقبور التي وصلت الى الممرات بين أشجار الحور في الأسبوع الثالث ، وكان لا بد من تحويل بستان الدير ، الذي كان أوسع من الرواق بمرتين ، الى مقبرة . وحفروا هناك قبوراً عميقة ليدفنوا فيها على ثلاث مستويات ، على عجل بلا توابيت ، لكنهم اضطروا للتخلي عنها لأن الأرض الطافحة أصبحت مثل اسفنجة ترشح تحت وطء الأقدام دماً فاسداً كريه الرائحة . عندئذ تقرر متابعة عمليات الدفن في لامانو دي ديوس ، وهي مزرعة لتسمين الابقار على بعد أقل من فرسخ واحد عن المدينة ، والتي كرست فيما بعد باسم المقبرة الكونية .

مذ أذيع بلاغ الكوليرا ، بدأ حصن الحامية المحلية باطلاق قذيفة مدفع كل ربع ساعة ، في الليل والنهار ، ايماناً بالخرافة الحضارية القائلة ان البارود يطهر الجو . ولقد كانت الكوليرا أشد فتكا بين السكان الزنوج ، لأنهم الأكثر عددا وفقرا ، ولكنها في الحقيقة لم تكن تأخذ اللون أو الأصل بعين الاعتبار . توقفت فجأة كما بدأت ، دون أن يعرف عدد ضحاياها ، ليس لأن حصرهم كان مستحيلاً ، وانما لأن احدى فضائلنا السائدة هي الحشمة أمام المصائب الخاصة .

لقد كان الدكتور مارك اوربيليو اوربينو ، والد خوفينال ، بطلا مدنيا في تلك المرحلة المشؤومة ، وأبرز ضحاياها أيضاً . فاستناداً الى قرار رسمي ، وضع الاستراتيجية الصحية وأشرف شخصياً على تنفيذها ، لكن مبادراته دفعته للتدخل في كل شؤون النظام الاجتماعي ، حتى صار يبدو في أحرج لحظات الوباء أنه لا وجود لسلطة فوق سلطته . عندما راجع الدكتور خوفينال اوربينو ، بعد عدة سنوات ، وقائع تلك الأيام ، ثبت له أن منهج أبيه كان

يعتمد على العاطفة أكثر من اعتماده على العلم ، وأنه كان مناقضا للعقل في أحيان كثيرة ، وبهذا أفسح المجال واسعاً أمام شراهة الوباء . وتأكد له ذلك في عاطفة الأبناء الذين حولتهم الحياة شيئا فشيئا الى آباء لآبائهم ، فتألم للمرة الأولى لأنه لم يكن الى جوار أبيه في عزلة اخطائه . لكنه لم يتعرض لجدارة والده... فبنشاطه وتفانيه ، وشجاعته الشخصية قبل كل شيء ، استحق التشريفات الكثيرة التي قدمت له عندما تخلصت المدينة من الكارثة ، وبقي اسمه بجدارة محفوظا الى جانب اعداد من أبطال حروب أخرى أقل نبلا .

لم يعش ليرى مجده . فعندما اكتشف في نفسه الاختلالات التي لا شفاء منها ، والتي عاينها ورق لها في الآخرين ، لم يحاول حتى مجرد خوض معركة لا طائل منها ، وانما ابتعد عن الجميع كي لا ينقل العدوى الى أحد . وفي وحدته في احدى غرف الخدمة بمستشفى الرحمة ، صاماً أذنيه عن نداءات زملائه وتوسلات ذويه ، غير عابئ بهلع الموبوئين المحتضرين في الممرات الغاصة ، كتب لزوجته وأبنائه رسالة حب محمومة ، يمتن فيها لأنه جاء الى الوجود ، ويكشف لهم كم أحب الحياة وبأي نهم أحس بذلك الحب . كانت رسالة وداع في عشرين ورقة مؤثرة يبدو فيها تقدم المرض في اضطراب الكتابة ، ولم يكن ضروريا معرفة لمن كتبت تلك الأوراق لادراك ان التوقيع قد وضع عليها مع النفس الأخير . ووفقاً لمشيئته ضاع رماد جسده في المقبرة العامة ، دون أن يراه أحد ممن أحبوه .

تلقى الدكتور خوفينال اوربينو برقية الاشعار بالوفاة بعد ثلاثة أيام في باريس ، أثناء تناوله العشاء مع أصدقائه ، فرفع نخب شمبانيا لذكرى أبيه قائلا : «لقد كان رجلا طيبا» . وكان عليه بعد ذلك أن يؤنب نفسه لقلة نضجه... لأنه بذلك انما تجنب الواقع لكي لا يبكي . ثم تلقى بعد ثلاثة أسابيع نسخة من رسالة أبيه ، وحينئذ استسلم للواقع . لقد انكشفت له دفعة واحدة وبعمق صورة الرجل الذي عرفه قبل أي رجل سواه ، الذي رباه

وعلمه ، والذي نام وزنى مع أمه طوال اثنين وثلاثين سنة ، والذي لم يكن يبدو له مع ذلك جسدا وروحا قبل هذه الرسالة ، وذلك لمجرد الاستحياء وحده . لقد كان الدكتور خوفينال اوربينو وعائلته حتى ذلك الحين يتصورون الموت محنة تصيب الآخرين ، آباء الآخرين ، وأشقاء الآخرين وأزواجهم ، لكنها لا تقرب ذويهم . فهم ذوو حيوات بطينة ، لا يبدو أن الشيخوخة تلحق بهم ، ولا المرض أو الموت كذلك ، وانما هي حيوات تضمحل شيئا فشيئا في زمانها ، متحولة الى ذكريات وضباب زمن آخر ، الى أن يبتلعها النسيان . لقد وضعته رسالة أبيه ، أكثر من برقية الخبر المشؤوم ، وجهاً لوجه مع يقين الموت . رغم ان احدى أقدم ذكرياته ، حين كان في التاسعة ، أو ربما في الحادية عشرة ، هي نوع من المؤشر المبكر الى الموت من خلال أبيه . كانا وحيدين في مكتب البيت مساء يوم ماطر ، وكان يرسم قبرات ودوار شمس بالطباشير على بلاط الأرضية ، فيما والده يقرأ موليا ظهره لضوء النافذة ، وصدريته مفتوحة الأزرار وعلى كمي قميصه اربطة مطاطية . وفجأة قطع القراءة ليحك ظهره بمحكاك ذي ذراع طويلة تنتهي بكف فضية في طرفها . وحين لم يستطع ، طلب من ابنه ان يحك له بأظافره ، ففعل ذلك يراوده شعور غريب بأنه يحس بجسده وهو يحك . وأخيرا تطلع اليه أبوه من فوق كتفه بابتسامة حزينة وقال له :

ـ اذا ما مت الآن فانك لن تكاد تتذكرني حين تصبح في مثل سني .

قال ذلك دون أي سبب ظاهر ، وطاف ملاك الموت ، لحظة ، في ظلمة المكتب البارد ، وعاد للخروج من النافذة تاركا وراءه نثارة ريش ، لكن الطفل لم يرها . لقد انقضت أكثر من عشرين سنة منذ ذلك الحين ، وقريباً سيصل خوفينال اوربينو الى السن التي كان فيها أبوه في ذلك اليوم . كان يعرف أنه يشبهه تماما ، ولوعيه بأنه كذلك ، ارتقى الآن الى الوعي المرعب في أنه سيفنى مثله أيضا .

صارت الكوليرا هي هاجسه . لم يكن يعرف عنها شيئا أكثر مما يتعلمه بشكل روتيني في دورة هامشية ، ولم يكن ليصدق بأن هذا المرض قد سبب منذ ثلاثين سنة فقط في فرنسا ، بما في ذلك باريس ، أكثر من مئة واربعين ألف وفاة . أما بعد موت أبيه فقد تعلم كل ما يمكن أن يتعلمه حول مختلف أشكال الكوليرا ، بشكل أشبه بعقاب النفس لتهدئة ذاكرته ، وكان طالبا من طلاب ابرز علماء الأوبئة في ذلك الزمان ، ومبتدع الاحزمة الصحية ، البروفسور ادريان بروست ، والد الروائي الكبير . وبهذا فانه لدى عودته الى وطنه ، واحساسه مذ كان في البحر برائحة السوق النتنة ، ثم رؤيته الجرذان في المجاري المكشوفة والاطفال الذين يتمرغون عراة في مستنقعات الشوارع ، لم يدرك أن الكارثة قد وقعت بالفعل فقط ، بل وأيقن انها ستتكرر في أية لحظة .

ولم يمض وقت طويل . فقبل أن يمر العام طلب منه تلاميذه في مستشفى الرحمة أن يساعدهم بشأن مريض احسان تغطي كل أنحاء جسده بقع زرقاء غريبة . وكانت رؤية الدكتور خوفينال اوربينو للمريض من الباب كافية ليتعرف على العدو . لكن الحظ حالفهم : فالمريض وصل منذ ثلاثة أيام على متن سفينة قادمة من كوراثاو ، وقد حضر بنفسه الى العيادات الخارجية في المستشفى ، وليس هناك احتمال بأن يكون قد نقل العدوى الى سواه . وعلى كل حال ، حذر الدكتور خوفينال اوربينو زملاءه ، وتمكن من جعل السلطات تنقل الانذار الى الموانئ المجاورة ليتم تحديد موقع السفينة الملوثة واجراء الحجر الصحي عليها ، وكان عليه أن يهدئ من اندفاع القائد العسكري للموقع ، الذي اراد اعلان حالة الطوارئ وتطبيق العلاج بقذائف المدفعية كل ربع ساعة في الحال .

وقال له بألمعية عالية :

ـ اقتصد بالبارود الى أن يأتي الليبراليون . فنحن لم نعد في العصور الوسطى .

مات المريض بعد أربعة أيام ، مختنقاً بقيء حبيبي أبيض ، انما لم تظهر أية حالة أخرى خلال الأسابيع التالية رغم الاستنفار الدائم . بعد ذلك بقليل ، نشرت صحيفة دياريودي كوميريثو خبرا عن طفلين ماتا بالكوليرا في مكانين مختلفين من المدينة . ثم تأكد ان أحدهما كان مصابا بالديزنطاريا العادية ، أما الآخر ، وهي طفلة في الخامسة ، فيبدو أنها كانت مصابة بالكوليرا فعلا . فتم الحجر على أبويها وأخوتها الثلاثة وعزل كل منهم على انفراد في الحجر الصحي ، كما أخضع الحي بأسره الى رقابة طبية صارمة . كان أحد الأطفال مصابا بعدوى الكوليرا ولكنه استعاد عافيته بسرعة ، وعادت الأسرة كلها الى البيت عندما زال الخطر . وخلال ثلاثة شهور سجلت احدى عشرة حالة أخرى ، ثم حدث استفحال مخيف في الشهر الخامس ، ولكن ما ان انتهت السنة حتى اعتبر انه قد تم تجاوز مخاطر الوباء . ولم يشك أحد في أن صرامة الدكتور خوفينال اوربينو الصحية ، اضافة الى مقدرة مناديه الجوالين ، هي التي جعلت تحقيق المعجزة ممكناً . ومنذ ذلك الحين ، وحتى وقت متقدم من القرن الحالي ، أصبحت الكوليرا داء مستوطنا ليس في المدينة فقط وانما في ساحل الكاريبي كله تقريبا وفي حوض نهر ماجدلينا ، ولكن المرض لم يكن يتفاقم متحولا الى جائحة . لقد افادت حالة الذعر في تطبيق تنبيهات الدكتور خوفينال اوربينو بجدية أكبر من جانب السلطات العامة . ففرضت شعبة اجبارية خاصة بالكوليرا والحمى الصفراء في مدرسة الطب ، وجرى الاسراع في ردم المجاري وبناء سوق جديد بعيدا عن المزبلة . ولكن الدكتور اوربينو لم يكن يعبأ حينئذ باعلان انتصاره كما لم يعد متحمساً للاستمرار في مهماته الاجتماعية ، لأنه هو نفسه كان مكسور الجناح في ذلك الحين ، مذهولا ومشتتا ، ومستعدا لتغيير كل شيء ونسيان كل شيء في الحياة من أجل بارقة حب فيرمينا داثا .

لقد كان ذلك الحب فعلا ثمرة تشخيص طبي خاطئ . اذ ان طبيبا صديقا

ظن انه لمح اعراض الكوليرا الأولية على مريضة في الثامنة عشرة ، وطلب من الدكتور خوفينال اوربينو الذهاب لعيادتها . ذهب مساء ذلك اليوم بالذات ، مذعورا من احتمال ان يكون الوباء قد دخل هيكل المدينة القديمة ، فجميع الاصابات حتى ذلك الحين اقتصرت على الأحياء الهامشية ، وكانت كلها تقريبا بين الزنوج . ووجد هناك مفاجآت أخرى ليست أقل جحودا . كان البيت الغارق في ظلال أشجار لوز حديقة البشارة يبدو مخربا من الخارج كغيره من البيوت ذات الأسوار الاستعمارية ، أما في الداخل فكان يسود نظام جميل وضوء خافت يبدوان كأنهما من عصر آخر من عصور العالم . كان دهليز المدخل يؤدي مباشرة الى بهو اشبيلي ، مربع ومطلي بكلس أبيض حديث ، وفيه أشجار برتقال مزهرة وأرضية مرصوفة ببورسلين كبورسلين الجدران . كان هناك خرير ماء متواصل لا مرئي ، واصص قرنفل على الافاريز وأقفاص عصافير بين قناطر الرواق . وأكثر تلك الطيور غرابة هي ثلاثة غربان في قفص كبير جدا ، تضمخ جو البيت برائحة عطر مبهم حين تحرك أجنحتها . وبدأت عدة كلاب مقيدة في مكان ما من البيت بالعواء فجأة ، وقد أطارت رائحة الغريب صوابها ، لكن صرخة امرأة جعلت الكلاب تسكت تماما ، وقفزت أعداد من القطط من كل الجهات واختبأت بين الأزهار ، مرتعدة من سلطة ذلك الصوت . حينئذ ساد صمت شفاف ، جعل انفاس البحر الكئيب مسموعة من خلال اضطراب العصافير ووقع ماء النافورة على الحجر .

وفكر الدكتور خوفينال اوربينو ، وهو يرتعش ليقينه بحضور الرب جسديا ، ان بيتا كهذا يجب ان يكون عصيا على الوباء . لحق بغالا بلاثيديا عبر رواق القناطر ، ومر مقابل نافذة حجرة الخياطة حيث رأى فلورينتينو اريثا لأول مرة فيرمينا داثا حين كان البهو مايزال مليئا بالانقاض ، ثم صعد الادراج الرخامية الجديدة الى الطابق الثاني ، انتظر نقل خبر وصوله قبل أن يدخل مخدع المريضة . لكن غالا بلاثيديا رجعت بملاحظة لدى خروجها :

- تقول الآنسة انه لا يمكنك الدخول الآن لأن والدها ليس في البيت .

وهكذا كان عليه أن يعود ثانية في الخامسة مساء ، حسب تعليمات الخادمة ، وفتح له الباب حينئذ لورينثو داثا شخصيا وقاده الى حجرة نوم ابنته ، وبقي جالسا في عتمة الركن مقاطعا ذراعيه ومحاولا دون جدوى السيطرة على أنفاسه المتسارعة ، خلال الوقت الذي استغرقه الفحص . لم يكن من السهل معرفة من هو الأكثر ارتباكا ، أهو الطبيب بلمسه الخجول ، أم المريضة بخفر العذراء في قميص نومها الحريري ، لكن أيا منهما لم ينظر في عيني الآخر ، وانما كان يسألها بصوت مبهم وتجيبه بصوت مرتعش ، وكلاهما متعلق بالرجل الجالس في العتمة . وأخيرا طلب الدكتور خوفينال اوربينو من المريضة ان تجلس ، وفتح قميص نومها حتى الخصر بحرص لذيذ : تلألأ صدرها الشامخ غير الممسوس ، ذو الحلمتين الطفوليتين ، لحظة وكأنه وميض برق في ظلالة المخدع ، قبل أن تسرع لتخفيه بذراعيها المتقاطعتين ، فأزاح الطبيب ذراعيها بحزم دون أن ينظر اليها ، وقام باجراء الفحص مباشرة بوضع اذنه على الجلد ، بادئا بالصدر أولا ثم الظهر .

وقد اعتاد الدكتور خوفينال اوربينو ان يقول بأنه لم يشعر بأي انفعال عندما تعرف على المرأة التي سيعيش معها حتى يوم مماته . كان يتذكر قميص النوم السماوي ذا التطريز المخرم ، والعينين المحمومتين ، والشعر الطويل المنسدل على الكتفين ، ولكنه كان مبهورا من اقتحام الوباء للسور الاستعماري ، فلم يتمعن في شيء من المحاسن الكثيرة التي تمتلكها كمراهقة يانعة ، انما انصب اهتمامه على ادنى قدر من الوباء قد يكون لديها . بينما كانت هي أكثر وضوحاً : لقد بدا لها الطبيب الشاب الذي كثيرا ما سمعت باسمه اثناء الحديث عن الكوليرا ، متحذلقا عاجزاً عن حب أحد سوى نفسه . وكانت نتيجة التشخيص انها مصابة بالتهاب معوي ذي منشأ غذائي برئت منه باستخدامها علاج بيتي لمدة ثلاثة أيام . اطمأن

لورينثو داثا للتأكيد بأن ابنته ليست مصابة بالكوليرا ، فرافق الدكتور خوفينال اوربينو حتى باب العربة ، ودفع له تسعيرة البيزو الذهبي التي بدت له غالية جدا حتى بالنسبة لطبيب يعالج الأثرياء ، لكنه ودعه بامتنان مفرط . كان مبهورا ببريق كنيته والقابه ، ولم يفعل شيئا لمداراة ذلك الانبهار ، بل انه كان مستعدا للاقدام على عمل اي شيء للالتقاء به ثانية ، في ظروف اقل رسمية .

كان لابد من اعتبار المسألة منتهية . لكن الدكتور خوفينال اوربينو رجع ثانية بلا مناسبة في الثالثة من ظهر يوم الثلاثاء التالي ، دون ان يستدعيه أحد ودون ان ينبئ أحدا بقدومه . كانت فيرمينا داثا في حجرة الخياطة ، تتلقى درسا في الرسم الزيتي مع صديقتين أخريين عندما ظهر من النافذة بسترته البيضاء الناصعة ، وقبعته العالية والبيضاء أيضاً ، وأشار لها بأن تدنو . وضعت ادوات الرسم على الكرسي وسارت نحو النافذة على رؤوس اصابعها رافعة كشكش تنورتها حتى الكاحلين لتحول دون جرها على الأرض . كانت تضع اكليلا مثبتا على جبهتها بمشبك فيه حجر كريم لبريقه لون أشم كلون عينيها ، وكان كل ما فيها ينفث برودة . وقد لفت انتباه الطبيب انها ترتدي للرسم في البيت ملابس الخروج الى حفلة . جس نبضها من خارج النافذة ، وطلب منها أن تخرج لسانها ، وفحص حلقها مستخدما خافضة لسان من المنيوم ، ونظر الى ما تحت جفنها الاسفل ، وكان كلما انتهى من شيء يشير بحركة ارتياح . كان أقل ارتباكا من الزيارة السابقة ، بينما كان هو نفسه قد قال بأنه لن يعود الا اذا استدعوه لأي شيء يستجد . بل أكثر من ذلك : لم تكن راغبة في رؤيته الى الأبد . عندما انتهى الفحص ، خبأ الطبيب خافضة اللسان في الحقيبة المتخمة بالأدوات وقناني الدواء ، وأغلقها بضربة قوية ، ثم قال لها :

ـ انك كزهرة متفتحة لتوها .

ـ شكرا .

ـ الشكر لله ـ قال لها ، واستشهد استشهادا خاطئا بسان توماس ـ : تذكري أن كل ما هو طيب ، مهما كان منشؤه ، انما هو من الروح القدس . أتحبين الموسيقى ؟

سأل ذلك عرضا ، مع ابتسامة ساحرة ، لكنها لم تجبه . بل سألت بدورها :

ـ ما قصدك من هذا السؤال ؟

فقال :

ـ الموسيقى مهمة للصحة .

كان يؤمن بذلك أحيانا ، وستعرف هي عما قريب ، وحتى نهاية حياتها ، ان الموسيقى كانت أشبه بمعادلة سحرية يستخدمها لاقامة صداقة ، ولكنها فهمت الأمر في ذلك الحين على أنه سخرية . ثم ان صديقتيها اللتين تظاهرتا بالرسم فيما هما يتحدثان أفلتتا ضحكات فئران وخبأتا وجهيهما بحاملة الألوان ، وهذا ما أفقد فيرمينا داثا صوابها ، فصفقت النافذة بقوة وقد اعماها الغضب . حاول الطبيب الحائر أمام مصراع النافذة المخرم ان يجد طريقه الى البوابة الخارجية ، لكنه أخطأ الاتجاه ، وفي اضطرابه اصطدم بقفص الغربان العطرية ، فأطلقت هذه زعقة صماء ، وخفقت بأجنحتها مرتعبة ، مضمخة ملابس الطبيب بعطر نسائي . جمده صوت لورينثو داثا الراعد في مكانه .

ـ دكتور... انتظرني حيث انت .

كان قد رأى كل شيء من الطابق العلوي ، فنزل الدرج وهو يزرر قميصه متغطرسا ومتوردا ، وسوالفه الطويلة ماتزال مشعثة بعد حلم قيلولة سيء . حاول الطبيب ان يتغلب على الجرح :

ـ لقد قلت لابنتك انها تبدو كزهرة .

فقال لورينثو داثا :

ـ انها كذلك ، ولكنها زهرة كثيرة الأشواك .

مر من جانب الدكتور اوربينو دون أن يحييه . ودفع مصراعي نافذة حجرة الخياطة وأمر ابنته بصرخة خشنة :

ـ تعالي واعتذري من الدكتور .

حاول الطبيب أن يتوسط ليحول دون ذلك ، لكن لورينثو داثا لم يعره اهتماما . وأصر : «أسرعي» . نظرت الى صديقتيها بتوسل خفي لتتفهما ، وردت على أبيها بأنه لا يوجد ما يستوجب الاعتذار ، وبأنها أغلقت النافذة لتمنع استمرار دخول الشمس فقط . حاول الدكتور اوربين تأييد حججها ، ولكن لورينثو داثا أصر على الأمر . حينئذ رجعت فيرمينا داثا الى النافذة ، شاحبة من الغضب ، وقدمت قدمها اليمنى فيما هي ترفع تنورتها بأطراف اصابعها ، وانحنت للطبيب انحناءة مسرحية وقالت :

ـ أقدم لك اخلص اعتذاري أيها السيد المبجل .

جاراها الدكتور خوفينال اوربينو بمزاج رائق ، رافعاً قبعته العالية بحركة كحركات الفرسان ، لكنه لم ينل ابتسامة الرحمة التي كان ينتظرها . دعاه لورينثو داثا بعد ذلك ليتناولا في المكتب قهوة المصالحة فوافق مبتهجاً ، حتى لا تبقى أية شكوك في انه أزال من روحه كل اثر للضغينة .

الحقيقة أن الدكتور خوفينال أوربينو لم يكن يشرب القهوة ، باستثناء فنجان واحد في الصباح قبل الطعام ، ولم يكن يتعاطى الكحول أيضاً ، ماعدا كأساً من النبيذ مع الطعام في بعض المناسبات الجليلة . لكنه لم يتناول القهوة التي قدمها اليه لورينثو داثا فحسب ، بل ووافق كذلك على شرب كأس من خمر اليانسون . ثم قبل فنجاناً آخر من القهوة وكأساً أخرى من الخمر ، ثم أخرى وأخرى ، رغم أنه سيزور بعض المرضى الذين لم يزرهم بعد . استمع أول الأمر إلى الاعتذارات التي تابع لورينثو داثا تقديمها باسم ابنته ، التي

وصفها بأنها طفلة ذكية جدية ، جديرة بأمير من هنا أو من أي مكان آخر ، وعيبها الوحيد ، حسب زعمه ، هو طبعها الذي يشبه طبع بغلة . لكنه بعد الكأس الثانية ظن بأنه يسمع صوت فيرمينا داثا يأتي من طرف الفناء ، ومضى خياله في اثرها ، ولاحقها في الليل الذي بدأ يلف البيت فيما هي تشعل أضواء الممر ، وترش غرف النوم بمضخة مبيد الحشرات ، وتكشف الغطاء عند الموقد عن قدر الحساء الذي ستتناوله هذه الليلة مع أبيها ، هو وهي وحدهما على المائدة دون أن يرفعا بصرهما ، ودون أن يرشفا الحساء بصوت مسموع كي لا يحطما سحر الغضب ، إلى أن يستسلم الأب ويطلب الصفح منها لقسوته هذا المساء .

كان الدكتور اوربينو يعرف النساء جيداً ، فأدرك أن فيرمينا داثا لن تقرب المكتب ما لم ينصرف هو منه ، لكنه تأخر على أية حال ، لأنه كان يحس ان كبرياءه الجريح لن يتيح له العيش بسلام بعد اهانة هذا المساء . يبدو ان لورينثو داثا ، الذي نال منه السكر ، لم يلاحظ عدم اهتمامه به ، اذ كان يكفي نفسه بطلاقة لسانه التي لا كابح لها . كان يتكلم طويلاً وهو يمضغ عقب سيجاره المنطفئ ، ويسعل بصوت عال ، ويتف ، ويحاول الاسترخاء بصعوبة على الكرسي الدوار الذي تئن نوابضه كأنين حيوان متهيج . لقد شرب ثلاث كؤوس مقابل كل كأس شربه ضيفه ، ولم يتوقف عن الكلام إلا عندما تنبه إلى أن كلاً منهما لم يعد يرى الآخر ، فنهض ليشعل المصباح . تأمله الدكتور خوفينال اوربينو من الأمام على نور الضوء الجديد ، ورأى أن احدى عينيه مائلة كعين سمكة وان كلماته لا تتفق مع حركة شفتيه ، وفكر بأنها تخيلات تراوده لإسرافه في الكحول . حينئذ نهض واحساس أخاذ يسيطر عليه بأنه في جسد ليس جسده ، وانما جسد شخص مايزال على المقعد حيث كان . واضطر للقيام بمجهود شاق كي لا يفقد اتزانه .

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما خرج من المكتب يسبقه لورينثو داثا . كان القمر بدراً . وكان البهو الذي زينه له خياله يطفو في حوض مائي ، والاقفاص المغطاة بقطع قماشية بدت وكأنها أشباح نائمة تحت الرائحة الدافئة لأزهار البرتقال الجديدة ، وكانت نافذة حجرة الخياطة مفتوحة ، وعلى طاولة العمل يوجد مصباح مضيء ، بينما اللوحات غير المكتملة معلقة على الحوامل وكأنها في معرض . «أين أنت أيتها الغائبة» ، قال الدكتور اوربينو لدى مروره ، لكن فيرمينا داثا لم تسمعه ، ولم يكن بمقدورها أن تسمعه ، لأنها كانت تبكي غيظاً في مخدعها ، وهي منبطحة على بطنها فوق السرير بانتظار والدها لتقاضيه على اذلالها هذا المساء ، لم يكن الطبيب ليتنازل عن وداعها ، لكن لورينثو داثا لم يعرض عليه ذلك . لقد حنّ الى براءة نبضها ، الى لسانها الذي كلسان قطة ، ولوزتيها الطريتين ، ولكنه فقد الحماسة حين فكر بأنها لم تعد ترغب برؤيته أبداً ولن تسمح له بأن يحاول ذلك . عندما دخل لورينثو داثا في الدهليز ، أطلقت الغربان المستيقظة تحت الشرشف صرخة جنائزية ، فقال الطبيب بصوت عال : «ستقلع عينيك» ، كان يفكر بها ، فالتفت اليه لورينثو داثا ليسأله ما الذي قاله .

فأجاب :

ـ لست أنا الذي قلت ، وانما هي الخمرة .

رافقه لورينثو داثا حتى العربة محاولاً اقناعه بقبول البيزو الذهبي كأجرة للزيارة الثانية ، لكنه لم يقبله . أعطى الحوذي تعليمات صحيحة ليوصله إلى بيت المريضين اللذين عليه زيارتهما ، صعد إلى العربة دون مساعدة ، لكنه بدأ يشعر بالاعياء بفعل اهتزاز العربة فوق الشوارع المرصوفة بالاحجار ، فما كان منه إلا أن أمر الحوذي بتغيير الاتجاه . نظر برهة في المرآة ورأى أن صورته أيضاً ما زالت تفكر بفيرمينا داثا ، فهز كتفيه . وأخيراً أطلق جُشأة

رملية ، أسند رأسه على صدره وأغفى ، وفي الحلم بدأ يسمع نواقيس الحداد . سمع نواقيس الكتدرائية أولاً ، ثم نواقيس جميع الكنائس ، بما فيها أحراس كنيسة سان خوان هوسبتاليريو المكسرة .

فدمدم وهو نائم :

ـ خراء ، لقد مات الموتى .

كانت أمه وشقيقتاه يتناولن عشاء مؤلفاً من القهوة بالحليب وكعكة الجبن والدقيق على طاولة المآدب في صالة الطعام الكبيرة ، عندما رأينه يظهر في الباب بوجه منهك ورائحة مخزية تفوح منه هي رائحة عطر الموسمات التي نفثتها الغربان . كان الناقوس الكبير في الكتدرائية المجاورة يرن في السكون المخيم على البيت . سألته أمه مذعورة أين كان ، لأنهم بحثوا عنه في كل الأنحاء ليعالج الجنرال اغناسيو ماريا ، آخر أحفاد المركيز دي خاريث دي لافيرا ، الذي مات هذا المساء باحتقان دماغي . ومن أجله كانت تقرع الأجراس . أنصت الدكتور خوفينال اوربينو لأمه دون أن يسمعها ، وأمسك باطار الباب ، ثم دار نصف دورة محاولاً الوصول إلى حجرته ، لكنه هوى على وجهه وسط انفجار قيء خمر مدو .

صرخت أمه :

ـ يا مريم المقدسة . لابد أن أمراً غريباً جعلك تجيء إلى بيتك في مثل هذه الحالة .

لكن الأكثر غرابة لم يكن قد حدث بعد . فقد انتهز زيارة عازف البيانو المعروف رميو لوسيتش ؛ الذي عزف مجموعة سونيتات لموزارت بعد أن انتهى حداد المدينة على الجنرال اغناسيو ماريا مباشرة . فحمّل الدكتور خوفينال اوربينو مدرسة الموسيقى على عربة تقودها البغال ، وأحيا لفيرمينا داثا سيرنادا أصبح مضرب المثل . استيقظت هي مع النغمات الأولى ، ولم تكن بحاجة للنظر من تخريمات الشرفة لتعرف من هو صاحب هذا التكريم

الفريد . والشيء الوحيد الذي أسفت له هو عدم امتلاكها شجاعة غيرها من الآنسات المجربات اللواتي يفرغن محتويات المبولة فوق رأس العاشق غير المرغوب فيه . أما لورينثو داثا فقدارتدى ملابسه على عجل أثناء عزف السيرناد ، ودعا الدكتور خوفينال اوربينو وعازف البيانو للدخول وهما مايزالان بالملابس والزينة الخاصة بحفلة الكونشيرتو ، وشكرهما على السيرناد بكأس جيد من البراندي .

سرعان ما تنبهت فيرمينا داثا إلى أن والدها يحاول أن يلين قلبها . ففي اليوم التالي للسيرناد قال لها بمواربة : «تصوري شعور أمك لو أنها عرفت بأنك مرغوبة من أحد آل اوربينو دي لاكايي» . فردت عليه بجفاء : «كانت ستموت ثانية وهي في التابوت» . وروت لها صديقاتها اللواتي يرسمن معها ان لورينثو داثا قد ذهب إلى النادي الاجتماعي بدعوة من الدكتور خوفينال اوربينو ، وأن هذا الأخير كان محط تنبيه صارم لمخالفته تعليمات النادي . وحينئذ فقط علمت أيضاً أن أباها قد طلب عدة مرات الانضمام الى النادي الاجتماعي ، وأن طلبه رفض في كل مرة بعدد من الكرات السوداء لا يتيح المجال للتفكير بمحاولة أخرى . لكن لورينثو داثا كان يبتلع الاهانة بكبد سكير ، ويتابع استنباط الوسائل للالتقاء مصادفة بالدكتور خوفينال اوربينو ، دون أن يلاحظ أن خوفينال اوربينو هو الذي كان يفعل المستحيل ليجعله يلتقي به . كانا يقضيان أحياناً عدة ساعات وهما يتبادلان الحديث في المكتب ، فيبقى البيت حينئذ وكأنه غارق على هامش الزمان ، لأن فيرمينا داثا لم تكن تسمح لشيء بأن يتابع خط حياته المعتاد قبل انصرافه . وكان مقهى الباروكية ملجأ وسطاً لابأس به . وهناك علّم لورينثو داثا أول دروس الشطرنج لخوفينال اوربينو ، وكان هذا تلميذاً مجدّاً ، وأصبح الشطرنج داء آخر لا شفاء منه عذبه حتى يوم مماته .

في احدى الليالي ، بعد مدة قصيرة من سيرناد البيانو المنفرد ، وجد

لورينثو داثا رسالة مختومة بالشمع في مدخل بيته ، موجهة إلى ابنته وقد طبعت على الشمع حروف : خ . او . ك . فدسها من تحت الباب لدى مروره أمام مخدع فيرمينا ، ولم تستطع هي أن تدرك كيف وصلت الى هناك ، اذ رأت انه من غير المعقول أن يكون أبوها قد تغير الى حد ايصال رسائل عاشقها اليها . تركتها فوق الكوميدينو ، دون أن تدري ما تفعله بها حقاً ، وبقيت الرسالة هناك مغلقة عدة أيام ، حتى مساء يوم ماطر حلمت فيه فيرمينا داثا أن خوفينال اوربينو قد رجع الى البيت ليهديها خافضة اللسان التي فحص بها حلقها . ولم تكن خافضة اللسان من الألمنيوم وانما من معدن آخر شهي كانت قد تذوقته بلذة في أحلام أخرى ، رأت انها كسرتها إلى جزئين غير متساويين وأعطته القطعة الصغرى .

عندما استيقظت ، فتحت الرسالة . كانت قصيرة ومهذبة ، والشيء الوحيد الذي كان يرجوه خوفينال اوربينو منها هو السماح له بأن يطلب من ابيها الاذن بزيارتها . لقد تأثرت ببساطته وجديته ، والغيظ الذي رعته بالحب خلال تلك الايام خمد فجأة . خبأت الرسالة في علبة مهملة في قاع الصندوق ، لكنها تذكرت أنها كانت تخبئ هناك أيضاً رسائل فلورينتينو اريثا المعطرة ؛ فأخرجتها من العلبة لتضعها في مكان آخر ، وقد هزتها موجة من الخجل . عندئذ رأت أن خير ما تفعله هو أن تعتبر الرسالة لم تصلها ، فأحرقتها بلهب المصباح ، وهي ترى قطرات الشمع تنتفخ في فقاعات زرقاء فوق اللهب . تنهدت «يا للرجل المسكين» . وفجأة تذكرت أنها المرة الثانية التي تقول فيها ذلك خلال أكثر بقليل من سنة ، وفكرت لهنيهة بفلورنتينو اريثا ، وقد فوجئت هي نفسها كم أصبح بعيداً عن حياتها : يا للرجل المسكين .

في تشرين الأول ومع الأمطار الأخيرة ، وصلتها ثلاث رسائل أخرى ، مع الأولى منها علبة أقراص بنفسج من دير فلافيغني . اثنتان منهما سلمهما

عند مدخل البيت حوذي الدكتور خوفينال اوربينو ، الذي حيا غالا بلاثيديا من نافذة العربة ، ذلك كي لا تكون هناك شكوك في أن الرسائل ليست منه أولاً ، وحتى لا يستطيع أحد الادعاء بأن الرسائل لم تصل ثانياً . ثم ان الرسالتين كانتا مختومتين بنفس الحروف على الشمع الأحمر ، ومكتوبتين بالخط الرديء الذي كانت فيرمينا داثا تعرفه : خط طبيب . وكلتا الرسالتين تقولان من حيث الجوهر ما جاء في الرسالة الأولى ، وهما مصاغتان بروح الخنوع ذاتها ، ولكن في أعماق لياقته بدأ يشع اشتياق لم يكن ليظهر أبداً في رسائل فلورنتينو اريثا الرصينة . وقد قرأتهما فيرمينا داثا فور استلامهما ، بفارق أسبوعين بينهما . وعندما كانت على وشك القائهما للنار ، غيرت رأيها دون أن تفسر الأمر لنفسها . ولكنها رغم ذلك لم تفكر أبداً بالرد عليهما .

الرسالة الثالثة من رسائل شهر تشرين الأول دُست من تحت باب البيت الخارجي ، وكانت مختلفة في كل شيء عن الرسائل السابقة . فالخط كان صبيانياً لدرجة لا تدع مجالاً للشك في انها كتبت باليد اليسرى ، لكن فيرمينا داثا لم تفكر بشيء من هذا إلا عندما كشف لها النص بالذات عن مجهول لئيم . فكاتب الرسالة يضع كأمر واقع ان فيرمينا داثا قد سحرت بأكاسيرها الدكتور خوفينال اوربينو ، ومن هذا الافتراض يستخلص النتائج المشؤومة . وينتهي بتهديد : اذا لم تتراجع فيرمينا داثا عن محاولتها الاستيلاء على الرجل المرغوب أكثر من أي رجل آخر في المدينة ، فانها ستعرض نفسها للفضيحة العامة .

أحست بأنها ضحية ظلم مجحف ، لكن ردة فعلها لم تكن انتقامية ، وانما على العكس تماماً : كانت ترغب في الكشف عن الفاعل المجهول لصرفه عن خطأه بكل التفسيرات المناسبة ، اذ كانت موقنة بأنها لن تتأثر أبداً ، ومهما كانت الأسباب ، بمغازلات خوفينال اوربينو . تلقت في الأيام

التالية رسالتين أخريين غفليين من التوقيع ، فيهما من الحقد مثلما في تلك الأولى ، ولكن لم يكن يبدو في أي من الرسائل الثلاث ان كاتبها هو الشخص نفسه . فاما أنها وقعت ضحية مكيدة ، أو أن قصة حبها المزيف قد وصلت إلى أبعد مما تصورته . لقد اقلقتها فكرة ان كل ذلك انما هو نتيجة تهور خوفينال اوربينو ليس إلا . وخطر لها بأنه قد يكون رجلاً مختلفاً عما يوحي به مظهره الوقور ، وان لسانه ربما ينطلق في زياراته فيتبجح بغزوات وهمية ، كما يفعل الكثيرون من أمثاله . فكرت بأن تكتب له موبخة على اهانته شرفها ، ولكنها تخلت عن الفكرة ، فقد يكون هذا ما يريده . وحاولت أن تستعلم من صديقاتها اللواتي يأتين للرسم معها في غرفة الخياطة ، لكن الشيء الوحيد الذي سمعته هو تعليقات سليمة العاقبة حول سيرناد البيانو المنفرد . أحست بالغضب ، والعجز ، والذل . على العكس من البداية ، حين رغبت بالعثور على العدو الخفي لاقناعه بأخطائه ، أصبحت تريد فرمه الآن بمقص تشذيب الحديقة . صارت تمضي الليالي مستيقظة ، محللة تفاصيل تعابير الرسائل المجهولة ، على أمل العثور على بارقة عزاء . وكان ذلك وهماً باطلاً : ففيرمينا داثا بطبعها كانت غريبة عن عالم آل اوربينو دي لاكايي الداخلي ، وكانت تمتلك الأسلحة لمواجهة فنونهم الخيرة ، أما الشريرة فلا .

وأصبحت هذه القناعة أشد مرارة بعد رعب الدمية السوداء التي وصلتها في تلك الأيام بلا أية رسالة ، ولكن بدا لها أنه من السهل تصور مصدرها : فالدكتور خوفينال اوربينو وحده يمكن أن يكون مرسلها . انها مشتراة من المارتينيك ، حسب بطاقة المنشأ ، وترتدي فستاناً محكماً ، لها شعر أجعد به خيوط ذهبية ، وهي تغمض عينيها عند تمديدها . لقد رأت فيها فيرمينا داثا تسلية جعلتها تتغلب على وساوسها ، فكانت تمددها على مخدتها في النهار . واعتادت على النوم معها في الليل . بعد فترة من الزمن ، أثر حلم

منهك ، اكتشفت أن الدمية كانت تكبر : فالثياب الأصلية التي وصلت بها أصبحت تكشف عن فخذيها ، والحذاء تمزق بضغط نمو القدمين . كانت فيرمينا داثا قد سمعت من قبل عن رقيات سحرية افريقية مشؤومة ، ولكنّ أياً منها لم يكن رهيباً كهذه . ولم تستطع ، من جهة أخرى ، تصور أن يكون رجل كخوفينال اوربينو قادراً على ارتكاب فظاعة مماثلة . وكانت محقة : فالدمية لم يوصلها الحوذي ، وانما بائع قريدس عابر ، لم يستطع أحد أن يقدم لها خبراً يقيناً عنه . وفي محاولة لحل اللغز ، فكرت فيرمينا داثا لحظة بفلورينتينو اريثا ، الذي كانت تجهمه يثير فزعها ، لكن الحياة تكفلت باقناعها بخطأها . ولم يتضح السر أبداً وكان مجرد تذكره يبعث فيها قشعريرة رعب إلى ما بعد زواجها بكثير ، وانجابها أولاداً ، واعتقادها بأنها مختارة القدر وأسعد النساء .

المحاولة الأخيرة للدكتور اربينو كانت توسط الأخت فرانكا دي لالوث ، رئيسة راهبات ظهور العذراء المقدسة ، التي لا تستطيع رفض طلب من عائلة أيدت طائفتها منذ استقرار هذه الطائفة في الامريكيتين . حضرت برفقة راهبة مستجدة في الساعة التاسعة صباحاً ، وتسلتا كلتاهما لمدة نصف ساعة بأقفاص العصافير ريثما تنتهي فيرمينا داثا من الاستحمام . كانت ألمانية رجولية تتكلم بنبرة معدنية ولها نظرة آمرة لا علاقة لها بعواطفها الصبيانية . ولم يكن في هذا العالم ما تكرهه فيرمينا داثا أكثر من كرهها لها ومما رأته على يديها ، ومجرد تذكر شفقتها الكاذبة كان يسبب لها حرقصة عقرب في أحشائها . وما أن تعرفت عليها من باب الحمام حتى عادت تعيش دفعة واحدة جميع عذابات المدرسة ، وحلم القداس اليومي الذي لا يطاق ، ورعب الامتحانات ، ومساعي المستجدات الدنيئة ، وكل الحياة المفسدة بموشور الفقر الروحي . أما الأخت فرانكا دي لالوث بالمقابل ، فقد حيتها بمرح بدا نزيهاً . وأبدت دهشتها لنموها ونضجها ، وأطرت على حكمتها

في تدبير شؤون البيت ، وذوقها الرقيق الظاهر في الفناء ، وفي مجمرة أزهار البرتقال . ثم أمرت المستجدة بانتظارها ، وعدم الاقتراب كثيراً من الغربان القادرة على انتزاع عينيها في لحظة اهمال ، وبحثت عن مكان منعزل تجلس فيه لتتحدث على انفراد مع فيرمينا داثا . فدعتها هذه الى الصالة .

كانت زيارة قصيرة وفظة . فالأخت فرانكا دي لالوث ، ودون اضاعة الوقت في الديباجات ، عرضت على فيرمينا داثا رد اعتبار مشرف . كما أن سبب الطرد سيمحى ، ليس من المحاضر فقط ، وانما من ذاكرة الطائفة أيضاً ، وهذا سيتيح لها استكمال دراستها والحصول على الشهادة الثانوية في الآداب . أرادت فيرمينا داثا الحائرة أن تعرف السبب .

فقالت الراهبة :

ـ كل ذلك بناء على طلب شخص جدير بكل شيء ، ورغبته الوحيدة هي إسعادك . أو تعرفين من هو ؟

حينئذ فهمت الأمر . وسألت نفسها كيف يمكن لامرأة غيرت مسار حياتها من أجل رسالة بريئة أن تقوم الآن بدور رسول الحب ، لكنها لم تتجرأ على قول ذلك . وقالت بالمقابل انها عرفت الرجل المعني ، وانها تعرف كذلك بأنه لا يملك الحق بالتدخل في حياتها .

فقالت الراهبة :

ـ الشيء الوحيد الذي يرجوه هو أن تسمحي له بالتحدث اليك لخمس دقائق . وأنا متأكدة أن أباك سيوافق .

أصبح غضب فيرمينا داثا أشد زخماً لفكرة أن أباها متواطئ في تلك الزيارة . فقالت :

ـ لقد رأينا بعضنا مرتين حين كنت مريضة . ليس من سبب يدعو للقاء الآن .

وقالت الراهبة :

ان هذا الرجل هو بمثابة هدية من العناية الالهية بالنسبة لأي امرأة لها دماغ عرضه اصبعان .

وتابعت الكلام عن فضائله ، وعن ورعه ، وانكبابه على خدمة المعذبين . وفيما هي تتكلم أخرجت من كمها مسبحة ذهبية تنتهي بمسيح منحوت من العاج ، وهزتها أمام عيني فيرمينا داثا . انها من آثار العائلة ، وعمرها أكثر من مئة سنة ، صاغها صائغ من سيينا وباركها البابا كليمنت الرابع .

ـ انها لك ـ قالت لها .

أحست فيرمينا داثا بتيار دافق من الدم في أوردتها ، وتجرأت حينئذ على القول :

ـ لا أستطيع أن أفهم كيف تقبلين القيام بمهمة كهذه ، اذا كنت ترين في الحب خطيئة .

تظاهرت الأخت فرانكا دي لالوث بأنها لم تدرك مغزى الملاحظة ، لكن اجفانها التهبت . تابعت تحريك المسبحة مقابل عينيها . وقالت :

ـ خير لك أن تتفاهمي معي ، فقد يجيء بعدي نيافة الأسقف ، وسيكون الحال معه مختلفاً .

فقالت فيرمينا داثا :

ـ فليأت .

خبأت الأخت فرانكا دي لالوث المسبحة الذهبية في كمها ، ثم أخرجت من الكم الآخر منديلاً مستعملاً كثيراً ، مجعداً على شكل طابة ، واحتفظت به مضغوطاً في قبضتها ، ناظرة إلى فيرمينا داثا من بعيد جداً بابتسامة حانية وتنهدت .

ـ مسكينة أنت يا بنيتي ، مازلت تفكرين بذلك الرجل .

مضغت فيرمينا داثا الاهانة وهي تنظر الى الراهبة دون أن يرمش لها

جفن ، وحدقت في عينيها ، دون أن تتكلم ، وهي تمضغ بصمت ، إلى أن رأت بسعادة لا نهائية عينيها الرجوليتين تغرورقان بالدموع . ومسحتها الاخت فرانكا دي لالوث بالمنديل المكور ، ونهضت واقفة وهي تقول :

ـ لقد صدق والدك حين قال بأنك بغلة .

لم يأت الأسقف . وكان الحصار سينتهي في ذلك اليوم ، لولا أن هيلديبراندا سانتشيت جاءت لقضاء أعياد الميلاد مع ابنة عمتها ، فتبدلت الحياة لكلتيهما . استقبلوها في السفينة القادمة من ريوهاتشا في الساعة الخامسة صباحاً ، وسط اضطراب مسافرين يحتضرون من الدوار ، فيما نزلت هي من السفينة مشعة وناضجة ، بروح هائجة بفعل الليلة البحرية السيئة . جاءت محملة بصناديق الديكة الرومية الحية وبكل أنواع الثمار التي تطرحها بساتينهم الزاهرة ، كي لا ينقص الطعام على أحد أثناء زيارتها . وبعث والدها ليسيماكو سانتشيت يسأل ان كانوا بحاجة إلى موسيقيين من أجل حفلة الفصح ، لأن أفضل الموسيقيين متوفرون تحت تصرفه ، ويعد بأنه سيبعث فيما بعد بشحنة من الألعاب النارية . ويعلن أيضاً أنه لن يستطيع المجيء لأخذ ابنته قبل شهر آذار ، وهذا يعني أن لديهما متسعاً من الوقت تعيشانه معاً .

بدأت الفتاتان في الحال . استحمتا معاً منذ مساء اليوم الأول ، عاريتين ، وطهرتا بعضهما بماء البركة . تعاونتا على دلك جسديهما بالصابون . وأخرجت كل منهما الصيبان من شعر الأخرى ، وقارنتا اردافهما ، ونهودهما الصلبة ، وتأملت كل منهما في مرآة الأخرى لترى قسوة الزمن عليهما مذ رأتا بعضهما عاريتين آخر مرة . كانت هيلديبراندا ضخمة ومتينة ، ذات بشرة ذهبية ، لكن شعر جسمها بأسره كان شعر مولدة ، قصير ومفتول وكأنه رغوة أسلاك . أما فيرمينا داثا فكانت ذات عري شاحب ، خطوطه طويلة ، وبشرة صافية ناعمة الزغب . جعلتهما غالا

بلاثيديا تضعان سريرين متماثلين في حجرة النوم . لكنهما كانتا تستلقيان في سرير واحد أحياناً وتتحدثان بعد اطفاء النور حتى الفجر ، وتدخنان سيجاراً من النوع الرفيع الذي يدخنه قطاع الطرق . كانت هيلديبراندا قد أحضرته معها مخبأ في بطانة الصندوق ، وكان عليهما أن تحرقا بعد التدخين أوراق ارمينا لتنقية هواء الحجرة الذي يصبح كهواء أكواخ الرعاة . لقد دخنت فيرمينا داثا للمرة الأولى في فاييدبار ، وتابعت التدخين في فونسيكا ، وفي ريوهاتشا ، حين كانت تحبس نفسها مع عشر بنات أخوالها ليتحدثن عن الرجال ويدخنّ في الخفاء . تعلمت التدخين بالمقلوب ، وذلك بوضع طرف السيجار المشتعل في فمها ، كما يدخن الرجال في ليالي الحرب كي لا تفضح جمرة السيجار . لكنها لم تدخن أبداً منفردة . وأصبحت تفعل ذلك مع هيلديبراندا في بيتها كل ليلة قبل أن تناما . ومنذ ذلك الحين اكتسبت عادة التدخين ، ليس ذلك لأنه كان يُنظر الى المرأة المدخنة في العلن بغير الرضى ، وانما لأن متعتها كانت تكتمل في السرية .

كانت رحلة هيلديبراندا قد فُرضت عليها كذلك من جانب أبويها في محاولة لابعادها عن حبها المستحيل ، رغم أنهم أقنعوها بأنها مسافرة لمساعدة فيرمينا داثا على حسم أمرها في وجهة حسنة . وقد وافقت هيلديبراندا على أمل السخرية من النسيان ، واتفقت مع موظف التلغراف في فونسيكا ليوصل رسائلها بأقصى قدر من الكتمان . ولذا كان يأسها مريراً حين علمت أن فيرمينا داثا قد صدت فلورينتينو اريثا لأن هيلديبراندا كانت تمتلك رؤية كونية للحب ، وترى ان ما يطرأ على حب يؤثر على جميع غراميات العالم بأسره . لكنها لم تتخل عن مشروعها . ذهبت ، بجرأة سببت لفيرمينا داثا أزمة رعب ، إلى مكتب البريد بغرض كسب جميل فلورينتينو اريثا .

ما كان لها أن تتعرف عليه ، اذ لم يكن فيه أي ملمح من الصورة التي

رسمتها له في خيالها من فيرمينا داثا . وللوهلة الأولى رأت أنه يستحيل أن تكون ابنة عمتها قد أوشكت على الجنون في سبيل ذلك الموظف الذي لا يكاد يلفت الانتباه ، والذي له ملامح كلب مضروب بالعصا ، بملابسه التي كملابس حاخام منكوب وأساليبه غير القادرة على اثارة قلب أحد . لكنها ما لبثت أن ندمت لهذا الانطباع الأول ، عندما وضع فلورينتينو اريثا نفسه في خدمتها بلا أية شرط وحتى دون أن يعرف من تكون... ولم يعرف ذلك أبداً . ما كان لأحد أن يفهمها مثله ، فلم يطلب منها الافصاح عن هويتها كما لم يطلب أي عنوان . ووضع حلاً بمنتهى البساطة : عليها أن تمر بمكتب التلغراف مساء كل أربعاء ليسلمها الردود باليد ، ولا شيء سوى ذلك . وعندما قرأ رسالة هيلديبراندا المكتوبة سألها ان كانت توافق على تعديل يقترحه ، فوافقت . فكتب فلورينتينو اريثا بعض التعديلات بين السطور ، ثم شطبها ، وأعاد كتابتها ، حتى لم يعد فراغ بين السطور ، وأخيراً مزق الورقة وكتب رسالة مختلفة تماماً بدت لها مثيرة . وعندما خرجت هيلديبراندا من مكتب التلغراف كانت على حافة الدموع .

وقد قالت لفيرمينا داثا :

ـ انه قبيح وكئيب . لكنه ينضح حباً .

وكان أكثر ما لفت انتباه هيلديبراندا هو عزلة ابنة عمتها . وقد قالت لها بأنها تبدو كعانس في العشرين من العمر . فهيلديبراندا المعتادة على أسرة كثيرة العدد وموزعة ، في بيوت لا أحد يعرف بالتحديد عدد الذين يعيشون فيها ولا من هم الذين سيتناولون الطعام في كل وجبة ، لم تستطع أن تتصور فتاة في مثل سنها تحجز نفسها في الحياة الخاصة . وهكذا كانت فيريمنا داثا : فمنذ استيقاظها في السادسة صباحاً ، وإلى ان تطفئ نور حجرة النوم ، كانت تكرس نفسها لاضاعة الوقت . فالحياة تُفرض عليها من الخارج : أولاً ، ومع صياح الديكة الأولى يوقظها بائع الحليب بمقرعة

الباب . ثم تدق بائعة السمك على صندوق أسماك الأبرميس التي مازالت تحتضر فوق فرشة من الأعشاب البحرية ، وتأتي التشكيلة الفاخرة من خضروات بساتين ماريا السفلى وفواكه سان خاثينتو . بعد ذلك ، وطوال النهار ، يقرع الجميع الباب : المتسولون ، بائعات اليانصيب ، راهبات الاحسان ، المجلخ بنايه ، ومُشتري القناني الفارغة ، ومُشتري ورق الجرائد ، والغجريات المزيفات اللواتي يقرأن الحظ في أوراق اللعب ، وفي خطوط الكف ، وفي بقايا القهوة ، وفي ماء الجفنة . كان الأسبوع يمر على غالا بلاثيديا وهي تفتح الباب وتغلقه لتقول لا ، عد في يوم آخر ، أو لتصرخ من الشرفة بمزاج معكر أن توقفوا عن الازعاج ، اللعنة ، لقد اشترينا كل ما نحتاجه . كانت قد حلت محل العمة اسكولاستيكا بحماسة شديدة وظرافة كبيرة ، حتى أن فيرمينا داثا كانت تخطئ فتظنها العمة وتحبها على أنها كذلك . كانت مسكونة بهواجس عبدة . فما أن تجد لحظة فراغ حتى تمضي إلى غرفة الاشغال لتكوي الملابس البيضاء ، وتتركها على أحسن حال ، وتحفظها في الخزائن مع أزهار الخزامى ، ولم تكن تكوي وتطوي ما كانت قد غسلته فقط وانما كذلك الملابس التي فقدت رونقها لقلة الاستخدام . وبالاهتمام ذاته كانت تحافظ على ملابس فيرمينا سانتشيث ، والدة فيرمينا ، المتوفاة منذ أربعة عشر عاماً خلت . لكن فيرمينا داثا هي التي كانت تتخذ القرارات . فهي من يأمر باعداد ما يجب للطعام ، وما يجب إعداده أو شراؤه ، وما يجب عمله في كل حالة ، وبهذا كانت تقرر مسار حياة بيت لا يوجد فيه في الواقع ما يجب تقريره . فبعد أن تنتهي من تنظيف الأقفاص ووضع الطعام للعصافير ، والتأكد من أن الأزهار ما عادت بحاجة لشيء ، تصبح دون اتجاه . وبعد طردها من المدرسة ، كثيراً ما كانت تبقى نائمة منذ القيلولة ولا تستيقظ حتى اليوم التالي . ولم تكن دروس الرسم إلا وسيلة مسلية أخرى لاضاعة الوقت .

كانت علاقاتها بأبيها خالية من العواطف منذ نفي العمة اسكولاستيكا ، لكنهما وجدا سبيلاً الى العيش معاً دون عراقيل . فحينما تستيقظ ، يكون قد خرج إلى أعماله . ونادراً ما كان يتخلف عن طقس الغداء ، مع أنه لم يكن يأكل شيئاً تقريباً . اذ كان يكتفي بالمقبلات والأصناف الجيليقية الخفيفة التي تقدم في مقهى الباروكية . ولم يكن يتناول العشاء أيضاً : كانوا يتركون له حصته من العشاء على المائدة ، في صحن واحد مغطى بصحن آخر ، رغم معرفتهم بأنه لن يأكلها حتى اليوم التالي بعد إعادة تسخينها على الفطور . كان يعطي ابنته النقود اللازمة للنفقات مرة كل أسبوع ، ويحسب تلك النقد جيداً ، وكانت تتصرف بها بصرامة ، لكنه كان يلبي عن طيب خاطر أي طلب تطلبه لنفقات طارئة . لم يساومها على قرش في يوم من الأيام ، ولم يطلب منها بياناً بالحساب يوماً ، لكنها كانت تتصرف وكأنها ستقدم كشفاً بالحساب أمام محكمة قدسية . لم يحدثها أبداً عن طبيعة أعماله وحالتها ، كما لم يرافقها لتتعرف على مكاتبه في الميناء ، تلك التي في موقع محظور على الآنسات دخوله حتى وهن بصحبة آبائهن . ولم يكن لورينثو دائا يرجع إلى بيته قبل الساعة العاشرة ليلاً ، وهي ساعة حظر التجول في مراحل الحرب الأقل خطراً . وكان يبقى حتى ذلك الحين في مقهى الباروكية ، يلعب كل شيء ، لأنه كان متخصصاً في جميع ألعاب الصالونات ، ومعلماً جيداً لهذه الألعاب أيضاً . كان يعود دوماً إلى بيته في حالة من الاتزان العقلي ، دون أن يوقظ ابنته ، رغم انه كان يتناول أول كأس من خمر اليانسون عند استيقاظه ويتابع مضغ عقب سيجاره المنطفئ وشرب عدد من الكؤوس المتفرقة طوال النهار . لكن فيرمينا دائا أحست بدخوله في احدى الليالي . سمعت وقع خطواته كخطوات قوزاقيّ على الدرج ، ولهاثه الضخم في ممر الطابق الثاني ، وضرباته بكف يده على باب غرفة النوم . فتحت له الباب ، وفزعت للمرة الأولى من عينه المنحرفة وكلماته المضطربة .

قال لها :

ـ لقد انهرنا . انه الانهيار الكامل ، ها انتذي قد علمت .

كان ذلك هو كل ما قاله ، ولم يعد لقول ذلك أبداً ، ولم يحدث ما يشير إلى أنه قال الحقيقة ، لكن فيرمينا داثا وعت بعد تلك الليلة أنها وحيدة في الدنيا . كانت تعيش على أحد هوامش المجتمع ، فصديقاتها القديمات في المدرسة كن في سماء محرمة عليها ، وقد أصبح الأمر أكثر صعوبة بعد فضيحة طردها ، لكنها لم تكن بمثابة جارة لجيرانها أيضاً ، لأن هؤلاء تعرفوا عليها بلا ماض وبزي مدرسة ظهور العذراء المقدسة ، أما عالم أبيها فكان عالم التجار وحمالي السفن ، عالم لاجئي الحروب في وكر مقهى الباروكية العام ، عالم رجال متوحدين . لقد خففت دروس الرسم من عزلتها في السنة الأخيرة ، لأن المعلمة كانت تفضل الدروس الجماعية وقد اعتادت أن تأتي معها بتلميذات أخريات إلى حجرة الخياطة ، لكنهن فتيات من أوساط اجتماعية مشوشة وغير محددة . لم يكنَ بالنسبة لفيرمينا داثا أكثر من صديقات مستعمرات ينتهي تأثيرهن مع انتهاء كل درس . أرادت هيلديبراندا أن تفتح البيت ، ان تهويه ، أن تأتي بالموسيقيين والألعاب النارية وقلاع البارود من عند أبيها واقامة حفلة رقص كرنفالية يقوض عصفها حالة ابنة عمتها المعنوية المنخورة ، لكنها سرعان ما تنبهت إلى أن نواياها غير مجدية . والسبب بسيط : لا يوجد من يشارك في الحفلة .

وكانت هيلديبراندا على أي حال هي التي وضعتها في الحياة . ففي المساء ، وبعددروس الرسم ، كانت ترافقها إلى الشارع للتعرف على المدينة ، وقد أرتها فيرمينا داثا الطريق الذي كانت تقطعه يومياً مع العمة اسكولاستيكا ، ومقعد الحديقة حيث كان فلورينتينو اريثا يتظاهر بالقراءة لينتظرها ، والأزقة التي كان يلاحقها فيها ، ومخابئ الرسائل ، والقصر المشؤوم الذي كان سجن السانت افيثيو فيما مضى وتحول إلى مدرسة ظهور

العذراء المقدسة ، التي تكرهها من أعماق روحها . صعدتا إلى رابية مقبرة الفقراء ، حيث كان فلورينتينو اريثا يعزف الكمان حسب اتجاه الريح لتسمعه وهي في الفراش ، ومن هناك رأتا المدينة التاريخية بكاملها ، والسقوف المهشمة والجدران المتآكلة ، وانقاض الحصون بين الاجمات ، والجزر المتناثرة في الخليج ، وأكواخ البؤس حول المستنقعات ، والكاريبي الرحب . في ليلة عيد الميلاد ذهبتا إلى القداس في الكتدرائية ، وجلست فيرمينا في المكان الذي تصلها فيه موسيقى فلورينتينو اريثا على أحسن وجه ، وأرت ابنة خالها المكان الدقيق الذي رأت فيه لأول مرة عن قرب عينيه المرتعبتين في ليلة كهذه الليلة . وغامرتا بالذهاب وحدهما إلى زقاق الكتبة العموميين ، واشترتا الحلوى ، وتوقفتا في دكان الأوراق السحرية ، وأرت فيرمينا داثا ابنة خالها المكان الذي اكتشفت فيه فجأة أن حبها لم يكن أكثر من سراب . ولم تنتبه هي نفسها إلى أن كل خطوة خطتها من البيت الى المدرسة ، وكل مكان في المدينة ، كل لحظة من ماضيها القريب ما كان لها من وجود إلا بفضل فلورينتينو اريثا . ولفتت هيلديبراندا انتباهها إلى ذلك ، لكنها لم توافق على الأمر ، لأنها لم تقبل يوماً حقيقة ان فلورينتينو اريثا ، بخيره أو شره ، هو الشيء الوحيد الذي حدث لها في الحياة .

في هذه الأيام جاء المدينة مصور فوتوغرافي بلجيكي ، وأقام استوديو تصويره في أعالي زقاق الكتبة ، وانتهز كل قادر على الدفع الفرصة ليلتقط صورة . وكانت فيرمينا وهيلديبراندا من الأوائل . أفرغتا خزانة ملابس فيرمينا سانتشيث ، واقتسمتا أزهى الملابس ، والمظلات ، وأحذية الاحتفالات ، والقبعات ، وارتدتا ملابس سيدات كانت سائدة منذ نصف قرن . ساعدتهما غالا بلاثيديا على شد أحزمة الخصر ، وعلمتهما كيف تتحركان في هياكل التنانير الداخلية المصنوعة من الأسلاك ، وكيف تلبسان القفازات ، وتزرران الأحذية ذات الكعوب العالية . وفضلت هيلديبراندا قبعة

عريضة الحواف مزينة بريش نعام يتدلى على ظهرها . ووضعت فيرمينا قبعة أكثر حداثة ، مزينة بفواكه جصية ملونة وأزهار كرينولينا . ثم ضحكتا لمظهرهما عندما رأتا في المرآة أنهما تشبهان صور الجدات ، وانطلقتا سعيدتين ، ضاحكتين ، لتلتقطا صورة عمرهما . رأتهما غالا بلاثيديا وهما تجتازان الحديقة وقد فتحتا مظلتيهما ، مستندتين كيفما اتفق على كعوب أحذيتهما ، ودافعتين تنانيرهما المكشكشة مع جسدهما كله في مشية كمشية الأطفال ، فباركتهما كي يساعدهما الله في صورهما .

كانت هناك جلبة مقابل استوديو البلجيكي ، اذ كان يلتقط صوراً لبيني تيتينو ، الذي كسب في تلك الأيام بطولة الملاكمة في بنما . كان يرتدي سروال الملاكمة والقفازات ويضع التاج على رأسه ، ولم يكن تصويره بالأمر السهل ، اذ كان عليه أن يقف في وضعية الهجوم لمدة دقيقة ، وأن يتنفس أقل ما يمكن ، لكنه ما أن يتخذ وضعية الاحتراس حتى ينطلق انصاره المتعصبون بالتصفيق والهتاف ، فلا يستطيع مقاومة اغراء اسعادهم بعرض فنونه . وعندما جاء دور الفتاتين كانت السماء قد تلبدت بالغيوم وبدا أن المطر سيهطل حتماً ، لكنهما سمحتا للمصور بتعفير وجهيهما بالنشاء واستندتا إلى عمود رخامي بشكل طبيعي ، وتمكنتا من الوقوف بدون حراك لوقت بدا أطول من المعقول بكثير . وكانت صورة خالدة . عندما توفيت هيلديبراندا ، وهي على مشارف المئة من عمرها ، في مزرعتها المسماة فلوريس دي ماريا ، وجدوا نسختها من الصورة في خزانة مخدعها المقفلة ما بين ثنايا شراشف معطرة ، إلى جانب بقايا رسالة محتها السنون . وقد احتفظت فيرمينا داثا بنسختها لسنوات طويلة في الصفحة الأولى من ألبوم عائلي ، حيث اختفت دون أن يعرف أحد كيف ، أو متى وصلت إلى يدي فلورينتينو اريثا أثر سلسلة من المصادفات التي لا تُصدق ، بعد أن تجاوزا كلاهما السبعين .

كانت الساحة المقابلة لزقاق المكتبة تغص بالنساء حتى الشرفات عند خروج فيرمينا وهيلديبراندا من استوديو البلجيكي . لقد نسيتا أن وجهيهما أبيضان بالنشاء وشفتيهما مطليتان بمرهم له لون الشوكولاته ، وان ملابسهما لا تناسب الساعة ولا الحقبة الحالية . واستقبلهما الشارع بفيض من السخرية . فانزوتا وحاولتا الهرب من الاستهزاء العام ، حين شقت العربة التي يقودها جوادان أشقران ذهبيان طريقها وسط الحشد . فتوقفت السخرية وتفرقت الجموع المعادية . لن تستطيع هيلديبراندا أن تنسى أبداً رؤيتها الأولى للرجل الذي ظهر على ركاب العربة ، بقبعته الملساء ، وسترته البروكار وحركاته الماهرة ، وعذوبة عينيه ، وسلطة حضوره .

ورغم انها لم تكن قد رأته من قبل ، إلا أنها عرفته في الحال . كانت فيرمينا داثا قد حدثتها عنه ، فعلت ذلك مصادفة وبلا أية مصلحة ، في مساء يوم من أيام الشهر الماضي حين لم تشأ المرور قرب بيت المركيز دي كاسالدويرو لأن عربة الخيول الذهبية كانت تقف أمام الباب . وأخبرتها من هو صاحب العربة وحاولت ان تشرح لها سبب نفورها ، دون أن تقول لها كلمة واحدة عن طلبه الزواج منها . كانت هيلديبراندا قد نسيته . ولكنها عندما تعرفت عليه وهو عند باب العربة كأنه طيف من حكاية خيالية ، احدى قدميه على الأرض والأخرى على ركاب العربة ، لم تستطع أن تفهم أسباب نفور ابنة عمتها منه .

ـ اصعدا من فضلكما ـ قال لهما الدكتور خوفينال اوربينو ـ سأوصلكما حيث تأمران .

بدأت فيرمينا داثا القيام بحركة مبهمة ، لكن هيلديبراندا كانت قد وافقت . أنزل الدكتور خوفينال اوربينو قدمه الى الأرض وساعدها على الصعود إلى العربة بأطراف اصابعه ، وهو لا يكاد يلمسها . وحين لم تجد فيرمينا مخرجاً صعدت وراءها ، بوجه يتقد حرجاً .

كان البيت يبعد أربع كوادرات فقط ، ولم تنتبه الفتاتان إلى أن الدكتور اوربينو قد اتفق مع الحوذي ، لكن لا بد أن الأمر كذلك ، لأن العربة استغرقت أكثر من نصف ساعة في الوصول . كانتا تجلسان على المقعد الرئيسي ، وجلس هو مقابلهما مولياً ظهره لاتجاه سير العربة . التفتت فيرمينا بوجهها نحو النافذة وغرقت في الفراغ . أما هيلديبراندا ، فكانت مفتونة ، وكان الدكتور أكثر فتنة بافتتانها . وما ان انطلقت العربة حتى أحست برائحة جلد المقاعد الطبيعي الدسمة ، وحميمية العربة من الداخل ، فقالت إنها تراها مكاناً مناسباً للعيش فيه . وسرعان ما أخذا يضحكان ويتبادلان المزاح كصديقين قديمين ، وعرجا على لعبة كلمات ذات رطانة بسيطة ، تتلخص بادخال مقطع صوتي متوافق بين كل مقطعين . كانا يتظاهران بالاعتقاد ان فيرمينا داثا لا تفهمهما ، رغم معرفتهما بانها ليست فاهمة فحسب ، بل ومنصتة إليهما أيضاً ، ولذا كانا يتابعان اللعب . وبعد هنيهة من الوقت ، وكثير من الضحك ، اعترفت هيلديبراندا بأنها ما عادت تتحمل الآلام التي يسببها لها الحذاء فقال الدكتور اوربينو :

ـ الأمر في غاية البساطة . هلمي لنر من ينتهي أولاً .

وبدأ يحل رباط حذائه ، وقبلت هيلديبراندا التحدي . لم يكن الأمر سهلاً لأن مشد الأسلاك ما كان يسمح لها بالانحناء ، لكن الدكتور اوربينو تأخر متعمداً ، إلى أن أخرجت حذاءها من تحت التنورة بضحكة ظافرة ، وكأنها اصطادت الحذاء لتوها من بركة راكدة . عندئذ نظرا معاً إلى فيرمينا ، ورأيا بروفيل وجهها أكثر حدة من أي وقت آخر على خلفية المساء القائظ . لقد كانت غاضبة ثلاثاً : للوضع غير اللائق الذي هي فيه ، ولسلوك هيلديبراندا الشائن ، وليقينها بأن العربة تجول على غير هدى لتأخير الوصول . لكن هيلديبراندا كانت منفلتة من عقالها . وقد قالت :

ـ لقد أدركت الآن أن ما يزعجني ليس الحذاء وانما هذا القفص من الأسلاك .

وأدرك الدكتور اوربينو أنها تعني التنورة الداخلية ، فأمسك بالسانحة على الفور ، وقال : «الأمر في غاية البساطة . اخلعيها .» وبحركة شعوذة سريعة أخرج منديلاً من جيبه وعصب عينيه قائلاً :

ـ أنا لا أرى .

أبرزت العصابة نقاء شفتيه بين اللحية المستديرة السوداء والشارب ذي الطرفين المدببين وأحست هي بارتعاشة ذعر تهز كيانها . فنظرت إلى فيرمينا ، ولم تجدها غاضبة الآن ، وانما مرتعبة من أن تكون هي على استعداد لخلع تنورتها . فاتخذت هيلديبراندا وضعاً جدياً وسألت باشارات من يديها «ماذا تفعل ؟» . وأجابتها فيرمينا دائما بالطريقة ذاتها بأنها ستلقي بنفسها من العربة اذا هم لم يذهبوا الى البيت مباشرة .

قال الطبيب :

ـ إنني أنتظر .

فقالت هيلديبراندا :

ـ بامكانك أن ترى .

عندما نزع الدكتور خوفينال اوربينو العصابة عن عينيه ، وجدها قد تغيرت ، وأدرك أن اللعب قد انتهى ، وأنه انتهى بصورة سيئة . وباشارة منه دار الحوذي بالعربة دورة كاملة ، ودخل في حديقة البشارة في اللحظة التي كان فيها مشعل الأنوار يشعل المصابيح العامة ، وقرعت جميع الكنائس نواقيسها داعية إلى صلاة التبشير . نزلت هيلديبراندا مسرعة ومضطربة بعض الشيء لأنها أغضبت ابنة عمتها ، وودعت الطبيب بمصافحة سطحية . وفعلت فيرمينا مثلها ، ولكن حين حاولت سحب يدها بالقفاز الأملس . ضغط الدكتور اوربينو بقوة على اصبعها الوسطى قائلاً :

ـ مازلت أنتظر ردك .

حينئذ سحبت فيرمينا يدها بقوة ، وبقي القفاز الفارغ معلقاً في يد

الطبيب ، لكنها لم تنتظر لاستعادته . وذهبت الى النوم دون أن تأكل . أما هيلديبراندا ، فبعد أن تناولت العشاء في المطبخ مع غالا بلاثيديا ، دخلت الى حجرة النوم وكأن شيئاً لم يحدث ، وعلقت بظرافتها الطبيعية على أحداث المساء . ولم تخف حماستها للدكتور اوربينو ، وأطرت أناقته ولطفه ، ولم تعقب فيرمينا على كلامها بشيء ، ولكنها كانت محتاطة للمناكفة . واعترفت هيلديبراندا انها في لحظة معينة ، حين عصب الدكتور اوربينو عينيه ورأت بريق أسنانه المنتظمة بين شفتيه الورديتين ، أحست برغبة لا تقاوم لأكله بالقبلات . فانقلبت فيرمينا داثا نحو الجدار ووضعت حداً للحديث دون رغبة في الاساءة ، بل أنها كانت تضحك ، ومن أعماق قلبها ، قالت :

ـ يا لك من عاهرة!

نامت متقافزة ، وكانت ترى الدكتور اوربينو في كل مكان ، رأته يضحك ، ويغني ، ويطلق شرر كبريت من أسنانه وعيناه معصوبتان ، ويسخر منها برطانة لا قواعد لها في عربة مختلفة كانت تصعد نحو مقبرة الفقراء . واستيقظت قبل الفجر بكثير منهكة ، وبقيت مستيقظة وعيناها مغمضتان تفكر بالسنوات الطويلة التي مازال عليها أن تعيشها . بعد ذلك ، وفيما هيلديبراندا تستحم ، كتبت رسالة بأقصى سرعة ، وطوتها بأقصى سرعة ، ودستها بأقصى سرعة في مغلف ، وقبل أن تخرج هيلديبراندا من الحمام بعثتها مع غالا بلاثيديا إلى الدكتور خوفينال اوربينو . كانت واحدة من رسائله . وقد كتبت له عليها : أجل يا دكتور ، كلم والدي . دون أي حرف أكثر أو أقل .

حين علم فلورينتينو اريثا أن فيرمينا داثا ستتزوج من طبيب نبيل وثري ، متعلم في أوروبا وذي شهرة فريدة في مثل سنه ، لم تكن هنالك قوة قادرة على اخراجه من مذلته . وقد فعلت ترانسيتو اريثا أكثر مما هو ممكن لتعزيته بأساليب كأساليب عروس عندما رأت أنه فقد النطق والشهية وأنه

يقضي الليل مسهداً يبكي دون راحة ، إلى أن تمكنت بعد أسبوع من جعله يأكل . حينئذ تحدثت الى ليون الثاني عشر لوايثا ، الحي الوحيد من الأخوة الثلاثة ، ورجته دون أن توضح الأسباب أن يقدم عملاً لابن أخيه ليقوم بأي شيء في المؤسسة البحرية ، على أن يكون ذلك في أي ميناء منسي وسط الغابات من موانئ نهر مجدلينا ، حيث لا وجود لبريد ولا لتلغراف ، وحيث لا يلتقي بأحد ينقل له شيئاً عن مدينة الضياع هذه . لم يمنحه العم عملاً احتراماً لزوجة أخيه ، التي لم تكن تحتمل مجرد وجود البندوق ، لكنه حصل له على وظيفة عامل تلغراف في فَيبيا دي ليبفا ، مدينة الأحلام الواقعة على بعد أكثر من عشرين مرحلة ، والتي ترتفع حوالي ثلاثة آلاف متر فوق مستوى شارع لاس فينتاناس .

لم يعِ فلورينتينو اريثا تلك المرحلة العلاجية . وسيتذكرها دوماً مثل كل ما حدث له في تلك الفترة ، من خلال زجاج محنته المغبش . عندما استلم برقية التعيين في المنصب لم يفكر بأخذها على محمل الجد ، لكن لوتاريو توغوت أقنعه بحجج ألمانية أن مستقبلاً باهراً ينتظره في الادارة العامة . وقال له : «ان التلغراف مهنة المستقبل» . وأهداه زوجاً من القفازات الملساء ومعطفاً ذا ياقة من الفرو مجرباً في شهور كانون الجليدية في بافيرا . وأهداه العم ليون الثاني عشر بدلتين وجزمة واقية من المطر لشقيقه الأكبر ، وقدم له بطاقة الرحلة مع قمرة في السفينة التالية . قيفت ترانسيتو اريثا الملابس على مقاس ولدها ، الذي كان أقل بدانة من أبيه وأقصر بكثير من الألماني ، واشترت له جوارب صوفية وسراويل داخلية طويلة كي لا ينقصه شيء لمواجهة قسوة السهب . وكان فلورينتينو اريثا ، المتصلب من شدة المعاناة ، يساعد في الاعداد للرحلة كما بامكان ميت أن يساعد في مراسم جنازته . لم يقل لأحد أنه ذاهب ، ولم يودع أحداً ، واحتفظ بالكتمان الحديدي الذي لم يكشف فيه لأحد سوى أمه سر عاطفته

المقهورة . ولكنه في عشية السفر اقترف حماقة قلبية أخيرة كان يمكنها أن تكلفه حياته . ارتدى في منتصف الليل بدلة الأحد ، وعزف وحيداً تحت شرفة فيرمينا داثا فالس الحب الذي وضعه لها ، والذي لا يعرفه أحد سواهما ، وكان خلال ثلاث سنوات شعار ترافقهما المتناقض . عزفه مدمدماً بكلمات الأغنية ، على الكمان الغارق بالدموع ، وبالهام زخم جعل كلاب الشارع تبدأ بالعواء منذ النغمات الأولى ، ثم تلتها كلاب المدينة بأسرها ، ولكنها أخذت تصمت بعد ذلك شيئاً فشيئاً في أفق الموسيقى ، الى أن انتهى الفالس بصمت ما ورائي . لم تُفتح الشرفة ، ولم يطل أحد على الشارع ، حتى ولا الحارس الليلي الذي يهرع عادة بفانوسه ، محاولاً التحضر بالاستماع الى فتات موسيقى السيرنادات الليلية . لقد كان ذلك الفصل رقية تفريج عن فلورينتين اريثا ، لأنه ما ان خبأ الكمان في علبته وابتعد في الشوارع الميتة دون أن يلتفت إلى الوراء ، حتى فقد الشعور بأنه سيغادر في صباح اليوم التالي ، وانتابه احساس بأنه قد غادر منذ سنوات طويلة بقرار قاطع ألا يعود أبداً .

كان قد أعيد تعميد السفينة ، وهي واحدة من ثلاث سفن متشابهة لدى شركة الكاريبي للملاحة النهرية ، باسم مؤسس الشركة : بيوس الخامس لواثيا . كانت عبارة عن بيت عائم من طابقين خشبيين فوق هيكل من الحديد ، عريض ومستو ، وبغاطس حده الأقصر خمسة أقدام يتيح للسفينة التغلب على أعماق النهر المتفاوتة على أحسن وجه . السفن الأقدم كانت بنيت في سينسيناتي في منتصف القرن ، حسب النموذج الخرافي للسفن التي كانت تقوم بالعبور من نهر اهيو إلى الميسيسبي ، وكان لها في كل جانب عجلة دفع تتحرك بطاقة مرجل بخاري وقوده الحطب . ومثل هذه كانت سفن شركة الكاريبي للملاحة النهرية ، ففي الطبقة السفلية ، وعلى مستوى الماء تقريبا ، هناك الآلات البخارية والمطابخ ، والحظائر الكبيرة حيث كان

البحارة يعلقون شباك نومهم ، متقاطعة على عدة مستويات . أما في الطابق العلوي فكانت مقصورة القيادة وقمرات القبطان وضباطه ، وصالة اللهو وصالة الطعام ، حيث كان يدعى المسافرون المرموقون مرة واحدة على الأقل للعشاء ولعب الورق . أما في الطبقة الوسطى فكانت توجد ست قمرات من الدرجة الأولى على جانبي ممر يستخدم كصالة طعام عادية ، وهناك في المقدمة صالة جلوس مفتوحة فوق النهر ، لها شرفة خشبية مزخرفة وأعمدة من الحديد ، حيث كان المسافرون العاديون يعلقون شباك نومهم ليلا . وخلافا للنماذج القديمة ، لم تكن لهذه السفن عجلتا دفع على الجانبين ، وانما عجلة واحدة في المؤخرة ، ذات رياش أفقية تحت مراحيض طبقة المسافرين الخانقة . لم يتكلف فلورينتينو اريثا مشقة استكشاف السفينة فور صعوده الى متنها ، في الساعة السادسة صباحا من يوم أحد حزيراني ، كما يفعل عادة من يسافرون لأول مرة بدافع الغريزة . وقد وعى الحالة التي هو فيها عند الظهيرة فقط ، وبينما كانت السفينة تبحر مقابل دسكرة كالامار ، حين ذهب للتبول في المؤخرة ورأى من فتحة المرحاض العجلة العملاقة ذات العوارض الخشبية تدور تحت قدميه بقعقعة بركانية وزبد وبخار ملتهبين .

لم يكن قد سافر أبداً من قبل . كان يحمل صندوقاً من الصفيح فيه ملابس السهب ، والروايات المصورة التي كان يشتريها في أجزاء شهرية ، وكان يخيطها بنفسه ويلقيها عن ظهر قلب ، والتي توشك أن تتحول إلى رماد لكثرة ما أعاد قراءتها . كان قد خلف الكمان الذي يرتبط إلى حد بعيد بنكبته ، لكن أمه أجبرته على حمل صرة السفر التي تضم عدّة نوم شعبية وعملية : وسادة ، ودثار ، ومبولة من التوتياء ، وكلّة مخرمة للحماية من البرغش ، كل هذا ملفوف بحصيرة مربوطة بحبلين لتعليقها كأرجوحة نوم في حالة الطوارئ ، لم يكن فلورينتينو اريثا يريد حملها ، فقد ظن انها لن تفيده

بشيء في قمرة مزودة بأسرة مستوية ، لكن كان عليه ان يشكر لأمه حسن تدبيرها منذ الليلة الأولى . وفعلاً ، فقد صعد في اللحظة الأخيرة إلى المركب مسافر يرتدي ملابس بروتوكولية كان قد وصل ذلك الصباح في سفينة قادمة من اوروبا ، وكان يرافقه حاكم المقاطعة شخصياً . وهو يريد متابعة الرحلة فوراً مع زوجته وابنته ، وكذلك خادمه الذي يرتدي زيّ الخدم والصناديق السبعة ذات الحواشي المذهبة والتي صعدت بمشقة على السلالم . وتمكن القبطان ، وهو مارد من كورثاو ، من اثارة الشعور الوطني بين الكريوليين لتأمين راحة المسافر الطارئ . وشرح لفلورينتينو اريثا بمزيج من القشتالية والبابيامنتو[١] ان الرجل البروتوكولي هو الوزير المفوض الجديد لانكلترا المسافر إلى عاصمة الجمهورية ، وذكره بأن تلك المملكة قد قدمت موارد حاسمة لاستقلالنا من الهيمنة الاسبانية ، وبناء عليه فان أية تضحية ستكون ضئيلة الشأن في سبيل أن تشعر عائلة رفيعة المقام وهي في بيتنا بأنها أحسن حالاً من بيتها . وطبعاً تخلى فلورينتينو اريثا عن قمرته .

لم يأسف لذلك في البدء ، اذ كان ماء النهر غزيراً في تلك الفترة من السنة ، وكانت السفينة تبحر دون عوائق في الليلتين الأوليين . كان أفراد طاقم السفينة يوزعون على المسافرين بعد العشاء ، في الخامسة مساء ، نوعاً من الأسرة المطوية سطحها من قماش الخيم المتين ، وكان كل مسافر يفتح سريره حيث يستطيع ، ويجهزه بالخرق التي في الصالون ، والذين لا يملكون شيئاً ينامون على موائد صالة الطعام متدثرين بشراشف الطاولات التي لم تستبدل إلا مرتين خلال الرحلة . كان فلورينتينو اريثا يمضي معظم الليل ساهراً متخيلاً أنه يسمع صوت فيرمينا داثا في نسيم النهر البارد ، راعياً الوحدة بذكرياته ، مستمعاً غناء في لهاث السفينة المتقدمة بخطوات حيوان ضخم في الظلمات ، إلى أن تظهر أولى البقع الوردية في الأفق وينشق

(١) لهجة محلية شائعة في كوراساو ، وهي مزيج من الاسبانية والهولندية . (م)

النهار الجديد فجأة على صحارى فسيحة ومستنقعات ضباب . وكانت الرحلة تبدو له حينئذ دليلاً آخر على حكمة أمه ، وأحس بحماسة لتجاوز النسيان .

بعد ثلاثة أيام من المياه المواتية ، أصبح الابحار أكثر مشقة بين المصاطب الرملية المفاجئة وتعكر الماء الذي يخفي مدى عمق النهر . أصبح النهر عكراً وصار يضيق أكثر فأكثر وسط غابة عظيمة من الأشجار المتشابكة ، حيث كان يظهر من حين لآخر كوخ من القش إلى جانب أكوام الحطب المعدة لمراجل السفن . ويبدو أن لغط الببغاوات وصياح القردة اللامرئية كان يفاقم من قيظ الظهيرة . أما في الليل ، فكان لا بد من ربط السفينة للنوم ، فيصبح مجرد كون المرء حياً حينئذ أمراً لا يطاق . فإضافة الى الحر والبرغش تأتي روائح شرائح اللحم المملح المنشورة على دربزينات السفينة لتجف . فكان معظم المسافرين ، وخاصة الأوروبيين منهم . يغادرون نتانة القمرات ويقضون الليل وهم يذرعون سطح المركب ، ويهشون جميع أنواع الهوام بنفس المناشف التي يمسحون بها العرق المتواصل ، ويدركهم الصباح وهم منهكون ومتورمون بفعل اللسع .

وكان قد اندلع في تلك السنة أيضاً فصل جديد من الحرب الأهلية المتقطعة بين الليبراليين والمحافظين ، فاتخذ القبطان احتياطات شديدة الصرامة لحفظ النظام الداخلي وأمن المسافرين . وفي محاولة لمنع وقوع الأخطاء والاستفزازات ، حظر ممارسة التسلية المفضلة في رحلات ذلك الزمان ، ألا وهي إطلاق النار على التماسيح القابعة تحت الشمس على الضفاف . وفيما بعد ، حين انقسم المسافرون الى فريقين متعاديين أثناء احدى المناقشات ، قام بمصادرة أسلحة الجميع واعداً بكلمة شرف أن يعيدها عند انتهاء الرحلة . كان صارماً في هذا الأمر حتى مع الوزير البريطاني الذي خرج منذ صباح اليوم التالي لبدء الرحلة بملابس الصيد ، حاملاً غدارة احتياطية وبندقية صيد بسبطانتين من تلك المستخدمة في صيد النمور . ثم أصبحت القيود أكثر

تشدداً بعد اجتياز مرفأ تينيريفي ، حيث التقوا بمركب يرفع راية صفراء ، وهي علامة الوباء . ولم يحصل القبطان على أية معلومات حول تلك العلامة المرعبة ، لأن السفينة الأخرى لم تجب على اشارتهم . لكنهم التقوا في ذلك اليوم بالذات بسفينة أخرى محملة بمواش من جامايكا ، وأعلمتهم هذه بأن سفينة الراية الوبائية تحمل على متنها مريضين بالكوليرا ، وأن الوباء كان يُحدث أضراراً وخسائر في مجرى النهر الذي عليهم الابحار فيه ، عندئذ منع المسافرون من مغادرة السفينة ليس في الموانئ التالية فحسب ، بل وفي الأماكن غير المأهولة حيث كانوا يتوقفون للتزود بالحطب . وهكذا اعتاد المسافرون فيما تبقى من الرحلة حتى مرفأ النهاية ، والتي استمرت ستة أيام أخرى ، على عادات السجون . ومن هذه العادات ، المشاهد الضارة لرزمة من بطاقات الصور الجنسية الهولندية التي كانت تنتقل من يد الى أخرى دون أن يعلم أحد علم اليقين من أين أتت ، مع أن أي مجرب للسفر في النهر لم يكن ليجهل أنها لا تكاد تشكل الا عينة من مجموعة القبطان الخرافية . ولكن حتى هذه التسلية التي لا أمل فيها انتهت الى مضاعفة السأم .

تحمل فلورينتينو اريثا قسوة الرحلة بصبر معدني كان يحزن أمه ويغيظ أصدقاءه . لم يخالط أحداً . وكانت الأيام بالنسبة له تمضي سهلة وهو جالس مقابل الدرابزين ، يراقب التماسيح الجاثمة تحت الشمس على الضفاف بأشداق مفتوحة لاقتناص الفراشات ، ويتأمل قطعان مالك الحزين المفزوعة التي تنطلق فجأة من المستنقعات ، والأطَم[1] التي ترضع صغارها من أثدائها الأمومية الضخمة وتفاجئ المسافرين ببكائها النسوي . وفي أحد الأيام رأى ثلاثة أجساد آدمية تطفو فوق الماء ، كانت منتفخة وخضراء ، وفوق كل منها عدد من طيور الرخمة . مر أولاً جسدا رجلين ، أحدهما بلا

---

(١) الأطم : جمع أطوم وهو حيوان لبون ، يأوي الى الماء ، مؤخره يشبه السمك ، له يدان وليس له رجلان وطوله نحو ثماني أقدام . يعرف كذلك ببقر الماء .

رأس ، ثم جسد طفلة صغيرة السن راح شعرها المفلت كشعر ميدوزا يتموّج متلوياً من أثر مخور السفينة في الماء . لم يعرفوا أبداً ، لأنه لا سبيل الى معرفة ، إن كان هؤلاء من ضحايا الكوليرا أم ضحايا الحرب ، لكن الرائحة النتنة لوثت ذكرى فيرمينا دائا في ذاكرته .

هكذا كان دائماً : فأي حدث ، خيراً كان أم شراً ، يذكره بها . في الليل ، حين كانوا يربطون السفينة ويتمشى معظم المسافرين دون عزاء على السطح ، كان هو يراجع عن ظهر قلب تقريبا الروايات المصورة تحت مصباح الكربور في صالة الطعام ، وهو المصباح الوحيد الذي يبقى مضاء حتى الصباح . وكانتْ المآسي التي قرأها مرات ومرات تستعيد سحرها حين يستبدل أبطالها المتخيلين بمعارفه في الحياة الواقعية ، يحتفظ لنفسه ولفرمينا دائا بأدوار الحب المستحيل . وفيَ ليال أخرى كان يكتب لها رسائل مكروبة ، ما تلبث مقاطعها أن تتبدد في المياه الجارية دون توقف نحوها . وهكذا كانت تمر أقسى الساعات عليه متقمصا شخصية أمير مجهول أو فارس عاشق خجول أحيانا ، وملتحما في أحيان أخرى بجلده المكوي كعاشق في رحلة نسيان ، الى أن تهب أولى النسمات فينصرف الى النوم جلوسا على مقاعد الشرفة .

توقف عن القراءة في احدى الليالي أبكر من المعتاد ، وكان يتجه ساهيا الى دورات المياه حين فُتح بابٌ لدى مروره في صالة الطعام المقفرة ، وأمسكت يد صقر بكم قميصه وادخلته الى القمرة . أحس بالكاد بجسد غير محدد السن لامرأة عارية في الظلام ، كانت مغطاة بعرق ساخن وتنفسها غير منتظم . دفعته على ظهره فوق السرير ، وفكت ابزيم حزامه ، وحلت الأزرار وامتطته كفارس ، وجردته من عذريته دون أمجاد . سقطا كلاهما منهكين في فراغ هوة بلا قرار لها رائحة مستنقع قريدس . وبقيت جاثمة فوقه لهنيهة بعد ذلك وهي تلهث دون هواء ، ثم لم يعد لها وجود في الظلام .

قالت له :

ـ انصرف الآن وانس كل شيء . فهذا لم يحدث أبدا .

كان الهجوم مباغتا وناجحا لا يمكن تصنيفه كحماقة مفاجئة مبعثها الضجر ، وانما كثمرة خطة محكمة بكل مراحلها وبأدق تفاصيلها . وضاعف هذا اليقين الجذاب من تلهف فلورنتينو اريثا ، الذي أحس وهو في ذروة اللذة باكتشاف لا يمكن تصديقه ، بل انه رفض قبوله ، وهو أن حب فيرمينا داثا الخادع يمكن استبداله بعاطفة دنيوية . هكذا كان أن صمم على كشف هوية مغتصبته الماهرة ، فلربما وجد في غريزتها كفهدة علاجا لمحنته . لكنه لم يتوصل اليها . بل على العكس . فكلما تعمق في التحري شعر بأنه يبتعد عن الحقيقة .

لقد حدث الهجوم في القمرة الأخيرة ، لكن هذه القمرة كانت متصلة بالقمرة قبل الأخيرة بباب داخلي ، بحيث تصبح القمرتان معا جناح نوم عائلي فيه أربع أسرة . هناك كانت تسافر امرأتان شابتان ، وأخرى متقدمة في السن الا أنها ذات مظهر حسن ، ومعهن طفل عمره بضعة شهور . كنّ قد التحقن بالرحلة من برانكودي لوبا ، وهو الميناء الذي يحملون فيه بضائع وركاب مدينة مامبوكس مذ أصبحت هذه المدينة على هامش طريق السفن البخارية بسبب أهواء النهر ، وكان فلورنتينو اريثا قد دقق بهن لكونهن يحملن الطفل في قفص عصافير ضخم .

كن يسافرن بملابس حديثة كتلك التي ترتديها المسافرات في عابرات المحيط الضخمة ، ببطانات تحت التنانير الحريرية ، وياقات مخرمة وقبعات عريضة الحواف مزينة بزهور كرينولينا ، وكانت الشابتان تستبدلان زينتهما وملابسهما كلها عدة مرات في اليوم ، حتى بدا وكأنهما تحملان معهما جوهما الربيعي ، بينما المسافرون الآخرون يختنقون في الحر . وثلاثتهن كن أعسرات في استخدام المظلات ومراوح الريش . لم يستطع فلورنتينو

اريثا أن يحدد حتى نوع العلاقة التي تربطهن ، رغم كونهن دون شك من أسرة واحدة . لقد فكر أول الأمر بأن الكبرى هي أم الأخريين ، لكنه أدرك فيما بعد أنها ليست كبيرة في السن بما يكفي لتكون كذلك ، ثم إنها ترتدي ملابس حداد لا تشاطرها اياه الأخريان . ولم يتصور أن تكون احداهن قد تجرأت على فعل فعلتها فيما زميلتاها نائمتان في السريرين المجاورين ، والافتراض الوحيد هو أنها استغلت فرصة عارضة ، أو مدبرة ، بقيت أثناءها وحيدة في القمرة . وتحقق من أن اثنتين منهن تخرجان للاستمتاع بالبرودة حتى وقت متأخر فيما تبقى الثالثة لرعاية الطفل ، لكنهن في إحدى الليالي القائظة خرجن ثلاثتهن معا برفقة الطفل النائم في قفص الخيزران المغطى بظلة من نسيج شفاف .

وبرغم اختلاط كل هذه المؤشرات ، فقد تعجل فلورنتينو اريثا الى استبعاد أن تكون كبرى الثلاث هي منفذة الهجوم ، ثم برأ في الحال ساحة الصغرى أيضا ، التي كانت أجملهن وأجرأهن . فعل ذلك دون مبررات مقنعة ، ولأن مجرد رصده المتلهف للنساء الثلاث حثه على الاقتناع برغبته الداخلية في أن العاشقة العابرة هي أم الطفل الحبيس في القفص . ولقد فتنه هذا الافتراض الى الحد الذي جعله يفكر بها أكثر من تفكيره بفرمينا داثا ، دون أن يهتم بما كان يبدو واضحاً في أن تلك الأم حديثة الولادة كانت تعيش لابنها فحسب . لم يكن لها من العمر أكثر من خمس وعشرين سنة ، وكانت نحيلة ومذهبة ، ذات أجفان برتغالية تجعلها أكثر بعداً ، وكان لأي رجل أن يكتفي بفتات من حنانها الذي تغدقه على ابنها . فمنذ تناول طعام الفطور حتى ساعة النوم كانت تهتم بشؤونه في الصالة ، فيما زميلتاها الأخريان تلعبان الدمينو الصيني ، وحين توفق إلى تنويمه ،تعلق القفص من سقفه في أكثر الأماكن برودة على شرفة السفينة . لكنها لم تكن تتخلى عنه حتى بعد أن ينام ، وانما تهز القفص مترنمة بأغنيات العرائس ،فيما أفكارها

تطير مبتعدة عن مصاعب الرحلة . تشبث فلورينتينو اريثا بأنها ستكشف نفسها عاجلاً أم آجلاً ولو من خلال ايماءة بسيطة . وصار يراقب حتى تبدلات تنفسها من خلال ايقاع القلادة الدينية التي تعلقها فوق بلوزتها القطنية الرقيقة ، مدققاً فيها دون تستر من فوق الكتاب الذي يتظاهر بقراءته ، وارتكب الوقاحة المدروسة باستبدال مكانه في صالة الطعام ليجلس مقابلها . لكنه لم يحصل على أدنى مؤشر يدل على أنها هي حقاً من تملك النصف الآخر من سره . والشيء الوحيد الذي بقي له منها ، عندما نادتها زميلتها الصغرى ، اسمها : روسالبا .

في اليوم الثامن أبحرت السفينة بصعوبة بالغة عبر مضيق عكر محصور بين جرفين من صخور رخامية ، وبعد الغداء رست في بيرتوناريه ، حيث سينزل المسافرون الذين سيتابعون الرحلة نحو المناطق الداخلية من مقاطعة انتيوكيا ، وهي احدى أكثر المقاطعات تأثراً بالحرب الأهلية الجديدة . كان الميناء مؤلفاً من نصف دزينة من أكواخ السعف وحانة خشبية سقفها من التوتياء ، تحرسه عدة دوريات من الجنود الحفاة وسيئي التسليح ، اذ كانت لديهم معلومات عن خطة أعدها المتمردون للسطو على السفن . وفيما وراء البيوت ترتفع نحو السماء قمم مجموعة وعرة من الجبال عليها طريق ضيق له شكل حدوة الفرس منحوت على حافة الهاوية . لم ينم أحد ممن على ظهر المركب نوماً مطمئناً ، لكن الهجوم المنتظر لم يحدث أثناء الليل ، واستيقظ الميناء متحولاً إلى مهرجان أحدي ، حيث الهنود الذين يبيعون تمائم مصنوعة من عاج نباتي واكاسير للحب ، ووسائط للقوافل المتأهبة للانطلاق في صعود يستمر ستة أيام عبر غابات السحلبيات في سلسلة الجبال المركزية .

كان فلورينتينو اريثا قد سها وهو يتأمل عملية تفريغ السفينة على كواهل الزنوج ، رأى انزال صناديق الخزف الصيني ، وآلات البيانو التي تباع

لعازبات افيغادو ، ولم يدرك إلا متأخراً ان جماعة روسالبا هي بين المسافرين الذين سيبقون على البر . لقد رآهن يمتطين البهائم من جانب واحد ، منتعلات جزمات امازونية وحاملات مظلات ذات ألوان مدارية ، عندئذ خطا الخطوة التي لم يتجرأ عليها في الأيام الماضية : حيا روسالبا بيده مودعاً ، فردت عليه النساء الثلاث بطريقة واحدة ، وبألفة آلمت أحشاءه لجسارته المتأخرة . رآهن يقمن بالالتفاف حول الحانة ، تتبعهن البغال المحملة بالصناديق ، وعلب القبعات وقفص الطفل ، ثم رآهن بعد قليل يتسلقن حافة الجرف الجبلي وكأنهن صف من النمال البغلية ، واختفين من حياته . حينئذ أحس أنه وحيد في الدنيا ، وجاءته الضربة القاضية من ذكرى فيرمينا داثا ، التي بقيت كامنة خلال الأيام الأخيرة .

كان يعلم انها ستتزوج يوم السبت القادم ، في حفلة زفاف صاخبة ، وكونه أحبها ، وسيحبها إلى الأبد أكثر من أي كان ، لا يمنحه الحق حتى بالموت من أجلها . والحسد الذي كان يغرقه حتى ذلك الحين بالدموع ، أصبح سيد روحه . فأخذ يدعو الله أن ينزل صاعقة العدالة الالهية لتصعق فيرمينا داثا حين تهم بقسم يمين الحب والولاء لرجل لا يريدها زوجة له إلا لتكون حلية اجتماعية . وكان يستغرق في رؤيا العروس ، عروسه هو أو عروس لا أحد ، ملقاة فوق بلاط الكتدرائية فيما أزهار البرتقال تهطل كالثلج مبللة بندى الموت ، وتموج طرحتها الزبدي فوق المرمر الجنائزي الذي يضم أربعة عشر مطراناً مدفونين مقابل المذبح الكبير . ولكن ما ان ينتهي الانتقام ، حتى يندم لأفكاره الشريرة ، وعندها يرى فيرمينا وهي تنهض معافاة ، لسواه ولكن حية ، لأنه غير قادر على تصور الدنيا بدونها . لم يعد ينام ، واذا كان يلتقط بضع لقيمات أحيانا فانه يفعل ذلك لتوهمه بان فيرمينا داثاقد تكون معه على المائدة ، أو كي لا يمنحها شرف الصوم من أجلها . وكان يعزي نفسه في بعض الأحيان بالاقتناع انه لابد لفيرمينا داثا في نشوة

حفلة الزفاف ، أو في ليالي شهر العسل المحمومة ، من أن تعاني ولو لحظة ، لحظة واحدة على الأقل ، لحظة على أية حال ، حين ترفع الى وعيها شبح الخطيب المخدوع ، المهان ، المبصوق ، فتنهار سعادتها .

عشية الوصول الى ميناء كاراكولي ، وهو المحطة النهائية للرحلة ، أقام القبطان حفل الوداع التقليدي ، بمشاركة أوركسترا الات نفخية مؤلفة من طاقم السفينة ، وباطلاق ألعاب نارية من مقصورة القيادة . كان وزير بريطانيا العظمى قد اجتاز الأوديسة بصبر نموذجي ، متصيدا بألة تصوير الحيوانات التي لم يتيحوا له قتلها ببندقية الصيد ، ولم تكن تمر ليلة دون أن يظهر في صالة الطعام بملابس الايتكيت . لكنه خرج الى الحفلة النهائية بزي ماك تافيتش الاسكتلندي ، وعزف القُرَب بمرح ، وعلّم كل من رغب رقصاته الوطنية ، وقبل الفجر اضطروا لنقله محمولا الى قمرته . أما فلورينتينو اريثا الذي أضناه الألم ، فقد اتخذ ركنا منعزلا على سطح السفينة حيث لا تصله أخبار الحفلة ، وغطى نفسه بمعطف لوتاريو توغوت محاولا مقاومة قشعريرة عظامه . كان قد استيقظ في الخامسة صباحا ، كما يستيقظ المحكوم بالاعدام صباح يوم تنفيذ الحكم . ولم يكن قد فعل شيئا طوال يوم السبت سوى تخيل كل طقس من طقوس زفاف فيرمينا داثا لحظة بلحظة . وفيما بعد ، عند عودته الى البيت ، ادرك أنه كان قد أخطأ في التوقيت وأن كل شيء حدث بطريقة مختلفة عما تصوره ، وقد كان يتمتع بمزاج طيب جعله يضحك من أوهامه .

لكنه كان على أي حال يوم سبت عاطفي انتهى بنوبة جديدة من الحمى ، عندما هُيِّء له بأنها اللحظة التي يحاول فيها العريسان الهرب من حفلة الزفاف ليستسلما الى لذائذ الليلة الأولى : وقد راه أحدهم وهو يرتعش من الحمى وأنذر القبطان بذلك ، فغادر هذا الحفلة مع طبيب السفينة خشية أن تكون اصابة بالكوليرا ، وبعثه الطبيب احتياطا الى قمرة الحجر الصحي بعد اعطائه جرعة لا بأس بها من البرمور . وعندما بانت لهم أنوار كاراكولي

في اليوم التالي ، كانت الحمى قد تراجعت وكان يتمتع بمعنويات عالية ، لأنه في خمود المسكنات قرر فجأة ودون أية اجراءات أخرى بأنه سيبعث بمستقبل التلغراف الباهر الى الجحيم وسيرجع على السفينة نفسها الى شارعه القديم ، شارع لاس فينتاناس .

ولم يجد صعوبة في حملهم على اعادته معهم مقابل القمرة التي تنازل عنها لممثل الملكة فكتوريا . رغم أن القبطان حاول ثنيه عن عزمه أيضا بحجج مفادها أن التلغراف هو علم المستقبل . وقال له إن الأمر كذلك لدرجة أنهم يعملون لاختراع جهاز خاص لتركيبه في السفن . لكنه فند كل حجة ، وانتهى القبطان الى القبول باعادته معه ، ليس كرد دين القمرة ، وانما لأنه كان يعرف حقيقة علاقته بشركة الكاريبي للملاحة النهرية .

تمت رحلة النزول في أقل من ستة أيام ، أحس فلورينتينو اريثا بعدها أنه في بيته ثانية منذ دخولهم فجرا في بحيرة لاس ميرثيديس ، ورؤيته أضواء زوارق الصيد المتناثرة وهي تتلوى مع تيار السفينة . كان الوقت مايزال ليلا عندما رسوا في خليج نينيوبرديدو ، وهو آخر مرفأ للسفن البخارية النهرية ، على بعد تسع فراسخ من البحر ، قبل أن يجرفوا قاع النهر ويعيدوا وضع الممر الاسباني القديم موضع الاستخدام . وكان على المسافرين الانتظار حتى الساعة السادسة صباحا ليركبوا مجموعة من زوارق الأجرة الصغيرة التي تحملهم الى هدفهم النهائي . لكن فلورينتينو اريثا كان متشوقا مما دفعه للذهاب قبل ذلك بكثير في مركب البريد ، الذي تعرف عليه موظفوه كواحد من جماعتهم . وقبل أن يغادر السفينة سمح لنفسه بالانقياد وراء اغراء حركة رمزية : ألقى بصرة السفر الى الماء ، ولاحقها ببصره ما بين زوارق الصيادين اللامرئية ، الى أن خرجت من البحيرة وضاعت في المحيط . كان متأكدا أنه لن يحتاجها بقية حياته مطلقا ، لأنه لن يغادر مدينة فيرمينا داثا الى الأبد .

كان الخليج حوض ماء راكد عند الفجر . وفوق الضباب الطافي رأى فلورينتينو اريثا قبة الكتدرائية المذهبة بفعل الأنوار الأولى ، ورأى بيوت الحمام على السطوح ، ومستدلا بها حدد موقع شرفة قصر المركيز دي كاسالدويرو ، حيث افترض أن امرأة محنته مَازالت تنام مستندة على ذراع الزوج المشبع . وقد مزق هذا الافتراض قلبه ، لكنه لم يفعل شيئا لقهره ، بل على العكس تماما : كان يستمتع بالألم . وحين بدأت الشمس تبعث دفأها ، كان مركب البريد يشق طريقه وسط متاهة الزوارق الشراعية الراسية ، حيث روائح السوق العام التي لا حصر لها ، تختلط بعفونة الأعماق لتخرج بمزيج واحد من النتانة . كانت السفينة القادمة من ريوهاتشا قد وصلت لتوها ، وجماعة الحمالين الغاطسين في الماء حتى خصورهم يلتقطون المسافرين من جنب السفينة ليحملوهم الى الشاطئ . وكان فلورينتينو اريثا هو أول من قفز من مركب البريد الى اليابسة ، ولم يعد يشعر عندها بنتانة الخليج وانما برائحة فيرمينا داثا الشخصية تفوح في جو المدينة . كل شيء كان يعبق برائحتها .

لم يعد الى مكتب التلغراف . وبدا أن همه الوحيد هو كتيبات الحب وأجزاء المكتبة الشعبية التي مازالت أمه تشتريها له ، والتي كان يقرؤها ويعيد قراءتها وهو منبطح في أرجوحة النوم الى أن يحفظها في ذاكرته . ولم يسأل عن الكمان مجرد سؤال . وأعاد اتصالاته مع أصدقائه المقربين ، وكان يلعب معهم البليارد أحيانا ويتبادل واياهم الحديث في مقاهي الرصيف تحت قناطر ساحة الكتدرائية ، لكنه لم يعد للذهاب الى حفلات الرقص أيام السبت : لم يكن قادرا على تصور حفلات الرقص بدونها .

في صباح يوم عودته من الرحلة التي لم تكتمل ، علم أن فيرمينا داثا ذهبت لقضاء شهر العسل في أوروبا ، فرأى قلبه المنفطر بأنها ستبقى لتعيش هناك ، ان لم يكن للأبد ، فلسنوات طويلة . ومنحه هذا اليقين الآمال الأولى

بالنسيان . أخذ يفكر بروسالبا التي أصبحت ذكراها تتقد أكثر فأكثر كلما خمدت الذكريات الأخرى . وفي هذه الفترة كان قد ترك شاربه ذا الطرفين المدببين والمثبتين ، والذي لن يحلقه فيما تبقى من حياته ، وتغيرت طريقته في الحياة ، وادخلته فكرة استبدال الحب في دروب غير متوقعة ، أخذت رائحة فيرمينا داثا تصبح أقل حضورا وزخما الى أن بقيت آخر الأمر في رائحة الياسمين الأبيض فقط .

كان يمضي مذهولا لا يعرف كيف سيتابع حياته ، حين لجأت أرملة ناثاريث الى بيتهم في احدى ليالي الحرب ، لأن قذيفة مدفع أصابت بيتها ، أثناء حصار الجنرال المتمرد ريكاردو غايتان اوربيسو . وكانت ترانسيتو اريثا هي التي التقطت الفرصة بسرعة ، فبعثت الارملة لتنام في حجرة الابن ، بحجة انه لا يوجد مجال في حجرتها ، لكنها في الحقيقة كانت تأمل بأن يشفيه حب آخر من الحب الذي ما عاد يتركه يعيش . لم يعد فلورينتينو اريثا لممارسة الحب منذ اغتصبته روسالبا في قمرة السفينة ، وبدا له طبيعياً ، في ليلة طوارئ ، ان تنام أرملة ناثاريث في السرير وينام هو في أرجوحة النوم . أما هي فكانت قد حسمت الأمر بدلاً منه . وفيما هي جالسة على حافة السرير حيث كان فلورينتينواريثا مستلقياً دون أن يعرف ما عليه عمله ، بدأت تحدثه عن حزنها الذي لا عزاء له على زوجها المتوفى منذ ثلاث سنوات ، وأثناء ذلك كانت تنضو عن جسدها وترمي في الهواء ملابس الحداد ، حتى لم يبق عليها ولا خاتم الزواج . وخلعت بلوزة التفتا المزينة بتطريز مطعم بالخرز ، وألقت بها عبر الغرفة إلى الكرسي في الركن ، وألقت الصديري من فوق كتفها إلى الطرف الآخر من السرير ، وخلعت بسحبة واحدة التنورة السابغة مع التنورة الداخلية ذات الكشكش ، ومشد الساتان ذا الرباط ، وجرابات الحداد الحريرية ، ونثرت كل ذلك على الأرض ، فأضحت الغرفة وكأنها مفروشة بآخر بقايا الحداد . فعلت ذلك بابتهاج ،

وبوقفات محسوبة باتقان ، حتى بدت قذائف مدفعية القوات المحاصرة ، التي كانت تهز ركائز المدينة ، وكأنها احتفاء بكل حركة من حركاتها . وحاول فلورينتينو اريثا مساعدتها على حلّ مشبك المشد ، لكنها سبقته إلى ذلك بحركة بارعة ، لأنها تعلمت خلال خمس سنوات من الولاء الزوجي أن تكتفي بنفسها في جميع اجراءات الحب ، بما في ذلك ديباجاته ، دون مساعدة أحد . وأخيراً نزعت سروالها الداخلي المخرم ، جاعلة إياه ينزلق من ساقيها بحركة سريعة كحركات السباحة ، وبقيت في عريها المتقد .

كان عمرها ثمان وعشرين سنة وقد أنجبت ثلاث مرات ، لكن عريها مازال يحتفظ بدوار العزباء . ولم يستطع فلورينتينو اريثا أن يتصور أبداً كيف أمكن لملابس التوبة أن تواري اندفاع تلك المهرة الجامحة التي عرته وهي مختنقة بحماها ، وهو ما لم تستطع عمله مع زوجها حتى لا يظن بها الظنون ، وحاولت أن تروي ظمأ صوم حدادها الصارم دفعة واحدة ، ببلاهة وبراءة خمس سنوات من الولاء الزوجي . فقبل هذه الليلة ، ومنذ ساعة الرحمة التي ولدتها فيها أمها ، لم تنم ولو مجرد نوم في سرير واحد مع أي رجل سوى زوجها المتوفى .

لم تتح لتأنيب الضمير بأن ينغص عليها . ففيما كرات اللهب تدوي فوق سطوح البيوت ، استمرت تلهج حتى الصباح بفضائل زوجها ، دون أن تلومه على أية خيانة سوى موته من دونها ، وخلصت إلى اليقين بأنه لم يكن يوماً لها كما كان حينئذ ، في صندوق خشبي مسمر باثنى عشر مسماراً طول كل منها ثلاث بوصات ، وتحت ثلاثة أمتار من البيت .

قالت :

ـ انني سعيدة . فقد علمت الآن علم اليقين أين كان يمضي عند خروجه من التراب .

لقد نزعت الحداد في تلك الليلة دفعة واحدة ، دون المرور بمرحلة

الاسترخاء في البلوزات ذات الأزهار الرمادية ، وامتلأت حياتها بأغنيات الحب والملابس المثيرة المزينة برسوم ببغاوات وفراشات ملونة ، وبدأت توزع جسدها على كل من يشاء طلبه . وبعد هزيمة قوات الجنرال غايتان اوبيسو ، اثر حصار دام ثلاثة وسبعين يوماً ، أعادت بناء البيت المثقوب بقذيفة مدفع ، وجعلت له مصطبة بديعة تطل على البحر فوق حائل للامواج حيث يصطدم غضب الأمواج في الأيام العاصفة . وكان هذا هو عش حبها ، كما كانت تدعوه دون تهكم ، وحيث كانت تستقبل من يناسب مزاجها من الرجال ، حين تشاء وكيفما تشاء ، دون أن تتقاضى قرشاً واحداً من أي منهم ، لأنها كانت ترى أن الرجال هم الذين يسدون لها المعروف . وفي حالات نادرة قبلت بعض الهدايا ، شريطة ألا تكون من الذهب . وكانت تدبر أمورها بمهارة لم يستطع أحد معها اثبات حقيقة سلوكها الشائن بأدلة قاطعة . وفي مرة واحدة وصلت إلى حافة الفضيحة العلنية ، عندما راجت شائعة تقول أن الأسقف دانتي دي لونا لم يمت خطأ بحادثة أكل طبق الفطر السام ، وانما أكله وهو عارف ، لأنها هددته بذبح نفسها إن هو أصر على محاصرتها بنواياه الدنسة . لم يسألها أحد إن كان ذلك صحيحاً ، ولم تتحدث هي عنه ، ولم يبدل أي شيء من حياتها . وكانت تقول منفجرة بالضحك بأنها المرأة الوحيدة الحرة في المقاطعة .

لم تتخلف أرملة ناثاريث يوماً عن مواعيد فلورينتينو اريثا العرضية ، ولا حتى في أكثر أوقاتها انشغالاً ، وكانت تقابله دائماً دون الادعاء بأنها تحبه ودون مطالبته بأن يحبها ، ولكن على أمل العثور على شيء يشبه الحب ، إنما دون مشاكل الحب . وفي بعض الأحيان كان هو الذي يذهب إلى بيتها ، وعندئذ كانا يفضلان البقاء على المصطبة المطلة على البحر للابتلال بزبد ملح البارود ، وتأمل شروق الدنيا كلها في الأفق . وقد وضع كل جهده لتعليمها أساليب التهيج التي كان قد رأى آخرين يمارسونها من خلال ثقب

فندق العابرين ، وكذلك المعادلات النظرية التي كان يدعو لها لوتاريو توغوت في ليالي مرحهما . حدثها للموافقة على أن يريا بعضهما أثناء ممارستهما الحب ، على استبدال وضعية المبشر المعروفة بوضعية الدراجة البحرية ، أو الفروج المشوي ، أو الملاك المعلق ، وكادا أن يوديا بحياتيهما عندما انقطعت بهما حبال تعليق أرجوحة النوم وهما يحاولان ابتكار وضعية جديدة في الأرجوحة . ولكنها كانت دروساً عقيمة . فالحقيقة انها كانت طالبة جسورة ، لكنها تفتقر إلى أدنى موهبة في الزنى الموجه . لم تفهم أبداً مفاتن الصفاء في السرير . لم تكن لها لحظة إلهام ، بل كانت تهيجاتها الجنسية جلدية خارجية تأتي في غير أوانها : يا له من جماع كئيب . وقد عاش فلورينتينو اريثا زمناً طويلاً وهو مخدوع بأنه الوحيد ، وكانت تشارك في بثه هذا الاعتقاد ، إلى أن جعلها سوء الطالع تتكلم وهي نائمة . وشيئاً فشيئاً ، أخذ يستجمع وهو يسمعها أثناء نومها ، أجزاء تصريح ابحار أحلامها ، وتوغل ما بين جزر حياتها السرية المتعددة . وهكذا علم أنها لا تسعى إلى الزواج منه ، ولكنها تشعر بأنها مربوطة إلى حياته برابطة العرفان بالجميل الكبير لأنه هو الذي أفسدها . وقد قالت ذلك كثيراً :

ـ إنني أعبدك لأنك جعلتني قحبة .

لم تكن تنقصها المبررات لذلك . فقد جردها فلورينتينو اريثا من عذرية زواج عادي ، هي أشد وبالاً من العذرية الخَلْقيّة ومن زهد الترمل . وعلمها أنه لا شيء مما يمارس في السرير هو لا أخلاقي ما دام يساهم في استمرار الحب . وعلمها شيئاً آخر سيكون منذ ذلك الحين هو مبرر وجودها : أقنعها أن الإنسان يأتي الى الحياة بعدد محدد من الضروب ، وأن تلك التي لا تستنفد ، لسبب ذاتي أو خارجي ، ارادي أو جبري ، تضيع الى الأبد . وكانت فضيلتها هي فهم ذلك وتطبيقه بحذافيره . ومع ذلك ، فإن فلورينتينو اريثا ، الذي يظن بأنه يعرفها أكثر من أي كان ، لم يستطع أن يفهم كيف

تكون مرغوبة إلى هذا الحد ، امرأة ذات أساليب شديدة الصبيانية ، اضافة إلى أنها لا تتوقف عن الحديث في السرير عن كآبتها على زوجها الميت . والتفسير الوحيد الذي خطر له ، ولم يستطع أحد نقضه ، هو أن أرملة ناثاريث كانت تعوض برقتها الفائضة ما ينقصها من الفنون الميدانية . أصبحا يلتقيان أقل فيما هي توسع من نطاق ممتلكاتها ، ويتفحص هو ممتلكاته عساه يجد مهدئاً لآلامه القديمة في قلوب مبددة أخرى ، ثم نسيا بعضهما في نهاية الأمر دون آلام .

كان ذلك هو أول حب سريري لفلورينتينو اريثا . ولكنه بدلاً من أن يقيم معها اتحاداً مستقراً ، كما كانت تحلم أمه ، استغله كلاهما للانطلاق في الحياة . فقد طور فلورينتينو اريثا أساليب بدت بعيدة عن التصديق ، بالنسبة لرجل صموت وضامر مثله ، متسربل بملابس كملابس شبح من زمن آخر . ومع ذلك ، كانت هناك نقطتان لصالحه . احداهما هي عينه الصائبة في التعرف فوراً على المرأة التي تنتظره ، حتى ولو كانت وسط حشد من الناس ، ولكنه حتى في هذه الحالة كان يغازلها بتحفظ ، لأنه كان يشعر أنه لا شيء يسبب العار والذل أكثر من الصد . والنقطة الثانية هي أنهن كنّ يميزنه فوراً كمتوحد بحاجة إلى الحب ، وكمعوز من الشارع بذلّ كلب مضروب يقدم خدماته دون شروط ، وبلا أية مطالب ، ودون انتظار شيء آخر منه سوى راحة الضمير في اسداء المعروف إليه . وكان هذان هما سلاحاه الوحيدان ، وبهما خاض معارك تاريخية ، لكن في سرية مطلقة ، وسجلها بصرامة مدون عقود في دفتر مُشفّر ؛ من النوع الذي يعرفه الكثيرون بعنوان ينم عن كل شيء : هن . وأول سجل في دفتره كان سجل الأرملة ناثاريث . وبعد خمسين سنة من ذلك ، وعندما تحررت فيرمينا داثا من حكمها القدسي ، كان لديه خمسة وعشرون دفتراً تضم ستمائة وعشرين سجلاً لغراميات مستمرة ، عدا المغامرات العابرة التي لا تحصى والتي لا تستحق ولو مجرد ملاحظة احسان صغيرة .

وبعد ستة شهور من الغراميات الخارقة للمألوف مع أرملة ناثاريث ، اقنع فلورينتينو اريثا نفسه بأنه قد اجتاز عذاب فيرمينا داثا . ولم يعتقد بذلك فحسب بل إنه طرحه عدة مرات مع ترانسيتو اريثا خلال السنتين اللتين دامتهما رحلة الزواج ، وتابع الايمان به بشعور من التحرر اللا محدود ، إلى أن رآها فجأة ودون إيحاء سابق من قلبه ، في يوم أحد من أيام نجمه المنحوس ، وهي خارجة من القداس ممسكة بذراع زوجها ومحاطة بفضول ورياء وسطها الجديد . فالسيدات النبيلات اللواتي كن يحتقرنها أول الأمر ويسخرن من كونها دخيلة بلا لقب ، رحن يتهافتن لتشعر بأنها واحدة منهن ، فيما تسكرهن هي بسحرها . لقد تسنمت وضعها كزوجة دنيوية بجدارة جعلت فلورينتينو اريثا يحتاج للحظة من التفكير للتعرف اليها . كانت امرأة أخرى : رصانة الشخصية الكبيرة ، الحذاء العالي ، القبعة الرقيقة المزينة بريشة طائر شرقي ملونة . كل ما فيها كان مختلفاً وبسيطاً ، كما لو كان فيها منذ نشأتها . وجدها أكثر جمالاً وشباباً من أي وقت مضى ، ولكنها أبعد من أن تكون له أكثر من أي وقت مضى ، ولم يدرك سبب ذلك إلى أن رأى انتفاخ بطنها تحت الفستان الحريري الفضفاض : لقد كانت حاملاً في شهرها السادس ، لكن أكثر ما أثر فيه هو أنها تشكل مع زوجها ثنائياً محترماً ، وانهما يتصرفان بالدنيا بسيولة تجعلهما يبدوان وكأنهما يطفوان فوق صخور الواقع . لم يشعر فلورينتينو اريثا بالحسد ولا الغضب ، وانما باحتقار شديد لنفسه . أحس بأنه بائس ، وقبيح ، ووضيع ، وأنه ليس غير جدير بها فقط ، بل وبأية امرأة أخرى فوق وجه الأرض .

لقد عادت اذن . عادت دون أي سبب لتندم على الانقلاب الذي أحدثته في حياته . ولكن على العكس : كان جزعه يتناقص ، خصوصاً بعد أن اجتاز السنوات الأولى . أما بالنسبة لها فالأمر أكثر من ذلك ، هي التي وصلت إلى ليلة الزفاف بغشاوة براءة ، كانت قد بدأت تفقدها خلال الرحلة في مقاطعة

ابنة الخال هيلديبراندا . ففي فاييدوبات فهمت اخيراً لماذا يطوف الديك حول الدجاجات ، وشاهدت طقوس الحمير البهيمية ، ورأت ولادة العجل ، وسمعت بنات الخال يتحدثن بطبيعية عن أزواج من العائلة مازالوا يمارسون الحب ، وعن سبب وكيف توقف آخرون عن ممارسته رغم استمرارهم في العيش معاً . وكان حينئذ أن بدأت ممارسة الحب منفردة ، يراودها احساس غريب بأنها تكتشف شيئاً كانت غرائزها تعرفه منذ الأزل ، فعلت ذلك في السرير أولاً ، وهي تكتم انفاسها كي لا تفضح نفسها في حجرة النوم التي تتقاسمها مع نصف دزينة من بنات الخؤولة ، ثم بعد ذلك بيديها الاثنتين وهي منبطحة على أرضية الحمام دون هم ، بينما شعرها مفلت وهي تدخن سجائرها الأولى . لقد كانت تفعل ذلك دائماً مع بعض شكوك الضمير التي لم تتجاوزها إلا بعد زواجها ، وكانت تفعله بسرية مطلقة ، بينما بنات خؤولتها يتفاخرن فيما بينهن ليس في عدد المرات يومياً فحسب ، بل وبشكل وحجم أعضاءهن أيضاً . ومع ذلك ، ورغم سحر تلك الطقوس الأولية ، فقد استمرت على اعتقادها بأن فقدان العذرية هو تضحية دموية .

حتى أن حفلة زفافها ، وهي واحدة من أضخم حفلات أواخر القرن الماضي ، جرت بالنسبة لها على أعتاب الرعب . قد أثر فيها كرب شهر العسل أكثر بكثير من الفضيحة الاجتماعية لزواجها من وجيه لا ثاني له في تلك السنوات . فمنذ الاعلان عن الزفاف في القداس الكبير في الكتدرائية ، عادت فيرمينا داثا تتلقى رسائل مغفلة التوقيع ، بعضها يتوعدها بالموت ، لكنها لم تكن لتشعر بها ، حيث كان كل الخوف الذي بداخلها مشغول بعملية الاغتصاب الوشيكة . لقد كانت تلك هي الطريقة الصحيحة ـ على الرغم من أنها لم تفعل ذلك عن وعي ـ في معاملة الرسائل المغفلة من أبناء طبقة عودتها سخرية التاريخ على احناء رأسها أمام الوقائع الناجزة . وهكذا بدأ تحول جميع من كانوا ضدها للوقوف إلى جانبها كلما أصبح الزفاف أمراً لا

رجعة فيه . وقد لاحظت هي ذلك في التبدل التدريجي لمواكب النساء الزرق المتوددات ، اللواتي انزلهن التهاب المفاصل والحقد من مقامهن ، واللواتي اقتنعت يوماً بعدم جدوى مكائدهن ، فظهرن دون سابق انذار في حديقة البشارة ، وكأنهن في بيتهن ، محملات بوصفات للمطبخ وبهدايا العرافة . كانت ترانسيتو اريثا تعرف ذلك العالم ، رغم أنها عانت منه بنفسها هذه المرة فقط ، وكانت تعلم أن زبوناتها سيأتينها في الأيام السابقة للاحتفالات الكبرى ليطلبن منها اخراج جرارها المدفونة واعارتهن مجوهراتهن المرهونة ، لمدة أربع وعشرين ساعة فقط مقابل دفع فائدة اضافية . ولم يحدث منذ زمن بعيد كما حدث هذه المرة ، اذ فرغت الجرار كيما تخرج السيدات ذوات الألقاب الطويلة من هياكلهن المظلمة ويظهرن مشعات ، بمجوهراتهن الخاصة المستعارة ، في حفلة زفاف لن يتاح لهن رؤية حفلة بعظمتها في ما تبقى من القرن ، والتي كان مجدها الأخير هوان عرابها كان الدكتور رافائيل نونيث ، رئيس الجمهورية لثلاث مرات ، الفيلسوف والشاعر وواضع كلمات النشيد الوطني ، كما جاء في بعض المعاجم الحديثة حينئذ . وصلت فيرمينا داثا إلى المذبح الكبير في الكتدرائية ممسكة بذراع أبيها ، الذي منحته بدلة الاتيكيت مظهراً خاطئاً من الوقار لمدة يوم واحد . وتزوجت إلى الأبد مقابل مذبح الكتدرائية الكبير في صلاة تكليل شارك فيها ثلاثة اساقفة في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم جمعة ترنييداد المقدسة المجيد ، ودون أي خاطر من شفقة نحو فلورينتينواريثا ، الذي كان يعاني حينها من الحمى ، ويميت نفسه من أجلها ، في مركب لن يحمله إلى النسيان . وقد احتفظت أثناء المراسم الدينية ، ثم أثناء الحفلة فيما بعد ، بابتسامة بدت وكأنها مثبتة بالاسبيداج ، لمحة بلا روح فسرها بعضهم بأنها ابتسامة الفوز الساخرة ، لكنها لم تكن في الحقيقة سوى وسيلة بائسة لمداراة خوفها كعذراء تزوجت لتوها .

ولحسن الحظ ان بعض المصادفات ، اضافة إلى تفهم الزوج ، حلت مسألة لياليها الثلاث الأولى دون ألم . لقد كان أمراً صادراً عن العناية الالهية ، ان سفينة الكومباني جنرال ترانساتلانتيك ببرنامج رحلاتها المتقلب رضوخاً لطقس الكاريبي السيء ، أعلنت قبل ثلاثة أيام من الرحلة عن تقديم موعد الانطلاق اربعاً وعشرين ساعة ، أي أنها لن تبحر إلى روشيل في اليوم التالي للزفاف ، وانما في ليلة الزفاف نفسها . لم يصدق أحد أن ذلك التغيير ليس مفاجأة أخرى من مفاجآت هذا العرس السارة ، وقد انتهت الحفلة بعد منتصف الليل على سطح عابرة المحيطات المضاءة ، بمرافقة فرقة اوركسترا من فيينا كانت تدشن في تلك الرحلة أحدث فالسات جوهان ستراوس . وهكذا جرى حمل العرابين المبليين بالشمبانيا قسراً إلى اليابسة بمساعدة زوجاتهم المكدرات ، حين بدأوا يسألون الندُلُ إن كانت هناك قمرات غير محجوزة لمواصلة الحفلة حتى باريس . وقد رأى آخر الذين نزلوا لورينث داثا يجلس على الأرض في عرض الطريق مقابل الخمارات ببذلة الاتيكيت المتسخة ، وهو ينتحب بصرخات مولولة ، كما يبكي العرب موتاهم ، مستريحاً فوق بركة ماء آسن ربما هي بركة دموع .

لا في الليلة الأولى ذات البحر الهائج ، ولا في الليلة التالية ذات الابحار الهادئ ، ولا في أية ليلة أخرى من ليالي حياتها الزوجية الطويلة جداً جرت أعمال بربرية من تلك التي كانت فيرمينا داثا تخافها . فالليلة الأولى ، وبرغم ضخامة السفينة وفخامة القمرات ، كانت إعادة رهيبة للرحلة في سفينة ريوهاتشا ، وكان زوجها طبيباً خدوماً لم ينم لحظة واحدة وأمضى الليل في مواساتها ، وهو الشيء الوحيد الذي يستطيع عمله طبيب بارز لعلاج دوار البحر . ولكن العاصفة هدأت في اليوم الثالث ، بعد الخروج من ميناء غوايرا ، وحتى ذلك الحين كانا قد أمضيا معاً وقتاً طويلاً وتحدثا كثيراً حتى أصبحا يشعران بانهما صديقان قديمان . وفي الليلة الرابعة ، عندما استعاد

كل منهما عاداته المألوفة ، فوجئ الدكتور اوربينو بأن زوجته الشابة لا تصلي قبل النوم . وكانت صريحة معه : ان نفاق راهبات المدرسة قد أثار فيها عداء للصلوات ، لكن إيمانها كان راسخاً ، وقد تعلمت الحفاظ عليه بصمت . قالت : «أفضل التفاهم مع الرب مباشرة» . وتفهم هو مبرراتها ، ومنذ ذلك الحين مارس كل منهما الدين نفسه على طريقته . لقد كانت فترة خطوبتهما قصيرة ، لكنها خارجة عن مألوف تلك الحقبة كثيراً ، فالدكتور اوربينو كان يزورها في بيتها ، دون رقابة ، مساء كل يوم . ما كانت لتسمح له بأن يمس طرفاً من أطراف أصابعها قبل المباركة الأسقفية ، لكنه لم يحاول ذلك أيضاً . وفي الليلة الأولى من هدوء البحر ، وفيما هما بملابسهما في السرير ، بدأ أولى مداعباته ، وقد فعل ذلك بحذر شديد ، حتى بدا لها أنه من الطبيعي أن ترتدي قميص نومها . مضت لاستبدال ملابسها في الحمام ، ولكنها أطفأت أنوار القمرة قبل ذلك ، وعندما خرجت بقميص نومها دست خرقاً في شقق الباب ، لتعود إلى السرير في ظلام دامس . وفيما هي تفعل ذلك ، قالت بمزاج رائق :

ـ ماذا تريد يا دكتور . انها المرة الأولى التي أنام فيها مع رجل غريب .

أحس بها الدكتور اوربينو وهي تنزلق إلى جانبه مثل حيوان صغير مضطرب ، محاولة البقاء بعيداً عنه قدر المستطاع في سرير بحري حيث من الصعب وجود اثنين معاً دون أن يمسا بعضهما . امسك يدها ، الباردة والمتشنجة من الرعب ، وشبك الأصابع ، وبدأ يروي لها بصوت هامس ذكرياته عن رحلات أخرى في البحر . كانت متوترة من جديد ، لأنها عندما رجعت إلى السرير انتبهت إلى أنه قد تعرى تماماً أثناء وجودها في الحمام ، وهذا أحيا خوفها من الخطوة التالية . لكن الخطوة التالية تأخرت عدة ساعات ، فقد تابع الدكتور اوربينو الحديث بتمهل شديد ، فيما هو آخذ

بنيل ثقة جسدها ميليمتراً بعد ميليمتر . حدثها عن باريس ، عن الحب في باريس ، عن عشاق باريس الذين يتبادلون القبلات في الشارع ، وفي الامنيبوس ، وعلى مقاهي الأرصفة البديعة المفتوحة على لفحات النار وعلى اوكورديونات الصيف الخافتة ، ويمارسون الحب وقوفاً على ضفاف السين دون أن يزعجهم أحد . وفيما هو يتحدث في العتمة ، داعب انحناءة عنقها برؤوس أصابعه ، وداعب زغب ذراعيها الحريري ، وبطنها المراوغ ، وعندما أحس أن التوتر قد تراجع قام بمحاولته الأولى لرفع قميص نومها ، لكنها أوقفته بحركة تقليدية من حركاتها . وقالت : «أستطيع عمل ذلك وحدي» . نزعته عنها فعلاً ، ثم بقيت ساكنة ، بحيث كان بإمكان الدكتور اوربينو أن يعتقد بأنها ليست هناك ، لولا بريق جسدها في الظلام .

عاد بعد هنيهة للامساك بيدها ، فأحسها حينئذ دافئة ومتحررة ، لكنها ماتزال رطبة بندى طازج . بقيا لحظة أخرى صامتين وساكنين ، وهو يتحين الفرصة للخطوة التالية ، وهي تنتظر تلك الخطوة دون أن تدري من أين ستأتيها ، فيما الظلام يتسع مع ازدياد حدة تنفسها . أفلتها فجأة وقام بقفزة في الفراغ : بلل طرف اصبعه الوسطى بلسانه ولمس لمساً خفيفاً حلمة نهدها الغافل ، فأحست بشحنة موت ، كما لو مس فيها عصباً حياً . وفرحت لكونها في الظلام حتى لا يرى تورد وجنتيها الحارق الذي هزها حتى أعماق جمجمتها . وقال لها بهدوء : «اهدئي . ولا تنسي أنني أعرفهما .» أحس بها تبتسم ، وكان صوتها عذباً وجديداً حين قالت في العتمة :

ـ أذكر ذلك جيداً ، وحتى الآن لم يبارحني الغيظ .

عرف حينئذ بأنهما قد اجتازا رأس الرجاء الصالح ، فعاد يمسك بيدها الكبيرة اللدنة ، وغمرها بقبلات يتيمة ، بدأ بمشط اليد الغليظ ، فالأصابع الطويلة المتبصرة ، والأظافر الشفافة ، ثم خطوط حظها المتشابكة في الكف المتعرق . ولم تعرف كيف وصلت يدها إلى صدره ، واصطدمت بشيء لم

تستطع تحديده . فقال لها : «إنها تعويذة» . داعبت شعر صدره ، ثم أمسكت أجمة الشعر كلها بأصابعها الخمس لتنتزعها من جذورها . «بقوة أكبر» ، قال لها . حاولت ، إلى الحد الذي عرفت أنها لا توذيه ، ثم كانت يدها هي التي بحثت عن يده التائهة في الظلام . لكنه لم يمكنها من شبك أصابعها بأصابعه وإنما أمسكها من معصمها وقاد يدها على جسده بقوة لا مرئية ولكنها متقنة التوجيه ، إلى أن أحست بلفحة ملتهبة من حيوان متقد ، بلا شكل مادي محدد ، لكنه متلهف ومنتصب ، وعلى العكس مما تصوره ، بل وعلى العكس مما كانت هي نفسها ستتصوره ، لم تسحب يدها ، ولم تتركها ساكنة حيث وضعها ، وانما سلمت نفسها جسداً وروحاً للعذراء المقدسة ، وضغطت أسنانها خشية أن تضحك من جنونها ، وبدأت تتعرف باللمس على عدوها المشبوب ، متعرفة على حجمه ، وقوة رأسه ، وامتداد أجنحته ، مرتعبة من تصميمه لكنها مشفقة على عزلته ، وممسكة به بفضول متقص بشكل لو أن أحداً أقل خبرة من زوجها لظن أنها مداعبات . استعان بآخر قواه لمقاومة دوار هذه المبارزة القاتلة ، إلى أن أفلتته بظرافة طفولية ، وكأنها تلقي به إلى الزبالة ، وقالت :

ـ لم أفهم أبداً كيف هو هذا الجهاز .

عندئذ شرح لها كل شيء بجدية وبأسلوبه كأستاذ ، فيما هو يقود يدها على المواضع التي يذكرها ، وهي تنقاد له بطاعة تلميذة مثالية . ولَمح في لحظة مواتية إلى ان كل ذلك سيكون أسهل لو أن الضوء منار ، ولكنها أوقفت ذراعه قائلة : «بيدي أرى أفضل» . الحقيقة أنها كانت تريد اشعال النور ، لكنها تريد عمل ذلك بنفسها دون أن يأمرها أحد ، وهذا ما فعلته . عندئذ رآها في وضع جنيني ، مغطاة بالشرشف ، تحت الضوء المفاجئ . لكنه رآها وهي تعود لتمسك بحيوان الفضول دون تكلف ، وتقلبه ظهراً وباطناً ، وتتفحصه باهتمام أخذ يبدو اهتماماً غير علمي ، وقالت مستنتجة :

«يا لقباحته ، إنه أقبح منظراً مما للنساء» . كان متفقاً معها في الرأي ، وأشار إلى نقائص أخرى أكثر أهمية من القبح . قال : «إنه كمثل الابن الأكبر ، يقضي المرء حياته وهو يعمل من أجله مضحياً بكل شيء في سبيله ، وعندما تحين ساعة الجد يتصرف كما يحلو له» . تابعت تفحصه ، والسؤال عما يفيد هذا ، وما فائدة ذاك ، وعندما رأت أنها حصلت على المعلومات الكافية رازته بيديها الاثنتين ، لتتأكد من أن وزنه كذلك لا يستحق الذكر ، ثم أفلتته باعوجاجه ازدراء ، وقالت :

ـ وأرى كذلك أن فيه أشياء كثيرة لا حاجة لها .

توقف حائراً . فالفكرة الأساسية في موضوع تخرجه هي هذه :

استحسان تبسيط البشري . اذ كان جسم الانسان يبدو له طرازاً قديماً ، ذا وظائف كثيرة مكرورة أو لا فائدة منها ، كانت لازمة في عصور أخرى للجنس البشري ، ولكن ليس لعصرنا . أجل : يمكن أن يكون أبسط وأقل تعرضاً للعطب أيضاً . واختتم قائلاً : «هذا شيء لا يستطيعه إلا الله بالطبع ، ولكن لابأس من اقراره بشكل نظري» . ضحكت سعيدة ، بطريقة طبيعية جداً ، فانتهز الفرصة لاحتضانها وقبلها القبلة الأولى من فمها . فردت عليه بقبلة مماثلة ، وتابع قبلاته الخفيفة على الوجنتين ، والأنف ، والجفون ، فيما يده تنزلق تحت الشرشف ، وداعب عانتها المستديرة والسبطة : كعانة يابانية . لم تُبعد يده ، لكنها احتفظت بيدها في حالة تأهب خوفاً من تقدمه خطوة أخرى .

قالت :

ـ لن نستمر في درس الطب .

فقال :

ـ لا ، الدرس الآن سيكون في الحب .

عندئذ نزع الشرشف من فوقها ، فلم تكتف هي بعدم الاعتراض ، بل

قذفت الشرشف عن السرير بضربة من قدميها ، لأنها لم تعد تحتمل الحر . كان جسدها ملتوياً ومرناً ، وأكثر جدية مما يبدو عليه وهي بملابسها ، تنبعث منه رائحة حيوان بري يمكن تمييزها بين جميع نساء الدنيا . وفيما هي عزلاء تحت الضوء ، صعدت دفقة دم يغلي إلى وجهها ، ولم يخطر لها لاخفاء ذلك سوى التعلق بعنق زوجها ، وتقبيله بعمق وقوة إلى أن استنفدا في القبلة كل الهواء الذي تنفساه .

كان واعياً أنه لا يحبها . لقد تزوج منها لاعجابه بشموخها وجديتها وقوتها ، وكذلك لشيء من كبريائه ، لكنه فيما هي تقبله للمرة الأولى تأكد من أنه لن يجد أي عائق لاختراع حب جيد . لم يتحدثا بذلك في هذه الليلة الأولى التي تحدثا فيها بكل شيء حتى الفجر ، ولن يتحدثا في ذلك أبداً . ولكن أيا منهما لم يخطئ على المدى البعيد .

عند الفجر ، حين ناما ، كانت ماتزال عذراء ، لكنها لن تبقى كذلك طويلاً . وفعلاً ، فبعد أن علمها ، في الليلة التالية ، رقص فالسات فيينا تحت سماء الكاريبي النجمية ، كان عليه أن يذهب إلى الحمام بعدها ، وعندما رجع الى القمرة وجدها تنتظره عارية في السرير . وكانت هي حينئذ من اتخذ المبادرة ، فاستسلمت له دون خوف ، ودون ألم ، وبسعادة الإقدام على مغامرة في عرض البحر ، دون أن يخلف الطقس الدامي أثراً سوى وردة الشرف على شرشف السرير . كلاهما فعل ذلك جيداً ، بشكل أشبه بمعجزة ، وتابعا عمله جيداً ليلاً ونهاراً وفي كل مرة بشكل أفضل من سابقتها خلال بقية الرحلة ، وعندما وصلا إلى لاروشيل كانا متفاهمين كعاشقين قديمين .

بقيا ستة عشر شهراً في أوربا ، متخذين من باريس قاعدة لهما ، ومنطلقين في رحلات قصيرة إلى البلدان المجاورة . وقد مارسا الحب يومياً خلال هذه الفترة ، مارساه أكثر من مرة خلال أيام الآحاد الشتوية ، حيث

كانا يتداعبان في الفراش حتى ساعة الغداء . كان رجلاً مندفعاً اضافة إلى أنه حسن التدريب ، ولم تكن مخلوقة لتسمح لأحد بالتفوق عليها ، هكذا كان عليهما أن يقبلا باقتسام السلطة في السرير . وبعد ثلاثة شهور من الحب المحموم ، أدرك هو أن أحدهما مصاب بالعقم ، فخضعا لفحوص طبية صارمة في مستشفى سالبيتريير ، حيث كان قد أمضى فترة تدريبه العملي كطالب مقيم . كانت فحوصات مضنية ولكن دون جدوى . ومع ذلك ، وعندما تخليا عن التفكير بالأمر ، حدثت المعجزة بلا أية وسيلة علمية . وحين رجعا إلى الوطن في نهاية السنة التالية ، كانت فيرمينا حبلى في الشهر السادس ، وترى انها أسعد امرأة على وجه الأرض . والابن الذي رغبا فيه كلاهما ، والذي ولد تحت برج الدلو ، عُمّد على شرف جده الميت بالكوليرا .

كان من المستحيل معرفة أن كانت أوربا أم الحب هو ما غيرهما ، لأن الأمرين حدثا في وقت واحد . كلاهما كان قد تغير ، وبعمق ، ليس في علاقتهما ببعضهما فقط ، وانما كذلك مع الجميع ، وهذا ما أدركه فلورينتينو اريثا حين رآهما خارجين من القداس بعد أسبوعين من عودتهما ، في يوم أحد نكبته ذاك . عادا بمفهوم جديد للحياة ، محملين بمستجدات الدنيا : هو بمستجدات الأدب والموسيقى ، ومستجدات علمه قبل كل شيء ، كما عاد باشتراك في لوفيغارو ، كي لا يفقد خيط الواقع ، واشتراك آخر في ريفيو دي دو مندوس كي لا يفقد خيط الشعر . كما اتفق مع عميله المكتبي في باريس لتزويده بجديد الكتّاب الأوسع انتشاراً ، كاناتول فرانس وبيير لوتي ، ومؤلفات مفضليه ، كريمي دي غورمونت وبول بورجيه ، أما أميل زولا فلا ، فهو يرى أنه لا يطاق ، رغم اقتحامه الجريء لمحاكمة دريفوس . وقد وعد المكتبي نفسه بأن يرسل له بالبريد كل جديد ومغر في كاتالوج ريكورد ، وخصوصاً من موسيقى الكاميرا ، ليحتفظ باللقب الذي اكتسبه أبوه عن جدارة كأول داعية لموسيقى الكونشيرتو في المدينة .

أما فيرمينا دائا ، المعارضة دائماً لصرامة الموضة ، فقد أحضرت معها ستة صناديق ملابس لمختلف الفصول ، اذ أن الماركات الشهيرة لم تقنعها . كانت قد ذهبت إلى توليز ياس ، في عز الشتاء ، لحضور استعراض مجموعة أزياء وورث ، طاغية الأزياء الراقية الذي يفرض ما يشاء ، والشيء الوحيد الذي حصلت عليه كان التهاب قصبات طرحها في الفراش خمسة أيام . بدا لها ليفيرير أقل غطرسة وطمعاً ، لكنها اتخذت قرارها الحكيم بالحصول على ما يعجبها من محلات التصفيات ، رغم أن زوجها كان يقسم لها أغلظ الايمان بأنها ملابس موتى . وهكذا أحضرت كميات من الأحذية الايطالية التي بلا ماركة ، فضلتها على موديلات فيري الذائعة الصيت والشاذة ، وجلبت مظلة من دوبوي ، حمراء كنيران جهنم ، كانت موضوعاً كتب فيه كثيراً صحفيو مجتمعنا المرتعدون . واشترت قبعة واحدة من تصميم مدام ريبو ، لكنها ملأت صندوقاً كاملاً بعناقيد الكرز الاصطناعي ، وفروع مختلف أنواع الزهور التي وجدتها ، وكميات من ريش النعام ، وريش الطواويس ، وذيول ديكة آسيوية ، وطيور تَدْرُج ، وأفاع وتشكيلة متنوعة من الطيور الغريبة المنحطة ذات الأجنحة المفتوحة ، أو الأفواه الصارخة ، أو العيون المحتضرة : كل هذه الأشياء جعلت القبعات نفسها تبدو وكأنها قبعات أخرى طوال السنوات العشرين الأخيرة . أحضرت مجموعة مراوح يدوية من بلاد العالم المختلفة ، كل واحدة منها مخصصة لمناسبة . وأحضرت عطراً جذاباً انتقته من بين أصناف كثيرة في محل عطورات بازار تشاريت ، قبل أن تخربه رياح الربيع برمادها ، لكنها لم تستخدمه سوى مرة واحدة ، لأنها لم تعد تتعرف على نفسها بهذا العطر المختلف . وأحضرت كذلك علبة مكياج كانت آخر صرعة في سوق الاغراء ، وكانت أول امرأة خرجت به إلى الحفلات ، حين كان مجرد التجمل في مكان عملاً منافياً للحشمة .

وحملت معها كذلك ثلاث ذكريات لا تمحى : الافتتاح الذي لم يسبق

له مثيل لمسرحية حكايات هوفمان في باريس ، والحريق الرهيب الذي أتى على جميع جندولات البندقية تقريباً مقابل ساحة سان ماركوس ، والذي شاهداه بقلب يعتصره الألم من نافذة فندقهما ، ورؤية اوسكار وايلد الخاطفة أثناء هطول أول الثلوج في كانون الثاني . ولكن بين هذه الذكريات وغيرها الكثير ، احتفظ الدكتور خوفينال اربينو بذكرى رغبة كان يأسف دوماً لأنه لم يستطع تقاسمها مع زوجته ، وتعود إلى الوقت الذي كان مايزال فيه طالباً عازباً في باريس . انها ذكرى فيكتور هوغو ، الذي كان ينعم عندنا بشهرة مثيرة ليست مرتبطة بشهرة مؤلفاته . ذلك أن أحداً قال عنه بأنه قال ، دون أن يكون هناك من سمعه في الواقع ، بأن دستورنا ليس لموطن بشر وانما لموطن ملائكة . فأصبحت له منذ ذلك الحين منزلة خاصة ، وصار معظم مواطنينا الكثيرين الذين يسافرون إلى فرنسا يتهالكون لرؤيته . وقد قام ستة طلاب ، بينهم الدكتور خوفينال اوربينو ، بتنظيم حراسة مقابل بيته في شارع ايليا ، وفي المقاهي التي يقال بأنه سيأتيها بالتأكيد ، دون أن يأتي أبداً ، ثم تقدموا آخر الأمر بطلبٍ خطي للقاء خاص معه ، باسم ملائكة دستور ريونغرو . ولم يتلقوا أي رد . وفي أحد الأيام ، وفيما خوفينال اوربينو يمر مصادفة مقابل حديقة اللوكسمبورغ رآه وهو يخرج من مجلس الشيوخ برفقة امرأة شابة تقوده من ذراعه . كان هرماً جداً ، يتحرك بمشقة ، لحيته وشعره أقل اشعاعاً مما هو عليه في صوره ، ويرتدي معطفاً يبدو وكأنه لشخص أضخم منه جسداً . ولم يشأ افساد الذكرى بتحية وقحة : كانت تكفيه هذه الرؤية شبه اللا واقعية كزاد للحياة كلها . وعندما عاد الى باريس متزوجاً ، في ظروف تمكنه من رؤيته بشكل شبه رسمي ، كان فيكتور هوغو قد مات .

وكعزاء على ذلك ، حمل خوفينال وفيرمينا الذكرى المشتركة لمساء يوم ثلجي ، اختلطا فيه بجماعة كانت تتحدى العاصفة مقابل مكتبة صغيرة في

بولفارلوس كابوتشينوس ، وكان اوسكار وايلد في الداخل . وحين خرج أخيراً ، أنيقاً حقاً ، وربما واعياً جيداً انه كذلك ، أحاطت به المجموعة تطلب منه التوقيع على كتبه . توقف الدكتور اوربينو لرؤيته فقط ، لكن زوجته المندفعة أرادت اجتياز البولفار ليوقع لها على الشيء الوحيد الذي رأته مناسباً في غياب الكتاب : قفازها البديع الطويل الأملس ، المصنوع من جلد الغزال ، بلونه الذي يشبه لون بشرتها الحديثة الزواج ، كانت متأكدة أن رجلاً بهذه الرقة سيقدر عالياً لفتة كهذه . لكن الزوج عارض بإصرار ، وحين حاولت التقدم برغم حججه ، لم يعد يشعر بأنه سيكون قادراً على العيش متجاوزاً العار . فقال لها :

ـ اذا اجتزت الشارع ، فستجديني ميتاً حين ترجعين .

كان سلوكاً طبيعياً فيها . فقبل زواجها بسنة واحدة كانت تتحرك في الدنيا بنفس الطلاقة التي كانت عليها وهي طفلة في بلدة سان خوان دي لاثيناغا المميتة ، وكأنها ولدت وهي تعرف الدنيا ، وكانت تتمتع بسهولة في معاملة الغرباء تاركة زوجها في حيرة من أمره ، وبموهبة سحرية في التفاهم بالقشتالية مع أي كان وفي أي مكان . وكانت تقول وهي تضحك ساخرة : «المرء يتعلم اللغات حين يريد أن يبيع ، أما عندما يريد الشراء فالجميع يفهمونه كيفما كان» . من الصعب تصور أحد قادراً على تمثل حياة باريس اليومية بهذه السرعة وهذه الغبطة ، وعلى تعلم حبها في الذكرى برغم امطارها الدائمة . ومع ذلك ، فعندما رجعت إلى الوطن مثقلة بهذه التجارب المجتمعة ، منهكة من السفر وناعسة من الحبل ، كان أول ما سألوها عنه في الميناء هو كيف بدت لها عجائب أوربا ، فلخصت ستة عشر شهراً من السعادة في أربع كلمات من فظاظتها الكاريبية :

ـ إنها الصخب قبل أي شيء .

يوم رأى فلورينتينو اريثا فيرمينا داثا عند مدخل الكتدرائية ، وهي حبلى في الشهر السادس ومتمكنة تماماً من مكانتها الجديدة كامرأة حياة ، اتخذ قراره الصارم بالحصول على لقب وثروة ليصبح جديراً بها . لم يترو ليفكر حتى بالعائق الماثل في كونها متزوجة ، لأنه قرر في الوقت ذاته ، وكأن الأمر بيده ، أن الدكتور خوفينال اوربينو سيموت . لم يكن يعرف متى ولا كيف ، لكنه طرح الأمر وكأنه حدث محتم ، لا يحتاج إلا إلى الانتظار دون تسرع ولا هيجان ، وحتى لو بقي إلى نهاية العصور .

بدأ من البداية . مَثلَ دون سابق اعلان في مكتب العم ليون الثاني عشر ، رئيس مجلس الادارة والمدير العام لشركة الكاريبي للملاحة النهرية ، وأبدى له استعداده لوضع نفسه تحت تصرفه . كان العم مستاء منه للطريقة التي تخلى بها عن وظيفة التلغراف المحترمة في لافيبا دي ليبفا ، لكنه انساق مع قناعته بأن البشر لا يولدون دوماً يوم تلدهم أمهاتهم ، وانما تجبرهم الحياة على ولادة انفسهم بأنفسهم ثانية ولمرات عديدة . ثم أن أرملة الأخ كانت قد توفيت في السنة السابقة ، مع احقادها المتقدة ولكن دون أن تنجب ورثة . وهكذا منح ابن أخيه التائه عملاً .

كان ذاك قراراً تقليدياً من قرارات العم ليون الثاني عشر لواثيا . فتحت

قشرة رجل الأعمال القاسي ، كان يخبئ عبقرياً مجنوناً ، سيان لديه تفجير ينبوع ليمونادة في صحراء غواخيرا ، أو اغراق جنازة ترفع الصليب بالدموع بأغنيته المؤثرة في هذا القبر المظلم ، ولم يكن ينقصه برأسه المجعد وشفته السفلى سوى القيثارة واكليل الغار ليصبح نسخة مطابقة لنيرون الحارق في الميثولوجيا المسيحية . أما ساعات فراغه ما بين ادارته لسفنه العاجزة ، التي مازالت تعوم بمحض غفلة من الهلاك ، ومشاكل الملاحة النهرية المتزايدة الخطورة يوماً بعد يوم ، فكان يكرسها لاغناء قائمته الغنائية . ولم يكن يحب الغناء إلا في الجنازات . بصوته الذي يشبه صوت مجدف في سفينة ، والخالي من أي نظام اكاديمي ، انما القادر على أداء نغمات شجية . وقد روى له أحدهم أن انريكي كاروسو يستطيع تهشيم مزهرية وتفتيتها إلى شظايا بقوة صوته فقط ، فحاول خلال سنوات عديدة أن يقلده بزجاج النوافذ . وكان أصدقاؤه يأتونه بأرق أنواع المزهريات التي يجدونها في رحلاتهم عبر العالم ، وينظمون له احتفالات خاصة ليتمكن أخيراً من تحقيق حلمه . لكنه لم يتوصل الى ذلك أبداً . مع ذلك ، فقد كان في أعماق صوته الراعد بصيص من الرقة التي تفتت قلب سامعيه كما تتفتت مزهريات كاروسو العظيم الزجاجية ، وكان هذا هو سبب مكانته المحترمة في الجنازات . باستثناء جنازة واحدة ، خطرت له فيها فكرة غناء When wake up in Glory ، وهي أغنية جنائزية من لويزيانا ، جميلة ومؤثرة ، فأسكته القسيس الذي لم يفهم ذلك التدخل اللوثري في كنيسته .

وهكذا استطاع ، وسط الأوبريهات والسيرنادات النابولية ، ان يتبوأ بعبقريته الخلاقة وروحه العملية التي لا تلين ، امارة الملاحة النهرية في عصره الزاهر . لقد بدأ من لا شيء ، مثل شقيقيه المتوفيين ، ووصلوا جميعهم إلى حيث يشاؤون رغم وصمة كونهم أبناء طبيعيين ، لم يعترف بهم آباؤهم أبداً . لقد كانوا زهرة ما كان يدعى حينئذ ارستقراطية منضدة التاجر ، التي

كان النادي التجاري هو هيكلها المقدس . ومع ذلك ، وعندما امتلك الموارد التي تؤهله للعيش كالامبراطور الروماني الذي يشبهه ، بقي العم ليون الثاني عشر يعيش في المدينة القديمة ، لسهولة ممارسة أعماله ، مع زوجته وأبنائه الثلاثة ، حياة تقشف في بيت صغير ، مما ألصق به سمعة البخل ظلماً . وكانت رفاهيته الوحيدة أكثر بساطة : بيت على البحر ، يبعد مسافة فرسخين عن مكاتب الشركة ، لا أثاث فيه سوى ستة كراسي بلا مساند ، وخابية ماء ، وأرجوحة نوم على الشرفة يستلقي عليها أيام الآحاد للتفكير . ولم يصفه أحد خيراً مما وصف هو نفسه حين اتهمه أحدهم بأنه ثري ، اذ قال :

ـ لست ثريا... أنا فقير يملك مالاً ، وهو شيء مختلف .

هذه الطريقة الغريبة في الحياة ، التي امتدحها أحدهم يوماً في خطبة صحو جنوني ، أتاحت له أن يرى على الفور ما لم يره أحد من قبل ولا من بعد في فلورينتينو اريثا . فمنذ اليوم الذي جاءه فيه طالباً منحه وظيفة في مكاتب الشركة ، بمظهره الكئيب وسنوات عمره السبع والعشرين المبددة ، أخضعه لاختبار صارم صرامة نظام عسكري قادر على قهر أشجع الشجعان . لكنه لم يتوصل إلى إخافته . وما لم يشك فيه العم ليون الثاني عشر أبداً هو أن شجاعة ابن أخيه هذه ليست وليدة الحاجة لكسب لقمة العيش ، ولا وليدة صبر بهيمي ورثه عن أبيه ، وإنما هي وليدة طموح غرامي لا يمكن لأية قوة في هذا العالم أو العالم الآخر أن تحطمه .

أسوأ سنوات العمل كانت هي الأولى ، حين عينوه كاتباً في الادارة العامة ، والتي كانت تبدو مكتباً مفصلاً على مقاسه . كان لوتاريو توغوت ، أستاذ العم ليون الثاني عشر القديم في الموسيقى ، هو الذي نصح هذا الأخير بتعيين ابن أخيه في وظيفة كتابية ، لأنه مستهلك للأدب لا يكل ، على الرغم من أن ما يقرأه من الأدب الرديء هو أضعاف ما يقرأه من الأدب الجيد . لم

يول العم ليون الثاني عشر اهتماماً لهذا التحديد عن نوعية الأدب الرديئة التي يقرؤها ابن أخيه ، لأن لوتاريو توغوت نفسه قال عنه دوماً انه أسوأ تلاميذه في الغناء ، ومع وذلك فهو يُبكي حتى شواهد القبور . لكن الألماني كان محقاً على أية حال في أقل أمر فكر فيه . ففلورينتينو اريثا يكتب أي شيء بعاطفة جياشة ، مما جعل الوثائق الرسمية تبدو أشبه بوثائق الحب ، وكانت أذونات الابحار تخرج معه مقفاة رغم جهده لتفادي ذلك ، وكان يسكب في الرسائل التجارية نفساً غنائياً يقلل من هيبتها . وهكذا جاءه العم بنفسه في أحد الأيام برزمة من المراسلات التي لم تكن جديرة بأن يضع توقيعه عليها ، ومنحه الفرصة الأخيرة لانقاذ روحه .

قال له :

ـ إذا كنت عاجزاً عن كتابة رسالة تجارية فستتحول إلى جمع القمامة عن رصيف الميناء .

قبل فلورينتينو اريثا التحدي ، وقام بجهود جبارة ليتعلم بساطة النثر التجاري الدنيوية ، مقلداً نماذج من الأرشيف الموثق ومرصعاً رسائله بمقاطع منها كما كان يفعل بأشعار الشعراء الرائجين من قبل . حدث هذا في الفترة التي أخذ يقضي فيها ساعات فراغه في زقاق الكتبة العموميين ، مقدماً العون للعشاق الذين لا يحسنون الكتابة ، بكتابة رسائلهم الغرامية المعطرة ، ليفضفض عن قلبه كلمات الحب الكثيرة التي لم يعد يستطيع استخدامها في التقارير الجمركية . لكنه بعد ستة شهور ، رغم جميع محاولاته ، لم ينجح في ليّ عنق أوزانه المتمادية .

ـ الشيء الوحيد الذي يهمني هو الحب .

فقال له العم :

ـ من المؤسف أنه لا وجود للحب دون الملاحة النهرية .

نفذ تهديده بنقله لجمع القمامة من رصيف الميناء ، لكنه وعد بترقيته

خطوة خطوة على سلم الخدمة إلى أن يجد مكانه المناسب . وهكذا كان . لم يستطع أي عمل ، مهما كان قاسياً أو مذلاً ، هزيمته ؛ ولم يثبط بؤس الأجر من عزيمته ، كما أنه لم يفقد أعصابه للحظة واحدة أمام عجرفة مسؤوليه . ولكنه لم يكن ساذجاً أيضاً : فكل من اعترض سبيله قاسى من نتائج تصميم كاسح ، قادر على أي شيء ، وراء مظهر البؤس الذي كان عليه ، وكما رغب العم ليون الثاني عشر وخطط بجعله يتعرف على كل سر من أسرار المؤسسة ، فقد مرّ على جميع المناصب خلال ثلاثين عاماً من المثابرة والعناد في مواجهة كل الاختبارات . وقد أدارها جميعاً بكفاءة تستحق التقدير ، دارساً كل خيط في تلك التيلة السحرية التي لها علاقة ما بصنعة الشعر ، إنما دون التوصل إلى إحراز الميدالية الحربية التي طالما تاق إليها ، ألا وهي كتابة رسالة تجارية مقبولة... رسالة واحدة فقط . ودون أن يخطط لذلك ، بل ودون أن يدريه ، راح يثبت بحياته سداد رأي أبيه الذي ردد حتى النفس الأخير أنه لا أحد أكثر عملية ، ولا حجّارين أكثر اصراراً ولا مدراء أكثر نباهة وخطراً من الشعراء . هذا على الأقل ما أخبره به العم ليون الثاني عشر ، الذي اعتاد أنه يحدثه عن أبيه أثناء أوقات الفراغ ، وأعطاه عنه فكرة تصوره كحالم أكثر منه رجل أعمال .

روى له أن بيو الخامس لوائيا كان يستخدم المكاتب لأمور أكثر لطفاً من شؤون العمل ، وأنه رتب أموره ليخرج من البيت في جميع أيام الآحاد ، متذرعاً بأنه سيستقبل أو يودع سفينة ما . بل وصل به الأمر إلى وضع مرجل غير ذي نفع ، مع صفارة بخارية في فناء الحانات ، حيث كان أحدهم يقوم باطلاق الصفارة برموز الابحار حتى تسمع الزوجة إن هي كانت مصغية . وبعد حسابات أجراها ، أبدى العم ليون الثاني عشر اقتناعه بأن أم فلورينتينو اريثا قد حبلت به فوق طاولة مكتب غير مغلق في مساء يوم أحد لاهب ، فيما زوجة أبيه كانت تسمع من بيتها صفير وداع يطلقه مركب لم يسافر

أبداً . وعندما اكتشفت أمره كان الوقت قد فات لجعله يدفع ثمن سلوكه المشين ، لأنه كان قد مات . لقد عاشت سنوات طويلة بعده محطمة بمرارة عقمها ، طالبة من الله في صلواتها أن ينزل لعنته الأبدية على البندوق .

لقد شوشت صورة الأب أفكار فلورينتينو اريثا . كانت أمه تحدثه عنه كرجل بلا ميول تجارية ، وأنه انتهى الى العمل التجاري في الملاحة النهرية لأن شقيقه الأكبر كان معاوناً للربان الألماني جان ب : ايلبرس ، أحد أوائل العاملين في الملاحة النهرية . وأنه وأخواه كانوا أبناء طبيعيين لأم واحدة ، تعمل طاهية ، وجميعهم يحملون لقبها بعد اسم أحد الباباوات الذي كانت تختاره لا على التعيين من سجل القديسين ، باستثناء العم ليون الثاني عشر ، فهو يحمل اسم الملك الذي كان يحكم عند مولده . ومن يدعى فلورينتينو هو جدهم لأمهم ، وبهذا وصل الاسم إلى ابن ترانسيتو اريثا قافزاً فوق جيل كامل من الأحبار العظام .

لقد احتفظ فلورينتينو بدفتر كان أبوه يدون فيه أشعار الحب ، وكانت ترانسيتو اريثا هي ملهمة بعض تلك القصائد ، وكانت أوراق الدفتر مزينة برسوم قلوب جريحة . وقد فوجئ بأمرين : أحدهما هو خط أبيه المطابق تماماً لخطه ، رغم أنه اختار هذا الأسلوب في الكتابة من أحد مناهج تعليم الخط لأنه أعجبه أكثر من سواه . والأمر الثاني هو عثوره على عبارة كان يعتقد أنها من بنات أفكاره ، وجد أن أباه قد دونها في دفتره قبل أن يولد هو بكثير : **ما يؤلمني في الموت هو ألا أموت حباً** .

كان قد رأى كذلك صورتي أبيه الوحيدتين . احداهما ملتقطة في سانتافي ، وهو صغير ، كما كان عمره هو حين رآه لأول مرة ، يرتدي معطفاً سميكاً يبدو فيه وكأنه محشور في جوف دب ، يستند إلى قاعدة تمثال لا تظهر منه سوى ساق جزمته الطويلة المبتورة . والطفل الذي يقف إلى جانبه هو العم ليون الثاني عشر معتمراً قبعة ربان سفينة .وفي الصورة الثانية كان

أبوه مع مجموعة من المحاربين ، من يدري في أي من الحروب الكثيرة ، وكان يحمل أطول بندقية بين أفراد المجموعة وتفوح من شاربه في الصورة رائحة البارود . كان ليبرالياً وماسونياً ، كما هما شقيقاه ، وبرغم ذلك كان يريد لابنه أن يدخل مدرسة الاكليرس ، لم يشعر فلورينتينو اريثا بالشبه بينه وبين أبيه كما كانوا يدعون ، ولكن استناداً إلى أقوال العم ليون الثاني عشر ، فإنهم كانوا يؤنبون بيو الخامس أيضاً لأسلوبه الغنائي فيما يكتبه من وثائق . لم يكن يشبهه على أية حال كما هو في صورتيه ، وهو لا يشبهه فيما يحفظه عنه في ذكرياته ولا في الصورة التي كانت ترسمها له أمه ، وقد حسّن الحب منها ، ولا في الصورة التي يشوهها العم ليون الثاني عشر بقسوته الظريفة . ومع ذلك ، فقد اكتشف فلورينتينو اريثا هذا الشبه بعد سنوات طويلة ، فيما هو يسرح شعره أمام المرآة ، وعندها فقط أدرك أن المرء يعرف أنه قد بدأ يشيخ حين يبدأ بالتشابه مع أبيه .

لا يتذكر بأنه رآه في شارع لاس بنتاناس . ويظن بأنه كان يأتي للنوم هناك في مرحلة ما ، في بداية حبه لترانسيتو اريثا ، لكنه لم يعد إلى زيارتها بعد ولادته . لقد كانت وثيقة العماد لسنوات طويلة خلت هي وسيلتنا الوحيدة لتحديد الهوية ، ووثيقة تعميد فلورينتينو اريثا ، المثبتة في خورانية سانتو توريبيو ، كانت تقول فقط إنه ابن طبيعي لابنة طبيعية عازبة أخرى تدعى ترانسيتو اريثا . ولم يكن يظهر في الوثيقة اسم الأب ، الذي واظب برغم ذلك على تأمين حاجات ابنه الضرورية سراً حتى اليوم الأخير في حياته . وقد أقفل هذا الوضع الاجتماعي أبواب مدرسة الاكليروس في وجه فلورينتينو اريثا ، ولكنه نجا في الوقت ذاته من الخدمة العسكرية في الحقبة الأكثر دموية من حروبنا الأهلية ، لكونه ابناً وحيداً لعزباء .

كان يجلس كل يوم جمعة ، بعد العودة من المدرسة ، أمام مكاتب شركة الكاريبي للملاحة النهرية ، متصفحاً كتاباً يضم صور حيوانات يكاد

يتمزق نتفاً لكثرة ما تصفحه . كان الأب يدخل دون أن ينظر إليه ، مرتدياً السترة الكتانية التي كان على ترانسيتو اريثا أن تقيفها فيما بعد على مقاسه ، وبوجه يشبه وجه سان خوان الانجليكي الذي يوضع فوق المذابح . وعند خروجه ، بعد عدة ساعات ، كان يعطيه نقوداً تغطي حاجاته لأسبوع ، محاذراً ألا يراه أحد حتى ولا حوذي عربته . ما كان يكلمه ، ليس لأن الأب لم يحاول ذلك فقط ، بل لأنه كان يرهبه أيضاً . وفي أحد الأيام ، وبعد أن انتظر أطول مما اعتاد عليه ، أعطاه الأب النقود قائلاً له :

ـ خذ ولا تعد هنا بعد اليوم .

كانت تلك هي آخر مرة يراه فيها . لكنه سيعلم بعد حين أن العم ليون الثاني عشر ، الذي كان أصغر من أبيه بعشر سنوات ، سيواصل حمل النقود إلى ترانسيتو اريثا ، كما سيتولى شؤونها بعد موت بيو الخامس اثر مغص لم يعالج جيداً ، دون أن يترك أثراً مدوناً ، ودون أن يتاح له الوقت لاتخاذ أية تدابير لصالح ابنه الوحيد : ابن الشارع .

كانت مأساة فلورينتينو اريثا أثناء عمله كاتباً لشركة الكاريبي للملاحة النهرية ، تكمن في أنه لم يستطع تفادي غنائيته لأنه لم يكن قادراً على عدم التفكير بفيرمينا داثا ، ولم يتعلم أن يكتب أبداً دون التفكير بها . وفيما بعد ، حين نقلوه لأداء أعمال أخرى ، كانت دواخله تفيض حباً لا يدري ما يفعل به ، فراح يهديه إلى العاشقين الذين لا يتقنون الكتابة بكتابة رسائل حب مجانية لهم في زقاق الكتبة العموميين ، حيث كان يذهب بعد انتهائه من العمل . كان ينزع سترته بحركاته الوقورة ويعلقها على مسند الكرسي ، ثم يضع الأكمام المستعارة كي لا يلوث قميصه ، ويحل أزرار الصدرية ليفكر بشكل أفضل ، ويبقى أحياناً حتى ساعة متأخرة من الليل ، باعثاً الأمل في البائسين برسائل حب تبعث على الجنون . وبين حين وآخر كان يجد امرأة فقيرة تعاني مشكلة مع ابنها ، أو محارباً قديماً يلح في طلب دفع تعويضاته ،

أو أحداً سُرق منه شيء ويريد الشكوى أمام الحكومة ، لكنه كان عاجزاً عن تلبية رغباتهم مهما بذل من جهد ، لأنه لم يكن قادراً على اقناع أحد إلا في رسائل الحب . لم يكن يسأل زبائنه الجدد أي سؤال ، إذ كان يكتفي برؤية بياض عيونهم ليعرف حالتهم ، فيملأ ورقة بعد ورقة بكلمات حب خارقة ، وذلك بمعادلة مضمونة النتائج هي الكتابة مفكراً بفيرمينا داثا ، ولا شيء سواها . ومع انتهاء الشهر الأول أصبح عليه أن يضع نظام حجز مسبق ، حتى لا تجعله أشواق العاشقين يفيض متجاوزاً الحدود .

ان أجمل ذكرياته عن تلك الحقبة هي ذكرى صبية خجول ، تكاد تكون طفلة ، طلبت منه وهي ترتعش أن يكتب لها رداً على رسالة ملحة تلقتها لتوها ، وعرف فلورينتينو اريثا بأنه كان قد كتبها في مساء اليوم السابق . رد عليها بأسلوب مختلف ، بما يتناسب مع انفعالات الصبية وسنها ، وبخط يبدو كذلك وكأنه خطها ، اذ كان يحسن اصطناع خطوط لكل مناسبة حسب طبيعة كل شخص . كتبها متصوراً ما كانت سترد به عليه فيرمينا داثا لو كانت تحبه كثيراً كما تحب تلك المخلوقة المرتعدة عاشقها . وبعد يومين ، طبعاً ، كان عليه أن يكتب كذلك رد الحبيب بالخط والأسلوب ونوع الحب الذي خصه به في الرسالة الأولى ، وهكذا وجد نفسه متورطاً في مراسلة محمومة مع نفسه . وقبل انقضاء شهر ، جاءاه كلّ على انفراد ليشكراه لما كان قد اقترحه في رسالة الشاب ووافق عليه بإخلاص في رد الفتاة : إنهما سيتزوجان .

وحين انجبا ولدهما الأول فقط ، وأثناء حديث عرضي ، انتبها إلى أن رسائلهما قد كتبها الكاتب العمومي نفسه ، فذهبا لأول مرة معاً إل الزقاق لتسميته عراباً لابنهما . ولقد تحمس فلورينتينو اريثا لتجلي أحلامه العملي ، فأفرغ وقتاً حين لم يكن لديه متسع من الوقت ليؤلف كتاب سكرتير العاشقين وهو أشمل وأكثر شاعرية من الكتب المماثلة التي كانت تباع

بعشرين سنتافو حتى ذلك الحين في الأزقة ، والتي كان نصف أهل المدينة يحفظونها عن ظهر قلب . لقد تخيل ورتب الحالات التي قد يجد نفسه فيها ، هو وفيرمينا داثا ، وكتب لكل حالة عدة نماذج تغطي جميع الاحتمالات التي بدت له ممكنة واجتمع لديه في نهاية المطاف حوالي ألف رسالة في ثلاثة أجزاء مجلدة كتجليد معجم كوفارو بياس ، إنما لم يغامر أي ناشر في المدينة بطباعتها فانتهت إلى أحد أماكن المهملات في البيت ، مع أوراق أخرى من الماضي ، لأن ترانسيتو اريثا رفضت باصرار استخراج خوابيها المطمورة وتبديد مدخرات حياتها في حماقة نشر . وبعد عدة سنوات، حين أصبح لدى فلورينتينو اريثا الموارد اللازمة لنشر الكتاب ، تكلف مشقة للاقتناع بأن رسائل الحب أصبحت موضة قديمة .

فيما هو يخطو خطواته الأولى في شركة الكاريبي للملاحة النهرية ويكتب رسائل حب مجانية في زقاق الكتبة العموميين ، كان أصدقاء صبا فلورينتينو أريثا يوقنون بأنهم يخسرونه شيئاً فشيئاً وبلا عودة . وهكذا كان . فبعد عودته من الرحلة النهرية كان مايزال يلتقي ببعضهم على أمل التخفيف من ذكرى فيرمينا داثا ، فلعب معهم البليارد ، وذهب الى حفلات رقصه الأخيرة ، واهتم بأن يكون محط اعجاب الفتيات ، وفعل كل ما بدا له مناسباً ليعود كما كان . وفيما بعد ، عندما اعتمده العم ليون الثاني عشر موظفاً ، صار يلعب الدومينو في النادي التجاري مع زملائه في العمل ، وبدأ هؤلاء يعترفون به كواحد منهم حين لم يعد يحدثهم إلا عن شركة الملاحة ، والتي ما عاد يذكر اسمها كاملاً ، بل يكتفي للاشارة اليها بالحروف الأولى : ش . ك . م . ن . وغير حتى طريقته في الأكل . فبعد أن كان لا مبالياً ومضطرباً على المائدة ، أصبح منتظماً ومتقشفاً حتى آخر أيامه : فنجان قهوة كبير كفطور ، وقطعة سمك مسلوق على الأرز الأبيض للغداء ، وفنجان قهوة بالحليب مع قطعة جبن قبل النوم . وصار يشرب قهوة مرة في كل وقت ،

وفي أي مكان وتحت أية ظروف ، بكميات تصل الى ثلاثين فنجاناً في اليوم : كانت قهوة أشبه بالبترول الخام يفضل تحضيرها بنفسه ، ويضعها دائماً في ترمس بمتناول يده . لقد أصبح شخصاً آخر ، رغم قراره الثابت وجهده المضني لمتابعة حياته كما كان قبل عثرة الحب القاتلة .

الحقيقة أنه لن يعود أبداً كما كان . فاستعادة فيرمينا داثا كان هدف حياته الوحيد ، وكان متأكداً من أنه سيصل إليه عاجلاً أم آجلاً ، حتى أنه اقنع ترانسيتو اريثا بمتابعة اعداد البيت ليكون مناسباً لاستقبالها في أية لحظة تحدث فيها المعجزة . وعلى العكس من ردة فعلها حيال نشر سكرتير العاشقين ، مضت ترانسيتو اريثا بعيداً جداً في هذا الأمر : اشترت البيت نقداً ، وبدأت عملية اصلاح شاملة . أقاما صالة استقبال حيث كانت حجرة النوم ، وأقاما في الطابق العلوي مخدعاً للزوجين وآخر للأولاد الذين سينجبونهما ، كلاهما فسيح وجسن الاضاءة ، ومكان مشغل السيجار القديم أقاما حديقة فسيحة فيها جميع أنواع الزهور ، كرس لها فلورينتينو اريثا شخصياً فترة بطالته الصباحية . والشيء الوحيد الذي بقي على حاله كامتنان للماضي ، هو دكان الخردوات . أما القسم الخلفي من الدكان ، حيث كان ينام فلورينتينو اريثا ، فتركاه كما كان دوماً ، بأرجوحة النوم المعلقة وطاولة الكتابة الصغيرة المغطاة بكتب متراكمة بفوضى ، بينما انتقل هو إلى الحجرة المقررة كمخدع زوجي في الطابق العلوي . وكانت هذه الغرفة هي أوسع حجرات البيت وأكثرها برودة ، لها شرفة داخلية من الممتع البقاء فيها ليلا لاستنشاق نسيم البحر ورائحة الورود ، لكنها كانت كذلك الحجرة التي تستجيب أكثر من سواها لرهبنة فلورينتينو اريثا الصارمة . كانت جدرانها ملساء وخاوية ، مطلية بالكلس ، وليس فيها من الاثاث سوى سرير سجن ضيق ، وكوميدينو عليه شمعة مثبتة فوق فتحة قنينة ، وخزانة ملابس قديمة وابريق لغسل الأيدي مع صحنه وطست لسكب ماء الغسل .

استمر العمل في البيت حوالي ثلاث سنوات ، وقد توافق مع مرحلة استقرار مؤقت مرت بها المدينة ، نتيجة ازدهار الملاحة النهرية والتجارة العابرة ، وهي نفس العوامل التي كانت سبب عظمتها أثناء الحكم الاستعماري وحولتها خلال أكثر من قرنين إلى بوابة أميركا . ولكن هذه المرحلة كانت كذلك في الفترة التي بدا فيها على ترانسيتو اريثا أول أعراض مرضها الذي لا شفاء منه . أصبحت زبوناتها الدائمات يأتينها إلى دكان الخردوات وهن أكثر هرما في كل مرة ، وأكثر شحوبا وأكثر انحدارا ، ولم تكن تتعرف عليهن بعد معاملة استمرت نصف حياة ، أو انها كانت تخلط شؤون بعضهن بشؤون أخريات . وكان هذا شيئا خطيرا في تجارة كتجارتها ، لا مكان فيها لأوراق موقعة ووثائق كاحتياط لحماية الشرف ، شرفها وشرف الآخرين ، وكانت كلمة الشرف تعطى وتقبل كضمانة كافية . بدت أول الأمر وكأنها آخذة بالصمم ، ولكن سرعان ما تبين أن ذاكرتها هي التي تتسرب من الثقوب ، وهكذا صفت تجارة الرهونات ، وأصلحت البيت بكنز الخوابي المخبأة واثثته ، ثم بقي لديها بعد ذلك كثير من المجوهرات القديمة المشهورة في المدينة ، والتي لم تتوفر لأصحابها الموارد اللازمة لاستردادها .

عندئذ أصبح على فلورينتينو اريثا أن يتحمل في الوقت ذاته مسؤولية التزامات عديدة ، لكن حماسه لم يضعف لزيادة أعماله كصياد خفي . فبعد تجربته غير المنتظمة مع أرملة ناثاريث ، التي شقت له طريق غراميات الأزقة ، تابع اصطياد عصفورات الليل اليتيمات لعدة سنوات ، بحثا عن مهدئ من آلام فيرمينا داثا . لكنه لم يعد قادراً فيما بعد على معرفة إن كانت عادته في الزنى دون آمال هي ضرورية للضمير أم مجرد ادمان للجسد ، صار تردده على فندق العابرين أقل ، ليس لأن اهتماماته كانت في جهة أخرى وحسب ، بل لأنه لم يكن يرغب بأن يروه في مسيرة مختلفة جدا عن الصورة المألوفة

التي عرفوه بها . ومع ذلك ، فقد لجأ في ثلاث مناسبات مستعجلة الى الوسيلة السهلة لفترة لم يعشها : كان يجعل صديقاته المتخوفات من انكشاف أمرهن يتنكرن بزي الرجال ، ويدخل معهن الى الفندق بخيلاء سكارى متأخرين في السهر . لكنه لم يعدم من يلاحظ أنه في مناسبتين على الأقل لم يكن يذهب مع صديقه المزيف الى الحانة وانما الى الحجرة ، فتعرضت بذلك سمعته التي كانت قد تهشمت الى الضربة القاضية . الى أن توقف أخيرا عن الذهاب الى هناك . وفي المرات القليلة التي ذهب فيها ، لم يفعل ذلك للحاق ما فاته ، وانما على العكس تماماً : كان يبحث عن ملجأ ليستعيد أنفاسه بعد الإفراط .

كان ذلك ضروريا . فهو يغادر المكتب في الخامسة مساء ، ويمضي عندئذ متنقلا كباشق جوال . كان يكتفي في البدء بما يمده به الليل . فيصطاد خادمات في الحدائق ، وزنجيات في السوق ، ومتأنقات في الشواطئ ، واميركيات شماليات في سفن نيو اورليانز . فيأخذهن الى ملطم الأمواج حيث نصف أهل المدينة يفعلون الشيء نفسه منذ غروب الشمس ، يأخذهن حيث يستطيع ، وأحيانا الى حيث لا يستطيع ، اذ لم تكن قليلة المرات التي اضطر فيها الى حشر نفسه بسرعة في مدخل مظلم لأحد البيوت وعمل ما يستطيعه كيفما اتفق وراء البوابة .

كان برج الفنار ملجأ محظوظا يذكره بحنين بعد أن حلت جميع أموره وهو على أعتاب الشيخوخة ، لأنه كان مكانا جيدا للسعادة ، وخصوصا في الليل ، حيث كان يرى أن شيئا من غرامياته يصل الى المبحرين في السفن مع كل لفة من وميض الفنار . وقد تابع الذهاب الى هناك ، أكثر من ذهابه الى أي مكان آخر ، فيما صديقه عامل الفنار يستقبله سعيداً ، بوجه أحمق كان أفضل دليل على الكتمان بالنسبة للعصفورات المرتعدات . كان هناك بيت في أسفل الفنار ، حيث تزمجر الأمواج وهي تتحطم على الصخور ، وحيث البحر

أكثر زخما لأن فيه شيئا من الاخفاق . لكن فلورينتينو اريثا كان يفضل برج النور في ساعات الليل الأولى ، لأنه يرى المدينة كلها وأضواء زوارق الصيادين في البحر ، وكذلك في المستنقعات النائية .

من هذه الحقبة أتت نظرياته الأقرب الى التبسيط حول العلاقة بين التكوين الجسدي للنساء وكفاءتهن للحب . لم يكن ليثق بالصنف الحسي من النساء . اولئك اللواتي يبدون قادرات على التهام تمساح نيء . ويكن عادة الأكثر سلبية في الفراش ، نموذجه المفضل كان النقيض : تلك الضفادع الضامرة التي لا يتكلف أحد عناء النظر اليهن ثانية في الشارع ، اللواتي يبدون وكأنهن لا شيء بعد نزع ملابسهن ، ويثرن الشفقة بطقطقة عظامهن عند الصدمة الأولى ، ولكنهن رغم ذلك قادرات على جعل أعتى المتغنين بفحولتهم لقمة سائغة لصندوق القمامة . وكان قد سجل رؤوس أقلام عن ملاحظاته المبكرة هذه بنية تأليف ملحق عملي لكتاب سكرتير العاشقين ، لكن المشروع لقي مصير سابقه بعد أن قلبته اسيثنا سانتاندير ظهرا وباطنا بحنكتها التي كحنكة كلب عجوز... أوقفته على رأسه ، رفعته وانزلته ، وأعادت ولادته كمخلوق جديد ، وجعلته يمزق مهارته النظرية ارباً ارباً وعلمته الشيء الوحيد الذي عليه أن يتعلمه عن الحب ، وهو أن أحداً لا يستطيع تعليم الآخرين الحياة .

كانت اوسينثيا سانتاندير قد تزوجت زواجا عاديا دام عشرين سنة ، وبقي لها من ذلك الزواج ثلاثة أبناء تزوجوا بدورهم وأنجبوا أبناء . بحيث أنها كانت تفاخر بأنها الجدة صاحبة أفضل فراش في المدينة . ولم يتضح أبداً إن كانت هي التي هجرت زوجها ، أم أنه هو الذي هجرها ، أم أنهما هجرا بعضهما في الوقت ذاته حين ذهب هو ليعيش مع عشيقته الدائمة ، وشعرت هي بأنها تحررت لتستقبل في وضح النهار ، ومن الباب الرئيسي ، روسندو دي لا روسا ، ربان السفينة النهرية ، الذي كانت قد استقبلته ليلا

مرات كثيرة من الباب الخلفي ، وكان هو نفسه ،ودون أن يفكر مرتين ، من أخذ فلورينتينو اريثا إليها .

دعاه للغذاء عندها . وحمل معه دمجانة خمر بيتي قوي وأفخر نوعية من المواد لاعداد وجبة ملحمية لا يمكن تحضيرها الا بدجاج بيتي ، ولحم طري العظام ، وخنزير معلوف على المزبلة وبقول وخضروات قرى النهر . ومع ذلك ، لم يبد فلورينتينو اريثا منذ البدء اهتماما بلذائذ المطبخ ، ولا بكرم سيدة البيت ، كاهتمامه بجمال البيت . لقد أعجبه البيت بحد ذاته ، بإنارته وبرودته ، بنوافذه الأربع المطلة على البحر ، واطلالته من الخلف على مشهد كامل للمدينة القديمة . أعجبته كمية ورونق الأشياء التي كانت تمنح الصالة مظهراً مشوشا وصارما في الوقت نفسه ، والتي كانت تضم جميع أنواع المهارات الحرفية التي يجلبها القبطان روسيندو دي لا روسا في كل رحلة من رحلاته ، حتى لم يبق مكان لمزيد . وعلى الشرفة المطلة على البحر ، فوق منصة خاصة ، كانت تقف ببغاء ما لاسيه يغطيها ريش ناصع ، بياضه لا يُصدق ، وتطرق بسكينة تأملية تبعث كثيرا على التأمل : إنها أجمل حيوان رآه فلورينتينو اريثا على الاطلاق .

تحمس القبطان روسيندو دي لا روسا لحماسة الضيف ، فروى له بالتفصيل قصة كل شيء من الأشياء . وفيما هو يفعل ، كان يشرب الخمر بجرعات قصيرة انما دون فاصل بين جرعة وأخرى . كان يبدو وكأنه مبني من الاسمنت المسلح : ضخم ، كثيف الشعرفي كل أنحاء جسده باستثناء رأسه ، له شارب كفرشاة نقاش ، وصوت رحوي لا يمكن إلا أن يكون كذلك ، وصاحب نخوة ممتعة ، ولكن ليس هناك من جسد قادر على احتمال طريقته في الشرب . وقبل الجلوس الى المائدة كان قد أنهى نصف الدمجانة وهوى على وجهه فوق الكؤوس والزجاجات بجلبة انهدام بطيئة . وكان على اوسينثيا سانتانديرأن تطلب مساعدة فلورينتينو اريثا لسحب الجسد الخامد

كجسد حوت مرتطم بالبر ونقله الى السرير ، ونزع ملابسه وهو نائم . بعد ذلك ، وفي ومضة الهام شكرهما كليهما لاقتران برجيهما ، تعريا معا في الحجرة المجاورة دون اتفاق فيما بينهما ، بل ودون ايحاء بذلك ، ودون اعداد له . وتابعا التعري بعدها كلما سنحت لهما الفرصة خلال أكثر من سبع سنوات ، أثناء غياب القبطان في رحلاته . لم تكن ثمة مخاطرة بأن يفاجئهم ، اذ كان يتمتع بعادة بحار طيب ، فهو يطلق ثلاث صافرات حادة وطويلة لزوجته وأولاده التسعة ، ثم صافرتين متقطعتين وكئيبتين لعشيقته .

كان لاوسينثا سانتانديرر حوالي خمسين سنة من العمر ، وكان ذلك بادياً عليها ، ولكنها كانت تتمتع بغريزة خاصة جدا في الحب ، ليس بوسع النظريات العملية أو العلمية أن تشوشها . وكان فلورينتينو اريثا يعرف من دليل رحلات السفن متى يستطيع زيارتها ، وكان يذهب اليها دوما دون اعلان مسبق ساعة يشاء ، سواء في النهار أو الليل ، ولم يحدث مرة واحدة أن لم تكن في انتظاره . كانت تفتح له الباب كما ربتها أمها حتى السابعة من عمرها : عارية تماما ، لكنها تضع على رأسها عصابة نايلون . لم تكن تسمح له بالتقدم خطوة واحدة قبل أن تنزع عنه ملابسه ، لأنها تعتقد أن وجود رجل بملابسه في البيت هو نذير شؤم . وكان هذا سببا لنزاع دائم مع القبطان روسيندو دي لا روسا ، لأنه كان يؤمن بخرافة أن التدخين عاريا هو أمر وخيم العواقب ، كما أنه يفضل أحيانا تأجيل الحب على أن يطفئ سيجاره الكوبي الأصيل . أما فلورينتينو اريثا ، فكان محبا جدا لمفاتن التعري ، فكانت تخلع عنه ملابسه بلذة فور إغلاقها الباب ، دون أن تتيح له الفرصة لتحيتها ، ولا لنزع قبعته ونظارته ، مقبلة إياه ومتلقية القبل المبعثرة ، وحالة أزراره من أسفل إلى أعلى ، بادءة بأزرار فتحة السروال ، واحدا بعد كل قبلة ، ثم ابزيم الحزام ، وأخيرا أزرار الصديرية والقميص ، إلى أن تتركه كسمكة حية مشقوقة البطن . ثم تجلسه في الصالة وتنزع حذاءه ، وتشد

بنطاله من عند الفخذ لتنزعه دفعة واحدة مع السروال الداخلي الطويل وتنزله الى الكاحلين ، وأخيرا تفك أربطة واقية الساق المطاطية وتنزع جوربيه ، عندئذ يتوقف فلورينتينو اريثا عن تقبيلها وعن السماح لها بتقبيله ، ليفعل الشيء الوحيد الذي يقوم به في تلك الطقوس الدقيقة : فك الساعة ذات السلسلة من عروة الصدرية ونزع النظارة ووضعهما معا في حذائه ليتأكد من أنه لن ينساهما . لقد ثابر دوما على اتخاذ هذا الاحتياط ، دائما دون نسيان ، كلما تعرى في بيت غريب .

ما أن ينتهي من عمل ذلك حتى تهاجمه دون أن تتيح له الوقت لأي شيء ، وتلقي به ولو على الكنبة التي انتهت من تعريته عليها . وفي أحيان قليلة على السرير . كانت تحشره تحتها ، وتسيطر عليه كله لها كلها ، محبوسة في ذاتها ، مقدرة الأبعاد بعينيها المغمضتين في ظلمتها الداخلية المطبقة ، متقدمة من هنا ، متراجعة ، ضابطة اتجاهها اللامرئي ، محاولة عبر سبيل آخر أكثر زخما ، طريقة أخرى للمشي دون غرق في مستنقع اللزوجة الذي يطفو من بطنها ، سائلة ومجيبة بنفسها بأزيز ذبابة في رطانتها الخلقية أين هو في الظلام هذا الشيء الذي تعرفه هي وحدها وتريده لها وحدها فقط ، إلى أن تخر دون انتظار أحد ، وتهوي وحدها في هوتها بانفجار نصر شامل يجعل العالم كله يرتعش ويبقى فلورينتينو اريثا منهكاً ، ناقصا ، طافيا في بركة عرقهما ، يسيطر عليه انطباع بأنه ليس سوى أداة للذة . كان يقول لها « إنك تعاملينني كما لو كنت واحدا زائدا » فتطلق ضحكة أنثى حرة وتقول : « بل كأنك واحد أقل » . ويبقى على قناعة بأنها تستولي على كل شيء بشراهة وبخل ، فتقلب الكبرياء مزاجه ويخرج من البيت مقررا عدم الرجوع . لكنه ما يلبث أن يستيقظ ناسيا ، مع صحوة الوحدة الرهيبة وسط الليل ، وتنكشف له ذكرى حب اوسينثا سانتاندير الشارد على حقيقته : مصيدة سعادة يملها ويحن اليها في الوقت ذاته ، انما يستحيل عليه الفرار منها .

في يوم أحد ، بعد سنتين من تعارفهما ، كان أول ما فعلته عند وصوله ، بدلا من تعريته ، أن نزعت نظارتيه لتقبله بشكل أفضل ، وهكذا علم فلورينتينو اريثا أنها بدأت تحبه . ورغم شعوره لأول مرة بأنه على أحسن حال منذ دخوله ذلك البيت الذي صار يحبه كبيته ، فإنه لم يبق فيه من قبل أكثر من ساعتين متواصلتين ، ولم يبق للنوم فيه أبدا ، بينما بقي مرة واحدة لتناول الطعام ، لأنها كانت قد وجهت اليه دعوة رسمية . والحقيقة أنه لم يكن يذهب هناك إلا لما كان يذهب من أجله ، حاملا معه دوما هديته الوحيدة التي هي وردة منفردة ، ثم يختفي الي أن تحين الفرصة التالية المعلومة لديه . أما في يوم الأحد الذي نزعت فيه نظارتيه ، وبسبب هذه الحركة من جهة ، ولأنهما استسلما للنوم بعد حب مريح من جهة أخرى ، أمضيا المساء كله عاريين في سرير القبطان الفسيح . بعد الاستيقاظ من القيلولة كان فلورينتينو اريثا مايزال يحتفظ في ذاكرته بصرخات الببغاوات التي كان صريفها النحاسي يتناقض مع جمال الحيوان . لكن الصمت كان صافيا في قيظ الساعة الرابعة ، ومن نافذة غرفة النوم كان يظهر جانب من المدينة القديمة مع شمس الأصيل التي تلهب ظهرها ، وقبابها المذهبة ، وبحرها الملتهب حتى جامايكا . مدت اوسينثيا سانتاندير يدها المغامرة باحثة باللمس عن الحيوان الراقد ، لكن فلورينتينو اريثا أزاحها قائلا : «الآن لا... أحس شيئا غريبا ، وكأن هناك من يرانا» .

عادت تهيج الببغاء بضحكتها اللعوب . وقالت : «هذه حجة لا تنطلي حتى على امرأة يونس» . ولم تكن لتنطلي عليها كذلك ، لكنها قبلت بها كحجة جيدة ، وأحبا بعضهما بصمت لوقت طويل دون أن يعيدا ممارسة الحب . وفي الساعة الخامسة ، حين كانت الشمس ماتزال مرتفعة قفزت هي من السرير ، عارية تماما وبعصابة النايلون على رأسها ، ومضت تبحث عن شيء يشربانه في المطبخ . لكنها لم تكن قد خطت خطوة واحدة خارج حجرة النوم عندما أطلقت صرخة مرعبة .

ما كانت قادرة على التصديق . كانت المصابيح المعلقة هي الشيء الوحيد المتبقي في البيت . أما ما عداها ، الأثاث المحفور والسجاد الهندي ، والتماثيل والتحف وترهات الزجاج والمعادن الثمينة التي لا حصر لها ، وكل ما كان يجعل من بيتها أحد ألطف البيوت وأكثرها زينة في المدينة ، كل شيء ، حتى الببغاء المقدسة ، كله قد تبخر . لقد حملوه من الشرفة المطلة على البحر دون ازعاج الحب . لم يبق سوى الصالون المقفر بنوافذه الأربع المفتوحة ، وكتابة بفرشاة نقاش على الجدار المقابل تقول : هذا ما يحدث لمن ينشغلن بالشّد . ولم يستطع القبطان روسيندو دي لا روسا أن يفهم أبدا سبب امتناع اوسينثيا سانتاندير التبليغ عن السرقة ، أو عدم محاولتها الاتصال بتجار المسروقات ، وعدم سماحها بالعودة للحديث عن نكبتها .

تابع فلورينتينو اريثا زيارتها في البيت المنهوب ، الذي اقتصر أثاثه على ثلاثة كراس جلدية بلا مسند نسيها اللصوص في المطبخ وحجرة النوم حيث كانا . لكن زياراته أصبحت أقل من السابق ، ليس بسبب كآبة البيت ، كما ظنت هي وقالت له ذلك ، وانما بسبب حافلة البغال الجديدة التي أنشئت في مطلع القرن الجديد ، وكانت بالنسبة له عشا مفعما وأصيلا للعصفورات الطليقات . كان يركب الحافلة أربع مرات في اليوم ، مرتين للذهاب الى المكتب ومرتين للعودة الى البيت . وفيما هو يقرأ حقا في بعض الأحيان ، أو يتظاهر بالقراءة في معظم الأحيان ، يتمكن من اقامة أول الاتصالات من أجل موعد لاحق . وحين وضع العم ليون الثاني عشر تحت تصرفه فيما بعد ، عربة تجرها بغلتان بنيتان ، ذهبيتا السروج ، كبغلتي الرئيس رافائيل نونيث ، أصبح يحن الى أيام الحافلة ، كأكثر الأيام ازدهارا في سيرته كصقر متصيد . ولقد كان محقا : فليس من عدو للغراميات السرية أسوأ من عربة خاصة تنتظر أمام الباب لدرجة أنه كان يترك العربة مخبأة في بيته ويمضي مشيا على الأقدام في جولاته المتغطرسة . حتى لا يترك ولو مجرد آثار

العجلات على التراب . ولهذا ، كثيرا ما كان يذكر بحنين الحافلة القديمة ذات البغال الضامرة ، المنتوفة الوبر ، حيث كان يكفيه إلقاء نظرة سريعة بداخلها ليعرف أين هو الحب . ومع ذلك ، فإنه لم يستطع وسط كل هذه الذكريات المثيرة ، أن ينسى ذكرى عصفورة مهجورة لم يعرف اسمها ، ولم يكد يمضي معها سوى نصف ليلة مجنونة ، كانت كافية لتملأ فوضى الكرنفال البريئة بالمرارة فيما تبقى من حياته .

كانت قد لفتت انباهه في الحافلة لمضيها وسط صخب الاحتفال العام بلامبالاة . لا بد أنها كانت دون العشرين من العمر ، ولم يكن يبدو عليها الحماس للكرنفال ، اللهم إلا إذا كانت متنكرة بهيئة اللا مبالاة : كان شعرها فاتحا ، طويلا وناعما ، مفلتا على سجيته فوق كتفيها ، وكانت تلبس عباءة من قماش عادي بلا أية زينة . ولم تكن تعبأ أبدا بصخب الموسيقى في الشوارع ، ولا بحفنات الرز ، ولا بوابل عطر أنيلين الذي يرشونه على الركاب لدى مرور الحافلة ، التي كانت بغالها بيضاء مطلية بالنشاء وعلى رؤوسها قبعات من الزهور هي زينتها خلال أيام الجنون الثلاثة تلك . انتهز فلورينتينو اريثا حالة الفوضى السائدة ودعاها لتناول البوظة ، لأنه لم يكن يعتقد بأنها ستستجيب لشيء آخر . ونظرت اليه دون أن تُباغت وقالت : « أوافق بكل سرور ، لكنني أحذرك من أنني مجنونة » . ضحك لهذا الخاطر ، ورافقها لمشاهدة استعراض العربات المزينة من شرفة محل البوظة . بعد ذلك وضع طرطوراً مستأجرا ، واندسا معا وسط حلقة الرقص في ساحة الجمارك ، واستمتعا معاً وكأنهما عروسين ولدا لتوهما ، اذ أن لا مبالاتها وصلت الى أقصاها النقيض مع صخب الليل . كانت ترقص كمحترفة ، وكانت واسعة المخيلة وجريئة للاحتفال ، ذات سحر ماحق . وكانت تضحك ضحكة مجلجلة في حمى الكرنفال وتقول له :

ـ أنت لا تعرف الورطة التي أوقعت نفسك بها معي . أنا مجنونة من مشفى المجاذيب .

لقد كانت تلك الليلة بالنسبة لفلورينتينو اريثا بمثابة عودة الى مبالغات المراهقة الساذجة ، حين لم يكن قد ابتلي بالحب بعد . لكنه كان يدرك بحسه المعذب ، أكثر من ادراكه بفعل التجربة ، أن سعادة بهذه السهولة لا يمكن لها أن تدوم طويلا . وهكذا فإنه اقترح على الصبية ، كما هي العادة دائما بعد توزيع الجوائز على أفضل المتنكرين ، أن يذهبا لمشاهدة الفجر من الفنار . وافقت شاكرة ، على أن يكون ذلك بعد الانتهاء من توزيع الجوائز .

لقد بقي لفلورينتينو اريثا الايمان بأن ذلك التأخير قد أنقذ حياته . وفعلا ، كانت الفتاة قد أشارت عليه أن ينطلقا الى الفنار ، حين هجم حارسان وممرضة من مشفى الراعية الالهية للأمراض العقلية وألقوا بأنفسهم عليها . كانوا يبحثون عنها منذ هروبها ، في الثالثة بعد الظهر ، ليس هم وحدهم ، وانما القوة العامة بأسرها . كانت قد قطعت رأس أحد الحراس وجرحت اثنين آخرين بجراح بليغة بمنجل انتزعته من الجنائني ، لأنها أرادت الخروج للرقص في الكرنفال . ولكن لم يخطر ببال أحد أنها ترقص في الشارع ، وإنما ظنوا بأنها مختبئة في أحد البيوت الكثيرة التي فتشوا كل شي فيها بما في ذلك الصهاريج .

لم يكن من السهل حملها . فقد دافعت عن نفسها بمقص كانت تخبئه في صدريتها ، وقد احتاجوا لستة رجال لالباسها قميص التثبيت ، فيما الحشد المجتمع في ساحة الجمارك يصفق ويصفر بمرح ، معتقدا أن عملية الاعتقال الدامية هي واحدة من مشاهد الكرنفال التهريجية الكبيرة . تأثر فلورينتينو اريثا جدا ، وأخذ يتردد منذ أربعاء الرماد على شارع الراعية الالهية حاملا لها علبة شوكولاته انكليزية . وكان يراقب السجينات اللواتي يطلقن عليه جميع أنواع الشتائم والمغازلات من خلال النوافذ ، فيثيرهن بعلبة الشوكولاته ، عل الحظ يحالفه وتطل هي أيضا من بين القضبان المعدنية . لكنه لم يرها أبدا . وبعد عدة شهور ، وفيما هو ينزل من حافلة البغال ،

طلبت طفلة كانت تسير مع أبيها قطعة شوكولاته من العلبة التي بيده . أنبها أبوها وطلب منها أن تعتذر لفلورينتينو اريثا . لكن هذا أهدى العلبة كلها للطفلة مفكراً بأن تلك اللفتة قد تنجيه من المرارة ، وهدأ من روع الأب بأن ربت على كتفه قائلا :

ـ كنت قد أحضرتها لحب ذهب مع الشيطان .

وكتعويض من القدر ، تعرف فلورينتينو اريثا في حافلة البغال أيضاً على ليونا كاسياني ، التي كانت امرأة حياته الحقيقية ، رغم انهما ، هو وهي ، لم يعلما ذلك أبدا ، ولم يمارسا الحب مطلقا . كان قد أحس بها قبل أن يراها أثناء عودته الى البيت في حافلة الخامسة : كانت نظرة مادية قد لامسته وكأنها اصبع . رفع بصره ورآها في الطرف المقابل ، محددة تماما بين الركاب الآخرين . ولم ترفع نظرها عنه . بل على العكس : بقيت تنظر اليه بوقاحة لم تمكنه من الظن بشيء آخر سوى ما ظنه : زنجية ، شابة جميلة ، لكنها عاهرة دون شك . أزاحها من حياته ، لأنه ما كان يتصور شيئا ابشع من دفع ثمن الحب : هذا ما لم يفعله أبداً .

نزل فلورينتينو اريثا في ساحة العربات ، وهي المحطة الأخيرة للحافلة ، وانسل بأقصى سرعة عبر متاهة المتاجر لأن أمه تنتظره في الساعة السادسة ، وعندما خرج من الجانب الآخر للحشد سمع وقع كعب نسائي مرح على بلاط الرصيف ، فعاد ينظر ليتأكد مما كان يعرفه : إنها هي . كانت ترتدي ملابس كملابس العبيد التي في الصور ، مع تنورة ذات كشاكش واسعة ترفعها بحركة راقصة لتمر فوق برك الماء المتجمعة في الشوارع ، وفتحة عنق تكشف عن كتفيها ، وعقد ملون يلتف حول عنقها عدة لفات وعمامة بيضاء ، انه يعرف هذا النوع من النساء في فندق العابرين . وكثيراً ما يحدث لاحداهن أن تبقى بلا فطور حتى السادسة مساء ، ولا يجدن حينئذ وسيلة للحصول على الطعام الا باستخدام الجنس

كخنجر قاطع الطريق ، فيضعنه على عنق أول من يلتقينه في الشارع : عضوك أو حياتك . وبحثا عن دليل نهائي ، بدل فلورينتينو اريثا اتجاهه ، ودخل في زقاق الكانديلييخو المقفر ، فلحقت به مقتربة منه أكثر فأكثر . عندئذ توقف ، والتفت اليها ، وسد عليها الطريق فوق الرصيف مستندا على المظلة بيديه الاثنتين . ووقفت هي مقابله .

قال لها :

- إنك مخطئة يا جميلتي . فأنا لست كذلك .

- بل أنت كذلك . وهو بادٍ في وجهك .

وتذكر فلورينتينو اريثا عبارة كان قد سمعها وهو طفل صغير من طبيب العائلة ، عرابه ، معلقا على امساكه المزمن : «العالم مقسوم الى من يتغوطون جيداً ومن يتغوطون بشكل سيء » . وعلى هذا المبدأ أقام الطبيب نظرية متكاملة حول الخصائص الانسانية التي يعتبرها أكثر دقة من التنجيم . ومع تجارب السنين ، طرح فلورينتينو اريثا النظرية بطريقة أخرى : «العالم مقسوم بين الذين يشدون والذين لا يشدون» . وكان يرتاب بهؤلاء الأخيرين ، لأنهم يعتبرون خروجهم عن السكة أمراً خارقاً ، فيتبجحون بالحب وكأنهم هم الذين اخترعوه لتوهم . أما الذين يمارسونه بكثرة ، فإنهم يعيشون له فقط . ويشعرون بأنهم على أحسن حال ، حتى أنهم يبدون كأجداث مغلقة ، فهم يعلمون أن حياتهم تعتمد على التكتم . لا يتكلمون أبداً عن مآثرهم ، ولا يثقون بأحد ، يتظاهرون بالسهو حتى يوصمون بالعجز وبالضعف الجنسي ، وبأنهم مخنثون رعاديد ، كما هو حال فلورينتينو اريثا . لكنهم يساهمون في تعميم هذا الخطأ ، لأنه يؤمن لهم الحماية . انهم محفل مغلق ، يتعارف أعضاؤه على بعضهم في العالم بأسره ، دون الحاجة الى لغة مشتركة . ومن هنا لم يفاجئ رد الفتاة فلورينتينو اريثا : انها واحدة من جماعته ، وبالتالي فهي تعرف بأنه يعرف أنها تعرف .

كان هذا هو خطأ حياته الذي سيتذكره بوعيه كل ساعة في كل يوم ، وحتى آخر يوم . ما كانت تريد طلبه منه ليس الحب ، وليس الحب المدفوع الأجر كذلك بالطبع ، وانما كانت تريد عملا ، أي عمل كان ، وكيفما كان وبأي أجر كان ، في شركة الكاريبي للملاحة النهرية . أحس فلورينتينو اريثا بخجل عارم لتصرفه معها دفعه لمرافقتها الى مدير التوظيف الذي منحها عملا من الدرجة الدنيا في القسم العام ، تولته بكل جدية وتواضع وانكباب خلال ثلاث سنوات .

كانت مكاتب ش . ك . م . ن . تقوم منذ تأسيسها مقابل الميناء النهري الذي لا يشبه بشيء ميناء عابرات المحيطات في الجانب الآخر من الخليج ، ولا مرسى السوق عند شاطئ لاس اينماس . وكانت تلك المكاتب عبارة عن مبنى خشبي سقفه من التوتياء المضلع ، وله شرفة طويلة متصلة تستند على دعائم خشبية من الجهة الأمامية ، وعدة نوافذ ذات شباك معدنية من الجهات الأربع ، تبدو منها السفن في الميناء وكأنها لوحات معلقة على الجدار . عندما بناه الألمان الأوائل ، طلوا توتياء السقف باللون الأحمر والجدران الخشبية باللون الأبيض البراق ، بحيث كان في المبنى ذاته شيء من السفن النهرية . ثم دهنوه بكامله فيما بعد باللون الأزرق ، وفي الزمن الذي دخل فيه فلورينتينو اريثا للعمل في الشركة كان المبنى قرميديا معفرا بلا لون محدد ، وعلى السقف الصدئ كانت توجد رقع من صفائح توتياء جديدة فوق الصفائح الأصلية . ووراء المبنى ، في فناء مرصوف ببلاط متآكل مسيج بشبكة أسلاك كشباك أقنان الدجاج ، كانت توجد حانتان كبيرتان حديثتا البناء ، وفي نهاية الفناء ثمة أنبوب تصريف مغلق ، قذر منتن ، حيث تتعفن فضلات نصف قرن من الملاحة النهرية : حطام سفن تاريخية . بدءا من السفن البدائية ذات المدخنة الوحيدة ، التي دشنها سيمون بوليفار ، وحتى بعض السفن الحديثة المزودة بمراوح كهربائية في القمرات . وكان

معظم تلك السفن مفككاً لاستخدام أجزاء منها في سفن أخرى ، ولكن عددا لابأس به منها كانت في حالة تبدو معها أنها لا تحتاج إلا لطلائها بوجه من الدهان واطلاقها للابحار ، دون إخافة العظاءات أو تقطيع الايانك ذات الأزهار الكبيرة الصفراء التي تجعلها أكثر تشويقا .

في الطابق الأعلى من البناء كان يقوم القسم الإداري ، وذلك في مكاتب صغيرة لكنها مريحة وحسنة التجهيز ، كقمرات السفن ، اذ أنها لم تُصمم على يد مهندسين مدنيين وانما مهندسين بحريين . وفي نهاية الممر ، كان العم ليون الثاني عشر ، كأي موظف آخر ، يصرف الأعمال في مكتب كالمكاتب الأخرى كلها ، مع فارق وحيد هو أنه كان يجد فوق منضدته صباح كل يوم مزهرية زجاجية فيها أي نوع من الزهور ذات الرائحة الذكية . وفي الطابق السفلي كانت شعبة المسافرين ، مع صالة انتظار ذات مقاعد خشنة وطاولة لاصدار بطاقات السفر وتسيير الامتعة . وأخيرا كان هناك القسم العام ، ومجرد تسميته توحي بغموض اختصاصه ، حيث تنتهي المشاكل التي تبقى دون حل في بقية أقسام الشركة ، لتموت فيه أسوأ ميتة . هناك كانت ليونا كاسياني ، منسية وراء طاولة مدرسية صغيرة بين رزم من الأوراق التي لا حل لها ، يوم ذهب العم ليون الثاني عشر بنفسه ليرى أية شياطين ستخطر له ليجعل القسم العام نافعا في شيء . وبعد ثلاث ساعات من الأسئلة ، والاقتراحات النظرية والاستقصاءات المحددة مع جميع الموظفين في اجتماع موسع ، رجع الى مكتبه معذبا ليس بيقين أنه لم يجد أي حل لكل هذه المشاكل ، بل على العكس تماماً : ثمة مشاكل جديدة ومتنوعة لا حل لها .

وفي اليوم التالي ، حين دخل فلورينتينو اريثا الى مكتبه ، وجد مذكرة من ليونا كاسياني ، مع رجاء بأن يدرس المذكرة وأن يعرضها على عمه فيما بعد ، إن بدت له مناسبة . كانت الوحيدة التي لم تنطق كلمة واحدة خلال

التفتيش في مساء اليوم السابق . فقد حافظت بوعي على مكانتها كموظفة بالشفقة ، وذكرت في المذكرة بأنها لم تفعل ذلك تهاوناً واهمالا وانما احتراما لمسؤولي القسم . وكان حلها على جانب مثير من البساطة . كان العم ليون الثاني عشر قد اقترح اعادة تنظيم جذرية ، لكن ليونا كاسياني كانت تفكر في اتجاه معاكس ، انطلاقا من البديهية البسيطة بأن القسم العام لا وجود له عمليا : انه مزبلة المشاكل المعلقة وعديمة الجدوى التي ترفعها الأقسام الأخرى عن كواهلها . وبالتالي فإن الحل في إلغاء القسم العام ، وإعادة المشاكل ليتم حلها في أقسامها الأصلية .

لم تكن لدى العم ليون الثاني عشر أدنى فكرة عمن هي ليونا كاسياني ، ولم يذكر أنه رأى أحداً يمكن أن يكون في اجتماع مساء اليوم السابق ، لكنه عندما قرأ المذكرة استدعاها الى مكتبه وتحادث معها على انفراد لمدة ساعتين . تحدثا قليلا في كل موضوع ، انسجاما مع منهجه في التعرف على الناس . كانت المذكرة بسيطة وعادية ، وقد أعطى الحل النتائج المرجوة فعلا . لكن العم ليون الثاني عشر لم يهتم بهذا : كان مهتماً بها . وكان أكثر ما لفت انتباهه أن دراستها الوحيدة بعد المدرسة الابتدائية كانت في مدرسة صناعة القبعات . كما أنها كانت تتعلم الانكليزية في بيتها مستخدمة لذلك منهجاً سريعاً دون معلم ، وأنها تتلقى منذ حوالي ثلاثة شهور دروساً ليلية لتعلم الضرب على الآلة الكاتبة ، وهي مهنة مستجدة ذات مستقبل باهر ، كما كان يقال فيما مضى عن التلغراف ، وكما قيل من قبل عن الآلات البخارية .

ما ان خرجت من المقابلة حتى كان العم ليون الثاني عشر قد بدأ بمناداتها كما سيناديها دائماً : مثيلتي بالاسم ليونا ، كان قد قرر إلغاء القسم موضع الخلاف بجرة قلم وتوزيع المشاكل ليجري حلها من قبل مسببيها أنفسهم ، مثلما اقترحت ليونا كاسياني ، كما ابتدع لها منصباً بلا

اسم وبلا مهمات محددة ، وهو عملياً منصب معاونته الخاصة . وفي مساء هذا اليوم ، بعد دفن القسم العام دون تكريم ، سأل العم ليون الثاني عشر فلورينتينو اريثا من أين أتى بليونا كاسياني ، فأجابه هو بالحقيقة .

فقال له العم ليون :

ـ عد إذن إلى الحافلة اتتني بمن هن مثلها . فباثنتين أو ثلاث من هذا النوع سنعوم مركبك .

فهم فلورينتينو اريثا الأمر كمزحة تقليدية من مُزَح العم ليون الثاني عشر ، ولكنه وجد نفسه في اليوم التالي بدون العربة التي أعطيت له قبل ستة شهور ، والتي انتزعوها من الآن ليتابع البحث عن المواهب المخبأة في الحافلات . أما ليونا كاسياني فان ترددها الأولي ما لبث أن اختفى ، وأخرجت من أعماقها كل ما كانت تخفيه بدهاء شديد في السنوات الأولى الثلاث . بعد ثلاث سنوات أخرى كانت قد أحاطت بكل شؤون المؤسسة ، وفي السنوات الأربع التالية وصلت الى أبواب الأمانة العامة ، لكنها رفضت الدخول لأن درجة واحدة كانت تفصلها عن فلورينتينو اريثا . لقد كانت حتى ذلك الحين تحت امرته ، وكانت تريد البقاء كذلك ، رغم أن الحقيقة لم تكن كذلك : ففلورينتينو اريثا نفسه لم يكن واعياً إلى أنه هو من كان تحت إمرتها . فهو لم يفعل شيئاً سوى تنفيذ اقتراحاتها في الادارة العامة لمساعدته في الصعود أمام مكائد اعدائه الخفيين .

كانت ليونا كاسياني تتمتع بمواهب شيطانية في الوصول إلى الأسرار ، فهي تعرف دوماً كيف تكون حيث يجب عليها أن تكون وفي الوقت المناسب . كانت ديناميكية ، صامتة ، ذات عذوبة حكيمة ، ولكنها عند الضرورة ، وبكل آلام روحها ، تفلت الاعنة لطبعها الفولاذي . على الرغم من أنها لم تكن تستخدم هذا الطبع لصالحها . اذ كان هدفها الوحيد هو كنس سلم الترقيات بأي ثمن ، وبالدم إن لم تكن ثمة وسيلة أخرى ، ليصعد عليه

فلورينتينو اريثا ويصل إلى حيث أراد الصعود دون أن يحسب مسبقاً قواه الذاتية . كانت قادرة بكل تأكيد على عمل ذلك تلبية لميلها الجامح إلى السلطة ، لكنها فعلت ذلك في الحقيقة وهي واعية أن ما تفعله ليس إلا مجرد امتنان . لقد كان قرارها حاسماً ، حتى أن فلورينتينو اريثا اختلطت عليه تكتيكاتها ، وحاول في لحظة شؤم أن يغلق الطريق أمامها معتقداً أنها تحاول سد السبيل في وجهه . فوضعته ليونا كاسياني في موضعه الصحيح قائلة له :

ـ لا تخطئ . أنا مستعدة للتخلي عن كل هذا عندما تشاء ، ولكن فكر بالأمر جيداً .

وفلورينتينو اريثا ، الذي كان قد فكر فعلاً ، أعاد التفكير حينئذ على أحسن وجه استطاعه ، وسلمها أسلحته . الحقيقة أنه وسط تلك الحرب القذرة في مؤسسة تعاني أزمة دائمة ، وسط كوارثه كصقر صيد لا يهدأ ، وحلم فيرمينا داثا الذي أصبح أكثر بعداً عن التحقيق ، لم يتوصل فلورينتينو اريثا العصي على التأثر الى لحظة سلام داخلي أمام مرأى تلك الزنجية الباسلة ، الملوثة بالبراز والحب في حمى الصراع . حتى أنه كان يتألم سراً في أحيان كثيرة لأنها لم تكن في الواقع كما ظنها مساء اليوم الذي تعرف فيه عليها ، لأنه كان سيمسح مؤخرته بمبادئه حينئذ ويمارس الحب معها حتى ولو دفع في سبيل ذلك تبر الذهب اللماع . لكن ليونا كاسياني بقيت كما كانت مساء ذلك اليوم في الحافلة ، بملابسها التي كملابس عبدة مشعثة هاربة ، وعمائمها المجنونة ، وأقراطها وأساورها العظمية ، ومجموعة عقودها وخواتمها ذات الفصوص المزيفة في كل اصبع من أصابعها : لبوة شارع . والتبدل الوحيد الذي أضفته عليها السنون كان لصالحها : كانت تبحر في نضج رائع ، وصارت مفاتنها كامرأة أكثر اثارة ، وجسدها الافريقي المتقد أخذ يصبح أشد زخماً مع نضجها . لكن فلورينتينو اريثا لم يعد ينتبه اليها مدة عشر سنوات ، دافعاً بذلك كفارة خطأه الأول ، ولقد ساعدته هي في كل شيء ، سوى هذا .

وفي إحدى الليالي التي بقي يعمل فيها حتى ساعة متأخرة ، كما كان يفعل بكثرة بعد وفاة أمه ، رأى فلورينتينو اريثا وهو يخرج أن هناك نوراً مضاء في مكتب ليونا كاسياني . فتح الباب دون أن يقرعه ، وجدها أمامه : وحيدة وراء الطاولة ، غارقة في التفكير وجدية . بنظارة جديدة تمنحها مظهراً أكاديمياً . وانتبه فلورينتينو اريثا بلفحة سعادة إلى أنهما وحيدان في المبنى ، كانت أرصفة الميناء مقفرة ، والمدينة هاجعة ، والليل السرمدي فوق البحر المظلم ، والجؤار الكئيب لسفينة يحتاج وصولها لأكثر من ساعة . استند فلورينتينو اريثا على مظلته بكلتا يديه ، تماماً كما فعل في زقاق الكانديليخو ليسد عليها الطريق ، إلا اليوم فعل ذلك كي لا تلحظ ارتعاش ركبتيه ، وقال لها :

ـ أخبريني يا لبوة روحي : متى سنخرج من هذا ؟

رفعت نظارتيها عن عينيها دون أن تفاجأ ، بسيطرة مطلقة ، وأبهرته بابتسامتها الشمسية ولم تكن قد خاطبته برفع الكلفة أبداً من قبل ، وقالت :

ـ آه يا فلورينتينو اريثا ، عشر سنوات وأنا جالسة هنا أنتظر أن تسألني هذا السؤال .

لقد جاء متأخراً : كانت الفرصة معها وهي في حافلة البغال ، وكانت تجلس معها دوماً على الكرسي نفسه الذي تجلس عليه ، أما الآن فقد مضت إلى الأبد . والحقيقة أنها بعد كل المكائد الخفية التي قامت بها من أجله ، وبعد كل البذاءات التي احتملتها من أجله ، كانت قد سبقته في الحياة ، فصارت تبدو أكبر بكثير من السنوات العشرين التي تكبره بها . كانت تحبه كثيراً ، لذلك فضلت الاستمرار بحبه بدلاً من أن تخدعه ، وحتى ولو جعلته يدرك ذلك بأسلوب قاسٍ .

قالت له :

ـ لا . سأشعر بأنني أنام مع الابن الذي لم أنجبه أبداً .

بقي فلورنتينو اريثا وفي حلقه شوكة لأنه لم يكن صاحب الكلمة الأخيرة . فكر بأن المرأة حين تقول لا ، فانها تنتظر الالحاح قبل اتخاذ قرارها النهائي ، لكن الأمر معها كان مختلفاً : لا يستطيع أن يغامر بالخطأ ثانية . انسحب عن طيب خاطر ، بل وببعض الرشاقة التي لم تكن سهلة عليه . ومنذ تلك الليلة ، تبددت دون مرارة أية ظلال قد تكون بينهما ، وفهم فلورينتينو اريثا أخيراً أنه يستطيع أن يكون صديقاً لامرأة دون أن يضاجعها .

كانت ليونا كاسياني هي الكائن البشري الوحيد الذي حاول فلورينتينو اريثا أن يكشف لها سر فيرمينا داثا . فالأشخاص القلائل الذين يعرفون السر بدأوا بنسيانه لأسباب قاهرة . فثلاثة منهم حملوه معهم إلى القبر دون شك : أمه ، وكانت قد محته من ذاكرتها قبل موتها بكثير . وغالا بلاثيديا ، التي ماتت بشيخوخة متقدمة وهي في خدمة من كانت كابنة لها . وطيبة الذكر اسكولاستيكا داثا ، التي حملت له في كتاب الصلوات أول رسالة حب تلقاها في حياته ، والتي لا يمكن لها أن تكون على قيد الحياة بعد كل هذه السنين . ولورينثو داثا ، الذي لم يكن يعرف حينئذ إن كان ميتاً أم حياً ، ويمكن أن يكون قد كشف السر للأخت فرانكا دي لا لوث محاولاً الحيلولة بذلك دون طرد ابنته من المدرسة ، ولكن احتمال اشاعته الأمر ضئيل جداً . يبقى هناك أحد عشر عامل تلغراف من مقاطعة هيلديبراندا سانتشيث النائية الذين تداولوا فيما بينهم برقيات تحمل اسميهما الكاملين وعناوينهما الدقيقة ، وأخيراً هيلديبراندا سانتشيث وبطانتها من بنات الخؤولة الجامحات .

ما كان يجهله فلورينتينو اريثا هو ما اذا كان عليه ضم الدكتور خوفينال اوربينو إلى القائمة . فهليديبراندا سانتشيث كانت قد كشفت له السر أثناء إحدى زياراتها الكثيرة في السنوات الأولى . لكنها فعلت ذلك بشكل عرضي

جداً وفي لحظة غير مناسبة ، بحيث أن الخبر لم يدخل من احدى أذني الدكتور اوربينو ليخرج من الأذن الأخرى كما ظنت هي ، وانما لم يدخل إلى أي من الأذنين أبداً . الواقعة هي أن هيديبراندا ذكرت اسم فلورينتينو اريثا كواحد من الشعراء المغمورين المؤهلين حسب رأيها للفوز بجائزة مهرجان الزهور . وقد تذكره الدكتور اوربينو بصعوبة بالغة ، وقالت له دون حاجة للقول ، ولكن دون أدنى نية للاساءة ، بأنه الشاب الوحيد الذي ارتبطت به فيرمينا داثا بعلاقة قبل زواجها . قالت ذلك وهي مقتنعة تماماً من أنه قول بريء وعابر ، أكثر مما هو مثير . ورد عليها الدكتور اوربينو دون أن ينظر اليها : «لم أكن أعلم أن هذا الشخص شاعر» . ومحاه من ذاكرته في الحال ، مثلما يمحو أموراً أخرى ، لأن مهنته قد عودته استخداماً أخلاقياً للنسيان .

ولاحظ فلورينتينو اريثا أن جميع المطلعين على السر ، باستثناء أمه ، كانوا ينتمون إلى عالم فيرمينا داثا . أما من جهته فلم يكن أحد سواه ، وحيداً تحت وطأة حمل كثيراً ما احتاج إلى من يقاسمه إياه ، لكنه لم يجد من هو جدير بكل هذه الثقة . وكانت ليونا كاسياني هي الاحتمال الوحيد ، وكان يحتاج إلى الأسلوب والمناسبة فقط . كان يفكر بالأمر في ذلك المساء الصيفي القائظ ، حين صعد الدكتور خوفينال اوربينو درج ش . ك . م . ن . المائل ، باستراحة على كل درجة لتجاوز قيظ الساعة الثالثة ، وظهر لاهثاً في مكتب فلورينتينو اريثا ومبللاً بالعرق حتى بنطاله ، وقال بالنفس الأخير : «أرى أن اعصاراً سيدهمنا» . كان فلورينتينو اريثا قد رآه هناك عدة مرات ، باحثا عن العم ليون الثاني عشر ، لكنه لم يشعر أبداً بوضوح كما شعر ذلك اليوم بأن لتلك الزيارة وهذا المظهر الغريب علاقة ما بحياته .

كان ذلك في الحقبة التي تجاوز فيها الدكتور خوفينال اوربينو كذلك عثرات المهنة ، وأخذ يمضي متنقلاً من باب لباب كمتسول ، حاملاً قبعته بيده ، لجمع التبرعات لدعم مشاريعه في تشجيع الفنون . وقد كان العم ليون

الثاني عشر دوماً هو أحد متبرعيه المواظبين والأسخياء ، والذي كان قد بدأ في تلك اللحظة بالذات قيلولته اليومية التي تستغرق عشر دقائق ، يغفوها وهو جالس على كرسي المكتب ذي النوابض . طلب فلورينتينو اريثا من الدكتور خوفينال اوربينو التفضل بالانتظار في مكتبه ، المجاور لمكتب العم ليون الثاني عشر ، والذي كان يُستخدم إلى حد ما كصالة انتظار .

كانا قد التقيا في مناسبات عديدة ، لكنهما لم يتقابلا وجهاً لوجه كما هما اليوم ، وعانى فلورينتينو اريثا مرة أخرى من احساسه بالوضاعة . لقد كانت عشر دقائق أبدية ، نهض خلالها ثلاث مرات آملاً أن يكون العم قد استيقظ قبل موعده . وتناول ترمساً كاملاً من القهوة المرة ، لم يقبل الدكتور اوربينو فنجاناً واحداً منه . اذ قال : «القهوة سم» . وتابع وصل موضوع بآخر دون أن يهتم إن كان يستمع إليه . لم يكن فلورينتينو اريثا قادراً على تحمل وجاهته الطبيعية ، وانسياب كلماته ودقتها ، ورائحة نَفَسَه العميق المشبع بالكافور ، وسحره الشخصي ، وأسلوبه البسيط والمنمق الذي يجعل أتفه العبارات تبدو جوهرية لمجرد أنه هو من ينطق بها ، وفجأة ، غيّر الطبيب موضوع الحديث على نحو مباغت .

ـ أتحب الموسيقى ؟

أخذه على حين غرة . فالحقيقة أن فلورينتينو اريثا يذهب لحضور كل كونشيرتو أو عرض أوبرا يقام في المدينة ، لكنه لم يكن يشعر بأنه قادر على ادارة حوار نقدي ومطلع . كان ميالاً إلى الموسيقى الدارجة ، وخصوصاً الفالسات العاطفية ، التي لا يمكن تجاهل شبهها بالموسيقى التي كان يعزفها في مراهقته ، أو بأشعاره السرية . وكان يكفيه سماعها لمرة واحدة بشكل عابر ، حتى يعجز الرب نفسه عن انتزاع خيط اللحن من رأسه لعدة ليال . لكن هذا كله لا يشكل رداً جدياً على سؤال بهذه الجدية يطرحه متخصص .

قال :

ـ يعجبني غارديل .

تفهم الدكتور اوربينو الأمر بقوله : «أرى ذلك . انه منتشر كموضة .» وانطلق يعدد مشروعاته الجديدة والمتنوعة ، والتي عليه تحقيقها كالعادة بلا اعانة رسمية . ولفت نظره إلى مستوى الاستعراضات الهابط المثبط للعزيمة ، التي يجري احضارها الآن ، وروعة استعراضات القرن الماضي . وهكذا كان : فمنذ سنة وهو يبيع سندات من أجل دعوة ثلاثي كورتوت ـ كاسالس ـ ثيباور إلى مسرح الكوميدي ، وليس هناك في الحكومة من يعرف من هم هؤلاء ، بينما نفدت في ذلك الشهر بالذات بطاقات فرقة المآسي البوليسية رامون كارلت ، وفرقة دون مانوللو دي لابريسا للأوبريت الشعبي ، وفرقة لوس سانتانيلاس الايمانية ـ الخيالية التي تحوّر النصوص بشكل غريب ، والتي يبدل أعضاؤها ملابسهم على المنصة في لحظة خاطفة ، وفرقة دانس دي التاين ، التي يُعلن عنها بأنها جماعة الرقص السابقة في فرقة فوليس بيرغر ، بل وتنفد كذلك بطاقات استعراضات اورسوس الفظيعة ، هذا الباسكي المعتوه الذي يصارع الثيران بجسده . ومع ذلك ، فلا مجال للشكوى ، لأن الأوربيين أنفسهم يقدمون من جديد أسوأ مثل باشعالهم نار حرب همجية ، بينما بدأنا نحن نعيش بسلام بعد تسعة حروب أهلية خلال نصف قرن ، بالامكان ، بعد حسابات جيدة ، اعتبارها حرباً واحدة : الحرب ذاتها دائماً . وأكثر ما لفت انتباه فلورينتينو اريثا في تلك الخطبة الساحرة ، هو امكانية بعث مهرجان الزهور من جديد ، والذي كان أكثر مبادرات الدكتور خوفينال اوربينو شهرة وديمومة . وكان عليه أن يعض لسانه كي لا يقول له بأنه كان مشاركاً مثابراً في تلك المسابقة السنوية التي أصبحت تثير اهتمام شعراء بارزين ، ليس في بقية أنحاء البلاد وحسب ، وانما كذلك في بلدان الكاريبي الأخرى .

ما كادت المحادثة تبدأ ، حتى برد بخار الهواء الساخن فجأة ، وصفقت

عاصفة رياح متقاطعة الأبواب والنوافذ ، بقوة ، واهتز المبنى وأنّت ركائزه وكأنه زورق في مهب الريح . لم يبد على الدكتر خوفينال اوربينو أنه أحس بما يجري . اذ أشار بشكل عرضي إلى أعاصير حزيران المجنونة ، ثم انتقل فجأة ، وبلا مناسبة ، للحديث عن زوجته . لم يكن يعتبرها مساعدة نشيطة في مبادراته فقط ، بل وروح تلك المبادرات ذاتها . قال : «لست شيئاً يذكر دونها» . استمع اليه فلورينتينو اريثا بلا تأثر ، موافقاً على كل ما يقوله بحركة خفيفة من رأسه ، دون أن يتجرأ على قول أي شيء خوفاً من أن يخونه الصوت . ومع ذلك ، فإن عبارتين أو ثلاث عبارات أخرى كانت كافية لجعله يدرك أن الدكتور خوفينال اوربينو ، وسط كل هذه الالتزامات المرهقة ، كان يجد فائضاً من الوقت لعبادة زوجته كما يعبدها هو ، وقد أذهلته هذه الحقيقة . لكنه لم يستطع إتيان رد الفعل الذي شاءه ، لأن قلبه عاجله حينئذ بخاطر عاهر من تلك الخواطر التي تراود القلوب فقط : كشف له أنه وذلك الرجل الذي اعتبره دوماً عدوه الشخصي ، ضحيتا المصير نفسه ، وانهما يتقاسمان محنة عاطفة مشتركة . بهيمتان مربوطتان معاً إلى النير نفسه . وللمرة الأولى خلال السنوات السبع والعشرين اللانهائية التي أمضاها منتظراً ، لم يستطع فلورينتينو اريثا مقاومة وخز الألم لاحساسه بأنه لابد من موت ذلك الرجل الموقر لينعم هو بالسعادة .

مر الاعصار سريعاً ، لكن عواصفه خربت خلال خمس عشرة دقيقة أحياء المستنقعات ، وسببت دماراً في نصف أحياء المدينة . ولم ينتظر الدكتور خوفينال اوربينو ، السعيد ثانية بكرم العم ليون الثاني عشر ، إلى أن يتوقف المطر نهائياً ،وحمل معه ساهياً مظلة فلورينتينو اريثا الخاصة التي أعاره إياها للوصول إلى العربة . لكن هذا الأخير لم يهتم . بل على العكس : أحس بالسعادة وهو يفكر بما ستفكر فيه فيرمينا داثا عندما تعرف من هو صاحب المظلة . كان مايزال مضطرباً بانفعالات المقابلة حين مرت ليونا

كاسياني من مكتبه ، فرأى أنها الفرصة الوحيدة المناسبة لكشف السر لها دون مزيد من المواربة ، والإفضاء به كما يشق دملاً ينغص عليه حياته : الآن أو أبداً . بدأ بسؤالها عن رأيها بالدكتور خوفينال اوربينو . فأجابته دون أن تفكر بالأمر تقريباً : «إنه رجل يساهم بأعمال كثيرة ، وربما هي كثيرة جداً ، لكنني أظن أن أحداً لا يعرف ما الذي يفكر به» . ثم تروت قليلاً ، وهي تقضم ممحاة قلم الرصاص بأسنانها الحادة الكبيرة ، أسنان زنجية كبيرة ، ثم هزت كتفيها لتصفي مسألة لا تهمها بشيء ، وقالت :

ـ ربما هذا هو سبب قيامه بكل تلك الأعمال : حتى لا يضطر للتفكير .

فقال :

ـ ما يؤلمني هو أنه يجب أن يموت .

قالت :

ـ جميع الناس سيموتون .

قال :

ـ أجل ، انما هذا أكثر من جميع الناس .

لم تفهم شيئاً . وعادت تهز كتفيها دون أن تتكلم ، وانصرفت . حينئذ عرف فلورينتينو اريثا أنه في ليلة مستقبلية غير محددة ، وفي سرير سعيد مع فيرمينا داثا ، سيروي لها أنه لم يكشف سر حبها حتى للانسانة التي اكتسبت حق الاطلاع عليه ، لا... لن يكشفه أبداً ، حتى ولا لليونا كاسياني . ليس لأنه لا يريد فتح الصندوق الذي خبأ فيه سره بحرص خلال نصف حياة ، وانما لأنه أدرك حينئذ فقط أنه قد أضاع المفتاح .

لم يكن هذا مع ذلك ، هو أكثر ما أثر فيه يومذاك . لقد أعاد له اللقاء حنين أيام شبابه ، وذكرى حية من مهرجان الزهور ، الذي كانت اصداؤه تدوي في كل خامس عشر من نيسان مالئة أجواء الانتيل . ولقد كان دائماً واحداً من أبطال المهرجان ، انما كعادته في كل شيء دوماً ، كان بطلاً

سرياً . شارك مرات عديدة منذ مسابقة الافتتاح الأولى ، قبل أربع وعشرين سنة خلت ، ولم ينل أبداً أية جائزة ، بل ولا التنويه الأخير . لكنه لم يكن يبالي ، لأنه لا يشارك طمعاً بالجائزة ، وانما لأنه يجد في المسابقة جاذبية خاصة : ففيرمينا داثا تولت مسؤولية فتح المغلفات المختومة بالشمع واعلان النتائج في الدورة الأولى ، وأُقر منذ ذلك الحين أن تتولى القيام بهذا الدور في السنوات التالية .

وفيما هو مختبئ في عتمة المقاعد في الصالة ، وفي عروة سترته زهرة كاميليا ندية تنبض بقوة الشوق ، رأى فلورينتينو اريثا فيرمينا داثا وهي تفتح المغلفات الثلاثة المختومة بالشمع الأحمر من فوق منصة المسرح الوطني القديم ، ليلة المسابقة الأولى . تساءل ما الذي سيصيب قلبها حين تكتشف أنه هو الفائز بالسحلبة[1] الذهبية . كان متأكداً أنها ستتعرف على خطه ، وأنه ستتداعى إلى مخيلتها في تلك اللحظة أمسيات التطريز تحت أشجار اللوز في الحديقة الصغيرة . ورائحة الياسمين الذابل في الرسائل ، وفالس الربة المتوجة ، الذي يعرفه كلاهما ، في الصباحات ذات الرياح . لكن ذلك لم يحدث . بل إن ما حدث كان أسوأ من أي تصور : فالسحلبة الذهبية ، جائزة الشعر الوطنية المنشودة ، خصصت لمهاجر صيني . والفضيحة العامة التي أثارها ذلك القرار العجيب وضع جدية المسابقة موضع الشك . لكن الخطيئة كانت عادلة ، وكان لاجماع لجنة التحكيم ما يبرره في جودة القصيدة وتفوقها .

لم يصدق أحد أن يكون ناظمها هو الصيني الفائز . كان قد وصل إلى المدينة في أواخر القرن الماضي هرباً من آفة الحمى الصفراء التي عاثت خراباً بينما أثناء مدّ السكة الحديد ما بين المحيطين ، إلى جانب صينيين آخرين استقروا هنا حتى موتهم ، وكانوا يعيشون بالصينية ، ويتناسلون

(١) السحلبة : زهر نبتة السحلبية . وهي نبتة برية أزهارها ذات لون أرجواني .

بالصينية ، ويشبهون بعضهم بعضاً حتى لم يكن هناك من هو قادر على تمييزهم . لم يتجاوزوا أول الأمر العشرة أشخاص ، وكان برفقة بعضهم زوجاتهم وأولادهم وكلابهم التي يأكلونها ، ولكن ما أن انقضت عدة سنوات حتى فاضت أربعة أزقة في أحياء الميناء بصينيين جدد كانوا يدخلون البلاد دون أن يتركوا أثراً في سجلات الجمارك . وقد تحول بعض الشباب منهم إلى شيوخ موقرين بسرعة كبيرة جداً لم يدرك أحد معها كيف أتيح لهم الوقت ليشيخوا . وقد قسمتهم البديهة الشعبية إلى صنفين : الصينيون الأشرار والصينيون الأخيار . الأشرار هم أصحاب حانات الميناء الصغيرة الكئيبة . حيث يمكن للمرء أن يأكل كملك أو أن يموت فجأة على الطاولة أمام طبق فئران محضر مع عباد الشمس ، وكانت الشكوك تحوم حول تلك الحانات بأنها ليست سوى ستار يخفي وراءه تجارة رقيق أبيض وغيرها . أما الصينيون الأخيار فهم صينيو محلات كيّ الملابس ، ورثة هذا العلم المقدس ، الذي يعيدون القمصان أنصع مما كانت عليه وهي جديدة ، جاعلين ياقاتها ومعاصمها تبدو وكأنها خبز قربان طازج . وكان أحد هؤلاء الصينيين الطيبين هو الذي هزم في مهرجان الزهور اثنين وسبعين منافساً معروفاً .

لم يفهم أحد من الحضور الاسم حين قرأته فيرمينا داثا مبهورة ليس لأنه كان اسماً غريباً وحسب ، بل لأن أحداً ما كان يعلم علم اليقين كيف هي أسماء الصينيين أيضاً . لكنهم لم يفكروا بالأمر طويلاً ، اذ برز الصيني الفائز من آخر الصالة بتلك الابتسامة السماوية التي يبتسمها الصينيون حين يصلون إلى بيوتهم في وقت مبكر . لا بد أنه جاء وهو متأكد من الفوز ، فارتدى لاستلام الجائزة قميص الحرير الأصفر الذي يلبسونه في طقوس الربيع . تلقى السحلبة الذهبية من عيار أربعة وعشرين قيراطاً ، وقبلها بسعادة وسط استهزاء المستنكرين الصاخب . لم يتأثر . وانتظر في منتصف المنصة .

ثابت الجنان كرسول عناية الهية أقل دراماتيكية من التي نؤمن بها ، وانتهز أول لحظة صمت ليقرأ القصيدة . فلم يفهمها أحد . ولكن حين توقف تيار السخرية الجديد ، أعادت فيرمينا داثا قراءتها دون تأثر ، بصوتها الأبح اللماح ، فسيطر الذهول على الجميع منذ البيت الأول . لقد كانت سوناتة من أنقى سلالات السوناتات البرناسية ، متقنة ، ومخترقة بنفحة الهام تشي بمشاركة يد بارعة في نظمها . التفسير الوحيد المقبول هو أن أحد الشعراء الكبار قد خطط لتلك المزحة ليسخر من مهرجان الزهور ، وأن الصيني قد شارك فيها مقرراً كتمان السر حتى الموت . صحيفة دياريوديل كوميرثيو ، جريدتنا العريقة ، حاولت ترقيع شرفنا الحضاري بمقال ضليع وأقرب إلى عسر الهضم حول عراقة تأثير الصينيين بمنطقة الكاريبي ، وحقهم بالاشتراك عن جدارة في مهرجان الزهور . ولم يشك كاتب المقال في أن واضع السوناتة هو من يدعي ذلك فعلاً ، وبرر الأمر دون لف ولا دوران بدءاً من العنوان : الصينيون كلهم شعراء . مدبرو المؤامرة ، ان كان لها من مدبرين ، تعفنوا في قبورهم مع السر . وكذلك مات الصيني الفائز بعد عمر شرقي دون أن يعترف ، وقد دُفن مع السحلبة الذهبية في التابوت ، وكذلك مع غصة أنه لم يستطع أن يحقق في حياته الشيء الوحيد الذي كان يتوق اليه ، ألا وهو اعتماده كشاعر . وبمناسبة موته ذكرت الصحافة حادث مهرجان الربيع المنسي ، وأعيد توزيع السوناتة على ألحان كمان محدثة وبغناء فتيات منتفخات بنبات قرن الرخاء الذهبي ، وانتهز الأرباب القيمون على الشعر المناسبة ليضعوا الأمور في نصابها : كانت السوناتة تبدو للجيل الجديدعلى درجة من السوء بحيث لم يعد أحد يشك في أن كاتبها هو الصيني الميت فعلاً .

لقد ارتبطت تلك الفضيحة في ذاكرة فلورينتينو اريثا بذكرى متأنقة مجهولة كانت تجلس إلى جانبه : كان قد تأملها عند بدء الاحتفال . لكنه ما

لبث أن نسيها في رعب الانتظار . لقد لفتت انتباهه لبياضها اللؤلؤي ، وشذى البدينة السعيدة الذي يفوح منها ، ولصدرها الضخم النديّ المتوج بزهرة مانوليا اصطناعية . كانت ترتدي فستاناً مكسراً من المخمل الأسود ، شديد السواد كعينيها الدسمتين ، وكان شعرها أشد اسوداداً ، تثبته على العنق بمشط زينة كالذي تستخدمه الغجريات . كانت تضع أقراطاً متدلية ، وعقداً من النوع ذاته وخواتم مشابهة في عدة أصابع ، جميعها ذات طبعة براقة ، وخالاً مرسوماً بالقلم على وجنتها اليمنى . وفي ضجة التصفيق النهائي ، نظرت إلى فلورينتينو اريثا بكآبة صريحة وقالت له :

ـ صدقني إنني آسفة من أعماق روحي .

ذهل فلورينتينو اريثا ، ليس للتعزية التي كان يستحقها فعلاً ، وانما لاندهاشه بأن هناك من يعرف سره . وأوضحت له : «أدركت ذلك للطريقة التي كانت تنبض بها الزهرة فوق صدرك أثناء فتح المغلفات» . أرته زهرة المانوليا الاصطناعية التي كانت تحملها بيدها ، وفتحت له قلبها قائلة :

ـ لهذا السبب نزعت زهرتي .

كانت على وشك البكاء للهزيمة ، لكن فلورينتينو اريثا أبدل مزاجها بغريزية كصياد ليلي حين قال لها :

ـ هلمي بنا إلى مكان نبكي فيه معاً .

اصطحبها إلى بيتها . وفيما هما أمام الباب ، ونظراً لأن الوقت كان منتصف الليل تقريباً ولا وجود لأحد في الشارع ، فقد أقنعها بأن تدعوه لتناول كأس من البراندي ورؤية ألبومات قصاصات وصور أحداث أكثر من عشرة أعوام من الحياة العامة ، أخبرته أنها تملكها . انها خدعة قديمة جداً ، ولكنها كانت لا ارادية هذه المرة لأنها هي التي تحدثت عن ألبوماتها فيما هما قادمان من المسرح الوطني . دخلا ، وأول ما لاحظه فلورينتينو اريثا هو أن باب غرفة النوم الوحيدة كان مفتوحاً ، وأن سريرها كان فسيحاً

وفخماً ، عليه غطاء من البروكار وله مسند علوي من البرونز المزخرف . لقد بلبله هذا المشهد . ولا بد أنها انتبهت لذلك ، اذ تقدمت عبر الصالة وأغلقت باب حجرة النوم . ثم دعته للجلوس على متكأ من الأكريتون المزين برسوم أزهار حيث كان ينام هر ، ووضعت على طاولة صغيرة أمامه مجموعة ألبوماتها . بدأ فلورينتينو اريثا بتصفحها دون إسراع ، مفكراً بخطواته التالية أكثر من تفكيره بما يراه ، وفجأة رفع بصره فرأى عينيها ممتلئتين بالدموع . فنصحها بأن تبكي متى شاءت ، دون خجل ، فلا شيء يخفف الآلام كالبكاء ، لكنه أشار عليها بأن تحلّ الصديري لتبكي براحة . وسارع لمساعدتها ، لأن الصديري كان مثبتاً بقوة على الظهر بواسطة رباط متقاطع . ولكنه قبل أن ينتهي من حلّ الرباط ، اذا بالصديري يفلت وحده بالضغط الداخلي ، وتنفست الأثداء الفلكية براحتها .

فلورينتينو اريثا الذي لم يفقد أبداً رهبة المرة الأولى ، حتى في المناسبات الأكثر سهولة ، غامر بمداعبة سطحية على العنق برؤوس أصابعه ، فتلوت بآهة طفلة مدللة دون أن تتوقف عن البكاء . عندئذ قبلها في الموقع ذاته ، بنعومة ، وكأنه يقبلها بأصابعه ، ولم يستطع عمل ذلك ثانية لأنها التفتت اليه بكامل جسدها العظيم ، الشره والدافئ ، وتدحرجا معاً على الأرض . استيقظ القط النائم على المتكأ مطلقاً مواء حاداً ، وقفز فوقهما . بحثا عن بعضهما باللمس كمبتدئين متهورين ووجدا نفسيهما كيفما اتفق ، منقلبين فوق الألبومات المنتزعة اغلفتها ، بملابسهما ، غارقين في العرق واكثر انشغالاً بتفادي خرمشات القط الغاضبة من اهتمامهما بكارثة الحب التي يقترفانها . ولكنهما منذ تلك الليلة ، بجراحهما التي مازالت تنزف ، تابعا ممارسة الحب لعدة سنوات .

عندما انتبه إلى أنه بدأ يحبها ، كانت قد أصبحت في أوج الأربعينات ، وكان يكاد أن يكمل الثلاثين . اسمها سارا نوريغا ، وقد نعمت بربع ساعة

من الشهرة في شبابها ، حين فازت في مسابقة بديوان شعر عن حب الفقراء ، لم يجد طريقة إلى النشر أبداً . كانت معلمة لمادة التمدن والتربية المدنية في المدارس الرسمية ، وتعيش على راتبها في بيت مستأجر في زقاق لوس نوفيوس المضطرب ، في حي خيتثيماني القديم . لقد عرفت عدداً من العشاق الطارئين ، دون أن تراود أياً منهم آمال الزواج منها ، لأنه كان يصعب على رجل من وسطها وفي زمنها الاقتران بامرأة ضاجعها . كما انها لم تعد تغذي هذا الأمل في نفسها بعد أن هجرها خطيبها الرسمي الأول ، الذي أحبته بالعاطفة شبه المجنونة التي كانت قادرة عليها وهي في الثامنة عشرة من عمرها ، وقد هرب من التزامه قبل أسبوع من الموعد المحدد للزفاف ، وتركها ضائعة كعروس مخدوعة ، أو كعزباء مستعملة ، كما كان يقال في ذلك الحين . ورغم قسوة تلك التجربة وسرعة انتهائها ، فإنها لم تسبب لها أية مرارة ، بل رسخت لديها قناعة طاغية بأن الحياة بالزواج أو دونه ، بدون رب أو قانون ، لا تستحق أن تعاش إن لم تكن بوجود رجل في الفراش . وأكثر ما كان يعجب فلورينتينو اريثا فيها هو أنها كانت تمص مصاصة طفل رضيع وهي تمارس الحب لكي تصل إلى ذروة المجد . وقد اقتنيا مجموعة من مختلف الأحجام والأشكال والألوان من المصاصات التي وجداها في السوق ، وكانت سارا نوريغا تعلقها على مسند السرير لتجدها وهي مغمضة العينين في لحظات الحاجة الماسة إليها .

ورغم أنها كانت حرة مثله ، وربما أنها ما كانت لتعارض كشف علاقتهما للملأ ، إلا أن فلورينتينو اريثا طرح العلاقة كمغامرة سرية . كان ينسل من باب الخدمة ، في وقت متأخر من الليل دوماً ، ويهرب على رؤوس أصابعه قبيل الفجر بقليل . وكان يعرف مثلما تعرف هي أنه في بيت مشترك يعيش فيه عدد كبير من السكان كذاك البيت ، لا بد للجيران في النهاية من أن يكونوا أكثر اطلاعاً مما يتظاهرون . ولكن فلورينتينو اريثا كان هكذا ،

حتى ولو كان الأمر مجرد معادلة نظرية ، وسيبقى كذلك خلال بقية حياته . لم يقترف أي خطأ أبداً ، سواء معها أو مع أي واحدة أخرى ، ولم يرتكب أبداً أي خروج على هذا المبدأ . لم يكن يبالغ . وفي مناسبة واحدة فقط ترك أثراً مشبوهاً أو دليلاً مكتوباً ، كاد يكلفه حياته . والحقيقة أنه تصرف دائماً كما لو كان الزوج الأبدي لفيرمينا داثا ، زوج غير مخلص ولكنه متمسك بزوجته ، يناضل دون هوادة ليتحرر من عبوديتها ، ولكن دون أن يسبب لها غمّ الخيانة الزوجية .

لم يكن ممكناً لهذه السرية المحكمة أن توفق دونما خطأ . فحتى ترانسيتو اريثا توفيت وهي مقتنعة أن ابنها الذي حبلت به بالحب وترعرع للحب كان محصناً ضد أي شكل من أشكال الحب بسبب محنته الأولى في شبابه ، ومع ذلك ، فإن أناساً كثيرين أقل أريحية ممن هم قريبون منه ، ويعرفون طبيعته السرية وميله إلى الملابس الزاهدة والمستحضرات الغريبة ، كانوا يشاركون في الشكوك بأنه ليس محصناً ضد الحب وانما ضد المرأة فقط . وكان فلورينتينو اريثا يعرف ذلك لكنه لم يفعل شيئاً لتكذيبه . كما أن الأمر لم يكن يقلق سارا نوريغا ، وغيرها من النساء الكثيرات اللواتي أحبهن ، بل وأولئك اللواتي كن يمتعنه ويستمتعن معه دون أن يحببنه ، ويقبلن به كما هو في الواقع : رجل عابر .

صار يذهب إلى بيتها في أي وقت ، وخصوصاً في صباحات أيام الآحاد ، التي كانت أهدأ الأوقات . فكانت تترك ما تقوم به ، مهما كان ، وتكرس نفسها بكامل جسدها محاولة اسعاده في السرير التاريخي الفسيح الذي كانت متأهبة له دوماً ، والذي لم تكن تسمح بممارسة الحب عليه بطقوس شكلية . ولم يكن فلورينتينو اريثا ليفهم كيف يمكن لعزباء بلا ماض استخدام جسدها الدلفيني العذب بكل هذه الخفة وهذا الحنان كما لو أنها تتحرك تحت الماء . وكانت تدافع عن نفسها بالقول ان الحب ، قبل كل شيء ، هو موهبة طبيعية .

وتقـول : «امـا أن يولد الانسـان وهو يعرفـه أو أنه لن يعـرفـه أبداً» . كـان فلورينتـينو اريثا يتلوى بغيرة تفكيره بأنها ربما تكون أكثر استـعمالاً ممـا تتظاهر به ، وكـان عليه أن يبتلع غيـرته كلها ، لأنه كـان يقـول لها مـا قـاله للأخريات جميعهن ، بأنها عشيقته الوحيدة . ومن الأشياء الكثيرة التي لم يكن يحبها ، كان صبره على وجد القط الهائج في السرير ، والذي كانت سارا نوريغا تقلم مخالبه حتى لا يمزقهما بخرمشته أثناء ممارستهما الحب .

ومع ذلك . وكفرحها في السرير حد الانهاك ، كانت تحب تكريس تعب الحب لعبادة الشعر . ولم تكن تتمتع بذاكرة مذهلة في حفظ أشعار عصرها العاطفية وحسب ، تلك التي يباع جديدها في كتيبات بسنتافين في الأزقة ، بل أنها كـانت تعلق بمسـامير على الجدران قصائدها المفضلة ، لتقرأها بأعلى صوت في أي وقت . وكانت قد نظمت في مقاطع أحد عشرية مزدوجة نصوص دروس التمدن والتربية المدنية ، على طريقة المنظومات المستخدمة في تعليم الاملاء حينئذ ، ولكنها لم تحصل على الموافقة الرسمية بإقرارها . لقد كان اندفاعها الخطابي يحملها أحياناً إلى مواصلة القاء الشعر بأعلى صوتها أثناء ممـارستها الحب ، مما يضطر فلورينتـينو اريثا لدس مصاصة في فمها ، مثلما يفعلون بالأطفال لوقفهم عن البكاء .

كان فلورينتينو اريثا يتساءل وهما في أوج علاقتهما ، أي الحالتين اللتين يتخذان هي الحب... هل هي في ما يفعلانه في السرير المضطرب أم تأملاتهما في أمسيات الآحاد الهادئة فتطمئنه سارا نوريغا بحجة بسيطة هي أن كل ما يفعلانه عاريين هو الحب . وكانت تقول : «حب الروح من الخصر فما فوق وحب الجسد من الخصر فما تحت» . وقد بدا لها هذا التصنيف مناسباً لقصيدة حول الحب المقسوم ، كتباها بأربعة أيد ، وتقدمت بها إلى مهرجان الزهور الخامس ، موقنة أن أحداً لم يشارك حتى ذلك الحين بقصيدة على هذا النحو من الأصالة . لكنها خسرت من جديد .

كانت ثائرة عندما اصطحبها فلورينتينو اريثا إلى بيتها . ولم تستطع تفسير سبب ثورتها . كانت مقتنعة أن ثمة مؤامرة تدبرها فيرمينا داثا ضدها ، لتحول دون فوز قصيدتها بالجائزة . لم يولها فلورينتينو اريثا أذناً صاغية . لقد كان مكتئب المزاج منذ تسليم الجوائز ، فهو لم ير فيرمينا داثا منذ زمن بعيد ، وقد أحس تلك الليلة بأنها قد تغيرت تغيراً عميقاً : فللمرة الأولى تظهر جلية لأول وهلة حالتها كأم . لم يكن هذا بالأمر الجديد عليه ، فقد كان يعلم أن ابنها بدأ الذهاب إلى المدرسة . ولكن عمرها الأمومي لم يكن قد بدا له رغم ذلك بمثل هذا الوضوح الذي رآه في تلك الليلة ، سواء في محيط خصرها أو في مشيتها اللاهثة إلى حد ما ، أو في عثرات صوتها حين قرأت قائمة الجوائز .

وفي محاولة لتثبيت ذكرياته عاد يتصفح ألبومات مهرجان الزهور فيما سارا نوريغا تعد شيئاً للأكل . رأى صوراً مأخوذة من مجلات ، وبطاقات مصفرة من تلك التي تباع كتذكارات في الأزقة ، وبدا له ذلك كمراجعة وهمية لخداع حياته بالذات . فقد كان يرتكز حتى ذلك الحين على وهم أن الدنيا هي التي تتغير ، فالعادات تتغير وكذلك الموضة... كل شيء يتغير إلا هي . لكنه رأى في تلك الليلة ، للمرة الأولى ، وبشكل جليّ كيف كانت حياة فيرمينا داثا تمضي ، وكيف كانت حياته هو تمضي ، بينما لا يفعل شيئاً سوى الانتظار . لم يكن قد تحدث عنها لأحد أبداً ، لأنه يعرف أنه عاجز عن نطق اسمها دون أن يظهر الشحوب على شفتيه . أما في هذه الليلة ، وفيما هو يتصفح الألبومات كما يفعل في معظم سهرات الأحد المملة ، حققت سارا نوريغا صدفة ، اصابة من تلك التي تجمد الدم حين قالت :

ـ انها لعاهرة .

قالت ذلك لدى مرورها ، ناظرة إلى صورة تظهر فيها فيرمينا داثا متنكرة كفهدة سوداء في حفلة رقص تنكرية ، ولم يكن عليها أن تذكر اسماً

ليعرف فلورينتينو اريثا عمن تتحدث . سارع إلى الدفاع بحذر ، خائفاً من الانزلاق إلى كشف يزعزع حياته . نبه إلى أنه لم يعرف فيرمينا داثا إلا عن بعد ، وأن معرفته بها لم تتجاوز التحيات الرسمية وأنه لا يمتلك أية أخبار عن حياتها الخاصة ، لكنه أبدى قناعته بأنها امرأة محترمة ، خرجت من لا شيء . وارتفعت بمواهبها الذاتية .

فقاطعته سارا نوريغا :

ـ بفضل زواج مصلحة من رجل لا تحبه . إنها أحط وسيلة للدعارة .

كانت أم فلورينتينو اريثا قد قالت له ذلك يوماً بفظاظة أقل ، انما بالصراحة نفسها لتواسيه في محنته . ولم يجد وهو مضطرب حتى النخاع رداً مناسباً على قسوة سارا نوريغا ، فحاول الهرب من الموضوع . لكن سارا نوريغا لم تسمح بذلك قبل أن تفرج عن نفسها ضد فيرمينا داثا . وبضربة حدس لم تكن قادرة على تفسيرها ، أبدت قناعتها بأنها هي من دبر المؤامرة لحجب الجائزة عنها . لم يكن ثمة سبب لتصديق ذلك : فهما لا تعرفان بعضهما ، ولم تلتقيا أبداً ، وليس لفيرمينا داثا أية علاقة بقرارات المسابقة ، هذا إذا كان لها أي اطلاع على أسرارها . وقالت سارا نوريغا بشكل قاطع : «إننا معشر النساء عرافات» . ووضعت حداً للنقاش .

منذ تلك اللحظة ، رآها فلورينتينو اريثا بعينين أخريين . فالسنوات كانت تمضي بالنسبة لها كذلك . وكانت طبيعتها الخصبة تذوي دون أمجاد ، وصار حبها يتماطل في النحيب ، وبدأت المرارات القديمة تظهر على أجفانها . انها زهرة الأمس . ثم إنها ، في فورة غضب الهزيمة ، أهملت حساب كؤوس البراندي التي تجرعها . لم تكن في ليلها ، وفيما هما يأكلان أرز جوز الهند الذي أعادت تسخينه ، محاولة أن تحدد مدى مساهمة كل منهما في كتابة القصيدة الخاسرة ، لتعرف كم ورقة من أوراق السحلبة الذهبية سيكون نصيب كل واحد منهما لو أنهما فازا . ولم تكن المرة الأولى

التي ينشغلان فيها بمناقشات بيزنطية ، لكنه انتهز الفرصة ليتنفس من الجرح الذي انفتح لتوه ، واشتبكا في نزاع بائس أحيا أحقادهما المتراكمة خلال خمس سنوات من الحب المنقسم .

وقبل عشر دقائق من الساعة الثانية عشرة ، صعدت سارا نوريغا على كرسي لتملأ ساعة البندول المعلقة ، وضبطتها على الثانية عشرة تماماً دون أن تنظر اليه ، ربما كانت راغبة أن تقول بذلك دون أن تقوله بأن وقت انصرافه قد حان . أحس فلورينتينو اريثا حينئذ بضرورة بتر تلك العلاقة الخالية من الحب من جذورها ، وبحث عن الفرصة ليكون هو صاحب المبادرة ، كما اعتاد أن يفعل دوماً . كان يدعو الله بأن تسمح له سارا نوريغا بالبقاء للنوم في سريرها ليقول لها أن لا ، وأن كل شيء قد انتهى بينهما ، طلب منها أن تجلس إلى جانبه حين انتهت من ضبط الساعة ، لكنها فضلت البقاء بعيدة عنه ، على كرسي من كراسي الزيارات . عندئذ مد لها فلورينتينو اريثا اصبعه السبابة مبللة بالبراندي لتمصها ، كما كانت تحب أن تفعل قبل الحب في أزمان أخرى . فتجنبته قائلة :

ـ ليس الآن . انني أنتظر شخصاً .

مذ صدته فيرمينا داثا ، تعلم فلورينتينو اريثا كيف يحتفظ لنفسه دوماً بالقرار الأخير . كان بامكانه الاستمرار بمحاصرة سارا نوريغا لو أن الظروف كانت أقل مرارة ، متأكداً من أنه سينتهي إلى قضاء الليل متقلباً معها على السرير ، لأنه يعرف أن امرأة ضاجعت رجلاً مرة واحدة ، ستتابع مضاجعته كلما شاء ، طالما عرف كيف يلينها في كل مرة . لقد احتمل كل شيء بفضل هذه القناعة ، ومر على كل شيء دون مبالاة ، بما في ذلك أقذر أنواع الحب ، حتى لا يتيح الفرصة لأي امرأة ولدتها امرأة اتخاذ قرار القطيعة النهائي . لكنه أحس في تلك الليلة بأنه ذليل جداً ، فجرع البراندي دفعة واحدة ، فاعلاً كل ما يجعل الغضب يبدو عليه ، ومضى دون أن يودعها . ولم يريا بعضهما بعدها .

كانت العلاقة بسارا نوريغا احدى أطول علاقات فلورينتينو اريثا وأكثرها استقراراً ، رغم أنها لم تكن العلاقة الوحيدة التي نسجها خلال تلك السنوات الخمس . وعندما أحس بأنه يشعر بالراحة معها ، وخصوصاً في الفراش ، ودون أن يتوصل إلى احلالها محل فيرمينا داثا ، استفحلت لياليه كصياد متوحد ، وكان يتدبر أمره لتوزيع وقته وقواه إلى حيث يمكنه الوصول . ومع ذلك ، استطاعت سارا نوريغا تحقيق معجزة تهدئته مع مرور الوقت . واستطاع العيش على الأقل دون رؤية فيرمينا داثا ، على العكس مما كان عليه من قبل ، حين كان يتوقف عن عمله الذي يؤديه في أي وقت كان ليخرج بحثاً عنها في اتجاهات غير صحيحة تمليها عليه أفكاره ، وفي شوارع لا تخطر على بال ، وأماكن وهمية يستحيل وجودها فيها ، هائماً على غير هدى وفي صدره شوق لن يهدأ ما لم يرها ولو لحظة واحدة . لقد أثار قطع علاقته بسارا نوريغا أشواقه الكامنة ، وأحس مجدداً بالأحاسيس التي كانت تنتابه في أمسيات الحديقة الصغيرة أثناد قراءته اللا نهائية ، ولكنه كان احساساً مثقلاً بالرغبة في استعجال موت الدكتور خوفينال اوربينو .

كان يعرف منذ زمن أنه مرصود لاسعاد أرملة ، وأنها مرصودة لاسعاده ، ولم يكن هذا ليقلقه . بل على العكس : كان مستعداً للأمر . ولكثرة ما عرف منهن في غزواته كصياد متوحد ، أصبح فلورينتينو اريثا يعرف أن الدنيا مليئة بأرامل سعيدات . لقد رآهن يفقدن صوابهن أسى أمام جثة الزوج ، ويتوسلن دفنهن بالحياة في التابوت ذاته كي لا يواجهن نائبات المستقبل من دونه ، ولكنهن كلما أخذن بالانسجام مع واقعهن الجديد كن ينبعثن من الرماد بحيوية مخضوضرة . يبدأن الحياة كأشباح طفيليات في البيوت الكبيرة المقفرة ويصبحن نجيات خادماتهن ، عاشقات وسائدهن ، ليس لديهن ما يفعلنه بعد سنوات طويلة من الأسر المجدب . يضيعن فائض الوقت في تثبيت الأزرار التي لم يكن لديهن متسع من الوقت لتثبيتها على

ثياب الميت ، ويكوين ثم يعدن كيّ قمصانه ذات المعاصم والياقات البارافينية لتكون جاهزة دوماً . ويتابعن وضع الصابون له في الحمام ، ووضع وجوه الوسائد التي تحمل الحرف الأول من اسمه على السرير ، وطبقه وأدوات طعامه في مكانه على المائدة ، فلربما عاد من الموت دون اشعار مسبق ، كما كانت عادته في الحياة . ولكنهن في طقوس العزلة تلك ، يعين شيئاً فشيئاً بأنهن أصبحن سيدات مصيرهن ، بعد تخليهن ليس عن لقب أسرتهن فقط ، بل وعن هويتهن ذاتها ، كل ذلك مقابل أمان لم يكن أكثر من حلم آخر من أحلامهن وهن عرائس . هن وحدهن كن يعرفن كم كان ثقل الرجل الذي أحببن بجنون ، والذي ربما أحبهن ، اذ كان عليهن أن يتابعن تربيته حتى النفس الأخير... كان عليهن ارضاعه ، وتبديل حفاضاته الملوثة ، وتسليته بخدع الأمهات لتهدئة مخاوفه عند خروجه صباحاً لمواجهة وجه الواقع . ولكنهن ما أن يرينه يخرج من البيت لابتلاع العالم بإغواء منهن ، حتى يداخلهن الخوف من ألا يعود الرجل أبداً . هكذا كانت حياتهن . أما الحب ، ان كان له من وجود فهو شيء آخر... حياة أخرى .

في بطالة الوحدة الشافية ، تكتشف الأرامل أيضاً أن الطريقة الشريفة في الحياة هي المرتبطة بالجسد ، بالأكل حين يجعن فقط والحب دون نفاق ، والنوم دون حاجة إلى تصنع النوم للافلات من الحب الرسمي ، وسيادتهن أخيراً على سرير كامل لهن وحدهن لا يشاركهن أحد نصف الدثار ولا نصف الهواء الذي يتنفسن ولا نصف ليلهن ، وقدرتهن على النوم إلى أن يرتوي الجسد من الحلم بأحلامهن وحدهن واستيقاظه حين يحلو له . لقد كان فلورينتينو اريثا يلتقي بهن في صباحاته كصياد متخفٍ وهن خارجات من قداس الخامسة صباحاً ، مكفنات بالأسود وبوم القدر على أكتافهن . وما أن يرينه في ضوء الفجر حتى يجتزن الشارع وينتقلن الى الرصيف الآخر بخطوات قصيرة ومتقطعة ، كخطوات عصفور ، لأن مجرد مرورهن قريباً من

رجل قد يلوث شرفهن . ولكنه كان موقناً رغم ذلك من أن أي أرملة حزينة تحمل في داخلها ، أكثر من أي امرأة أخرى ، بذرة السعادة .

أرامل كثيرات في حياته ، ابتداء من أرملة ناثاريت ، أتحن له أن يرى كيف يمكن للمتزوجات أن يكن سعيدات بعد وفاة أزواجهن وما كان بالنسبة له مجرد حلم تحول بفضلهن الى احتمال يمكن لمسه باليد . ولم يجد أسباباً تحول دون أن تكون فيرمينا داثا أرملة مماثلة ، دربتها الحياة على القبول به كما هو ، دون أوهام الشعور بالذنب نحو الزوج الميت ، حاسمة أمرها على اكتشاف السعادة الأخرى معه لتنعم بالسعادة مرتين ، بحب جسدي يومي يتحول في كل لحظة إلى معجزة حياة ، وحب آخر لها وحدها ، محصن ضد أية عدوى بمناعة الموت .

ربما أنه ما كان ليتحمس لو ارتاب مجرد ارتياب بأن فيرمينا داثا بعيدة عن تلك الحسابات الحالمة ، حين كان يلمح بالكاد أفق عالم كل شيء فيه مهيأ مسبقاً باستثناء الخذلان . وقد كان لثراء المرء في ذلك الزمن منافع كثيرة ، وكذلك مضار كثيرة بالطبع ، ولكن نصف الناس كانوا يتشوقون للثراء ويرون فيه الوسيلة الأكثر احتمالاً للخلود . وكانت فيرمينا داثا قد صدت فلورينتينو اريثا في ومضة نضوج دفعت ثمنها فوراً في نوبة حسرة ، لكنها لم تشك لحظة في صواب قرارها . لم تكن قادرة للوهلة الأولى على تفسير الأسباب الخفية التي منحتها تلك البصيرة ، ولكنها بعد سنوات طويلة جداً ، وهي على أعتاب الشيخوخة ، اكتشفت تلك الأسباب فجأة ودون أن تدري كيف ، وذلك أثناء حديث عرضي عن فلورينتينو اريثا . جميع المشتركين في الحديث كانوا يعرفون أنه ولي العهد في شركة الكاريبي للملاحة النهرية في حقبة ازدهارها ، وجميعهم كانوا متأكدين من أنهم قد رأوه مرات عديدة ، بل ودخلوا معه في صفقة ما ، لكن أياً منهم لم يستطع تحديد ملامحه في ذاكرته عندئذ انكشفت لفيرمينا داثا الأسباب الكامنة في

اللا وعي والتي منعتها من حبه . وقالت : « يبدو وكأنه ليس شخصاً وانما طيفاً » . وهكذا كان : طيف شخص لم يره أحد من قبل . ولكن فيما هي تصد حصار الدكتور خوفينال اوربينو ، الرجل النقيض ، كانت تشعر بأنها تتعذب بشبح الذنب ، وهو الاحساس الوحيد الذي كانت تعجز عن احتماله . فحين تشعر به ، يسيطر عليها نوع من الذعر لا تستطيع التحكم به إلا عندما تجد من يطمئن ضميرها . فمنذ طفولتها المبكرة ، عندما كانت تكسر صحناً في المطبخ ، أو عندما يقع أحد ، أو حين تعصر أحد أصابعها بباب ، كانت تلتفت مذعورة نحو أقرب شخص كبير ، وتسارع إلى اتهامه : « أنت السبب » . مع أنها ما كانت تهتم في الحقيقة بمن هو المذنب ولا بالاقتناع ببراءتها.. كان يكفيها اقرار الأمر هكذا .

كان شبح عقدة الذنب واضحاً وقد أدرك الدكتور اوربينو في الوقت المناسب مدى تهديده لجو الانسجام في بيته ، فكان كلما لمحه يسارع بالقول لزوجته : « لا تقلقي يا حبي ، أنا السبب » . اذ لم يكن يخيفه شيء كخوفه من قرارات زوجته المفاجئة والحاسمة ، وكان مقتنعاً أن منشأ كل ذلك في احساسها بالذنب . ومع ذلك ، فان قلقها لصدها فلورينتينو اريثا لم يُحلّ بعبارة مواساة . والت فيرمينا داثا فتح الشرفة في الصباح لعدة شهور ، وكانت تحن دوماً للشبح المتوحد الذي كان يترصدها في الحديقة الصغيرة المقفرة ، وتراقب الشجرة التي كان يجلس تحتها ، والمقعد المختفي حيث كان يجلس ليقرأ مفكراً بها ، ومتألماً من أجلها ، ثم تغلق النافذة من جديد ، تتنهد : « يا للرجل البائس » . ولقد قاست من خيبة الأمل لأنه لم يكن عنيداً ومثابراً كما ظنت ، حين كان الوقت قد فات لترقيع الماضي ، ولم تتوان عن الشعور بالجزع المتأخر يوماً لرسالة لم تصلها أبداً . ولكنها حين اضطرت لمواجهة قرار الزواج من خوفينال اوربينو وقعت في أزمة رهيبة ، اذ أدركت أنها لا تملك مبررات ملائمة لقبوله بعد أن رفضت فلورينتينو اريثا

دون مبررات ملائمة . والواقع أنها ما كانت تحبه أكثر مما أحبت الآخر ، اضافة إلى أن معرفتها به كانت أقل بكثير ، ولم تكن تجد في رسائله تلك الحمى التي وجدتها في رسائل الآخر ، كما أنه لم يقدم لها ما يكفي من الأدلة المؤثرة على قراره . فالحقيقة أن خوفينال اوربينو لم يطرح مطالبه يوماً بتعابير الحب ، ومن المثير للفضول أن مؤمناً كاثوليكياً مثله لم يكن يعرض عليها سوى مكاسب دنيوية : الأمن ، النظام ، السعادة ، وهي أرقام ما أن تجمع إلى بعضها حتى تتحول مباشرة إلى شيء كالحب : الحب تقريباً . ولكنها ليست الحب ، وقد كانت هذه الشكوك تضاعف من قلقها ، لأنها لم تكن مقتنعة بأن الحب هو ما تحتاجه بإلحاح للحياة .

وعلى كل حال ، فإن العامل الأساسي ضد الدكتور خوفينال اوربينو كان في شبهه الأكثر من مريب مع الرجل المثالي الذي ان يأمل فيه لورينثو داثا كزوج لابنته . كان مستحيلاً عليها ألا تراه كشخصية خارجة من أسطورة أبوية ، مع أنه لم يكن كذلك في الواقع . لكن فيرمينا داثا كانت مقتنعة بأنه كذلك مذ رأته يدخل بيتها للمرة الثانية في زيارة طبية لم يدعَ إليها . ثم جاءت أحاديثها مع ابنة خالها هيلديبراندا لتزيد من بلبلتها ، فبسبب احساس هذه الأخيرة بأنها ضحية ، كانت تجد نفسها في فلورينتينو اريثا ، متناسية أن لورينثو داثا انما بعث بطلبها لتمارس تأثيرها لصالح الدكتور اوربينو . والله وحده يعلم الجهد الذي بذلته فيرمينا داثا لتمنع نفسها من مرافقة ابنة خالها حين ذهبت لتتعرف على فلورينتينو اريثا في مكتب التلغراف . فقد كانت ترغب أيضاً برؤيته ثانية لمواجهته بشكوكها ، التحدث اليه على انفراد ، ومعرفته بعمق للتأكد من أن قرارها المتهور لن يورطها في اتخاذ قرار آخر أشد خطورة ، يكون استسلاماً في حربها الشخصية ضد أبيها . ولكنها فعلت ذلك في اللحظة الحرجة من حياتها ، دون أن تأخذ بعين الاعتبار جمال المتقدم اليها الذكوري ، ولا ثروته الخرافية ،

ولا مجده المبكر ، ولا أي ميزة أخرى من ميزاته الواقعية ، وانما فعلت ذلك وهي ذاهلة . يساورها الخوف من أن تفلت الفرصة من يدها ، ومن اقترابها من اكمال احدى وعشرين سنة ، وهو السن المتعارف عليه ، الذي عليها بعده الاستسلام للقدر . كانت لحظة كافية لاقدامها على اتخاذ القرار المبين في قوانين الرب والبشر : حتى الموت . عندئذ زالت جميع الشكوك ، وفعلت دون ندم ما أملاه عليها العقل ورأته لائقاً : مرت باسفنجة دون دموع فوق ذكرى فلورينتينو اريثا ، ومسحته تماماً ، مفسحة المجال ليتفتح في المكان الذي كان يحتله من ذاكرتها مرج من شقائق النعمان . والشيء الوحيد الذي سمحت لنفسها به كان اطلاق تنهيدة أعمق من المعتاد ، التنهيدة الأخيرة : «يا للرجل البائس!» .

لكن أكثر شكوكها اخافة بدأت فور عودتها من رحلة الزفاف . فما أن فتحت الصناديق ، وحلت الحزم والطرود وأفرغت محتويات الأحد عشر صندوقاً التي أحضرتها معها لتتسنم موقعها كربة بيت وسيدة قصر المركيز دي كاسالدويرو القديم ، حتى تنبهت بانبهار قاتل إلى أنها سجينة في بيت خاطئ ، والأسوأ من ذلك أنها كانت تعيش مع الرجل الذي لم يكن رجلاً . لقد احتاجت ست سنوات للخروج ، كانت أسوأ سني حياتها ، قضتها في يأس من مرارة دونيا بلانكا ، حماتها ، وتخلف أختي زوجها العقلي ، اللتين إن لم تذهبا للتعفن وهما في الحياة بزنزانة في دير فلأنهما كانتا تحملان تلك الزنزانة بداخلهما .

الدكتور اوربينو المستسلم لدفع ضريبة أصله النبيل ، صمّ أذنيه عن رجائها ، موقناً أن حكمة الله وقدرة الزوجة اللا نهائية على التأقلم كفيلان بوضع الأمور في نصابها . كان حزيناً لانهيار أمه ، بعد أن كان حبها للحياة في زمن آخر يبث الرغبة بالحياة حتى في أعتى الكفرة . هذا صحيح : فتلك المرأة الجميلة ، الذكية ، ذات الحساسية الانسانية التي لا مثيل ها في

وسطها ، كانت خلال ما يقرب من أربعين سنةَ روح وجسد فردوسها الاجتماعي ، إلى أن أذاقها الترمل المرارة حتى استحال التعرف عليها ، وجعلها مترهلة وساخطة ، ومعادية للدنيا . والتفسير الوحيد لتخليها عن مكانتها الاجتماعية كان في غضبها على زوجها الذي ضحى بحياته وهو واع في سبيل كومة من الزنوج ، كما كانت تقول ، في حين أن التضحية الوحيدة العادلة هي نجاته من الموت في سبيلها . ولقد استمر زواج فيرمينا داثا السعيد على أية حال ما دامته رحلة الزفاف ، والشخص الوحيد القادر على مساعدتها في منع الانهيار النهائي يشله الخوف أمام تسلط الأم . وعليه ، وليس على شقيقتي زوجها المعتوهتين وحماتها نصف المخبولة ، كانت فيرمينا داثا تلقي مسؤولية وقوعها في مصيدة الموت تلك . وبدأت تشك بعد فوات الأوان بأن الرجل الذي تزوجت منه يخفي وراء جبروته المهني وسحره الدنيوي شخصاً ضعيفاً بلا خلاص... شيطاناً بائساً يتغطرس بوزن ألقابه الاجتماعي .

لجأت حينئذ الى الابن حديث الولادة ، كانت قد أحست عند خروجه من جسدها براحة التحرر من شيء ليس منها ، عانت الهول من نفسها حين رأت أنها لا تشعر بأدنى عاطفة تجاه عجل البطن ذاك الذي عرضته عليها القابلة وهو عار تماماً ، وملوث بالدهن والدم ، وحبل الخلاص ملتف حول عنقه . لكنها تعلمت في عزلة القصر التعرف عليه ، فتعارفا ، واكتشفت بفرح شديد أن حب الأولاد ليس نابعاً من كونهم أبناء ، وانما منشؤه صداقة التربية . وأصبحت لا تطيق شيئاً ولا أحداً سواه في بيت محنتها . كان الحزن يثقل عليها ، وكذلك الحديقة المأتمية ، وترهل الزمن في الحجرات الفسيحة التي لا نوافذ لها . أحست بالجنون في الليالي المتطاولة بصراخ المجنونات في مشفى الأمراض العقلية المجاور . وكانت تُخجلها عادة اعداد مائدة الولائم كل يوم ، بشراشف مطرزة ، وأدوات طعام فضية وشمعدانات

مأتمية ، لخمسة أشباح يتعشون فنجان قهوة بالحليب وشطائر الدقيق بالجبن . مقتت صلوات الظهيرة ، والتكلف على المائدة ، والانتقادات المتوالية لطريقتها بامساك أدوات الطعام ، ومشيتها بهذه الخطوات المستخفة كخطوات امرأة من الشارع ، ولارتدائها ملابس كملابس السيرك ، بل ولاسلوبها القروي في معاملة زوجها وارضاع طفلها دون تغطية ثديها بدثار الرضاعة . وعندما وجهت الدعوات الأولى لتناول الشاي في الساعة الخامسة مساء ، مع بسكويت امبراطوري وحلوى زهور ، تماشياً مع عادة محدثة في انكلترا ، عارضت دونيا بلانكا لأنه لا يمكن تناول المشروبات الطبية المستخدمة للتعرق عند الحمى في بيتها بدلاً من الشوكولاته مع الجبن وأقراص خبز اليكة . ولم تفلت منها حتى الأحلام . ففي صباح أحد الأيام روت فيرمينا داثا أنها رأت في الحلم رجلاً مجهولاً يمضي عاريا ويرش حفنات من الرماد في صالات القصر ، فقاطعتها دونا بلانكا بجفاء :

ـ لا يمكن لامرأة محتشمة أن تحلم هذا النوع من الأحلام .

وإلى احساسها بأنها تعيش في بيت غريب أضيفت نكبتان كبريان : احداهما طبق الباذنجان اليومي بجميع أشكاله ، والذي كانت دونيا بلانكا ترفض استبداله احتراماً للزوج الميت ، بينما ترفض فيرمينا داثا أكله بأي حال . كانت تمقت الباذنجان منذ طفولتها ، وقبل أن تتذوقه ، لأنه بدا لها دوماً بلون السمّ . ولكن لا بد لها من القبول على كل حال بأن شيئاً من اعتقادها قد تبدل ، وكان في صالح حياتها . فقد قالت وهي في الخامسة من عمرها ما كانت تقوله دوماً على المائدة ، فأجبرها أبوها على أكل طنجرة كاملة كانت معدة لستة أشخاص . ظنت أنها ستموت ، بسبب قيء الباذنجان المهروس أولاً ، ثم بسبب فنجان زيت الخروع الذي أجبروها على تناوله لمعالجتها من العقاب . وقد بقي الباذنجان وزيت الخروع مختلطان في

ذاكرتها على أنهما مُسهل ، سواء بطعمهما أو برعب السم ، وأثناء وجبات الغداء الفظيعة في قصر المركيز دي كاسالدويرو كانت تضطر لصرف نظرها حتى لا تستعيد ذكرى الغثيان الجليدي لزيت الخروع .

وكانت النكبة الثانية هي القيثارة . ففي أحد الأيام قالت دونيا بلانكا وهي تعني تماماً ما تقوله : «لا أؤمن بوجود نساء محترمات لا يتقن العزف على البيانو» . كانت تُصدر بذلك أمراً مما دفع ابنها لمجادلتها . فأفضل سنوات حياته أمضاها سجيناً في درس البيانو ، رغم أنه حمد ذلك في رشده . لكنه لم يكن قادراً على تصور زوجته ذات الخمسة والعشرين عاماً والطبع الحاد ، خاضعة إلى العقوبة ذاتها . فكان ما ناله من الألم هو موافقتها على استبدال البيانو بالقيثارة ، بذريعة صبيانية تقول إنها الأداة الموسيقية التي يستخدمها الملائكة . وهكذا جلبوا من فيينا القيثارة الرائعة ، التي بدت وكأنها من الذهب ، وكانت إنغامها تصدح وكأنها كذلك فعلاً ، والتي صارت فيما بعد أحد أبرز مقتنيات متحف المدينة ، إلى أن التهمتها النيران مع كل ما كان فيه . خضعت فيرمينا داثا الى عقوبة الرفاهية هذه محاولة وقف الانهيار بتضحية أخيرة . بدأت الدروس مع معلم معلمين أحضروه خصيصاً من مدينة مومبوكس ، فمات فجأة بعد خمسة عشر يوماً من مجيئه ، وتابعت الدروس لعدة سنوات مع موسيقّي الدير ، الذي كانت روحه الجنائزية تشوه موسيقاها القيثارية .

لقد فوجئت هي نفسها لانصياعها . فمع أنها ما كانت تقبل ذلك في قرارة نفسها ، ولا في مجادلاتها الصماء مع زوجها خلال الساعات التي كانا يكرسانها للحب من قبل ، إلا أنها تورطت بأسرع مما كانت تظن في شبكة تقاليد عالمها الجديد ومكائده . كانت تردد أول الأمر عبارة طقسية لتؤكد حرية رأيها : «إلى الجحيم أيتها المروحة فهذا وقت النسيم» . ولكنها ما لبثت أن تحمست لامتيازاتها التي أحسنت كسبها ، وخافت من الخزي

والسخرية ، فأبدت استعدادها لاحتمال كل شيء ، حتى المذلة ، على أمل أن يعطف الله أخيراً على دونيا بلانكا ، التي لم تكن تمل دعوته في صلواتها بأن يبعث اليها الموت .

كان الدكتور اوربينو يبرر ضعفه بذرائع واهية ، حتى دون أن يتساءل إن لم يكن يعارض بذلك تعاليم كنيسته . فهو لا يوافق على أن منشأ الخلافات مع زوجته هو جو البيت المفكك ، وانما في طبيعة الزواج بحد ذاته . انه ادعاء سخيف لا جود له إلا في بركات الله اللا نهائية ، يتناقض مع أي سبب علمي في أن شخصين لا يكادان يعرفان بعضهما ، ولا تربطهما أية صلة قربى ، مختلفي الطبائع والثقافة ، بل مختلفي الجنس أيضاً وجدا نفسيهما ملزمين فجأة بالعيش معاً ، والنوم في السرير نفسه والمشاركة في مصيرين ربما كانا مقررين في اتجاهينْ مختلفين . كان يقول : «مشكلة الزواج هي أنه ينتهي كل ليلة بعد ممارسة الحب ، ولا بد من العودة إلى بنائه كل صباح قبل تناول الفطور» . أما زواجهما ، كما يقول ، القائم بين طبقتين متناحرتين ، في مدينة مازالت تحلم بعودة الحكام الاستعماريين ، فالملاط الوحيد القادر على حفظ تماسكه هو شيء صعب متقلب كالحب ، ان كان له من وجود ، وفي حالتهما لم يكن له وجود عند زواجهما ، ولم يفعل القدر شيئاً سوى جعلهما يواجهان الواقع حين كانا على وشك اختراع الحب .

هكذا كانت حياتها في مرحلة القيثارة . لقد تراجعت المصادفات السعيدة حين كانت تدخل عليه وهو يستحم ، ورغم المجادلات ، والباذنجان السام ، ورغم الشقيقتين المعتوهتين والأم التي أنجبتهما ، كان لديه ما يكفي من الحب ليطلب منها أن تليّفه . فتبدأ عمل ذلك مستعينة بفتات الحب الذي بقي لديها من أوروبا ، ثم يتيح كلاهما للذكريات أن تخدعهما ، متحدثين دون أن يشاءا ، وراغبين دون أن يقولا ، وينتهيان إلى الموت حباً على الأرض ، ملوثين بالرغوة المعطرة ، فيما هما يسمعان الخادمات

تتحدثن عنهما في حجرة الغسيل : «اذا كانا لا ينجبان أولاداً فلأنهما لا يشدان» . وبين الفينة والأخرى ، ولدى عودتهما من احدى الحفلات المحلية ، كان الشوق القابع وراء الباب يطرحهما بضربة من مخلبه ، فيحدث حينئذ انفجار رائع يعود كل شيء أثناءه إلى ما كان عليه من قبل ، ويعودان خلال خمس دقائق ليكونا العاشقين المتيمين كما كانا في شهر العسل .

وباستثناء هذه الفرص النادرة ، فإن أحدهما كان يشعر بالارهاق أكثر من الآخر عند موعد النوم .وكانت هي تتأخر في الحمام لتلف سجائرها بأوراق معطرة ، وتدخن وحدها ، ممارسة من جديد غرامياتها المواسية كما كانت تفعل وهي فتية وحرة في بيتها حين كانت سيدة وحيدة على جسدها . ثم أنها صارت تعاني من آلام رأس دائمة ، أوتشعر بالحر الخانق دوماً ، أو تتصنع النوم ، أو تدعي أنها في العادة الشهرية ثانية ، العادة الشهرية ، ودائماً العادة الشهرية . لدرجة أن الدكتور اوربينو تجرأ على القول في أحد دروسه ، لمجرد التفريج عن نفسه من اختناق لا يعترف به إن العادة الشهرية بعد عشر سنوات من الزواج ، تأتي النساء حتى ثلاث مرات في الأسبوع .

نكبات تُضاف إلى نكبات ، وعلى فيرمينا داثا أن تواجه في أسوأ سني حياتها ما كان سيحدث عاجلاً أم آجلاً دون مفر : حقيقة تجارة أبيها السحرية والتي لم تعرفها أبداً . لقد حدد حاكم الولاية موعداً في مكتبه للدكتور خوفينال اوربينو ليطلعه على سوء سلوك حميه ، وقد اختصر تلك المساوئ في جملة واحدة : «لا يوجد قانون الهي أو بشري يوضح كيف أمكن لهذا الرجل أن يتقدم» . لقد قام ببعض أخطر عملياته مُستظلاً بسلطة صهره . وكان يصعب التفكير بأن هذا الأخير وزوجته ليسا مطلعين على نشاطاته . ولمعرفة الدكتور اوربينو بأن السمعة الوحيدة القادرة على حماية حميه هي سمعته بالذات ، لأنها الوحيدة التي مازالت واقفة على قدمين ، فقد

وضع كل ثقل سلطته ، وتمكن من لفلفة الفضيحة بكلمة شرف منه . وهكذا كان على لورينثو دائا أن يغادر البلاد على أول سفينة وألا يعود أبداً . عاد إلى موطنه الأصلي كما لو كان في رحلة من تلك الرحلات التي يقوم بها المرء بين الحين والآخر لخداع حنينه ، وفي أعماق هذا الظاهر كان يوجد شيء من الحقيقة : فمنذ زمن وهو يصعد إلى السفن القادمة من وطنه ليتناول كأس ماء من خزانات التموين المملوءة من ينابيع مسقط رأسه . لقد مضى دون حاجة للي ذراعه ، مصرحاً ببراءته ، ومحاولاً اقناع صهره بأنه وقع ضحية مؤامرة سياسية . مضى وهو يبكي على الطفلة ، كما كان يسمى فيرمينا داثا مذ تزوجت ، ويبكي فراق حفيده والأرض التي عرف فوقها الثراء والحرية ، والتي استطاع أن يحقق فوقها مأثرة تحويل ابنته إلى سيدة مجتمع راقية معتمداً عي صفقات غامضة . مضى هرماً ومريضاً ، لكنه عاش بعد ذلك زمناً أطول مما تمناه أي من ضحاياه . لم تستطع فيرمينا داثا قهر تنهدة الراحة حين وصلها خبر موته ،ولم تحدّ عليه منعاً لاثارة التساؤلات ، لكنها بكت طوال شهور عديدة بغضب أصم دون أن تدري السبب حين كانت تحبس نفسها للتدخين في الحمام ، وكان أنها تبكيه .

أسخف ما في وضعهما أن السعادة لم تبد عليهما يوماً في الأماكن العامة كما كانت تبدو في سنوات المحنة تلك . لقد كانت في الواقع سنوات انتصاراتهما الكبرى على عداوات وسطهما الخفية ، الوسط الذي ما كان ليتنازل بقبولهما كما هما : مختلفين ومجددين ، ومخالفين بالتالي للتقاليد القائمة . ومع ذلك ، فقد كان هذا هو الجزء السهل بالنسبة لفيرمينا داثا . فحياة المجتمع ، التي كانت تُخفيها كثيراً قبل أن تعرفها ، لم تكن أكثر من مجموعة من التحالفات المتوارثة ، والطقوس التافهة المبتذلة ، والكلمات الجاهزة ، التي يسلي بها بعض أهل المجتمع بعضهم الآخر كي لا يغتالوا بعضهم . ان السمة السائدة في فردوس التفاهة هذا هي الخوف من

المجهول . وقد حددت فيرمينا داثا ذلك بطريقة أكثر بساطة : «مشكلة الحياة العامة هي في تعلم السيطرة على الرعب ، ومشكلة الحياة الزوجية هي في تعلم السيطرة على الضجر» . اكتشفت ذلك فجأة بوضوح مذ دخلت وهي تجر أذيال فستان الزفاف اللا نهائية إلى النادي الاجتماعي ، العابق بروائح كل تلك الزهور المتنوعة ، وببريق الفالسات ، وصخب الرجال المتعرقين والنساء المرتعشات اللواتي رمقنها دون أن يدرين حتى ذلك الحين كيف سيواجهن ذلك التهديد المبهر الذي قذفهن به العالم الخارجي . كانت قد أتمت احدى وعشرين سنة من عمرها دون أن تخرج من بيتها إلا إلى المدرسة ، لكن جولة واحدة من نظرها كانت كافية لتدرك أن خصومها ليسوا منكمشين حقداً وانما هم مشلولون خوفاً . وبدلاً من أن تبعث فيهم مزيداً من الرعب ، مثلما تعاني ، أحسنت اليهم بمساعدتهم على التعرف اليها . ولم يختلف أحد من الحضور عما أرادت له أن يكون ، تماماً كما يحدث لها مع المدن ، التي لا تبدو لها أفضل أو أسوأ من سواها ، وانما كما رسمتها هي في قلبها . فباريس ، وبرغم مطرها الأزلي ، وبائعيها البخلاء ، وبرغم هذر حوذييها الهوميريّ ، ستتذكرها دوماً كأجمل مدينة في العالم ، لا لأنها كذلك أو ليست كذلك في الواقع ، وانما لأنها ارتبطت بحنينها إلى أسعد سنوات حياتها . أما الدكتور اوربينو ، فقد واجه المجتمع بأسلحة كتلك التي شهدت ضده ، والفارق الوحيد أنه استخدمها بذكاء أشد ، وبوقار محسوب . لم يكن يحدث شيء دون وجودهما : النزهات التمدنية ، مهرجانات الزهور ، الأحداث الفنية ، اليانصيبات الخيرية ، الاحتفالات الوطنية ، الرحلة الأولى بالمنطاد . لقد كان لهما دور في كل شيء ، وغالباً ما كان دورهما هو الأساس والمقدمة . ما كان لأحد أن يتصور في سنوات محنتهما ، انه يمكن أن يكون هناك من هو أشد سعادة منهما أو من ينعم بزواج أكثر انسجاماً من زواجهما .

البيت الذي هجره الأب ، منح فيرمينا داثا ملجأ خاصاً بديلاً للاختناق في القصر العائلي . فكانت ما ان تفلت من الأنظار العامة حتى تمضي خفية إلى حديقة البشارة ، لتستقبل هناك صديقاتها الجديدات وبعض صديقاتها القديمات من أيام المدرسة أو دروس الرسم : بديل بريء للخيانة . كانت تعيش هناك ساعات هادئة كأم عزباء ، مستحضرة ذكريات الطفولة الكثيرة التي مازالت في ذاكرتها . أعادت شراء الغربان العطرة ، والتقطت قططاً من الشارع ووضعتها تحت عناية غالا بلاثيديا ، التي صارت عجوزاً وأصابها الروماتيزم بما يشبه الكساح ، لكنها بقيت تحتفظ بالحماسة لبعث الحياة في البيت من جديد . أعادت فتح حجرة الخياطة حيث رآها فلورينتينو اريثا لأول مرة ، وحيث طلب منها الدكتور خوفينال اوربينو أن تُخرج لسانها محاولاً بذلك التعرف على قلبها ، وحولتها إلى هيكل مقدس لذكريات الماضي . وحين مضت لتغلق نافذة الشرفة في مساء يوم شتوي ، قبل أن تحطم العاصفة الزجاج رأت فلورينتينو اريثا على مقعده تحت أشجار لوز الحديقة ، ببذلة أبيه المقيفة على مقاسه والكتاب المفتوح في حضنه ، لكنها لم تره كما كانت تراه كثيراً في تلك الأيام ، وانما رأته بسنه التي تحفظها في ذاكرتها . وخشيت أن تكون تلك الرؤيا نذيراً بموته ، وتألمت لذلك . وتجرأت على القول لنفسها بأنها ربما كانت أسعد حالاً لو أنها تزوجته... لو كانت وحيدة معه في ذلك البيت الذي رممته من أجله بكثير من الحب كما رمم بيته من أجلها ، لكن مجرد الافتراض أرعبها ، لأنه أتاح لها أن ترى درك التعاسة الذي وصلت اليه . فاستجمعت عندئذ آخر قواها وأجبرت زوجها على مناقشتها دون مراوغة ؛ أجبرته على مواجهتها ، على مشاجرتها ، على البكاء معها قهراً لفقدانهما الفردوس ، إلى أن سمعا صياح آخر الديكة ، ونفذ الضوء من بين تخاريم القصر ، واشتعلت الشمس ، ووقف الزوج المتورم لكثرة ما تكلم ، والمنهك من النعاس ، بقلبه المتصلب لكثرة ما

بكى ، شدّ رباط حذائه ، وشدّ حزامه ، وشد كل ما تبقى له من الرجولة ، وقال لها نعم يا حبي ، وقال انهما سيمضيان للبحث عن الحب الذي فقداه في أوروبا : غداً بالذات وإلى الأبد . كان قراراً حاسماً لدرجة أنه اتفق مع بنك دي تيسورو ، وكيل أعماله العالمي ، على التصفية الفورية للإرث العائلي الواسع ، المبعثر منذ تكوينه في جميع أنواع الأعمال التجارية ، والاستثمارات والأوراق المقدسة والبطينة ، والذي لم يكن يعلم عنه علم اليقين إلا أنه لا يصل إلى المقادير المبالغ بها التي تدعيها الأساطير : ما يكفي لتصفيته وعدم التفكير فيه . وطلب من البنك تحويل المبلغ ، مهما كان ، إلى ذهب مختوم وإيداعه في البنوك التي يتعامل معها في الخارج ، حتى لا يبقى له ولزوجته في هذا الوطن القاسي شبرٌ من الأرض يموتان فيه .

كان فلورينتينو اريثا مايزال حياً ، على عكس ما ظنت . وكان يقف على رصيف الميناء حيث ترسو عابرة المحيطات الذاهبة إلى فرنسا حين وصلت مع زوجها وابنها في عربة الجوادين الذهبيين ، ورآهما ينزلان مثلما رآهما يفعلان ذلك مرات ومرات في الاحتفالات العامة : كانا على أحسن حال . وكان معهما ابنهما ، الذي رُبّي بطريقة تشي بما سيصيره في المستقبل... مثلما صار تماماً . حيا خوفينال اوربينو فلورينتينو اريثا تحية مرحة بقبعته : «اننا ماضون لغزو بلاد الفلاند» . حيته فيرمينا داثا بانحناءة من رأسها ، فرفع فلورينتينو اريثا قبعته وحياها بحني رأسه انحناءة خفيفة ، ودققت فيه دون أن تظهر عليها امارات الشفقة لصلعه المبكر . إنه هو ، تماماً كما تراه : طيف شخص لم تعرفه أبداً .

لم يكن فلورينتينو اريثا على أحسن حال كذلك . فالعمل المتزايد يوماً بعد يوم ، وتخمته كصياد متوحد ، وخمود همته بفعل السنين ، كانت تثقل عليه . ثم أضيفت إلى ذلك كله أزمة ترانسيتو اريثا الأخيرة ، التي أصبحت ذاكرتها دون ذكريات : صفحة بيضاء تقريباً . حتى انها كانت تلتفت اليه

أحياناً ، فتراه يقرأ على الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه ، فتسأله متفاجئة : «ابن من أنت ؟» . كان يجيبها دائما بقول الحقيقة ، لكنها كانت تقاطعه في الحال متسائلة :

ـ قل لي يا بني : أنا من أكون ؟

كانت قد وصلت الي حد من السمنة جعلها عاجزة عن الحركة ، فصارت تمضي النهار في دكان الخردوات الذي لم يعد فيه شيء للبيع ، وهي تتزين منذ استيقاظها مع أول الديكة حتى فجر اليوم التالي ، لأن ساعات نومها أصبحت قليلة جداً . كانت تضع على رأسها أكاليل زهور ، وتصبغ شفتيها ، وترش البودرة على وجهها وذراعيها ، ثم تسأل من يكون معها كيف يراها . وكان جميع الجيران يعرفون أنها تنتظر الاجابة نفسها دوماً : «انك الصرصارة مارتينث» . هذه الهوية ، المنتحلة من شخصية قصة للاطفال ، هي الوحيدة التي كانت تريحها . فتتابع الهز على الكرسي الهزاز ، والتهوية بباقة من الريش الوردي الطويل ، إلى أن تعود لتبدأ من جديد : اكليل الزهور الورقية ، المسك على الجفون ، الأحمر القاني على الشفاه ، وطبقة البياض على الوجه . والسؤال ثانية لمن هو قريب منها : «كيف تراني ؟» . وعندما تحولت الى ملكة السخرية بين الجوار ، عمد فلورينتينو اريثا في إحدى الليالي إلى تفكيك منضدة دكان الخردوات القديمة وخزائنها ، وأغلق الباب المطل على الشارع ، وأعد المكان على الشكل الذي سمعها تصف فيه مخدع الصرصارة مارتينث ، ومنذ ذلك الحين لم تعد تسأل من هي .

وبناء على نصيحة من العم ليون الثاني عشر ، بحث لها عن امرأة مسنة تتولى شؤونها ، لكن المرأة المسكينةكانت تسير وهي شبه نائمة ، حتى ان المرء يشعر أحياناً بأنها نسيت كذلك من تكون . وهكذا كان فلورينتينو اريثا يبقى في البيت منذ خروجه من المكتب الى أن يتمكن من تنويم أمه . لم يعد يلعب الدومينو في النادي التجاري ، وتوقف لوقت طويل عن لقاء القلة

من صديقاته القديمات اللواتي كان يتردد عليهن ، ذلك أن تبدلا عميقاً طرأ على قلبه بعد لقائه المرعب مع اوليمبيا زوليتا .

كان لقاء صاعقاً . فبعد أن أوصل فلورينتينو اريثا العم ليون الثاني عشر الى بيته ، أثناء عاصفة من عواصف تشرين الأول التي لا تترك للمرء لحظة راحة ، رأى وهو في العربة فتاة ضئيلة ورشيقة ، ترتدي فستاناً مزيناً بالكشاكش يبدو أشبه بفستان زفاف . رآها تركض مرتبكة من جانب الى آخر ، لأن الريح انتزعت منها مظلتها وطارت بها الى البحر . فحملها في عربته وانحرف عن طريقه ليوصلها الى بيتها ، الذي كان أشبه بصومعة مقابل البحر الفسيح ، وكان فناء البيت مليئاً بأعشاش حمام تظهر من الشارع . وروت له في الطريق بأنها تزوجت منذ أقل من سنة من تاجر خزفيات كان فلورينتينو اريثا قد رآه كثيراً في سفن شركته ، حين كان يفرغ من السفن صناديق تحتوي جميع أنواع الخزفيات لبيعها في السوق ، برفقته عالم من الحمائم في قفص خيزراني من تلك الأقفاص التي تستخدمها الأمهات لحمل أطفالهن حديثي الولادة في السفن النهرية . كان يبدو على اوليمبيا زوليتا أنها تنتمي الى فصيلة الزنابير ، ليس بسبب وركيها المرتفعين وصدرها الضامر وحسب ، وانما لكل ما فيها : شعرها الذي كأسلاك النحاس ، وكلف الشمس في وجهها ، وعيناها المستديرتان والمتقدتان والبعيدتان عن بعضهما أكثر مما يجب ، ثم أنها لا تتحدث عندما تشعر بالألفة الا لتقول أموراً ذكية وممتعة . لقد بدت لفلورينتينو اريثا ظريفة أكثر من كونها جذابة ، ونسيها حالما أوصلها الى بيتها ، حيث كانت تعيش مع زوجها ، ووالد هذا الزوج وأعضاء آخرين من العائلة .

وبعد مرور عدة أيام ، رأى الزوج في الميناء وهو يشحن سفينة بالبضائع بدلا من انزالها منها كعادته ، وعندما أبحر المركب ، سمع فلورينتينو اريثا صوت الشيطان واضحاً في أذنيه . وفي مساء ذلك اليوم ، بعد أن أوصل العم

ليون الثاني عشر ، مر كما لو كان مروره مصادفة ، مقابل بيت اوليمبيا زوليتا ، ورآها فوق السياج تقدم الطعام للحمائم الهائجة . فصاح بها من العربة قائلاً : «ما ثمن الحمامة ؟» . تعرفت عليه وأجابته بصوت مرح : «ليست الحمائم للبيع» . فسألها : «ماذا عليّ أن أفعل لأحصل على واحدة ؟» ودون أن تتوقف عن نثر الطعام للحمام ، ردت عليه : «عليك أن توصل صاحبة الحمام بالعربة حين تجدها ضائعة تحت المطر» . وهكذا عاد فلورينتينو اريثا الى بيته تلك الليلة حاملاً هدية شكر من اوليمبيا زوليتا : حمامة زاجل في قائمتها خاتم معدني .

في مساء اليوم التالي ، في ساعة تقديم الطعام للحمام تماما ، رأت راعية الحمام الجميلة الحمامة المهداة عائدة الى عشها ، ففكرت بأنها قد أفلتت ، ولكنها حين أمسكتها لتتفحصها رأت أنها تحمل قصاصة ورقية مطوية في الخاتم : تصريح حب ، كانت تلك هي المرة الأولى التي يترك فيها فلورينتينو اريثا أثراً مكتوباً ، لكنها لن تكون الأخيرة ، رغم أنه كان من الفطنة في هذه المناسبة بحيث لم يضع توقيعه على الورقة . وأثناء عودته الى منزله في مساء اليوم التالي ، الأربعاء سلمه طفل من الشارع الحمامة نفسها في قفص ، مع رسالة بأن سيدة الحمائم تبعث لك هذا وتقول لك أن تتفضل بالحفاظ عليها جيداً في القفص المقفل ، لأنها ستفلت منك ثانية ان لم تفعل ، ولن نعيدها اليك بعد هذه المرة . ما كان يعرف كيف يفهم الرسالة : فإما أن الحمامة قد أضاعت رسالته في الطريق ، واما أن راعية الحمام قررت التظاهر بالحماقة ، أو أنها أرسلت الحمامة ليعيدها اليها ثانية . لكن من الطبيعي في هذه الحالة الأخيرة أن تبعث الحمامة مع رد منها .

وفي صباح يوم السبت ، وبعد تفكير مطول ، بعث فلورينتينو اريثا الحمامة من جديد مع رسالة أخرى دون توقيع ، ولم يكن عليه أن ينتظر هذه المرة حتى اليوم التالي . ففي المساء ، أتاه الصبي نفسه حاملاً الحمامة في

قفص آخر ، ورسالة شفوية بأنها تعيد اليه ثانية الحمامة التي عادت لتفلت منه ، وأنها قد أعادتها أمس الأول بدافع حسن التربية وتعيدها هذه المرة اشفاقاً ، ولكنها تقول الحقيقة الآن بأنها لن تعيدها اذا ما أفلتت منه . لهت ترانسيتو اريثا بالحمامة حتى وقت متأخر ، فأخرجتها من القفص ، وهدلت لها وهي تحملها بين ذراعيها ، محاولة تنويمها بأغنيات أطفال ، وفجأة لاحظت أن في خاتمها وريقة كتب عليها سطر واحد : لا أقبل رسائل مغفلة . قرأه فلورينتينو اريثا بقلب فاقد للوعي ، وكأنه في ذروة مغامرته الأولى ، ولم يكد يغفو في تلك الليلة ، الا ليعاني فقدان الصبر في أحلامه . وفي صباح اليوم التالي ، وقبل ذهابه الى المكتب ، أطلق الحمامة ثانية بعد أن حملها رسالة حب وقع عليها اسمه بحروف واضحة تماماً ، ووضع لها في الخاتم أيضاً أحدث وردة متفتحة في حديقته ، وأكثرها حيوية وشذى .

لم يكن الأمر سهلاً معها . فبعد ثلاثة شهور من الحصار ، واصلت راعية الحمام الرد بالاجابة ذاتها «لست من هؤلاء» . ولكنها لم ترفض أبداً تلقي الرسائل أو المجيء الى المواعيد التي كان يرتبها فلورينتينو اريثا بحيث تبدو لقاءات مصادفة . لقد كان معتاداً على التخفي : انه العاشق الذي لا يظهر وجهه أبداً ، وهو أكبر طماع في الحب والأشد بخلاً فيه في الحين ذاته... من لا يمنح شيئاً ويريد كل شيء ، من لا يتيح لأحد ترك أدنى أثر في قلبه ، هذا الصياد المنزوي خرج من مخبئه وألقى بنفسه الى عرض الطريق في نوبة احتدام رسائل موقعة ، وهدايا غزل ، وطواف مستهتر حول بيت راعية الحمام ، بل إنه جال حول البيت في مناسبتين لم يكن الزج فيهما مسافراً كما لم يكن في السوق . انها المرة الأولى ، منذ زمن حبه الأول ، التي أحس فيها بأن نصلا يخترقه .

بعد ستة شهور على لقائهما الأول ، التقيا أخيراً في قمرة سفينة كان يجري اصلاحها وطلاؤها في الميناء النهري . كان مساء رائعاً . وكانت

اوليمبيا زوليتا تتمتع بحب طويل ، حب راعية حمام طائشة ، وتهوى البقاء عارية عدة ساعات ، في راحة مسترخية هي بالنسبة لها حب كالحب . كانت القمرة منزوعة الطلاء ، وقد أعيد طلاء نصفها تقريباً ، وكانت رائحة التربنتين ملائمة للاحتفاظ بها كذكرى من مساء لطيف . وفجأة ، وبالحاح وحي فريد ، نزع فلورينتينو اريثا غطاء علبة دهان أحمر كانت قريبة من السرير ، وغمس اصبعه السبابة فيها ، ورسم على عانة راعية الحمام الجميلة سهما داميا مصوبا نحو الجنوب ، ثم كتب على بطنها عبارة : هذه اليمامة لي . وفي تلك الليلة بالذات ، تعرت اوليمبيا زوليتا أمام زوجها دون أن تتذكر الاعلان المكتوب على بطنها ، ولم ينطق الزوج بأية كلمة ، بل أن ايقاع أنفاسه لم يتبدل... لا شيء ، لكنه مضى الى الحمام وتناول موسى الحلاقة فيما كانت ترتدي قميص نومها ، وذبحها بضربة واحد .

لم يعلم فلورينتينو اريثا بالحدث إلا بعد عدة أيام ، حين ألقي القبض على الزوج الهارب وروى للصحف أسباب الجريمة وكيفية تنفيذها . وقد انشغل خلال سنوات بالتفكير في رسائله الموقعة ، وراح يحسب سنوات سجن القاتل الذي كان يعرفه جيداً لتجارته التي ينقلها في السفن ، لكنه لم يكن يخشى ضربة موسى حلاقة في العنق ، ولا الفضيحة العامة ، بقدر ما كان يخشى حظه العاثر اذا ما علمت فيرمينا داثا بخيانته . وفي أحد أيام سنوات الانتظار ، تأخرت المرأة القائمة على رعاية ترانسيتو اريثا في السوق بسبب مطر غزير في غير أوانه ، وحين رجعت الى البيت وجدتها ميتة . كانت تجلس على الكرسي الهزاز ، مزينة ومزهرة كعادتها ، وكانت عيناها متقدتين وعلى شفتيها ابتسامة خبث شديد بحيث لم تنتبه حارستها الى أنها ميتة إلا بعد ساعتين . وكانت قبل موتها بقليل قد وزعت على أطفال الحي ثروتها من الذهب والمجوهرات المدفونة تحت السرير ، قائلة لهم أنهم يستطيعون أكلها كقطع الحلوى ، ولم يكن ممكنا استعادة بعض القطع

الثمينة . دفنها فلورينتينو اريثا في مزرعة لامانو دي ديوس القديمة ، التي مازالت تعرف باسم مقبرة الكوليرا ، وزرع على قبرها شجيرة ورد .

ومنذ زيارته الأولى للمقبرة ، اكتشف فلورينتينو اريثا أن اوليمبيا زوليتا كانت مدفونة قريباً من أمه ، في قبر بلا شاهدة ، لكن اسمها وتاريخ موتها كانا مكتوبين بالاصبع على اسمنت القبر الطري ، وفكر مذعوراً بأن تلك الكتابة هي سخرية دموية من الزوج . وعندما ازهرت شجيرة الورد ، كان يضع وردة على قبرها ، ان لم يكن هناك من يراه ، ثم أنه زرع لها فيما بعد جفنة قطعها من شجيرة أمه . كانت شجيرتا الورد تنموان بسرعة هائلة ، مما جعل فلورينتينو اريثا يضطر الى حمل مقص التشذيب وغيره من أدوات الحديقة للحفاظ على الشجرتين ضمن حدود معقولة . لكن نموهما كان أكبر من قواه . وبعد عدة سنوات كانت الشجيرتان قد امتدتا كحرج ما بين القبور ، فصارت مقبرة الوباء الطيبة تعرف منذ ذلك الحين باسم مقبرة الورد ، الى أن جاء عمدة أقل واقعية من الحكمة الشعبية ، فانتزع شجيرات الورد في إحدى الليالي ، وعلق لوحة جمهورية فوق قنطرة المدخل : المقبرة الكونية .

لقد حكم موت الأم على فلورينتينو اريثا بالعودة الى ديدنه السابق : المكتب ، واللقاءات المتناوبة مع عشيقاته المزمنات ، ولعب الدومينو في النادي التجاري ، وقراءة كتب الحب نفسها ، زيارة المقبرة في أيام الآحاد . انه صدأ الروتين ، الذي كثيرا ما كان محط قذف ومبعث خوف ، لكنه حماه من الاحساس بتقدمه في السن . ومع ذلك ، ففي يوم أحد من أيام كانون الثاني ، حين كانت شجيرات الورد قد انتصرت على مقص التشذيب ، رأى سنونوة على أسلاك النور التي نصبت حديثاً ، فأدرك فجأة كم من الوقت مضى على موت أمه ، وكم مضى على مقتل اوليمبيا زوليتا ، وكم مضى أيضاً على ذلك المساء الآخر من شهر كانون الأول البعيد حين بعثت فيرمينا داثا رسالة تقول فيها أجل ، انها ستحبه الى الأبد . كان يتصرف حتى ذلك الحين

وكأن الزمن لا يتقدم بالنسبة له وانما بالنسبة للآخرين فقط . ففي الأسبوع الماضي تقريباً التقى في الشارع بزوجين من أولئك الكثيرين الذي تزوجوا بفضل رسائله السرية ، ولم يستطع أن يتعرف على الابن الأكبر الذي كان هو نفسه عرابه . وقد تخلص من الحرج بالعبارة التقليدية : «يا الله! ها قد أصبح رجلاً! » . وحتى حين أصبح جسده يبعث اليه بأول اشارات الانذار ، استمر على هذا الحال ، لأنه احتفظ دوماً بعافية كالصخر في مواجهة الامراض . وقد اعتادت ترانسيتو اريثا القول : «المرض الوحيد الذي أصاب ابني هو الكوليرا » خالطة الكوليرا بالحب طبعاً ، ذلك قبل أن تخلط ذاكرتها بزمن طويل . ولكنها كانت مخطئة على أية حال ، لأن ابنها أصيب سراً بست حالات من السيلان الأبيض ، رغم أن الطبيب كان يقول بأنها ليست ست حالات ، وانما حالة واحدة وحيدة تعود للظهور بعد كل معركة خاسرة . كما أصيب بخراج ، وبأربع حالات من عرف الديك وست اصابات بالبثور ، ولكن لم يكن ليخطر بباله أو ببال أي رجل آخر اعتبار هذه الاصابات أمراضاً وانما مجرد تذكارات حرب .

ما كاد يتم الأربعين من العمر حتى اضطر للهرع الى الطبيب شاكيا من آلام غير محددة في عدة مواضع من جسده . وبعد عدة فحوص ، قال له الطبيب : « إنها أمور السن » . لقد كان يعود الى البيت دوماً دون أن يتساءل إن كان لكل هذه الأمور علاقة به . فنقطة الارتكاز الوحيدة في ماضيه هي غرامياته البائدة مع فيرمينا داثا ، ولم يكن يدخل في حسابات حياته الا ما له علاقة بها . وهكذا وجد نفسه يوم رؤيته طيوراً لسنونو على أسلاك النور يسترجع ماضيه منذ أقدم ذكرياته ، استرجع ذكرى غرامياته العارضة ، والعثرات الكثيرة التي كان عليه اجتيازها للوصول الى موقع رئاسي ، وكذلك الحوادث الكثيرة التي أثارها قراره الملحمي بأن تكون فيرمينا داثا له ، وهو لها على الرغم من كل شيء وفوق كل شيء ، وعندها

فقط اكتشف أن الحياة تفلت منه . فهزت أحشاءه قشعريرة افقدته صوابه ، واضطر لافلات أدوات الحديقة والاستناد الى جدار المقبرة كي لا تطرحه أرضاً أول ضربة من مخلب الشيخوخة ، وقال مرتعداً :

ـ رباه! كل هذا حدث منذ ثلاثين سنة!

أجل ثلاثون سنة مرت كذلك على فيرمينا داثا دون شك ، لكنها كانت بالنسبة لها أسعد سنوات حياتها وأكثرها حيوية . كانت أيام الرعب في قصر كاسالدويرو قد أهملت في مزبلة الذاكرة . وأصبحت تعيش في بيتها الجديد في حي لامانغا ، سيدة كاملة السيادة على مصيرها ، مع زوج عادت تفضله على جميع رجال العالم لو أتيح لها الاختيار من جديد ، ومع ابن سيتابع ارث العائلة في مدرسة الطب ، وابنة تشبهها تماما عندما كانت هي في مثل سنها ، حتى ان احساسها بأنها تتكرر من خلالها كان يسبب لها الاضطراب . لقد عادت ثلاث مرات الى أوروبا بعد الرحلة التعيسة حين قررت الا تعود أبداً كي تتخلص من العيش في رعب دائم .

لا بد أن الله استجاب أخيراً الى صلوات أحد ما : فبعد سنتين من الاقامة في باريس ، وحين بدأت فيرمينا داثا بالبحث مع خوفينال اوربينو عما تبقى لهما من الحب بين الأنقاض ، وصلتهما برقية من برقيات منتصف الليل أيقظتهما بخبر أن دونيا بلانكا دي اوربينو تعاني مرضاً خطيراً ، ثم تلتها برقية ثانية تحمل خبر موتها . رجعا في الحال . ونزلت فيرمينا داثا من السفينة بثوب حداد فضفاض لم يخف اتساعه حالتها : كانت حبلى ثانية بالفعل ، وقد كان هذا الخبر منطلقاً لأغنية شعبية تحمل من الخبث أكثر مما تحمله من السوء ، وقد شاع منها طوال تلك السنة مقطع يقول : ما الذي تفعله الجميلة في باريس ، ما تكاد تذهب حتى تعود للولادة . ورغم ابتذال الكلمات ، واصل الدكتور خوفينال اوربينو ترديدها لسنوات طويلة في حفلات النادي الاجتماعي كدليل على طيب سريرته .

قصر المركيز كاسالدويرو الفخم ، الذي لم يعثر مطلقاً على خبر مؤكد حل وجوده ومآثره ، بيع أولا لدار الخزينة البلدية بسعر مناسب ، ثم أعيد بيعه بثروة باهظة فيما بعد للحكومة المركزية ، عندما جاء باحث هولندي لإجراء تنقيبات هناك ليثبت وجود الضريح الحقيقي لكريستوف كولومبس : الضريح الرابع . وقد ذهبت شقيقتا الدكتور اوربينو للعيش في دير لاس ساليسياناس ، في عزلة بلا نذور ، وأقامت فيرمينا داثا في بيت أبيها القديم ريثما ينتهي العمل ببناء البيت في لامانغا . ودخلت اليه بخطى واثقة ، دخلت لتأمر وتنهي ، ومعها دخل الأثاث الانكليزي الذي أحضرته منذ رحلة الزفاف والمكملات التي بعثت بطلبها بعد رحلة المصالحة ، وبدأت تملأ البيت منذ يومها الأول فيه بكل أنواع الحيوانات الغريبة التي كانت تمضي بنفسها لتشتريها من سفن الانتيل . دخلت الى البيت الجديد مع زوجها المستعاد ، مع ابنها اليافع ، ومع ابنتها التي ولدت بعد أربعة شهور من عودتها وعمداها باسم اوفيليا . وأدرك الدكتور اوربينو من جهته ، أنه يستحيل عليه استعادة زوجته تماما كما كانت له أثناء رحلة الزفاف ، لأن الحب الذي أراده منها منحته للطفلين ، ولكنه تعلم العيش سعيدا ببقايا الحب . ثم وصلهما الانسجام المرغوب من حيث لم ينتظراه أثناء مأدبة عشاء قدم فيها صنف لذيذ لم تتكن فيرمينا داثا من تحديد كنهه . فتناولت طبقاً لابأس به ، لكن الطعام أعجبها فعادت تسكب طبقاً آخر ، وتحسرت لأن التكلف الاجتماعي لا يسمح لها بسكب طبق ثالث .وعندما علمت بأنها انما تناولت بشهية لا شك فيها طبقين من بوريه الباذنجان المطحون ، أصبح الباذنجان يقدم في بيت لامانغا بكل أشكاله وبكميات كتلك التي كان يقدم فيها في قصر كاسالدويرو ، وكان الجميع يأكلونه بشهية ، حتى أن الدكتور خوفينال اوربينو صار يمزح في لحظات فراغ الشيخوخة بالقول انه يرغب بانجاب ابنة ليطلق عليها الاسم المحبوب في البيت : باذنجانة اوربينو .

كانت فيرمنيا داثا تعرف حينئذ أن الحياة الخاصة متقلبة ومليئة بالمفجآت ، على عكس الحياة العامة . ولم يكن من السهل عليها وضع فوارق حقيقية ما بين الأطفال والبالغين ، ولكنها كانت تفضل الأطفال في نهاية المطاف ، لأن معاييرهم أكثر صواباً . وما كادت تجتاز منعطف النضوج ، متخلصة أخيراً من كل أنواع السراب ، حتى بدأت ترى خيبة الأمل في أنها لم تكن أبداً كما حلمت أن تكون وهي شابة ، في حديقة البشارة ، وانما أصبحت شيئاً آخر لم تجرؤ على الاعتراف به حتى لنفسها : خادمة مرفهة . لقد توصلت لتصبح سيدة الحياة الاجتماعية المحبوبة ، ومحط الاعجاب فيها . لتكون في الوقت ذاته السيدة مرهوبة الجانب . لكن شيئاً لم يكن يلح عليها بقسوة ولم يكن أقل تهادناً من ادارة شؤون المنزل . لقد أحست دوماً بأنها تعيش حياة مكرسة لزوجها : سيدة مطلقة في مملكة السعادة الفسيحة المشادة من أجله ، ومن أجله فقط . كانت تعلم أنه يحبها فوق كل شيء ، يحبها أكثر مما يحب أياً كان في الدنيا ، انما يحبها من أجل نفسه فقط : في خدمته المقدسة .

واذا كان هناك ما يعذبها فهو الحكم المؤبد المفروض عليها بتحضير الطعام اليومي . اذ لم يكن الأمر يتوقف عند اعداد الطعام في الموعد المحدد ، بل لا بد أن يكون كذلك متقناً ، وأن يحتوي على ما يريد الزوج أكله دون أن تسأله عما يريد . واذا ما سألته يوماً ، فإن سؤالها سيكون طقساً آخر يضاف إلى طقوس الروتين البيتية التي لا طائل منها ، لأنه سيرد عليها دون أن يرفع نظره عن الجريدة : «أي شيء» . والحقيقة أنه كا يقول ذلك ، بطريقته اللطيفة ، لأنه ما كان يستطيع أن يتصور نفسه كزوج أقل استبدادية . لكنه حين يجلس إلى المائدة لا يقبل أي شيء ، بل ما يريده بالضبط ، وبلا أدنى نقصان : فاللحم ليس له مذاق اللحم ، والسمك ليس له مذاق السمك ، وليس للخنزير طعم الجرب ، ولا للفروج مذاق الريش . ثم

أنه لا بد من وجود الهليون في أي موسم كان ، حتى يتاح له الابتهاج لرائحة بوله الشذية . ما كانت تلومه ، بل تلقي باللوم على الحياة . لكنه كان صانعاً لا يرحم من صناع الحياة . كانت تكفيه عشرة شك ليزيح الطبق على المائدة قائلاً : «هذا الطعام صُنع بلا حب» . وكان يصل في هذا المنحى إلى حالات خيالية من الالهام ، ففي أحد الأيام ، تذوق قليلاً من شراب البابونج ، ثم أعاد ما شربه بعبارة واحدة : «هذا الشيء له طعم نافذة» . وقد فوجئت هي كما فوجئت الخادمات ، لأنهن لم يتعرفن يوماً على أحد شرب نافذة مغلية . لكنهن حين تذوقن الشراب ليفهمن... فهمن : كان له مذاق نافذة .

لقد كان زوجاً دقيقاً : فهو لم يلتقط أي شيء عن الأرض يوماً ، كما لم يكن يطفئ النور أو يغلق الباب أبداً . وحين يجد أحد الأزرار ناقصاً ، في عتمة الفجر ، كانت تسمعه يقول : «لا بد للمرء من زوجتين ، واحدة ليحبها ، وواحدة لتخيط له الأزرار» . وفي كل يوم ، عند تناوله أول رشفة من القهوة وأول ملعقة من الحساء الساخن ، كان يطلق عواء مؤثراً ما عاد يفزع أحداً ، ثم ينطلق بالقول فوراً : «اذا هجرت هذا البيت يوماً فاعلموا أنني فعلت ذلك لأنني مللت البقاء فيه بفم محروق دوماً» . وكان يقول بأنهم لا يطبخون غذاء شهياً ومتنوعاً إلا حين يتناول مليناً لتنظيف معدته ويكون عاجزاً عن أكل الطعام ، وكان موقناً أن هذا التدبير هو مؤامرة غادرة من زوجته ، حتى أنه لم يعد ينظف معدته بدواء مُسهل إلا إذا تناولت مُسهلاً معه .

ولضجرها من سوء تقديره ، طلبت منه هدية فريدة في عيد ميلادها : أن يقوم بأداء الأعمال البيتية ليوم واحد . فوافق فراحاً وتولى ادارة البيت فعلاً منذ الفجر . قدم فطوراً رائعاً ، لكنه نسي انها لا تحب البيض المقلي ولا تتناول القهوة بالحليب .ثم أعطى التعليمات لاعداد غداء عيد ميلاد لثمانية مدعوين وأوعز بترتيب البيت ، ورغم اجتهاده لتسيير الشؤون المنزلية خيراً

منها ، فقد اضطر للاستسلام دون خجل قبل منتصف النهار . اذ أدرك منذ اللحظة الأولى انه لا يملك أدنى فكرة عن مكان وجود أي شيء وخصوصاً في المطبخ وقد تركته الخادمات يقلب كل شيء ليبحث عما يريده ، اذ شاركن كذلك في اللعب . وحتى الساعة العاشرة لم يتلقين الأوامر لاعداد الغداء ، لأن تنظيف البيت لم يكن قد انتهى ، كما لم يكن قد تم ترتيب غرف النوم بعد ، وبقي الحمام دون تنظيف ، ونسي وضع الورق الصحي في مكانه ، وكذلك استبدال شراشف الأسرة ، كما نسي أن يبعث الحوذي لاحضار الأولاد ، وخلط بين مهمات الخادمات ؛ فأمرالطاهية بترتيب الأسرة وبعث عاملات خدمة المائدة لطهي الطعام . وفي الساعة الحادية عشرة ، حين كان المدعوون على وشك الوصول ، كان البيت مايزال غارقاً في الفوضى ، مما دفع فيرمينا داثا إلى تولي القيادة وهي منفجرة بالضحك ، ولكنها لم تفعل ذلك بزهو الانتصار الذي رغبته ، بل بشفقة تهز أعماقها لعدم جدوى زوجها في الشؤون البيتية . وتنفس هو من الحرج بحجته الدائمة : «لم يكن الأمر سيئاً على الأقل إلى الدرجة التي ستصلين اليها لو أنك حاولت معالجة المرضى» . لكن الدرس مضى بلا فائدة لكليهما . فمع تقدم السنين وصلا ، عبر سبيلين مختلفين ، الى النتيجة الحكيمة بأنه ليس ممكناً لهما العيش معاً بطريقة أخرى ، وليس ممكناً لهما أن يحبا بعضهما بشكل آخر : اذ ليس في هذه الدنيا ما هو أصعب من الحب .

في خضم حياتها الجديدة ، رأت فيرمينا داثا فلورينتينو اريثا في مناسبات عامة عديدة ، وكانت تراه أكثر كلما ترقى في عمله ، لكنها تعلمت أن تراه بشكل طبيعي جداً ، حتى أنها نسيت مصافحته أكثر من مرة نتيجة سهوها عنه . وكثيراً ما كانت تسمع أحاديث عنه لأن موضوع صعوده الحذر والواثق في مناصب ش . ك . م . ن . كان موضوعاً شائعاً في عالم الأعمال . كانت ترى إلى تحسن مكانته ، وإلى الثناء على خجله كأحجية

نائية ، وكان مظهره يتحسن مع زيادة طفيفة في وزنه ، كما أن بطء السن كان يناسبه ، ثم أنه عرف كيف يحلّ بوقار مشكلة الصلع المدمرة . والأشياء الوحيدة التي بقيت فيه متحدية الزمن والموضة هي ملابسه القاتمة ، والسترات التي كانت موضة زمن مضى ، والقبعة الوحيدة ، وربطة عنق الشاعر المصنوعة من شرائط كان يأخذها من دكان أمه ، والمظلة المشؤومة ، وقد اعتادت فيرمينا داثا على رؤيته بطريقة مختلفة ، إلى أن لم تعد تربط بينه وبين المراهق الهزيل الذي كان يجلس متنهداً من أجلها تحت الأوراق الصفراء المتطايرة في حديقة البشارة . ولكنها لم تره أبداً بلا مبالاة ، وكانت تفرح دوماً للأخبار الطيبة التي تسمعها عنه ، لأنها كانت تهدئ شيئاً فشيئاً من شعورها بالذنب .

ومع ذلك ، وحين ظنت أنها قد محته تماماً من ذاكرتها ، عاد للظهور من حيث لم تكن تنتظره متحولاً إلى شبح لأشواقها . كانت قد هبت عليها أولى نسائم الشيخوخة حين بدأت تشعر أن شيئاً لا سبيل إلى اصلاحه قد حدث في حياتها كلما سمعت قصف الرعد قبل المطر . انه الجرح الذي لا يندمل لذلك الرعد المتوحد والصخري الدقيق في موعده ، الذي كان ينفجر كل يوم من أيام تشرين الأول في الساعة الثالثة مساء في جبال فيانويفا ، والذي كانت ذكراه تتجدد مع مرور السنين . فبينما كانت الذكريات الجديدة تختلط في ذاكرتها بعد أيام من حدوثها ، كانت ذكريات الرحلة القديمة إلى مقاطعة ابنة الخال هيلدبيراندا تصبح معاصرة حتى لتبدو وكأنها حدثت بالأمس ،وذلك بقدرة الحنين المضللة . صارت تتذكر ماناوري ، البلدة الجبلية ، بشارعها الوحيد المستقيم والأخضر ، وعصافيرها بشير الفأل الطيب ، وبيت المخاوف حيث كانت تستيقظ وقميصها مضمخ بدموع بيترا موراليس الغزيرة ، التي ماتت حباً قبل ذلك بسنوات طويلة على السرير نفسه حيث تنام . صارت تتذكر طعم جوافة ذلك الزمن التي تبدل مذاقها منذ

ذلك الحين ، والتي كان حفيف نذيرها الزخم يختلط بحفيف المطر ، كما أخذت تتذكر أمسيات سان خوان دي تيسير الزبرجدية ، حين كانت تخرج لتتمشى مع كوكبة بنات خؤولتها الصاخبات وهي تضغط أسنانها حتى لا يقفز قلبها من فمها كلما اقتربت من مركز التلغراف ، باعت بيت أبيها بأي ثمن لأنها ما عادت تحتمل آلام المراهقة ، ولا مرأى الحديقة المقفرة من الشرفة ، ولا أريج الياسمين في الليالي الحارة ، ولا هول صورتها بزي سيدة قديمة في مساء ذلك اليوم من شهر شباط ، وهو نفس اليوم الذي حسمت فيه مصيرها . وأينما قلبت ذاكرتها في ذلك الزمن كانت تصطدم بذكرى فلورينتينو اريثا . ومع ذلك ، فقد كانت تمتلك من الصفاء دوماً ما يجعلها تدرك بأنها ليست ذكريات حب أو ندم ، وانما احساس مكدر يترك لها بقايا دموع . ودون أن تدري كانت مهددة بالوقوع في مصيدة الشفقة التي أضاعت عدداً كبيراً من ضحايا فلورينتينو اريثا الغافلات .

تشبثت بزوجها . وجاء ذلك في الفترة التي بدأ يحتاج اليها أكثر من أي وقت آخر ، اذ كان يكبرها بعشر سنوات ، وينطلق وحده متعثراً في ضباب الشيخوخة ، اضافة لكونه رجلاً أشد ضعفاً . انتهيا إلى معرفة بعضهما حتى أصبحا قبل مرور ثلاثين سنة على زواجهما وكأنهما كائن واحد مشطور إلى نصفين ، وصار القلق يساورهما لكثرة ما أصبح كل منهما يعرف ما يدور بخلد الآخر ، وللحدث المضحك بأن يسبق أحدهما إلى النطق بماكان سيقوله الآخر . لقدصرفا معاً خلافات سوء التفاهم اليومية ، والأحقاد الآنية ، والقذارات المتبادلة ، وبروق مجد السعادة الزوجية الخرافية . كان ذلك هو الزمن الذي أحبا فيه بعضهما على أحسن وجه ، دون تسرع ولا مبالغة ، وقد وعيا انتصاراتهما الباهرة على الخصوم وباركاها . وكان على الحياة أن تمدهما بمزيد من البراهين الفانية ، ولكنها لم تعد ذات نفع لهما : فقد كانا على الضفة الأخرى .

أُعدّ برنامج حافل بالنشاطات العامة بمناسبة الاحتفال بمطلع القرن الجديد ، وأجدر هذه النشاطات بالذكر هي الرحلة الأولى بالمنطاد ، ثمرة مبادرة من مبادرات الدكتور خوفينال اوربينو التي لا تنضب . اجتمع معظم أهل المدينة عند شاطئ الارسينال لابداء دهشتهم من ارتفاع بالون الحرير الهائل ، الملون بألوان العلم الوطني في الجو ، ليحمل أول بريد جوي إلى سان خوان دي لاثيناغا ، على بعد حوالي ثلاثين فرسخاً بخط مستقيم إلى الشمال الشرقي . كان الدكتور خوفينال اوربينو وزوجته ، اللذان عرفا متعة الطيران من قبل في معرض باريس الكوني ، هما أول من صعد إلى حجيرة المنطاد المصنوعة من الخيزران ، ثم صعد معهما مهندس الرحلة الطائرة وستة مدعوين آخرين كانوا يحملون رسالة من الحكومة المحلية إلى السلطات البلدية في سان خوان دي لاثيناغا ، يسجلون فيها للتاريخ أن تلك الرسالة هي أول بريد ينتقل عبر الأجواء . أحد صحفيي الدياريو دي كوميرثيو سأل الدكتور خوفينال اوربينو ما هي آخر كلماته اذا ما قضى نحبه في المغامرة ، فلم يترو هذا للتفكير بالجواب الذي سبب له شتائم كثيرة ، اذ قال :

ـ أظن بأن العالم بأسره سيشهد تغير القرن التاسع عشر ، باستثنائنا نحن .

وفيما المنطاد يرتفع ، أحس فلورينتينو اريثا الضائع بين الحشود الساذجة التي تنشد النشيد الوطني ، بأنه يشترك بالرأي مع تعليق سمعه من أحدهم وسط الضجة بأن تلك المغامرة ليست مناسبة لامرأة وخصوصاً امرأة في سن فيرمينا داثا . ولكنها لم تكن بالمغامرة الخطيرة على أي حال . أو أنها لم تكن على الأقل خطرة بقدر ما هي مؤثرة . لقد وصل المنطاد دون تيارات هوائية معاكسة إلى مستقره ، بعد رحلة هادئة في سماء زرقاء إلى حد غير معقول : طاروا طيراناً طيباً على ارتفاع قليل ، تدفعهم ريح هادئة ومواتية ، فوق ذرى الجبال المكللة بالثلج أولاً ، ثم فوق مستنقع ثيناغاغراندي الفسيح .

ومن السماء رأوا أطلال مدينة كارتاخينا دي اندياس القديمة والبطولية كما يراها الله ، مهجورة من ساكنيها الذين هربوا خوفاً من الكوليرا ، بعد أن قاوموا جميع صنوف الحصار من جانب الانكليز وكل عسف القراصنة خلال ثلاثة قرون . رأوا الأسوار الكاملة ، وأشجار الشوارع الملتفة ، والتحصينات التي قوضتها رهبانيات الثالوث ، وقصور المرمر والمذابح الذهبية مع حكامها الاستعماريين المتعفنين بالوباء في دروعهم السابغة .

طاروا فوق بيوت تروخاس دي كاتاكا الأثرية القائمة وسط الماء ، والمطلية بألوان مجنونة ، والمرفقة بحظائر لتربية عظائيات الأكل ، حيث تتدلى نباتات بالسامينا واستر وميليا في الجنائن المائية . كان مئات الأطفال يلقون بأنفسهم من النوافذ ، ومن سطوح البيوت ومن الزوارق التي يقودونها بمهارة مذهلة ويغوصون كأسماك الشابل لاستخراج حزم الملابس وقناني دواء السعال وطعام الصدقات الذي تلقي به المرأة الجميلة ذات قبعة الريش من حجيرة المنطاد .

طاروا فوق اوقيانوس ظلال مزارع الموز التي كان صمتها يرتفع اليهم كبخار مميت ، فتذكرت فيرمينا داثا نفسها وهي في الثالثة من العمر ، أو

ربما في الرابعة ، تتمشى في الأجمة الكئيبة ممسكة بيد أمها التي كانت ما تزال حينئذ مجرد طفلة أيضاً وسط نساء أخريات يرتدين الموسلين ، مثلها ، ويحملن مظلات بيضاء ويضعن قبعات شفافة . قال مهندس المنطاد الذي كان يراقب العالم بمنظار مكبر : «يبدو أنهم موتى» . وأعطى المنظار للدكتور اوربينو ، فرأى هذا الأخير العربات التي تجرها الجواميس بين الشجيرات ، وخطوط السكة الحديد ، وأقنية الري المتجمدة ، وحيثما توجه بنظره كان يرى أجساداً بشرية مبعثرة . وقال أحدهم بأنه علم ان الكوليرا كانت تفتك بقرى منطقة ثيناغا غراندي . فقال الدكتور اوربينو الذي لم يتوقف عن النظر بالمنظار أثناء كلامه :

ـ لا بد أنه صنف خاص جداً من الكوليرا اذن . لأن هناك رصاصة رحمة في عنق كل واحد من الموتى .

ثم طاروا بعدذلك بقليل فوق بحر من الزبد وحطوا دون أي حادث يذكر على شاطئ متقد ، كانت أرضه المتشققة والمغطاة بملح البارود محرقة وكأنها نار متأججة . وكانت السلطات تقف هناك دون أية حماية من الشمس سوى المظلات العادية ، وكان هناك تلامذة المدارس الابتدائية يلحون بأعلام صغيرة على ايقاع النشيد الوطني ، وملكات الجمال يحملن زهوراً أحرقها القيظ ويضعن تيجاناً من الورق المذهب ، وسُذج بلدة غايرا المزدهرة ، التي كانت في ذلك الحين أحسن قرى الشاطئ الكاريبي حالاً . الشيء الوحيد الذي كانت تريده فيرمينا داثا هو رؤية مسقط رأسها ثانية ، لتقارن ما تراه مع أقدم ذكرياتها ، لكنهم لم يسمحوا لأحد بالتجول خوفاً من فتك الوباء . سلم الدكتور خوفينال اوربينو الرسالة التاريخية ، التي فُقدت فيما بعد ولم يعد يُعرف شيء عنها ، وقد شارف جميع أعضاء البعثة على الاختناق في قيظ الخطابات الحماسية . إلى أن حملوهم أخيراً على صهوات البغال حتى مرسى بويبلوبيخو ، حيث تلتقي المستنقعات بالبحر ، لأن

المهندس لم يتمكن من جعل المنطاد يطير ثانية . كانت فيرمينا داثا متأكدة من أنها قد مرت من هناك مع أمها ، وهي طفلة ، في عربة يجرها زوج من الجاموس . وقد روت ذلك عدة مرات لأبيها عندما كبرت ، لكنه مات وهو يصر على أنه يستحيل عليها أن تتذكر ذلك ، وكان يقول لها :

ـ إنني أذكر هذه الرحلة جيداً ، وقد كانت هكذا فعلاً ، لكنها حدثت قبل مولدك بخمس سنوات على الأقل .

عاد أعضاء بعثة المنطاد بعد ثلاثة أيام إلى ميناء المنشأ وقد انهكتهم ليلة عاصفة ، واستقبلوا استقبال الأبطال . وتعرف فلورينتينو اريثا ، الضائع بين الحشود طبعاً ، على آثار البخار فوق محيا فيرمينا داثا . ومع ذلك ، عاد لرؤيتها مساء ذلك اليوم في استعراض الدراجات ، الذي أقيم تحت رعاية زوجها أيضاً ، ولم يكن يبدو عليها أي أثر للتعب . كانت تقود دراجة فريدة تبدو أشبه بجهاز من أجهزة السيرك بعجلتها الأمامية العالية ، والتي جلست فوقها ، بينما كانت العجلة الخلفية صغيرة جداً ولا تكاد تكفي لاسنادها . وكانت ترتدي سروالاً فضفاضاً ذا حواشٍ ملونة أثار استنكار السيدات المسنات ، وأفقد الرجال الوقورين صوابهم ، لكن أحداً لم يستطع ابداء لا مبالاته بمهارتها .

هذه الصور ، وغيرها كثير ، كانت صوراً سريعة الزوال لسنوات طويلة ، تظهر بغتة لفلورينتينو اريثا حين يحلو ذلك للمصادفة ، ثم ما تلبث أن تختفي بالطريقة نفسها تاركة في قلبه نورج لوعة . لكنها كانت تخلف أثراً في حياته ، اذ أنه لم يتعرف على قسوة الزمن من خلال مظهره هو بالذات بقدر ما تعرف عليه من التبدلات التي يلاحظها على فيرمينا داثا كلما رآها .

دخل في أحد الأيام إلى مطعم دون سانتشو ، وهو مطعم فاخر من العهد الاستعماري ، واحتل ركناً منزوياً ، كما هي عادته كلما مضى لتناول وجبة عصر خفيفة كوجبة عصفور . وفجأة رأى فيرمينا داثا في المرآة الضخمة ،

جالسة إلى الطاولة مع زوجها ورجلين آخرين مع زوجتيهما ، بزاوية تتيح له رؤية صورتها المعكوسة في المرآة بكل رونقها . كانت عزلاء ، تقود الحديث بظرافة وضحكة تنفجران كانفجار الألعاب النارية ، وكان جمالها أشد ألقاً تحت الثريا الضخمة ذات القطع الكريستالية : لقد عادت «أليس» لاختراق المرآة .

تأملها فلورينتينو اريثا ما شاء له التأمل بأنفاس مبهورة ، رآها تأكل ، ورآها تتذوق قليلاً من النبيذ ، ورآها تمازح دون سانتشو ، الرابع في سلالته ، وعاش معها لحظة من حياتها وهو على طاولته المنعزلة ، وتمشى لأكثر من ساعة في أرضها الحرام دون أن يكون مرئياً . ثم تناول أربعة فناجين أخرى من القهوة ليبقى وقتاً أطول ، إلى أن رآها تخرج مختلطة بالمجموعة التي معها . لقد مروا قريباً جداً منه ، لدرجة أنه تمكن من تمييز رائحتها وسط وابل العطور الأخرى المنبعثة ممن هم معها .

ومنذ تلك الليلة ، وعلى امتداد سنة تقريباً ، قام بمحاصرة صاحب المحل حصاراً عنيداً ، عارضاً عليه كل ما يشاء ، من مال أوخدمات ، أو تلبية أكثر ما اشتهاه في حياته ، مقابل أن يبيعه المرآة . ولم يكن الأمر سهلاً فالشيخ دون سانتشو كان يؤمن بالخرافة القائلة إن ذلك الاطار الثمين الذي صنعه نجار أبنوس من فينا هو توأم اطار آخر كانت تملكه ماري انطوانيت ، وقد اختفى دون أن يبقى له أثر : تحفتان فريدتان . حين وافق أخيراً ، علق فلورينتينو اريثا المرآة في صالة بيته ، ليس لجمال الاطار ودقة صنعته ، وانما لأجل القسم الداخلي الذي احتلته الصورة المحبوبة لساعتين .

وكثيرا ما كان يرى فيرمينا داثا ، ممسكة بذراع زوجها ، في انسجام تام ، متحركين كليهما في جو خاص بهما ، بانسياب مذهل لا يتشوش الا حين يصافحاه . وفعلاً كان الدكتور خوفينال أوربينو يشد على يده بحرارة ، بل كان يسمح لنفسه بأن يربت على كتفه في بعض المناسبات . أما هي ،

فكانت تعامله بمقتضى نظام الشكليات الغامض ، ولم تُبد يوماً أدنى حركة تتيح له أن يشك بأنها تتذكره مذ كانت عازبة . كانا يعيشان في عالمين متباعدين ، وفيما كان يقوم بكل جهد متاح لتقريب المسافة ، فانها لم تكن تقوم بأية خطوة الا في الاتجاه المعاكس . لقد مضى زمن طويل قبل أن يجرؤ على التفكير بأن تلك اللامبالاة ليست سوى درع لاخفاء الخوف . لقد خطر له ذلك فجأة ، عند تعميد السفينة النهرية الأولى التي جرى بناؤها في أحواض بناء السفن المحلية ، وكانت تلك أيضا هي المناسبة الأولى التي مثل فيها فلورينتينو اريثا العم ليون الثاني عشر باعتباره نائباً أول ، لرئيس ش . ك . م . ن . وقد أضفت هذه المصادفة على الحفل مهابة خاصة ، فلم يتخلف عن الحضور أحد ممن لهم أية قيمة في حياة المدينة .

كان فلورينتينو اريثا مشغولاً بمدعويه في الصالة الرئيسية بالسفينة ، التي مازالت تنبعث منها روائح الدهان الحديث والقار المذاب ، عندما انفجرت موجة من التصفيق على الرصيف وعزفت الفرقة الموسيقية لحناً حماسياً . وكان عليه أن يقهر الارتعاشة القديمة كقدمه تقريباً حين رأى امرأة أحلامه الفاتنة ممسكة بذراع زوجها ، بنضوجها الرائع ، وهي تمر كملكة من عصر آخر وسط حرس الشرف المتزيين بزي المراسم ، تحت وابل من الشرائط الورقية الملونة وأوراق الأزهار الطبيعية التي تقذف من النوافذ . وكانا يردان على التصفيق بتحية من يديهما ، لكنها كانت فاتنة حتى لتبدو وكأنها وحيدة وسط الحشد . كان كل ما ترتديه له لون ذهبي ملكي ، ابتداء من الحذاء ذي الكعب العالي وأذيال الثعالب على عنقها ، وحتى القبعة التي لها شكل الجرس .

انتظرهما فلورينتينو اريثا على الجسر ، الى جانب السلطات الاقليمية . وسط قصف الموسيقى والألعاب النارية وجأرات السفينة القوية الثلاث التي بللت رصيف الميناء بالبخار . صافح خوفينال أربينو صف المستقبلين بتلك

الابتسامة الطبيعية التي هي من خصائصه والتي تجعل كل واحد يظن أنه يصافحه بحرارة خاصة . صافح أولاً قبطان السفينة ببدلة المراسم ، ثم الأسقف ، وبعده الحاكم وزوجته والعمدة وزوجته ، ثم قائد المنطقة العسكري ، وهو انديزي حديث القدوم الى المدينة . وبعد السلطات كان يقف فلورينتينو اريثا ، مرتدياً بدلة قاتمة ، ولا يكاد يظهر بين كل هؤلاء الاعيان . وبعد أن صافحت فيرمينا داثا قائد المنطقة العسكري ، بدا أنها ترددت أمام يد فلورينتينو اريثا الممدودة فسألها العسكري المتأهب لتقديمه لها ان كانت لا تعرفه ، فلم تقل لا ولم تقل نعم ، بل مدت يدها الى فلورينتينو اريثا بابتسامة صالون . كان ذلك قد حدث في مناسبتين سابقتين ، وسيحدث في مناسبات أخرى ، وقد تمثله فلورينتينو اريثا دائماً كتصرف نابع من طبيعة فيرمينا داثا . ولكنه تساءل في مساء ذلك اليوم ، بمقدرته اللامحدودة على الحلم ، ان لم تكن هذه اللامبالاة القاسية ليست الا حيلة لاخفاء عذاب الحب .

وقد اضطرمت أشواقه لمجرد ورود هذه الفكرة بباله . فعاد للطواف حول بيت فيرمينا داثا بنفس القلق الذي كان يشعر به قبل سنوات طويلة أثناء طوافه في حديقة البشارة ، لكنه لم يكن ينوي أن يجعلها تراه ، وانما كانت نيته الوحيدة أن يراها ليعلم انها ما زالت حية في الدنيا . ولم يعد ممكناً للزمن أن يمضي حينئذ دون اكتراث . كان حي لامانغا يقوم في جزيرة شبه مقفرة ، تفصلها عن المدينة التاريخية قناة ماء خضراء ، مغطاة باحراج من أشجار الاكاكو التي كانت ملاذاً للعشاق في أيام الآحاد ابان العهد الاستعماري . ومنذ سنوات قليلة هدموا الجسر الحجري القديم الذي بناه الاسبان ، وأقاموا جسراً جديداً مع مصابيح انارة ، لتتمكن الحافلات التي تجرها البغال من المرور . لقد كان على ساكني لامانغا أول الأمر احتمال عذاب ما كان في الحسبان ، ألا وهو النوم قريباً من أول محطة لتوليد

الكهرباء في المدينة ، والتي كان هديرها أشبه بهزة أرضية متواصلة : ولم يستطع حتى الدكتور خوفينال اوربينو بكل نفوذه جعلهم ينقلون المحطة الى حيث لا تزعج أحداً ، الى أن توسطت لصالحه العناية الالهية التي تحالفه دوماً . ففي احدى الليالي انفجر مرجل محطة التوليد في دوي بخاري هائل ، وطار فوق البيوت الجديدة ، مجتازاً جزءاً كبيراً من المدينة في الجو وهوى ليحطم الرواق الرئيسي في دير سان خوليان الهوسبيتالاريو القديم . كان المبنى القديم قد هُجر في أوائل ذلك العام ، لكن المرجل تسبب في مقتل أربعة سجناء كانوا قد فروا في أول الليل من السجن المحلي واختبأوا في الدير المهجور .

تلك الضاحية الهادئة ، ذات التقاليد الغرامية الجميلة ، لم تعد مع ذلك بالمكان المناسب للغراميات غير المواتية مذ أصبحت حياً راقياً . كانت متربة في الصيف ، وموحلة في الشتاء ، ومقفرة طوال العام ، فيما البيوت القليلة المختفية وسط حدائق وارفة ، ذات مصاطب الموزاييك بدلاً من الشرفات القديمة ، تبدو وكأنها شيدت لاخماد حماس العشاق المتخفين . وكان أن شاعت في ذلك الحين ، لحسن الحظ ، عادة التنزه مساء بالعربات القديمة المستأجرة والتي تم تعديلها ليجرها حصان واحد وفقط ، وكانت الجولة بالعربة تنتهي عادة في ربوة مشرفة يظهر منها شفق تشرين المفتت أفضل مما يظهر عليه من برج الفنار ، وتظهر للعين كذلك أسماك القرش الرشيقة وهي تترصد شاطئ المجمع الاكليريكي ، وعابرة المحيطات التي تمر كل خميس ، ضخمة وبيضاء ، يكاد المرء يلمسها بيده وهي تجتاز قنال الميناء . وقد اعتاد فلورينتينو اريثا استئجار عربة للنزهة بعد يوم العمل الشاق في المكتب ، لكنه لم يكن يطوي غطاء العربة كما هي العادة في شهور الحر ، وانما كان يبقى مختبئاً في الصمت ، غير مرئي في الظل ، ووحيداً دائماً ، وكان يوجه الحوذي في اتجاهات غير متوقعة حتى لا يثير

أفكاره السيئة . الحقيقة أن الشيء الوحيد الذي كان يهمه من النزهة هو البيت ذو المرمر الوردي شبه المختفي بين شجيرات الموز وأشجار المانغا الملتفة ، والذي كان تقليداً تعيساً لبيوت مزارعي القطن الحالمة في لويزيانا . كان ابنا فيرمينا داثا يرجعان الى البيت قبل الساعة الخامسة بقليل ، وكان فلورينتينو اريثا يراهما عائدين في عربة العائلة ، ثم يرى خروج الدكتور خوفينال اوربينو بعد ذلك لزياراته الطبية المعتادة ، ولكنه لم يحظ خلال ما يقارب السنة من الطواف ، برؤية أي علامة تدل على وجود من كان يتشوق لرؤيتها .

وفي مساء يوم أصر فيه على النزهة المتوحدة رغم هطل أمطار حزيران المدمرة ، انزلق الحصان في الوحل وسقط على وجهه . وانتبه فلورينتينو اريثا مرتعباً إلى أنه كان مقابل بيت فيرمينا داثا تماماً ، فتوسل إلى الحوذي صائحاً ، دون أن يفكر بأن تفجعه قد يشي به :

ـ ليس هنا ، أرجوك . في أي مكان إلا هنا .

حاول الحوذي الذي أعماه التسرع ، أن يجبر الجواد على النهوض دون أن يفكه ، فانكسر محور العربة . خرج فلورينتينو اريثا كيفما استطاع ، واحتمل مشاعر الخجل تحت وابل المطر إلى أن عرض عليه متنزهون آخرون حمله معهم إلى بيته . وأثناء انتظاره ، رأته خادمة من خادم آل اوربينو بملابسه المبللة والمغطاة بالوحل حتى الركبتين ، فحملت اليه مظلة ليأتي ويحتمي على مصطبة البيت . لم يكن فلورينتينو اريثا قد حلم بمصادفة كهذه في أقصى هذياناته شططاً ، ولكنه كان يفضل الموت في ذلك المساء على السماح لفيرمينا داثا برؤيته وهو على تلك الحالة .

أثناء سكناه في المدينة القديمة ، كان الدكتور خوفينال اوربينو يذهب مع أفراد عائلته مشياً على الأقدام من بيته إلى الكتدرائية ، لحضور قداس الساعة الثامنة ، وكان ذاك عملاً دنيوياً أكثر منه دينياً . وفيما بعد ، حين

انتقلوا إلى البيت الجديد ، تابعوا الذهاب إلى الكتدرائية في العربة عدة سنوات ، وكانوا يتأخرون أحياناً لتبادل الحديث مع بعض الأصدقاء تحت أشجار النخيل في الحديقة . أما حين شيد معبد المجمع الاكليريكي في لامانغا ، مع شاطئ خصوصي ومقبرة خاصة ، ما عادوا يذهبون إلى الكتدرائية إلا في بعض المناسبات الجليلة . وانتظر فلورينتينو اريثا ، الذي كان يجهل أمر هذه التبدلات ، لعدة آحاد على رصيف مقهى الباروكية ، مراقباً خروج الناس من القداسات الثلاثة . ثم انه أدرك خطأه وذهب إلى الكنيسة الجديدة ، التي كان الذهاب إليها شائعاً حتى سنوات قليلة ، وهناك وجد الدكتور خوفينال اوربينو مع ابنيه ، في الثامنة بالضبط ، خلال أيام الآحاد الأربعة من شهر آب ، لكن فيرمينا داثا لم تكن معهم . وفي أحد أيام الآحاد هذه زار المقبرة المجاورة ، حيث كان ساكن حي لامانغا يبنون اضرحتهم الفخمة ، وقفز قلبه حين رأى في ظل أشجار الثيبا الضخمة أفخم ضريح بين كل تلك الأضرحة . كان ناجزاً مزيناً بزخارف زجاجية قوطية ، وملائكة من المرمر ، وله شواهد مذهبة تحمل أسماء جميع أفراد العائلة مكتوبة بحروف مذهبة ، وبينهم بالطبع اسم دونيا فيرمينا داثا دي اوربينو دي لاكايي ، يليها ضريح الزوج ، وعلى كلا القبرين كتابة مشتركة : معاً كذلك في سلام الرب .

لم تحضر فيرمينا داثا خلال بقية العام أياً من النشاطات التمدنية أو الاجتماعية ، حتى ولا احتفالات عيد الميلاد ، حيث كانت وزوجها عادة من ضيوف الشرف . لكن الاحساس بغيابها بلغ ذروته في حفل افتتاح موسم الأوبرا . وفي الاستراحة بين الفصلين ، فاجأ فلورينتينو اريثا جماعة لا بد أنها كانت تتحدث عنها دون ذكر اسمها . كانوا يقولون ان هناك من رآها تصعد عند منتصف احدى ليالي حزيران الفائت إلى عابرة المحيط كونارد ، المتجهة إلى بناما ، وانها كانت تغطي وجهها بخمار أسود كي لا تظهر آثار

المرض المخجل الذي كان يستنفدها . وسأل أحدهم أي مرض رهيب هذا الذي يجرؤ على امرأة متجبرة مثلها ، والاجابة التي تلقاها كانت مشبعة بمرارة سوداء :

ـ إن امرأة بارزة كهذه لا يمكن لها أن تصاب إلا بالتدرن .

كان فلورينتينو اريثا يعلم أن أثرياء موطنه لا يصابون بأمراض قصيرة . فاما انهم يموتون فجأة ، ويكون ذلك في الغالب عشية حفلة كبرى يفسدها الحداد ، واما أنهم يأخذون بالانطفاء في أمراض بطيئة وفظيعة ، تشيع أثناءها أسرار مرضهم بين الجميع . ويكاد الاعتكاف في بناما يكون تكفيراً اجبارياً في حياة جميع الأثرياء ، حيث كانوا يخضعون هناك لمشيئة الله في مشفى المؤمنين ببعث المسيح ، والذي كان عبارة عن بناء فسيح أبيض ضائع تحت أمطار «داريين» الخرافية ، يفقد فيه المرضى حساب القليل المتبقي لهم في الحياة . ولم يكن أي منهم ليعرف حق المعرفة في الحجرات المتوحدة ذات النوافذ المغطاة بستائر سميكة ، اذا ما كان مبعث رائحة الفينيك هو الصحة أم الموت . وكان الذين يشفون منهم يعودون محملين بهدايا رائعة يوزعونها بسخاء وهم يبدون الكآبة ليسامحهم المجتمع على طيشهم في البقاء أحياء . كان بعضهم يعودون وفي بطونهم آثار خياطة بربرية تبدو وكأنها أجريت بخيط قنب كالتي يستخدمها الاسكافيون ، فيرفعون قمصانهم ليعرضوها على زائريهم ، ويقارنوها بآثار جراح آخرين ممن ماتوا مختنقين لفرط السعادة ، ويعيشون بقية حياتهم وهم يروون ويعيدون رواية الرؤى الملائكية التي رأوها وهم تحت تأثير الكلوروفورم . ولم يكن هناك بالمقابل من يعرف كيف كانت رؤى الذين لم يرجعوا ، وخصوصاً أشدهم حزناً : أولئك الذين ماتوا منفيين في جناح المسلولين ، بتأثير كآبة المرض أكثر مما هو بتأثير فتك الداء .

وحين فكر بالاختيار ، لم يعرف فلورينتينو اريثا ما الذي كان يفضله

لفيرمينا داثا . لكنه كان يفضل الوصول الى الحقيقة قبل أي شيء ، حتى لو كانت لا تطاق ، ورغم بحثه الدؤوب عنها لم يتوصل اليها . وبدا له غير معقول ألا يجد أحداً قادراً على اعطائه دليلاً يثبت صحة رواية المرض . ففي عالم السفن النهرية ، الذي هو عالمه ، لم يكن هنالك من سر يمكن اخفاؤه ولا ائتمان يمكن صونه . ومع ذلك ، فإن أحداً لم يسمع بأمر المرأة ذات الخمار الأسود . لم يكن هناك من يعرف شيئاً عنها ، في مدينة كل ما فيها معروف للجميع ، حيث تشيع الأخبار عن أشياء كثيرة قبل حدوثها ، وخصوصاً إذا كانت من شؤون الأغنياء . كما لم يكن لدى أحد تفسير معين لاختفاء فيرمينا داثا . تابع فلورينتينو اريثا الطواف في لامانغا ، مستمعاً دون تقوى إلى المواعظ في كنيسة المدرسة الاكليريكية ، ومشاركاً في احتفالات تمدنية ما كانت لتهمه وهو في حالة معنوية أخرى ، لكن مرور الوقت لم يكن إلا ليزيد من صحة رواية المرض . كل شيء كان يبدو طبيعياً في بيت آل اوربينو ، باستثناء غياب الأم .

وفي خضم استقصاءاته الكثيرة وجد أخباراً أخرى لم يكن يعرفها ، أو لم يكن يبحث عنها ، منها موت لورينثو داثا في القرية الكانتبرية التي ولد فيها . تذكر أنه كان يراه لسنوات طويلة في حروب الشطرنج الصاخبة في مقهى الباروكية ، بصوته الأبح لكثرة ما يتكلم ، وكان يصبح أكثر بدانة وفظاظة كلما هوى في الرمال المتحركة لشيخوخة مقيتة . لكنه ما عاد يبادله الحديث منذ فطور خمر اليانسون المشؤوم في القرن الماضي ، مع أن فلورينتينو اريثا كان متأكداً من أن لورينثو داثا مازال يذكره بحقد شديد كحقده هو عليه ، حتى بعد أن حقق لابنته الزواج المحظوظ الذي كان مبرر حياته الوحيد . لكنه كان مصمماً على الوصول إلى معلومات صحيحة عن صحة فيرمينا داثا ، فعاد إلى مقهى الباروكية ليحصل عليها من أبيها ، في الفترة التي جرت فيها هناك المباراة التاريخية ، حين واجه جيرميا دي سانت

ـ آمور وحده اثنين وأربعين خصماً . وكان أن علم هناك بنبأ موت لورينثو داثا ، وقد ابتهج لذلك من كل قلبه ، رغم معرفته بأن ثمن تلك البهجة قد يكون استمراره في الحياة دون معرفة الحقيقة . وأخيراً اعتبر رواية مستشفى اليانسين من الشفاء صحيحة ، دون عزاء آخر سوى مثل شعبي سائر : امرأة مريضة... امرأة خالدة . وفي أيام يأسه ، كان يقنع بفكرة أن خبر موت فيرمينا داثا ، في حال وقوعه ، سيصله على أي حال دون أن يبحث عنه .

لكن الخبر لن يصله أبداً . ففيرمينا داثا كانت حية ومعافاة ، في المزرعة التي تعيش فيها منسية ابنة خالها هيلديبراندا سانتشيث ، على بعد نصف فرسخ من قرية فلوريس دي ماريا . لقد ذهبت بلا فضيحة ، وباتفاق مع زوجها ، بعد أن تورطا كلاهما كمراهقين في الأزمة الجدية الوحيدة التي عرفاها خلال خمس وعشرين سنة من زواجهما المستقر . لقد فاجأتهما الأزمة وهما في راحة النضوج ، حين بدآ يشعران أنهما بمنأى عن أية مكيدة يحيكها الخصوم مع ابنيهما الكبيرين وحسني التربية ، والمستقبل المفتوح أمامهما ليتعلما كيف يشيخان دون مرارات . لقد كانت أزمة غير منتظرة لكليهما ، ولم يشاءا فضها بالصراخ والدموع والوسطاء ، كما هي العادة الطبيعية في الكاريبي : وانما بحكمة الأمم الأوربية ، وبما أنهما لم يتمكنا من عمل هذا ولا ذاك ، فقد انتهيا إلى التخبط في حالة صبيانية لا تنتمي إلى أي مكان . وأخيراً ، قررت الذهاب ، حتى دون أن تعرف لماذا هي ذاهبة ، يقودها إلى ذلك الغضب وحده ، ولم يكن هو بقادر على اقناعها بالعدول عن رأيها ، يمنعه من ذلك شعوره بالذنب .

لقد صعدت فيرمينا داثا فعلاً إلى سفينة عند منتصف الليل وسط تكتم شديد وبوجه مغطى بطرحة الحداد ، لكنها لم تصعد إلى عابرة المحيطات كونارد الذاهبة إلى بناما ، وانما في سفينة عادية ماضية إلى سان خوان دي لاثيناغا ، المدينة التي ولدت وعاشت فيها إلى أن بلغت سن الرشد ، وكان

حنينها اليها يصبح أشد وطأة مع تقدم السنين . رغم مشيئة الزوج وعادات العصر ، فإنها لم تأخذ معها من يرافقها سوى ابنة في العماد عمرها خمس عشرة سنة كانت تعيش بين خدم البيت ، لكنهم أعلموا بسفرها قباطنة السفن وسلطات الموانئ التي ستمر فيها . وحين اتخذت قرارها الذي لا عودة فيه ، اخبرت ابنيها بأنها ذاهبة لتخفف عن نفسها لمدة ثلاثة شهور حيث تعيش الخالة هيلديبراندا ، لكنها كانت قد قررت البقاء هناك . كان الدكتور خوفينال اوربينو يعرف جيداً صلابة طبعها ، وكان مغموماً لدرجة أنه تقبل سفرها بذل وكأنه عقاب من الرب لخطورة آثامه . لكنه لم يضع من نظره أنوار السفينة حين كان كلاهما نادماً لضعفه .

وعلى الرغم من احتفاظهما بمراسلة رسمية حول وضع الابنين وبعض شؤون البيت الأخرى ، فقد انقضت سنتان تقريباً دون أن يجد أي منهما طريقاً للعودة ليست ملغومة بالكبرياء . ذهب الابنان الى فلوريس دي ماريا لقضاء عطلتهما المدرسية في السنة الثانية ، وفعلت فيرمينا داثا المستحيل لتبدو راضية عن حياتها الجديدة . وكان هذا على الأقل هو ما استنتجه خوفينال اوربينو من رسائل ابنه . ثم أن أسقف ريوهاتشا الذي كان يقوم حينئذ بجولة رعوية في تلك الأنحاء ، ممتطياً تحت مظلة تقيه الشمس متن بغلته الشهيرة البيضاء ذات السرج الموشى بالذهب . وجاء في اثره حجاج من أقاليم نائية ، وعازفو اكورديون ، وبائعو أطعمة وتمائم متجولون ، وامتلأت المزرعة لثلاثة أيام بمشلولين ومرضى يائسين من الشفاء ، لم يأتوا في الحقيقة من أجل مواعظ الاسقف المتضلعة ولا مغفرته الكلية ، وانما سعياً وراء منة البغلة ، التي كان يشاع أنها تحقق معجزات دون علم سيدها . كان الأسقف على علاقة وطيدة بآل اوربينو دي لا كايي مذ كان خورياً ، وفي ظهيرة أحد الأيام هرب من مهرجانه ليتناول الغداء في عزبة هيلديبراندا . وبعد الغداء ، الذي لم يتكلم خلاله إلا بأمور دنيوية ، قاد فيرمينا داثا جانباً

وأراد أن يسمع اعترافها . ولكنها رفضت بلطف ، انما بحسم ، متذرعة بأنه ليس لديها ما تندم عليه . ومع أن غرضها لم يكن كذلك ، في وعيها على الأقل ، إلا أنها فكرت بأن ردها سيصل إلى حيث يجب وصوله .

لقد اعتاد الدكتور خوفينال اوربينو القول ، ليس بلا شيء من المباهاة ، بأن تينك السنتين المريرتين من حياته لم تكونا نتيجة ذنبه وانما بسبب عادة زوجته المرذولة بشم الملابس التي يخلعها أفراد العائلة ، والتي تخلعها هي نفسها ، لتعرف من الرائحة ما اذا كان يجب ارسالها للغسيل ، حتى وان بدت نظيفة للوهلة الأولى . كانت تفعل ذلك منذ طفولتها ، ولم تكن ترى فيه ما يلفت الانتباه ، الى أن انتبه زوجها للأمر في ليلة الزفاف بالذات . كما انتبه الى أنها تدخن ثلاث مرات على الأقل يومياً هي حابسة نفسها في الحمام ، لكن هذا لم يقلقه ، لأن نساء طبقته اعتدن حبس أنفسهن في مجموعات للتدخين والحديث عن الرجال ، بل ولشرب الخمر القوية الرخيصة أيضاً إلى أن ينطرحن أرضاً في سكرة كسكرات البنائين .لكن عادتها في شم كل ما تجده أمامها من ملابس ، لم تكن تبدو له غير لائقة حسب ، وانما ذات خطر على الصحة أيضاً . فكانت تأخذ الأمر بالمزاح ، كما تتناول كل ما لا تريد مناقشته ، وتقول أن الله لم يضع لها في وجهها ذلك الأنف المدقق لمجرد الزينة . وفي صباح أحد الأيام ، أثناء خروجها إلى السوق ، قلبت الخادمات الحي بحثاً عن الابن ذي السنوات الثلاث الذي لم يجدن له أثراً في أي مكان في البيت . وجاءت هي وسط الذعر ، فقامت بجولتين أو ثلاث جولات كتلك التي تقوم بها كلاب الأثر البوليسية ، ووجدت الابن نائماً في احدى خزائن الملابس ، حيث لم يخطر ببال أحد أن يكون قد اختبأ . وعندما سألها زوجها المندهش كيف وجدته رددت قائلة :

ـ من رائحة برازه .

والحقيقة ان حاسة الشمّ لم تكن تفيدها في غسل الملابس أو في العثور

على أطفال ضائعين فقط : لقد كانت حاسة التوجه لديها في جميع مستويات الحياة ، وخصوصاً في الحياة الاجتماعية . وقد لاحظ الدكتور خوفينال اوربينو ذلك خلال حياته الزوجية كلها ، خصوصاً في بدايتها ، حين كانت دائمة العبوس في جو مهيّأ ضدها منذ ثلاثمئة سنة ، ومع ذلك فإنها كانت تسبح بين شعاب مرجانية حادة دون أن تصطدم بأحد ، وبسيطرة على العالم لا يمكن لها إلا أن تكون غريزة خارقة للطبيعة . هذه القدرة الرهيبة ، التي قد يكون منشأها حكمة ترجع لملايين السنين أو قلب صواني ، جاءتها بساعة محنتها في يوم أحد مشؤوم قبل الذهاب للقداس ، حين كانت فيرمينا داثا تشم الملابس التي استخدمها زوجها مساء اليوم السابق بشكل روتيني محض فأحست بقلق أن رجلاً آخر هو الذي أمضى الليل في فراشها .

شمت السترة أولاً ثم الصدرية فيما هي تنزع الساعة ذات السلسة الذهبية من العروة وتخرج قلم الرصاص ومحفظة الأوراق النقدية وقطع النقود المعدنية القليلة من الجيوب ، وكانت تضع كل ذلك على خوان الزينة ، ثم شمت القميص المجعد وهي تحلّ ياقة ربطة العنق وزري المعصم الياقوتيين وزر الياقة الذهبي ، ثم شمت البنطال وهي تخرج من جيوبه حمالة المفاتيح ذات الأحد عشر مفتاحاً وقلامة ريشة الكتابة ذات المقبض الصدفي ، وشمت أخيراً السروال الداخلي والجوربين والمنديل المطرزة عليه الحروف الأولى من اسمه . ولم يكن هناك من ظل لأدنى شك : ففي كل قطعة من ثيابه كانت تجد رائحة لم تكن فيها خلال سنوات حياتهما المشتركة الطويلة ، رائحة يستحيل تحديدها ، لأنها ليست رائحة زهور ولا رائحة مستحضرات اصطناعية ، وإنما رائحة خاصة بالطبيعة البشرية . لم تقل شيئا ، كما لم تعد تجد تلك الرائحة كل يوم ، لكنها ما عادت تشم ملابس زوجها بفضول لتعرف ما اذا كانت بحاجة للغسيل ، وانما بجزع لا يطاق كان يكوي أحشاءها .

لم تعـرف فيـرمـينا داثا أين تحـدد مـوقع رائحـة المـلابس في روتين زوجـها . لا يمكن أن يكون ذلك مـا بين الدرس الصبـاحي والغـداء ، لأنهـا افترضت أنه لا يمكن لامرأة سليمـة العقل ممارسة حب متعجل في مثل تلك الساعة ، حين يكون على المـرأة كنس البيت ، ترتيب الأسـرة ، والتسـوق ، واعداد الغذاء ، وربما تكون قلقة من أن يأتيها أحد الأطفال وقد أعادوه من المدرسة قبل الموعد لاصابته بضربة حجر ، فيجدها عارية في الساعة الحادية عشرة صباحاً وفي حجرة غير مرتبـة ، كمـا يجد ، وتلك قاصمة الظهـر ، ان طبيباً فوقها . وكـانت تعلم ، من تجربتـها ، ان الدكتور خوفينال اوربينو لا يمارس الحب إلا ليلاً ، بل أنه يفضل أن يكون الظلام دامسـاً ، وربما قبيل الفطور أحياناً ، على زقزقة أول العصافير . أما بعد هذه السـاعة ، فان نزع الملابس كما كان يقول ، ولبسـها من جديد أشق على النفس من متعة حُب كـحُبِ الديك . أي أن تلوث الشيـاب لا يمكن له أن يحـدث إلا في إحـدى زياراته الطبيـة ، أو في وقت مـختلس من ليـاليـه في لعب الشطرنج أو في السينما . وقد كان التحقق من هذا الاحتـمال الأخير صعباً ، لأن فيـرمينا داثا ، على العكس من معظم صديقاتها ، كانت تعتز بكبريائها بحيث لا تسمح لنفسـها بالتجسس على زوجها ، أو بأن تطلب إلى أحد عمل ذلك بدلاً منها . ان توقيت زيارة المـرضى الذي يبـدو الأكثـر مـلائمـة لاقتـراف الخيانة ، هو في الوقت ذاته أسهل فترة يمكن رصدها ، لأن الدكتور خوفينال اوربينو يسـجل بالتـفـصيل وضع كل مـريض من زبائنه ، بمـا في ذلك حـالة حسـابات الأتـعاب ، منذ أن يزوره أول مـرة وإلى أن يودعـه من هذا العـالم بصليب أخير وعبارة من أجل راحة روحه .

بعد ثلاثة أسابيع ، لم تجد فيرمينا داثا للرائحة أثراً في الملابس لعدة أيام ، ثم عادت تجدها ودون سابق انذار ، ثم أنها وجدتها فيما بعد أوضح مما كانت عليه سابقاً ولأيام متتالية ، رغم أن أحد تلك الأيام كان يوم أحد

احتفالي لم تفارقه خلاله لحظة واحدة . في احدى الأمسيات ، وجدت نفسها في مكتب زوجها ، على خلاف عادتها بل وعلى خلاف رغبتها وكأنها ليست هي التي تقوم بشيء لم تقدم عليه أبداً ، وانما امرأة أخرى سواها ، محللة بعدسة مكبرة ملاحظات زوجها المتشابكة عن زياراته لمرضاه خلال الشهور الأخيرة . كانت المرة الأولى التي تدخل فيها هذا المكتب المشبع برطوبة الكريوزوت ، والمفعم بالكتب المجلدة بجلود حيوانات مجهولة ، وصور مدرسية مضطربة ،وشهادات شرف ، واسطرلابات وخناجر زانفة جمعها خلال سنوات . انه الهيكل السري الذي كان دوماً جزءاً من حياة زوجها الخاصة ، وهي لا تدخله لأنه لا علاقة له بالحب أما المرات القليلة التي دخلت هناك فكانت وهي معه ، ومن أجل قضايا مستعجلة دوماً . لم تكن تشعر بأن لها الحق في الدخول وحدها ، وخصوصاً اذا كانت تريد اجراء تحريات لا تبدو لها محترمة . انما ها هي هناك . انها تريد العثور على الحقيقة ، وتبحث عنها بقلق لا يمكن مقارنته بخوفها الرهيب من العثور عليها ، مدفوعة بعاصفة متسلطة وأكثر عتواً من كبريائها الخلقي ، أكثر عتواً من كرامتها : إنه تعذيب ساحر للنفس .

لم تستطع الوصول إلى شيء واضح ، لأن مرضى زوجها ، باستثناء الأصدقاء المشتركين بينهما ، كانوا كذلك جزءاً من احتكارات زوجها الخاصة . إنهم أناس بلا هوية ، لا يُعرفون بوجوههم وانما بآلامهم ، لا يعرفون بلون أعينهم أو مراوغة قلوبهم انما بحجم كبدهم ، وقلح لسانهم ، وكثافة بولهم ، وهذيانهم في ليالي الحمى . أناس يؤمنون بزوجها ، يؤمنون بأنهم يعيشون به بينما هم في الحقيقة يعيشون له ، وينتهون إلى اختزالهم في عبارة يكتبها بخطه ويده على طرف التقرير الطبي : اهدأ ، فالرب ينتظرك عند الباب... غادرت فيرمينا داثا المكتب بعد ساعتين لم تصل خلالهما إلى شيء . شاعرة بأنها قد خضعت لغواية فاحشة .

وبدأت تكتشف ، مدفوعة بأوهامها ، التبدلات التي طرأت على زوجها . أصبحت تراه مراوغاً قليل الشهية على المائدة وفي الفراش ، ميالاً إلى السخط والردود المتهكمة ، ولم يعد الرجل الهادئ الذي كانه من قبل أثناء وجوده في البيت ، وانما صار أشبه بأسد محبوس . ولأول مرة منذ زواجهما ، أخذت تراقب تأخره ، وترصد أوقاته بالدقيقة ، وتكذب عليه لتحصل منه على الحقائق ، ولكنها كانت تشعر بعد ذلك بجرح قاتل لتناقضها . وفي إحدى الليالي استيقظت مذعورة لاحساسها بأن زوجها يتأملها في العتمة بعينين مشحونتين بالحقد . لقد عانت قشعريرة مماثلة وهي في زهرة شبابها ، حين كانت ترى فلورينتينو اريثا يتأملها عند طرف السرير ، والفارق الوحيد هو أن مظهره لم يكن حينئذ مظهر حقد وانما حب . ثم انها لم تكن واهمةهذه المرة : كان زوجها مستيقظاً في الثانية بعد منتصف الليل ، وقد اعتدل في السرير ليتأملها وهي نائمة ، ولكنها حين سألته لماذا يفعل ذلك ، أنكر الأمر . وأعاد وضع رأسه على الوسادة قائلاً :

ـ لا بد أنك كنت تحلمين .

بعد هذه الليلة ، وبفعل أحداث مشابهة وقعت في تلك الفترة التي لم تعد فيرمينا داثا تعلم فيها علم اليقين أين ينتهي الواقع وأين تبدأ الأحلام ، توصلت إلى اكتشاف باهر بأنها آخذة بالجنون . ثم انتبهت أخيراً إلى أن زوجها لم يتناول القربان الرباني يوم خميس التجسيد ، ولا في أي أحد من آحاد الأسابيع الأخيرة ، كما انه لم يجد وقتاً للخلوة الروحية في ذلك العام . وعندما سألته عن سبب هذه التبدلات الغريبة في صحته الروحية ، تلقت رداً مبهماً . وكان هذا هو المفتاح الحاسم للحل ، لأنه لم يكن يتخلف عن تناول القربان المقدس في يوم بهذه الأهمية منذ مناولته الأولى وهو في الثامنة من العمر . وهكذا أدركت أن زوجها لم يسقط في الخطيئة المهلكة وحسب ، وانما هو مصر على الولوغ فيها ، لأنه يرفض اللجوء إلى مساعدة كاهن

الاعتراف . لم تتصور يوماً أنها قد تعاني إلى هذا الحد من شيء يبدو مناقضاً للحب تماماً ، لكنها كانت في خضم هذه المعاناة ، ورأت أن الوسيلة الوحيدة لتخليص نفسها هي في دس النار إلى جحر الحيات التي سممت دخيلتها . وهكذا فعلت . فقد جلست في مساء أحد الأيام لترفو اعقاب الجوارب على الشرفة ، فيما كان زوجها ينهي قراءته اليومية بعد القيلولة . وفجأة ، قطعت عملها ، ورفعت نظارتها إلى جبهتها ، واستجوبته دون أية قسوة :

ـ دكتور .

كان غارقاً في قراءة L'LLEDES PINGOUINES ، الرواية التي قرأها الجميع في تلك الأيام ، وأجابها دون أن يخرج من جو الرواية : Oui . فألحت :

ـ أنظر إلى وجهي .

فعل ذلك ، ناظراً إليها دون أن يراها من خلال غلالة نظارة القراءة ، لكنه لم ينزع النظارة كي لا يحترق بجمرة نظرتها . وسألها :

ـ ما الأمر ؟

فقالت :

ـ أنت تعرفه خيراً مني .

ولم تقل شيئاً آخر . بل انزلت نظارتها من جديد وتابعت رفو الجوارب . حينئذ علم الدكتور خوفينال اوربينو أن ساعات الجزع الطويلة قد انتهت . وعلى العكس من تصوره لتلك اللحظة ، فانها لم تكن هزة تزلزل القلب ، وانما مجرد ضربة سلام . انها الطمأنينة العاجلة لما كان سيحدث آجلاً أم عاجلاً : لقد دخل شبح الآنسة باربرا لينتش إلى البيت أخيراً .

كان الدكتور خوفينال اوربينو قد تعرف عليها قبل أربعة أشهر ، بينما كانت تنتظر دورها في العيادات الخارجية بمشفى الرحمة ، وانتبه على الفور بأن شيئاً لا سبيل لاصلاحه قد حاق بقدره . كانت خلاسية طويلة القامة ،

أنيقة ، ذات عظام طويلة ، لبشرتها لون العسل الأسود وقوامه اللدن ذاته ، وكانت ترتدي في ذلك الصباح فستاناً أحمر مزيناً بدوائر بيضاء وتضع قبعة من نفس النوع ذات حافة عريضة تفرد ظلها حتى رموش عينيها . وكانت تبدو وكأنها من جنس أكثر تحديداً من سائر أبناء البشر . لم يكن الدكتور خوفينال اوربينو يعالج المرضى في العيادات الخارجية ، ولكنه اعتاد ، كلما مر من هناك وكان لديه متسع من الوقت ، الدخول ليذكر تلاميذه الكبار بأنه لا دواء أفضل من التشخيص الجيد . وهكذا تدبر أمره ليكون حاضراً عند فحص الخلاسية العابرة . محاذراً ألا يلحظ تلامذته أية حركة لا تبدو عرضية ، ودون أن ينظر اليها تقريباً ، لكنه دوّن في ذاكرته جيداً المعلومات التي قدمتها عن نفسها . وفي هذا المساء بالذات ، بعد زيارة آخر مرضاه ، جعل العربة تمر من العنوان الذي أفضت به في العيادة ، وكانت هناك فعلاً ، تستمتع على الشرفة برطوبة آذار .

كان البيت واحداً من بيوت الأنتيل التقليدية ، مطلياً كله باللون الأصفر بما في ذلك سقف التوتياء ، وله نوافذ مخرمة وفيه أصص قرنفل وسرخس معلقة على البوابة الخارجية ، وكان البيت يقوم فوق ركائز خشبية في مستنقع لاملاكريانثا . وفي قفص معلق بأفاريز السطح ، كان يغرد عصفور توريبال . وعلى الرصيف المقابل للبيت كانت توجد مدرسة ابتدائية ، وكان الأطفال يخرجون منها بفوضى أجبرت الحوذي على شد الأعنة بقوة ليحول دون اجفالهم للحصان . لقد كانت تلك ضربة حظ ، اذ تمكنت الآنسة باربارا لينتش من التعرف على الدكتور . فحيته بحركة معارف قدماء ، ودعته ليتناول فنجان قهوة ريثما تنتهي الفوضى ، فتناوله بكل سرور ، على خلاف عادته ، مستمعاً اليها تتحدث عن نفسها ، وهو الشيء الوحيد الذي أصبح يهمه منذ ذلك الصباح والشيء الوحيد الذي سيستحوذ على اهتمامه ، دون لحظة سلام ، خلال الأشهر التالية . لقد قال له أحد أصدقائه بحضور زوجته

في احدى المناسبات ، وهو حديث العهد بالزواج ، بأنه سيواجه عاجلاً أم آجلاً عاطفة تبعث على الجنون ، يمكنها أن تعرض استقرار حياته الزوجية لنخطر ، لكنه ، هو الذي كان يظن بأنه يعرف نفسه جيداً ، ويعرف متانة جذوره الأخلاقية ، ضحك من هذه النبوءة . حسناً اذن : ها هي الآن .

الآنسة باربارا لينتش ، دكتوراه في علم اللاهوت ، هي الابنة الوحيدة للمحترم جونثان ب . لينتش ، الراعي البروتستانتي ، الزنجي النحيف ،الذي ينطلق على بغلته إلى قرى المستنقع الهندية ، مبشراً بتعاليم أحد الآلهة الكثيرين الذين يكتبهم الدكتور خوفينال اوربينو بادئاً اسمهم بحرف صغير ليميزهم عن إلهه . كانت تتحدث بقشتالية جيدة ، مع عثرة ضئيلة في النحو يضاعف تكرارها من ظرافتها . كانت ستتم الثامنة والعشرين من العمر في شهر كانون الثاني ، وقد طلقت قبل ذلك بقليل من راعٍ آخر هو أحد أتباع أبيها ، وكانت قد تزوجت منه زواجاً سيئاً دام سنتين ، ولم تعد لديها رغبة في الزواج مجدداً ، قالت : «لا أحب أحداً سوى عصفوري التوربيال» . لكن الدكتور خوفينال اوربينو كان جدياً بما يكفيه ليفكر بأنها انما تقول ذلك متعمدة . بل أنه سأل نفسه وهو مضطرب الأفكار ما إذا كانت كل هذه التسهيلات مجتمعة ليست سوى فخ من الرب لجعله يدفع الثمن باهظاً فيما بعد ، ولكنه أبعد هذا السؤال في الحال من ذهنه على أنه حالة لاهوتية سببها وضعه المضطرب .

وعندما ودعها ، تطرق بشكل عرضي إلى استشارتها الطبية صباحاً ، مدركاً أنه ليس أحب للمريض من الحديث عن آلامه ، وقد كانت هي في منتهى الروعة بحديثها عن آلامها ، حتى أنه وعدها بالعودة في اليوم التالي ، الساعة الرابعة تماماً ، لفحصها فحصاً دقيقاً . أحست بالفزع : كانت تعلم أن طبيباً من هذا النوع بعيد جداً عن امكانياتها ، لكنه طمأنها : «اننا نحاول في هذه المهنة جعل الأغنياء يدفعون عن الفقراء» . ثم سجل الملاحظة في

دفتر جيبه : الآنسة باربارا لينتش ، مستنقع لامالاكريانثا ، السبت ، ٤ مساء . بعد ذلك بشهور ، قرأت فيرمينا داثا تلك الملاحظة التي أضيفت اليها تفاصيل التشخيص والعلاج وتطور المرض . وقد لفت الاسم اهتمامها ، وخطر لها فجأة بأنها واحدة من هؤلاء الفنانات المضللات في سفن نيو اورليانز للفواكه ، لكن العنوان جعلها تفكر بأن الاحتمال الأقرب الى الصواب هو أنها جامايكية ، وزنجية بالطبع ، فصرفت النظر عنها دون معاناة لعدم انسجامها مع ذوق زوجها .

ذهب الدكتور خوفينال اوربينو إلى موعده يوم السبت متقدماً عشر دقائق ، حين لم تكن الآنسة لينتش قد انتهت من ارتداء ملابسها لاستقباله . ولم يشعر بتوتر كالذي شعر به أمامها منذ أيام باريس ، حين كان عليه التقدم لامتحان شفوي . كانت الآنسة لينتش جميلة جمالاً لا محدوداً وهي مستلقية على السرير ، بقميص نوم حريري رقيق . كل ما فيها كان عظيماً وزخماً : فخذاها اللذان كفخذي عروس البحر ، بشرتها المحروقة على نار خفيفة ، ونهداها الذاهلان ، لثتها الشفافة ذات الأسنان الدقيقة ، وجسدها كله الذي ينضح ببخار العافية ، وهي الرائحة البشرية التي وجدتها فيرمينا داثا في ملابس زوجها . كانت قد ذهبت إلى العيادة الخارجية لمعاناتها من شيء تدعه بظرافة شديدة مغصاً ملتوياً ، وظن الدكتور اوربينو بأنها أعراض قلة شرب السوائل ، وقد لامس على أي حال أعضاءها بغرض أبعد ما يكون عن الاهتمام الطبي ، وراح ينسى أثناء ذلك معارفه العلمية ويكتشف مذهولاً أن تلك المخلوقة العجيبة كانت جميلة من الداخل كجمالها من الخارج ، وعندئذ ترك متعة اللمس تقوده ، ليس على أنه الطبيب الأكثر شهرة في ساحل الكاريبي ، وانما كرجل بائس على باب الله يعذبه هيجان الغرائز . كان قد حدث له شيء مشابه لهذا مرة واحدة في حياته المهنية الطويلة ، قد كان ذاك هو يوم عاره الكبير ، لأن المريضة الحانقة أزاحت

يده ، واعتدلت على السرير قائلة له : «إن ما تريده يمكن أن يحدث ، ولكن ليس هكذا» . أما الآنسة لينتش ، فقد سلمت نفسها ليديه ، وحين لم يعد لديها أدنى شك في أن الطبيب ما عاد يفكر بعلمه ، قالت :

ـ كنت أظن أن هذا غير مسموح في الأخلاق الطبية .

كان مبللاً بالعرق وكأنه خارج بملابسه من بركة ماء ، فمسح يديه ووجهه بمنشفة ، قال :

ـ الأخلاق الطبية تتصورنا معشر الأطباء من خشب .

مدت له يداً شاكرة وقالت :

ـ كوني كنت أظن لا يعني أنه لا يمكنك فعل ذلك . تصور ما الذي سيحدث لزنجية مسكينة مثلي حين يهتم بي رجل بالغ الأهمية .

فقال :

ـ لم أتوقف عن التفكير بك لحظة واحدة .

كان اعترافاً مرتعشاً إلى حد جعله جديراً بالشفقة . ولكنها وضعته بمنحى من كل شر بقهقهة أضاءت حجرة النوم . وقالت :

ـ أعرف ذلك مذ رأيتك في المستشفى يا دكتور . صحيح أنني زنجية ولكنني لست غبية .

لم يكن الأمر سهلاً . فالآنسة لينتش تريد شرفها نظيفاً ، وتريد الأمان والحب ، وترى أنها جديرة بذلك . لقد أتاحت للدكتور خوفينال اوربينو فرصة اغوائها ، انما دون السماح له بالدخول إلى الحجرة أثناء وجودها وحيدة في البيت . وأبعد ما وصلت اليه هو السماح له بتكرار طقوس اللمس والفحص بالتصنت مع كل ما يرافق ذلك من خروقات أخلاقية يشاؤها ، ولكن دون أن تنزع ثيابها . أما هو ، فلم يستطع افلات الطعم بعد أن ابتلعه ، وثابر على حصاره اليومي . كان استمرار علاقته بالآنسة لينتش شبه مستحيل لأسباب مرتبطة بنظامه العملي ، ولكنه كان أضعف من أن يكبح

نفسه في الوقت المناسب ، كضعفه في المضي قدماً فيما بعد . لقد كانت له حدوده .

لم تكن حياة المحترم لينتش بالحياة المنتظمة ، فهو ينطلق في أي وقت على متن بغلته المحملة في أحد جانبيها بكتب مقدسة ونشرات دعائية انجيلية ، وفي الجانب الآخر بالزاد ومواد التموين ، ويرجع حين لا تخطر عودته ببال أحد . كما كان هناك عائق آخر يتمثل بالمدرسة المقابلة ، فالأطفال فيها يغنون دروسهم وهم ينظرون إلى الشارع من النافذة ، وأفضل ما يرونه هو البيت القائم على الرصيف المقابل ، وأبوابه ونوافذه المشرعة على مصراعيها منذ الساعة السادسة صباحاً ، ويرون الآنسة لينتش وهي تعلق القفص بافريز السطح ليتعلم طائر التوربيال الدروس المغناة ، ويرونها بعمامتها الملونة وهي تغني أيضاً بصوتها الكاريبي النقي أثناء قيامها بأعمال البيت ، ويرونها بعد ذلك جالسة على الشرفة لتغني وحدها بالانكليزية مزامير المساء .

كان عليه أن يختار وقتاً لا يكون الأطفال موجودين فيه ، ولم يكن أمامه سوى احتمالين : إما أثناء استراحة الغداء ، ما بين الثانية عشرة والثانية ، وهو الوقت الذي يذهب فيه الدكتور لتناول الغداء أيضاً ، وإما في المساء ، حين ينصرف الأطفال إلى بيوتهم . وقد كان هذا الاحتمال الأخير هو الأفضل دائماً ، ولكن الدكتور يكون حينئذ قد أنهى زياراته ولا يبقى أمامه سوى دقائق قليلة للوصول الى البيت وتناول الطعام مع أسرته . أما المشكلة الثالثة ، وهي الأخطر بالنسبة له ، فكانت تتمثل في وضعه بالذات . اذ لم يكن بإمكانه الاتفاق مع الحوذي ، كما يفعل جميع أصدقائه في النادي الاجتماعي تقريباً ، ولكن هذا الأمر كان غريباً عن عاداته . حتى أن حوذي العائلة نفسه ، وبعد أن أصبحت زياراته للآنسة لينتش مكشوفة بما فيه الكفاية ، تجرأ على سؤاله اذا لم يكن من الأفضل أن يرجع بحثاً عنه فيما بعد

كي لا تبقى العربة متوقفة أمام الباب وقتاً طويلاً . لكن الدكتور اوربينو قاطعه بردة فعل غريبة على طبيعته قائلاً :

ـ هذه هي المرة الأولى التي اسمعك فيها تقول شيئاً يجب عليك ألا تقوله مذ عرفتك . ولكن لابأس : سأعتبر أنك لم تقل شيئاً .

لم يكن ثمة مفر : ففي مدينة كهذه لا يمكن اخفاء أمر مرض مادامت عربة الطبيب عند الباب . لقد كان الطبيب يبادر أحياناً بالذهاب الى بيت المريض مشياً على الأقدام حين تسمح المسافة بذلك ، أو الذهاب في عربة أجرة ، ليحول دون تخمينات خبيثة أو مبكرة . ومع ذلك ، فإن هذه الحيل لم تكن ذات نفع كبير ، فالأدوية التي يصفها الطبيب لتشترى من الصيدليات تتيح كشف الحقيقة ، مما كان يدفع الدكتور اوربينو إلى وصف أدوية مزيفة إلى جانب الأدوية الصحيحة ، ليحفظ حقوق المرضى في الموت بسلام مع أسرار أمراضهم . ورغم قدرته كذلك على أن يبرر بوسائل شريفة مختلفة ، وقوف عربته أمام دار الآنسة لينتش ، إلا أنه لن يتمكن فعل ذلك لزمن طويل ، بل لوقت أقصر بكثير من الزمن الذي كان يرغب فيه : مدى الحياة .

صارت دنياه جحيماً . فما أن ارتوى الجنون الأول حتى أدرك كلاهما المخاطر المحيقة بهما ، ولم يكن الدكتور خوفينال اوربينو قد حسم أمره يوماً وأعد نفسه لمواجهة الفضيحة . لقد كان يعدها بكل شيء أثناء هذيانه المحموم ، ولكنه بعد الانتهاء ، يؤجل كل شيء إلى ما بعد . وكان بالمقابل كلما ازداد شوقه للقائها يزداد كذلك خوفه من فقدانها ، وهكذا أصبحت لقاءاتهما سريعة وصعبة . لم يكن يفكر بشيء آخر . كان ينتظر المساء بجزع لا يُطاق ، وينسى مواعيده الأخرى ، ينسى كل شيء سواها ، ولكن ما ان تبدأ العربة بالاقتراب من مستنقع لامالاكريانثا حتى يأخذ بالابتهال الى الله ليبعث له عائقاً في اللحظة الأخيرة يجعله يواصل طريقه دون الدخول اليها . كان يعاني حالة من الكآبة تجعله يبتهج حين يرى أحياناً ، وهو على

الناصية ، رأس المحترم لينتش الملفوف بالقطن جالساً يقرأ على الشرفة ، والابنة في الصالة تلقن أصول الدين لأطفال الحي من خلال الاناجيل المغناة ، فيمضي حينئذ سعيداً إلى بيته كي لا يستمر في تحدي القدر . ولكنه لا يلبث أن يشعر بقلق مجنون يتمنى خلاله أن يتحول اليوم كله وجميع الأيام لتصبح جميعها الخامسة مساء فقط .

أصبحت تلك الغراميات مستحيلة حين أخذ ظهور العربة يكثر أمام الباب ، ولم يعد ذلك الحب بعد مرور ثلاثة شهور سوى عمل مضحك . فقد كانت الآنسة لينتش تدخل حجرةِ النوم دون أن يتاح لها الوقت لقول أي شيء ، بمجرد رؤيتها العاشق الولهان يدخل . كانت تتخذ الاحتياطات المسبقة في الأيام التي تنتظر قدومه فيها بارتدائها فستاناً جامايكيا بديعا مزينا بزهور ملونة ، ولكن دون أية ملابس داخلية ، ودون أي شيء ، معتقدة أن السهولة ستساعده في التغلب على الخوف . لكنه كان يهدر كل ما تفعله لاسعاده . فيلحقها الى حجرة النوم لاهثاً ومبللاً بالعرق ، ثم يبدأ بالتخلص مما يحمله ملقيا بكل شيء على الأرض : العكاز ، وحقيبة الطبيب ، والقبعة البنمية ، ليمارس حباً مرتبكاً بسروال مجعد عند كاحليه وسترة مزررة ليكون ازعاجها أقل ، وسلسلة ذهبية مثبتة في صدريته ، وهو منتعل حذاءه ، وكل شيء ، مهتما بالذهاب بأسرع ما يمكن أكثر من اهتمامه باستكمال المتعة . وتبقى هي صائمة ، ما أن تهم بدخول نفق عزلته ، حتى يبدأ باحكام ازرار سرواله من جديد وهو منهك ، كما لو أنه مارس الحب المطلق على الخط الفاصل بين الحياة والموت ، بينما هو لم يفعل في الحقيقة أكثر مما يتطلبه فعل الحب من جهد جسدي . ولكنه يبقى ضمن حدود قانونه : انه الوقت اللازم بالضبط لاعطاء حقنة في العضل لحالة علاج روتينية . ويعود بعدئذ إلى البيت خجلا من ضعفه ، راغباً في الموت ، ولاعنا فقدانه الشجاعة اللازمة للطلب من فيرمينا داثا أن تنزع له سرواله وتجلسه على الجمر لتحرق قفاه .

لم يكن يتعشى ، وكان يصلي دون ايمان ، ويتصنع مواصلة قراءة ما بعد القيلولة وهو في الفراش فيما زوجته تلف في البيت وتدور مرتبة الدنيا قبل أن تنام . وما أن يداعبه النعاس فوق الكتاب حتى يأخذ بالغرق شيئا فشيئا في غابة الآنسة لينتش التي لا مفر منها ، يغرق في رائحتها التي كرائحة غابة راقدة فوق فراشها الذي كفراش الموت ، ولا يستطيع التفكير عندئذ بشيء سوى الساعة الخامسة إلا خمس دقائق من مساء اليوم التالي ، وبها تنتظره في السرير دون أي شيء سوى جبلها اللدن القاتم تحت الفستان الجامايكي المجنون : انها الدائرة الجهنمية .

كان قد بدأ يعي ثقل جسده منذ بضع سنوات . وكان يعرف الأعراض ، لقد قرأها في كتب الطب ، ولمسها في الحياة الواقعية بمعاينتها في مرضى هرمين بلا سوابق مرضية خطيرة ، يبدؤون فجأة بوصف أعراض دقيقة يبدو وكأنهم يستخرجونها من كتب الطب ، رغم أنها لا تعدو كونها أوهاماً . لقد نصحه أستاذ طب الأطفال في جامعة سالبيتريير يوماً بدراسة طب الأطفال لأنه أنبل اختصاص ، فالأطفال لا يمرضون إلا حين يكونون مرضى حقاً ، لا يستطيعون التواصل مع الطبيب بالكلمات الاصطلاحية وانما بالأعراض المحددة للأمراض الحقيقية . أما البالغون ، اعتبارا من سن معين ، فاما أن لديهم أعراضا بلا أمراض ، واما أن لديهم ما هو أسوأ من ذلك : أمراضاً خطيرة وأعراض أمراض أخرى ليست ذات شأن . وكان هو يشغلهم بالمسكنات ، متيحا الوقت للزمن ، كي يتعلموا عدم الشعور بتوعكات الكبر بعد معايشتهم لها في مزبلة الشيخوخة . وما لم يفكر به الدكتور خوفينال اوربينو أبدا هو أن طبيبا في مثل سنه ، يظن بأنه رأى كل شيء وخبره ، لن يستطيع تجاوز قلق شعوره بأنه مريض حين لا يكون كذلك . أو يقع له ما هو أسوأ بأن يظن أنه ليس مريضا ، متعللا بأوهام طبية محضة ، في حين ربما يكون مريضا فعلا . لقد قال في أحد دروسه يوماً وهو في الأربعين ، نصف

مـازح ونصف جـاد : «الشيء الوحيد الذي أحتاجه في الحياة هو أحد يفهمني» . ولكنه حين وجد نفسه ضائعا في متاهة الآنسة لينتش لم يفكر بالأمر مازحاً .

جميع الأعراض الحقيقية والوهمية لمرضاه المسنين اجتمعت في جسده . فكان يحس شكل كبده بوضوح ، ويستطيع تحديد حجمه دون أن يلمسه . كان يشعر بزمجرة القط النائم في كليتيه ، ويشعر ببريق مرارته الساطع ، ويحس خرير الدم في شرايينه . وكان يستيقظ صباحا في بعض الأحيان كسمكة لا تجد الهواء للتنفس . ويشعر بوجود ماء في قلبه ، ويحس به يفقد ايقاعه لحظة ، أو يشعر به ، بين حين وآخر ، يتأخر في نبضة من نبضاته ، كما في المشية العسكرية أيام المدرسة ، ثم يشعر بأنه يستعيد قواه لأن الله كبير . ولكنه بدلا من أن يلجأ الى علاج السلوى الذي كان يطبقه على المرضى ، فانه سمح للخوف أن يعميه ، حقا ان الشيء الوحيد الذي يحتاجه في الحياة ، وهو في الثامنة والخمسين من العمر أيضاً ، هو أحد يفهمه . وهكذا لجأ الى فيرمينا داثا ، أكثر من تحبه ويحبها في هذا العالم ، من سيريح ضميره امامها .

حدث هذا بعد أن قاطعته في قراءته المسائية لتطلب منه أن ينظر الى وجهها ، فجاءته الاشارة الأولى بأن حلقته الجهنمية قد كُشفت . لم يفهم كيف حدث ذلك ، اذ كان مستحيلا عليه أن يتصور بأن فيرمينا داثا اكتشفت الحقيقة بمجرد الشم . لكن هذه المدينة لم تكن على أي حال ، ومنذ زمن بعيد ، بالمدينة المناسبة لكتمان الأسرار . فبعد وقت قصير من وصول أجهزة الهاتف الأولى ، انهارت عدة زيجات كانت تبدو راسخة ، تحت نمائم الاتصالات الهاتفية المجهولة ، ودفع الرعب عائلات كثيرة الى الغاء اشتراكها أو رفض الاشتراك بالهاتف لسنوات طويلة . كان الدكتور خوفينال اوربينو يعرف أن زوجته تعتز بنفسها كثيراً بحيث لا تسمح حتى بمحاولة وشاية

مجهولة بالهاتف ، ولم يكن قادراً على تصور أن أحداً يتجرأ على اخبارها معلنا عن اسمه . لكنه بالمقابل كان يخشى الوسيلة القديمة : ورقة تدسها يد مجهولة من تحت الباب يمكنها أن تكون فعالة ، ليس لأنها تضمن ازدواجية المجهولية للمرسل والمرسل اليه ، وانما لأن أصلها العريق يتيح ربطها بعلاقة ميتافيزيقية ما مع تدابير العناية الالهية .

لم تكن الغيرة تعرف الى البيت سبيلا : فخلال أكثر من ثلاثين سنة من السلام الزوجي ، كان الدكتور اوربينو يفاخر في الأماكن العامة ، وكان صادقاً حتى ذلك الحين ، بأنه مثل الثقاب السويدي ، لا يشتعل الا بعلبته . لكنه كان يجهل كيف يمكن أن يكون رد فعل زوجته بكبريائها واعتزازها الشديد بنفسها وبطبعها الحاد ، أمام خيانة ثابتة . وهكذا فإنه حين تطلع في وجهها كما طلبت منه ، لم يخطر له شيء سوى أن يخفض بصره من جديد ليغرق في القلق ، وظل يتظاهر بالانغماس في تعرجات نهر جزيرة ألكا العذب ، ريثما يخطر له ما يفعله . ولم تقل فيرمينا داثا من جهتها شيئا آخر . وعندما انتهت من رفو الجوارب ، ألقت بالأدوات دون انتظام في علبة الخياطة ، وأعطت التعليمات في المطبخ لاعداد العشاء ، ومضت الى حجرة النوم .

حينئذ اتخذ قراره الحاسم ولم يذهب في الساعة الخامسة الى منزل الآنسة لينتش . أما وعود الحب الأبدي ، والحلم ببيت سري لها وحدها حيث يستطيع زيارتها دون مفاجآت ، والسعادة على مهل حتى الموت ، وكل ما وعدها به أثناء ومضات الحب ألغي إلى الأبد . وآخر ما تلقته منه الآنسة لينتش كان اكليلا من الزمرد سلمها إياه الحوذي دون أي تعليق ، دون أي رسالة ، دون أية ملاحظة مكتوبة ، في علبة ملفوفة بورق صيدلية ، حتى يظنه الحوذي نفسه دواء مستعجلا . ولم يعد لرؤيتها ولو مصادفة خلال ما تبقى من حياته ، والله وحده يعلم كم من الآلام كلفه هذا القرار البطولي ، وكم من

الدموع المريرة سكب وهو محبوس في المرحاض ليتجاوز كارثته الحميمة . فبدلا من أن يذهب اليها في الساعة الخامسة ، قام بتقديم توبته النصوح أمام كاهن الاعتراف ، وشارك يوم الأحد التالي في تناول القربان الرباني بقلب مفتت ، انما روح مطمئنة .

يوم قطع علاقته بها ، وفيما هو ينزع ملابسه لينام ، كرر على مسامع فيرمينا داثا تراتيل ارقه الصباحي المريرة ، والوخزات المباغتة ، والرغبة في البكاء عند الظهيرة ، والاعراض المقتضبة للحب الخفي التي كان يريها لها حينئذ كما لو كانت أعراض الشيخوخة البائسة . كان عليه أن يحكي ذلك لأحد كي لا يموت... كي لايروي الحقيقة ، ثم أن تلك المفاتحات بمكنون قلبه كانت أولا وأخيرا أحد طقوس الحب البيتي . استمعت اليه باهتمام ، انما دون النظر اليه ، ودون أن تقول شيئا ، بينما هي تتناول منه الملابس التي يخلعها . كانت تشم كل قطعة منها دون أية ايماءة تشي بغضبها ، ثم تطويها كيفما اتفق ، وتلقي بها الى سلة الثياب المتسخة الخيزرانية . لم تجد الرائحة ، ولكن الأمر سيان : غدا سيكون يوم آخر . وقبل أن تجثو للصلاة أمام المذبح الصغير في حجرة النوم ، اختتم هو روايته المكرورة عن بؤسه بتنهدة حزينة وصريحة أيضاً : «أظن أنني سأموت» . ولم ترمش رمشة واحدة حين ردت عليه قائلة :

ـ سيكون هذا أفضل . لأننا سنستريح كلانا .

قبل سنوات ، وخلال أزمة مرض خطير ، كان قد تحدث عن احتمال موته ، وكانت هي قد ردت بالجواب القاسي نفسه . وقد عزا الدكتور اوربينو ذلك يومها الى قسوة النساء ، هذه التي تتابع الأرض بفضلها الدوران حول الشمس ، لأنه كان يجهل حينئذ بأنها تقيم دوماً حاجزا من الغضب لتخفي خوفها ، ولتخفي يومئذ أكثر مخاوفها رهبة ، ألا وهو الخوف من البقاء بدونه .

لكنها تمنت له الموت في تلك الليلة بكل حدة قلبها ، وقد أفزعه هذا اليقين ، بعد ذلك سمعها تبكي في الظلام ، بوهن شديد ، عاضة الوسادة كي لا يسمعها . فبهره ذلك ، لأنه كان يعلم أنها لا تبكي بسهولة من أي ألم جسدي أو روحي . وأنها تبكي بتأثير حنق عظيم فقط ، ويكون بكاؤها أشد اذا ما كان هذا الحنق ناشئا ، بطريقة ما ، عن خوفها من الشعور بالذنب . لم يتجرأ على مواساتها ، مدركا أن ذلك سيكون أشبه بمواساة نمرة مطعونة بحربة . ولم يمتلك الجرأة ليقول لها إن أسباب بكائها قد زالت هذا المساء ، وأنها انتزعت من جذورها الى الأبد ، حتى من ذاكرته .

هزمه الارهاق دقائق . وعندما استيقظ وجد أنها قد أضاءت النور الخفيف الذي الى جانبها وأنها ما زالت مفتوحة العينين ، انما دون بكاء . لقد حدث لها شيء حاسم فيما هو نائم : فالرواسب التي تراكمت في قاع عمرها خلال سنوات طويلة قد هاجت بعذاب الغيرة ، وخرجت طافية الى السطح ، وأهرمتها في لحظة واحدة . فتجرأ على القول لها إنها تحاول النوم وهو مذهول لتجاعيدها الفجائية ، لشفتيها الذاويتين ، ولرماد شعرها . كانت الساعة قد تجاوزت الثانية . فكلمته دون أن تنظر اليه ، لكن دون أي أثر للسخط في صوتها ، بل بصوت أقرب الى الوداعة ، قائلة له :

ـ لي الحق بأن أعرف من هي .

عندئذ روى لها كل شيء ، شاعراً بأنه يرفع عن كاهله ثقل العالم ، لأنه كان مقتنعا بأنها تعرف كل شيء ولا ينقصها سوى التأكد من التفاصيل . لكن الأمر لم يكن كذلك طبعاً ، وفيما هو يتكلم عادت هي تبكي ، ليس باجهاشات خجولة كما في البدء ، وانما بدموع منطلقة ومالحة تجري على وجهها ، وتلتهب على قميص نومها وتحرق حياتها ، لأنه لم يفعل ما كانت تنتظره منه وروحها معلقة بخيط ، اذ كانت تنتظر منه أن ينكر كل شيء حتى الموت ، وأن يغضب من الافتراء ، وأن يلعن ناس هذا المجتمع ابن العاهرة

الذين لا يتورعون عن دوس شرف الآخرين ، وأن يقف ثابت الجأش حتى أمام الأدلة الدامغة على خيانته : كرجل . بعد ذلك ، وحين روى لها بأنه كان عند كاهن الاعتراف هذا المساء ، خشي أن يعميها الغضب . فمنذ أيام المدرسة وهي مقتنعة بأن أهل الكنيسة لا يتمتعون بأية فضيلة ملهمة من الرب . وكان هذا خلافاً جوهرياً في الانسجام البيتي ، تمكنا من حله دون صدامات . انما كون زوجها قد سمح لكاهن الاعتراف بالتدخل الى هذا الحد في شأن خاص ليس ملكاً له وحده فقط ، بل وملكها أيضاً ، كان شيئا يتجاوز كل الحدود .

قالت :

ـ ان هذا كاستشارة حاوي ثعابين من حواة الأزقة .

كان ذلك هو النهاية بالنسبة لها . كانت متأكدة من أن شرفها أصبح على كل لسان قبل أن ينتهي زوجها من الاعتراف ، وشعور المهانة الذي أثاره ذلك كان أثقل وطأة من عار وغضب وظلم الخيانة . والأسوأ من كل ذلك ، يا للعنة... مع زنجية . فصحح قائلا : «خلاسية» . ولكن أي تحديد كان فائضاً عن اللزوم حينئذ : لقد انتهى الأمر .

قالت :

ـ انها اللعنة نفسها . والآن فقط بدأت أفهم : لقد كانت رائحة زنجية .

حدث هذا يوم الاثنين . وفي السابعة من مساء يوم الجمعة ، أبحرت فيرمينا داثا في السفينة الصغيرة النظامية الذاهبة الى سان خوان دي لاثيناغا ، دون أن تأخذ معها سوى صندوق واحد ، وبرفقة ابنة بالعماد ، وكانت تغطي وجهها بطرحة لتحول دون الأسئلة لها ولزوجها كذلك . لم يذهب الدكتور خوفينال اوربينو الى الميناء ، باتفاقهما معا ، بعد مناقشة مضنية دامت ثلاثة أيام ، قررا على اثرها أن تذهب الى مزرعة ابنة الخال هيلديبراندا سانتشيث ، في بلدة فلوريس دي ماريا ، لتفكر جيدا قبل

اقدامها على اتخاذ قرار نهائي . وقد فهم الابنان الأمر ، دون أن يعرفا الاسباب ، على أنه رحلة جرى تأجيلها مرات ومرات ، وكانا هما نفساهما يرغبان فيها منذ زمن بعيد . وقد رتب الدكتور خوفينال اوربينو الأمور بحيث لايتاح لأحد من أبناء عالمه القادر الوصول الى تخمينات خبيثة ، وفعل ذلك باتقان حتى أن اخفاق فلورينتينو اريثا بالعثور على أي أثر لاختفاء فيرمينا داثا لم يكن لضعف وسائله في التقصي وانما لعدم وجود أية آثار فعلا . ولم يكن يراود الزوج أي شك في أنها ستعود بعد أن يفارقها الغضب . أما هي ، فذهبت واثقة أن الغضب لن يفارقها أبد الدهر .

لكنها سرعان ما ستدرك أن هذا القرار الحاسم لم يكن ثمرة الحقد بقدر ما هو وليد الحنين . فبعد رحلة شهر العسل عادت عدة مرات الى اوروبا ، على الرغم من قسوة الأيام العشرة التي تمضيها في البحر ، ولقد كانت رحلاتها تستغرق دوما وقتا كافيا للاحساس بالسعادة . كانت تعرف العالم ، وتعلمت العيش والتفكير بطريقة أخرى ، لكنها لم ترجع أبدا الى سان خوان دي لاثيناغا بعد رحلة المنطاد الفاشلة . كان في العودة الى مقاطعة ابنة الخال هيلديبراندا شيئا من استعادة الماضي بالنسبة لها ، حتى ولو حدثت هذه الاستعادة متأخرة . ولم تفكر بذلك تحت تأثير نكبتها الزوجية ، بل قبل ذلك بكثير ، وهكذا فان مجرد فكرة تنقيبها عن ذكريات صباها كان يعزيها في تعاستها .

عندما نزلت الى البر مع ابنتها في العماد في سان خوان دي لاثيناغا ، لجأت الى ما في طبعها من احتياطات هائلة ، وتعرفت على المدينة رغم كل التحذيرات . وقد دعاها القائد المدني والعسكري للموقع ، الذي ذهبت اليه بتوصية للاهتمام بها ، دعاها الى جولة في العربة الرسمية ريثما يخرج القطار الذاهب الى سان بيدرو اليخاندرينو ، حيث أرادت الذهاب للتأكد مما قيل لها من أن السرير الذي مات عليه بطل التحرير[1] كان صغيرا جدا كسرير

(١) المقصود بطل التحرير (EL Libertador) هو محرر أميركا الجنوبية سيمون بوليفار .

طفل . وكان أن عادت فيرمينا داثا حينئذ لرؤية قريتها الكبيرة في سكون الثانية مساء . عادت لرؤية الشوارع التي تبدو أشبه بشطآن صغيرة للبرك المغطاة بالطحالب ، وعادت لرؤية بيوت البرتغاليين بشعارات النبلاء المحفورة على الرواق المقنطر وعلى مشربيات النوافذ البرونزية ، حيث تتردد دون رحمة في صالاتها الظليلة تمارين البيانو المكرورة والحزينة ، التي كانت تعلمها أمها حديثة الزواج لبنات البيوت الثرية الصغيرات . رأت الساحة الخاوية من أية شجرة في جمر الحجارة المتقدة ، وصف العربات ذات الأغطية الجنائزية وخيولها النائمة وقوفا ، وقطار سان بيدرو اليخاندرينو الأصفر ، ورأت عند زاوية الكنيسة الكبرى أكبر بيت بين جميع البيوت وأكثرها جمالا برواقه الحجري المقنطر الذي تغطيه نباتات خضراء ، وبوابته الضخمة كبوابة دير ، ونافذة غرفة النوم التي ستولد فيها ألفارو بعد سنوات طويلة ، حين لن تعود لها ذاكرة لتتذكر ذلك . فكرت بالعمة اسكولاستيكا ، التي مازالت تبحث عنها دون أمل في السماء والأرض . وفيما هي تفكر بها وجدت نفسها تفكر بفلورينتينو اريثا ، بثيابه كأديب وبكتاب أشعاره تحت أشجار اللوز في الحديقة ، كما يحدث لها أحيانا حين تتذكر سنوات المدرسة الكريهة . وبعد تجوال طويل لم تفلح في التعرف على بيتها العائلي القديم ، فحيث كانت تفترض وجوده لم يكن يوجد سوى حظيرة خنازير ، وعند المنعطف كان يمتد شارع بيوت الدعارة ، حيث مومسات من أرجاء الدنيا ينمن قيلولتهن أمام الأبواب ، فلربما مر البريد حاملا لهن شيئاً... لم تكن البلدة هي بلدتها .

منذ بداية الجولة في المدينة ، غطت فيرمينا داثا نصف وجهها بالطرحة ، ليس خوفاً من التعرف عليها حيث لا أحد يستطيع التعرف عليها ، وانما لمرأى الموتى الذين ينتفخون تحت الشمس في كل مكان ، بدءا من محطة القطار وحتى المقبرة . وقال لها القائد المدني والعسكري للموقع :

« إنها الكوليرا » . كانت تعلم ذلك ، لأنها رأت الخثارات البيضاء على فم الجثث المكتوية ، لكنها لاحظت أنه لا أثر لرصاصة الرحمة في عنق أي جثة من الجثث ، كما كان الأمر في زمن المنطاد .

فقال لها الضابط :

ـ وهو كذلك . فالرب يحسن من أساليبه أيضاً .

كانت المسافة التي تفصل سان خوان دي لاثيناغا عن بلدة سان بيدرو اليخاندرينو القديمة هي تسعة فراسخ فقط ، لكن القطار الأصفر كان يستغرق في اجتيازها يوما كاملا ، لأن صداقات كانت تربط سائق القطار بالمسافرين الدائمين الذين يرجونه التوقف لبعض الوقت كي يحركوا أرجلهم بالمشي في مرابع الغولف التابعة لشركة الموز ، أو ليستحم بعض الرجال منهم ، وهم عراة ، في الأنهار الصافية والمثلجة التي تنحدر من الجبال ، أو أنهم ينزلون من القطار حين يشعرون بالجوع ليحلبوا الأبقار الطليقة في المراعي . وعندما وصلت فيرمينا داثا مروعة ، لم يتح لها الوقت للتمعن بأشجار التمر الهندي الهوميرية حيث كان بطل التحرير يعلق شبكة نومه التي احتضر عليها ، وللتأكد من أن السرير الذي مات عليه لم يكن صغيرا بالنسبة لرجل ، كما قالوا لها فقط ، بل أنه صغير حتى على مولود خديج . ولكن زائرا آخر يبدو أنه يعرف كل شيء ، قال ان السرير ليس إلا أثرا زائفا ، والحقيقة هي أن أبا الوطن قد ترك يموت وهو ملقى على الأرض . كانت فيرمينا داثا مغمومة لما رأته وسمعته مذ خرجت من بيتها ، لدرجة أنها لم تعد تشعر بالسعادة التي حنت اليها دوما ، وانما أخذت تتجنب المرور بالقرى التي كانت تحن اليها . وهكذا حمت تلك القرى وحمت نفسها من خيبة الأمل . كانت تسمع العزف على الاوكورديونات من الطريق حيث كانت تهرب من خيبة الأمل ، وتسمع الصرخات المنبعثة من حلبة صراع الديكة . ، وطلقات الرصاص التي قد تكون رصاصات حرب أو احتفال ،

وحين لا تجد مفرا من المرور في احدى القرى ، كانت تغطي وجهها بالطرحة لتستمتع بتذكرها كما كانت من قبل .

في احدى الليالي ، وبعد تجنب طويل للماضي ، وصلت الى مزرعة ابنة الخال هيلديبراندا ، وحين رأتها تنتظر أمام الباب كادت تسقط مغمىً عليها : كانت وكأنها ترى نفسها في مرآة الحقيقة . لقد رأتها بدينة وهرمة ، محاطة بابناء غير مروضين لم تنجبهم من الرجل الذي مازالت تحبه دون أمل ، وانما من ضابط ينعم بتقاعد جيد تزوجت منه غيظا لفشلها وأحبها بجنون . ولكنها في أعماق جسدها المدمر كانت ماتزال على حالها . وقد تخلصت فيرمينا داثا من هذا الانطباع بعد أيام قليلة في الريف وبتأثير الذكريات الطيبة ، لكنها لم تغادر المزرعة إلا للذهاب الى القداس في أيام الاحاد برفقة أحفاد صديقاتها القديمات الجموحات ، الحاذقين في ركوب الخيول الكريمة ، وبرفقة بناتهن الجميلات الأنيقات ، اللواتي يشبهن أمهاتهن حين كن في سنهن ، واللواتي يمضين وقوفا في العربات التي تجرها الجواميس ، ويغنين معا ، حتى وصولهن الى كنيسة البعثة التبشيرية في قاع الوادي . ولم تمر إلا بقرية فلوريس دي ماريا ، التي لم تزرها في رحلتها السابقة لأنها لم تظن بأنها ستعجبها ، ولكنها فتنت بها حين عرفتها . وكانت مصيبتها ، أو مصيبة البلدة ، انها لم تستطع أن تتذكرها فيما بعد كما رأتها في الواقع ، وانما كما كانت تتخيلها قبل أن تعرفها .

قرر الدكتور خوفينال اوربينو الذهاب لاحضارها بعد تلقيه تقرير اسقف ريوهاتشا . فالنتيجة التي استخلصها هي أن زوجته لم تتأخر لأنها لا تريد الرجوع وانما لأنها لا تجد وسيلة لتجاوز كبريائها . وهكذا مضى الى هناك دون اعلامها ، بعد تبادل عدة رسائل مع هيلديبراندا ، استخلص منها بوضوح ان حنين زوجته قد انقلب : فهي لا تفكر الآن الا ببيتها . كانت فيرمينا داثا في المطبخ تعد باذنجاناً محشواً في الساعة الحادية عشرة

صباحا ، حين سمعت صرخات عمال المزرعة ، وصهيل الخيول ، ولعلعة الرصاص في الهواء ، ثم الخطوات الواثقة في مدخل البيت ، وصوت الرجل :

ـ ان يصل المرء في الوقت المناسب خير من توجيه الدعوة اليه .

ظنت أنها ستموت من السعادة . ودون أن يتاح لها الوقت للتفكير بالأمر ، غسلت يديها كيفما اتفق وهي تهمهم : «حمداً لك يا رب ، حمدا لك ، لكم أنت طيب» ، مفكرة بأنها لم تستحم بعد من الباذنجان اللعين الذي طلبت منها هيلديبراندا اعداده دون أن تخبرها من القادم للغذاء ، ومفكرة بأنها قد أصبحت عجوزاً قبيحة ، وأن وجهها قد سلخته الشمس ، مما سيجعله يندم لمجيئه حين يجدها بهذا الحال ، اللعنة . لكنها نشفت يديها بالمريلة كيفما اتفق ، واستعانت بكل الكبرياء الذي أخرجتها به أمها الى الدنيا لتضبط قلبها المتراقص طرباً ، ومضت للقاء الرجل بمشيتها الغزلانية العذبة ، وبرأسها المرفوع ، ونظرتها البراقة ، وأنفها الحربي ، شاكرة للقدر الطمأنينة العظيمة بالعودة الى البيت ، على الرغم من أن الأمر لن يكون بالسهولة التي تصورها هو حتما ، اذ عادت معه وهي سعيدة حقا ، ولكنها مصممة كذلك على جعله يدفع بصمت ثمن الآلام المريرة التي حطمت حياتها .

بعد حوالي سنتين من اختفاء فيرمينا داثا ، حدثت واحدة من تلك المصادفات المستحيلة التي كانت ستعتبرها ترانسيتو اريثا سخرية من سخريات الرب . لم يكن فلورينتينو اريثا قد سمح لنفسه بالانبهار باختراع السينما . لكن ليونا كاسياني حملته دون مقاومة الى حفل الافتتاح الضخم لفيلم كابيريا ، الذي كانت شعبيته ترتكز على الحوار الذي كتبه الشاعر غابرييل دانونزيو . كان فناء سينما دون غاليليو داكونتي المكشوف ، حيث المتعة تتجاوز في بعض الليالي روعة النجوم الى روعة الغراميات الصامتة على الشاشة ، قد غص بالحضور البارزين . كانت ليونا كاسياني تتابع أحداث القصة بروح معلقة بخيط . أما فلورينتينو اريثا فكان رأسه يتمايل من النعاس

بتأثير زخم الدراما . ومن خلفه ، خرج صوت امرأة بدت وكأنها تحزر ما يفكر به :

ـ رباه ، ان هذا أطول من ألم!

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي قالته ، وكظمت نفسها ربما بسبب رنين صوتها في الظلام ، اذ لم تكن قد شاعت هنا بعد عادة مرافقة الأفلام الصامتة بموسيقى البيانو ، ولم يكن يستمع في عتمة الصالة سوى ازيز آلة العرض الذي يشبه صوت المطر . لم يكن فلورينتينو اريثا يذكر الرب الا في أصعب المواقف ، لكنه شكره من أعماق روحه هذه المرة . لأنه كان سيتعرف فورا على ذلك الصوت المعدني الرخيم . حتى ولو كان على عمق عشرين ذراعا تحت التراب ، مذ حفظه في روحه مساء سمعه يقول له وسط نثارة من الأوراق الصفراء في حديقة متوحدة : «انصرف الآن ، ولا ترجع الى أن أطلب اليك» . كان يعلم أنها تجلس في المقعد الذي وراء مقعده ، الى جانب زوجها دون ريب . وكان يحس بتنفسها الدسم والمحسوب جيداً ، وكان يستنشق بحب الهواء المنقى بعافية نفسها الطيب . لم يشعر بأنها منخورة بعث الموت ، كما كان يتصورها في ساعات يأسه خلال الشهور الأخيرة ، وانما تذكرها مجدداً بعمرها المشع والسعيد ، ببطنها المكورة ببذرة ابنها الأول تحت عباءة مينيرفا . تصورها كما لو كان يراها دون أن يلتفت الى الوراء ، غير عابئ بالكوارث التاريخية التي كانت تفبض بها الشاشة . كان يتلذذ بأريج عطر اللوز الذي يصله من جسدها ، ويتشوق لمعرفة أفكارها عن كيف تحب نساء السينما لتكون آلام حبهن أقل من آلام الحب في الحياة . وقبيل نهاية الفيلم بقليل ، أدرك فجأة بومضة بهجة ، أنه لم يكن أبداً قريبا بهذا القدر وطوال مثل هذا الوقت ممن أحبها حبا جما .

انتظر أن ينهض الآخرون عند اشعال الأنوار . ثم توقف على مهل ، والتفت متشاغلا بتثبيت ازرار الصدرية التي تفلت دائما خلال عروض

السينما ، فتقابل الأربعة وجها لوجه بحيث توجب عليهم تبادل التحية ، على الرغم من أن أحدا منهم ما كان يرغب بذلك . صافح الدكتور خوفينال اوربينو ليونا كاسياني أولا ، وكان يعرفها جيدا ، ثم شد على يد فلورينتينو اريثا بتهذبه المعتاد . وابتمست لهما فيرمينا داثا ابتسامة مهذبة ، ولا شيء سوى أنها مهذبة ، ولكنها كانت على كل حال ابتسامة شخص رآهما كثيرا ، يعرف من هما ، وبالتالي لا حاجة لتقديمهما . وردت عليها ليونا كاسياني بلطفها كخلاسية . أما فلورينتينو اريثا فلم يدر ما يفعل ، لأن رؤيتها أذهلته .

لقد كانت امرأة أخرى . لم تكن في وجهها أية علامة من علامات المرض الفظيع الشائع ، ولا من أي مرض آخر ، وكان جسدها مايزال يحتفظ بوزنه ورقته التي كان عليها في أفضل أزمانه ، ولكن لا شك بأن السنتين الأخيرتين قد مرتا عليها بثقل عشر سنوات عجاف . كان الشعر القصير مناسبا لها بتلك القَصّة المائلة على خديها ، لكنه فقد ذلك اللون العسلي السابق وصار بلون الألمنيوم . وفقدت العينان الرمحيتان الجميلتان نصف حياتهما من الضياء وراء نظارة الجدة . رآها فلورينتينو اريثا وهي تبتعد ممسكة بذراع زوجها وسط الحشد الذي يغادر السينما ، وفوجئ بأنها آتية الى مكان عام بطرحة بائسة وخفٍ من النوع البيتي . ولكن أكثر ما هيج مشاعره هو أن زوجها اضطر لأن يشدها من ذراعها ليشير لها الى طريق الخروج ، وقد أخطأت رغم ذلك في تقدير الارتفاعات وكادت تسقط عند درج البوابة .

كان فلورينتينو اريثا شديد الحساسية لعثرات الشيخوخة هذه . ففي شبابه كان يقطع قراءاته للاشعار في الحدائق ليراقب أزواج المسنين الذين يساعد أحدهما الآخر على عبور الشارع ، وكانت تلك دروسا في الحياة قد تضيء أمامه قوانين شيخوخته بالذات . لقد كان الرجال ، وهم في مثل سن

الدكتور خوفينال اوربينو في ليلة السينما تلك ، يتفتحون بنوع من الشباب الخريفي ، فيبدون أكثر وقارا مع أول الشعرات الشائبة ، ويصبحون فاتنين وجذابين ، خصوصا في عين النساء الشابات ، بينما تضطر زوجاتهم الذاويات الى التشبث بأذرعتهم كي لا يتعثرن بظلالهن ذاتها . ولكن هؤلاء الأزواج ما يلبثون أن ينزلقوا فجأة ، بعد بضع سنوات ، الى هوة شيخوخة مرذولة جسدا وروحا ، وحينئذ يصبح على زوجاتهم المستقرات اسنادهم من أذرعهم كالعميان الباحثين عن صدقة ، والهمس في آذانهم ، كي لا يجرحن كبرياءهم ، بأن ينتبهوا جيدا لأن عدد الدرجات التي سينزلون ثلاث وليس اثنتين ، وان هنالك بركة ماء في وسط الشارع ، وأن تلك الصرة الملقاة على قارعة الطريق هي جثة شحاذ ميت ، ويساعدونهم بمشقة على عبور الشارع وكأنه المخاضة الوحيدة في نهر الحياة الأخير . لقد رأى فلورينتينو اريثا نفسه مرات ومرات في هذه المرآة ، حتى أنه لم يشعر يوما بالخوف من الموت كخوفه من ارذل العمر حين سيحتاج لامرأة تقوده من ذراعه . اذ كان يعلم أنه في ذلك اليوم ، وفي ذلك اليوم فقط ، عليه أن يتخلى عن الأمل بفيرمينا داثا .

لقد أطار ذلك اللقاء النوم من عينيه . وبدلا من أن يحمل ليونا كاسياني بالعربة ، فقد رافقها مشيا على الأقدام عبر المدينة القديمة ، حيث كانت خطواته تقرع بلاط الرصيف كحوافر حصان . وكانت تنطلق بين حين وآخر بقايا أصوات هاربة من الشرفات المفتوحة ، أو مناجيات من مخادع النوم ، أو نحيب حب تضخمه المسامع الخيالية وأريج الياسمين الدافئ في الأزقة الهاجعة . وكان على فلورينتينو اريثا أن يستجمع ثانية كل قواه ليمنع نفسه من أن يكشف لليونا كاسياني عن حبه المقهور لفيرمينا داثا . كانا يسيران معاً ، بخطواتهما المحسوبة ، غارقين في الحب بلا تسرع ، كخطيبين قديمين ، هي تفكر بروعة كابيريا ، وهو يفكر بمحنته الشخصية . وفي

ساحة الجمارك كان هناك رجل يغني ، وكان صوته يتردد في الجو بأصداء متسلسلة : حين كنت أعبر أمواج البحر العظيمة . وفي شارع لوس سانتوس دي بّيدرا ، حين كان عليه أن يودعها أمام بيتها ، طلب فلورينتينو اريثا من ليونا كاسياني أن تدعوه لتناول كأس من البراندي . كانت تلك هي المرة الثانية التي يطلب منها ذلك في ظروف متشابهة . في المرة الأولى ، قبل عشر سنوات ، قالت له : «اذا ما صعدت الى بيتي في مثل هذه الساعة فعليك البقاء فيه الى الأبد» . ولم يصعد يومها . أما الآن فكان مستعدا للصعود في جميع الأحوال ، حتى لو اضطر الى نقض عهده فيما بعد . لكن ليونا كاسياني دعته للصعود دون أي التزام .

هكذا وجد نفسه في محراب حب مات قبل أن يولد . كان أبواها قد توفيا ، وجمع أخوها الوحيد ثروة طائلة في كوراثاو ، وبقيت هي وحدها لتعيش في بيت العائلة . قبل سنوات ، وحين لم يكن قد فقد الأمل بجعلها عشيقة له ، اعتاد فلورينتينو اريثا زيارتها أيام الآحاد برضى أبويها ، وكان يزورها في الليل أحيانا ويبقى حتى ساعة متأخرة ، وقد قدم مساهمات كثيرة في عمليات اصلاح البيت حتى صار يعتبره كبيته . ولكنه شعر في تلك الليلة ، بعد السينما ، بأن صالة الاستقبال قد طهرت من ذكرياته . كانت أماكن الاثاث قد تبدلت ، وعلقت على الجدران صور جديدة ، ففكر بأن كل هذه التغيرات القاسية انما أجريت عمداً لتأكيد يقينه بأنه لم يكن له من وجود أبداً . كما أن القط لم يتعرف عليه . فقال وقد أفزعه نذير النسيان : «ما عاد يذكرني» . ولكنها ردت عليه وهي توليه ظهرها فيما كانت تملأ كأسي البراندي ، بأنه اذا كان قلقا لهذا فبإمكانه النوم مطمئنا ، لأن القط لا يتذكر أحدا .

وبينا هما متكئان على الأريكة ، متلاصقان ، تحدثا عن نفسيهما ، عما كاناه قبل أن يتعارفا في مساء يوم من يذكركم مضى عليه في حافلة تقودها

البغال . وكانت حياتهما تمضي في مكتبين متجاورين ، ولم يتحدثا أبداً من قبل في شيء خلاف العمل اليومي . وفيما هما يتحدثان ، وضع فلورينتينو اريثا يده على فخذها وأخذ يداعبها برقة مجربة في الغواية ، وتركته يفعل ذلك ، ولكن دون أن ترد عليه ولو بمجرد ارتعاشة مجاملة . وحين حاول المضي أبعد من ذلك ، أمسكت يده المستكشفة وقبلت راحته قائلة :

ـ كن مهذباً . فقد أدركت منذ زمن بعيد بأنك لست الرجل الذي أبحث عنه .

ففي صباها ، بطحها على حين غرة فوق ملطم الأمواج رجل قوي وبارع ، لم تر وجهه أبداً ، وعراها ممزقاً ثيابها ، ومارس معها حباً عابراً ومجنوناً . وفيما هي ملقاة فوق الأحجار ، وجسدها كله مليء بالجروح ، تمنت لو يبقى ذلك الرجل فوقها الى الأبد ، ليموت حباً بين ذراعيها . لم تر وجهه ، ولم تسمع صوته ، لكنها كانت متأكدة من التعرف عليه بين آلاف الرجال لشكله وحجمه وطريقته في ممارسة الحب . واعتادت منذ ذلك الحين القول لكل من يريد سماعها : «اذا ما عرفت شيئا في أحد الأيام عن رجل ضخم وقوي اغتصب زنجية بائسة من الشارع فوق صخور سد الغرقى ، في يوم كان الخامس عشر من تشرين الأول ، حوالي الحادية عشرة والنصف ليلا ، فقل له أين يستطيع أن يجدني» . كانت تقول ذلك بمحض العادة ، وقد كررته كثيراً لدرجة أنها فقدت كل أمل . وكان فلورينتينو اريثا قد استمع منها مرات ومرات لهذه القصة كما لو أنه يسمع صفارات وداع تطلقها سفينة الليل . وحين اعلنت الساعة الثالثة صباحاً ، كان كل منهما قد شرب ثلاث كؤوس من البراندي ، وكان هو يعلم بأنه ليس الرجل الذي تبحث عنه حقاً ، وسرّ لمعرفته ذلك . وقال لها وهو يستعد للانصراف :

ـ برافو يا ليونا ، لقد أجهزنا على هذا النمر .

ولم يكن هذا هو الأمر الوحيد الذي قُضي تلك الليلة . فأكذوبة سرادق

المسلولين الخبيثة عكرت أحلامه ، لأنها أوحت له بأن فيرمينا داثا هي من البشر ، ويمكن أن تفنى ، ويمكن بالتالي أن تموت قبل زوجها . ولكنه حين رآها تتعثر عند الخروج من السينما ، تقدم خطوة أخرى نحو الهاوية عندما انكشف له بأنه قد يكون هو وليس هي من يموت أولا . وكانت تلك من أكثر النبوءات هولا ، لأنها تستند الى الواقع . لقد انقضت سنوات الانتظار الصابر ، والآمال السعيدة ، ولم يلح في الأفق سوى خضم الأمراض المتخيلة الذي لا يسبر له قرار ، والتبول قطرة قطرة في صباحات الأرق ، والموت اليومي في الظهيرة . وفكر بأن كل لحظة من لحظات اليوم ، تلك التي كانت حليفة له في الماضي وشريكة محلفة ، بدأت تتآمر ضده . لقد ذهب منذ سنوات قليلة الى موعد غرامي جريء وقلبه مثقل بالخوف من المصادفة ، فوجد الباب غير مقفل والمفصلات مزيتة لتوها كي يستطيع الدخول دون اثارة أية ضجة ، لكنه احجم في اللحظة الأخيرة مخافة أن يسبب لامرأة غريبة وخدومة الضرر الذي لا سبيل لاصلاحه بموته في سريرها . وهكذا كان معقولا التفكير بأن المرأة التي أحبها أكثر من كل ما أحبه على وجه الأرض ، والتي انتظرها دون تذمر من قرن الى آخر ، لن يتاح لها الوقت لاسناده من ذراعه وعبور شارع مليء بحشوات التراب القمرية وجنائن البرقوق التي بعثرتها الريح ، لمساعدته في الوصول سليماً معافى الى الرصيف الآخر للموت .

الحقيقة أن فلورينتينو اريثا ، قد دخل وفق معايير عصره حدود الشيخوخة ، كان عمره ستاً وخمسين سنة ، بالتمام والكمال ، وكان يظن بأنه عاش أفضل حياة ، لأن سنوات حياته كانت سنوات حب . ولكن لم يواجه أي رجل من رجال عصره سخرية الظهور بمظهر الشباب وهو في سنه ، بينما كا هو كذلك ، أو كان يعتقد بأنه كذلك ؛ كما لم يكن أي من أولئك الرجال ليتجرأ على الاعتراف دون خجل بأنه مازال يبكي خفية من أجل صد

لقيه في القرن الماضي . لقد كان عصراً سيئاً للظهور بمظهر الشباب : فهناك طريقة معينة في اللباس لكل سن ، لكن طريقة سن الشيخوخة في اللبس تبدأ بعد المراهقة بقليل ، وتستمر حتى القبر . لقد كانت هذه المرحلة عبارة عن مرحلة وقار اجتماعي أكثر منها مرحلة حياتية ، فالشباب فيها يلبسون مثل أجدادهم ، ويصبحون أكثر وقاراً بالنظارات المبكرة ، كما كان حمل العكاز أمراً مقبولا منذ سن الثلاثين . أما بالنسبة للنساء فلم تكن في حياتهن سوى مرحلتي : سن الزواج ، وهو لا يتعدى الثانية والعشرين من العمر ؛ وسن العزوبية الأبدية... الذي يضم الكاسدات . أما ما سوى ذلك من متزوجات وأمهات وأرامل وجدات ، فكن صنفاً مختلفاً من البشر ، لا تحسب حياتهن بما يعشنه من سنوات ، وانما بالزمن المتبقي أمامهن للموت .

لقد واجه فلورينتينو اريثا غدر الشيخوخة بجسارة شرسة ، حتى وهو يعرف قدره الغريب بالظهور بمظهر الشيخوخة منذ طفولته . وقد كان ذلك المظهر وليد الحاجة في أول الأمر ، اذ كانت ترانسيتو اريثا تفتق له وتعيد خياطة ملابس ابيه التي يقرر التخلص منها وإلقاءها الى القمامة . وهكذا كان يذهب الى المدرسة الابتدائية بسترة تصل الى الأرض عند جلوسه ، وقبعة وزارية تغطس في رأسه حتى أذنيه ، رغم تضييق اطارها بحشوات من القطن . وبما أنه كان يستخدم نظارات لقصر النظر كذلك منذ الخامسة من عمره ، وكان له شعر هندي كشعر أمه ، مزبئر وقاس كشعر جواد ، فلم تكن لمظهره أية سمات واضحة . ولحسن الحظ أن المعايير المدرسية كانت أقل انتقائية مما كانت عليه من قبل ، وذلك بعد فوضى الحكومات الكثيرة بسبب الحروب الأهلية المفروضة والمتلاحقة . فكانت المدارس العامة تزخر بخليط من الأصول والظروف الاجتماعية المتباينة . كان يأتي الى الدروس صبية تفوح منهم روائح بارود المتاريس ، بملابس وشارات ضباط متمردين نالوها بالرصاص في معارك مشكوك فيها ، وبأسلحتهم النظامية البادية تماماً

على خصورهم . وكانوا يصطدمون فيما بينهم بالرصاص لأيّ خلاف في الاستراحة ، ويهددون المعلمين إن هم أساؤوا تقديرهم في الامتحانات ، بل إن أحدهم ، وهو تلميذ في الصف الثالث بمدرسة لاسال وكولونيل ميليشيا متقاعد ، قتل الأخ خوان اريميتا ، رئيس الطائفة ، بالرصاص لأنه قال في درس أصول الدين ان الرب هو عضو عامل في الحزب المحافظ .

من جهة أخرى ، كان أبناء العائلات الكبيرة المنكوبة يأتون إلى المدرسة بملابس امراء قدماء ، بينما يسير بعض الفقراء المدقعين حفاة . وبين كل هذه المفارقات الغريبة التي طالت جميع المستويات . كان فلورينتينو اريثا من أشد الحالات غرابة ، ولكن ليس الى الحد الذي يلفت اليه الانتباه كثيراً . وكان أقسى ما سمعه هو أن أحدهم صرخ به في الشارع يوماً : «الفقير القبيح تنقضي حياته في التمنيات» . وعلى أي حال فان ذلك الزي الذي فرضته الحاجة ، كان منذ ذلك الحين ، وسيبقى طوال حياته ، الأكثر ملاءمة لطبيعته الغامضة ومزاجه الكئيب . وحين وصل الى أول منصب مهم في ش . ك . م . ن . ، بعث يطلب تفصيل ثياب جديدة على مقاسه من طراز ملابس أبيه ، الذي ما زال يذكره كشيخ توفي عن عمر موقر كعمر المسيح : ثلاث وثلاثون سنة . لقد كان فلورينتينو اريثا يبدو اذن أكبر من سنه الحقيقي بكثير . لدرجة أن النمامة بريجيدا زوليتا ، احدى عشيقاته العابرات والتي كانت تقدم له الحقائق دون أن تمر بها في الماء ، قالت له منذ اليوم الأول بأنه يعجبها أكثر حين يخلع ملابسه ، لأنه يصغر عشرين سنة وهو عارٍ . ولم يستطع رغمَ ذلك التوصل إلى التوافق أبداً ، أولا لأن ذوقه الشخصي لا يمكنه من أن يتزيا بطريقة أخرى ، وثانياً لأن أحداً من أهل ذلك العصر ما كان يعرف كيف له أن يتزيا بزي شاب في العشرين دون أن يُخرج مجدداً من خزانته سراويله القصيرة وقبعة الأولادِ . ومن جهة أخرى ، لم يكن ممكناً له هو بالذات الهروب من معرفة شيخوخة عصره . وهكذا فقد كاد أن

يكون طبيعياً حين رأى فيرمينا داثا تتعثر لدى خروجها من السينما ، وأمكن لبارقة الذعر أن تبعث القشعريرة فيه لاحساسه بأن الموت العاهر سينتصر عليه بالتأكيد في حرب حبه الضروس .

كانت المعركة التي خاضها عاجزاً حتى ذلك الحين وخسرها دون أمجاد ، هي معركته ضد الصلع . فمنذ رأى الشعرات الأولى تعلق بالمشط ، أدرك أنه محكوم بجحيم لا يمكن لمن لم يعشه تصور عذاباته . قاوم خلال سنوات . لم يدع وصفة أو علاجاً للصلع إلا وجربه ، ولا خرافة إلا وآمن بها ، ولا تضحية إلا واحتملها ليدافع عن كل بوصة من شعر رأسه في مواجهة الداء النهم . حفظ عن ظهر قلب تعليمات رزنامة بريستول الزراعية ، لأنه سمع أحدهم يقول إن نمو الشعر مرتبط ارتباطاً مباشراً بدورات المواسم الزراعية . وهجر حلاقه الخاص الذي كان يقص شعره عنده منذ الأزل ، لأنه كان ذا صلعة مهيبة ، واستبدله بحلاق غريب جاء المدينة حديثاً وكان لا يقص الشعر إلا حين يبدأ القمر بالاكتمال . وأخذ الحلاق الجديد يثبت أن يده مُخصبة حقاً حين كُشف أمره كمغتصب تلميذات غريرات تلاحقه شرطة عدة بلدان انتيلية ، وقيد مكبلا بالسلاسل .

كان فلورينتينو اريثا قد قص حتى ذلك الحين جميع الاعلانات الموجهة للصلعان في صحف بلدان حوض الكاريبي ، حيث كانوا ينشرون في تلك الاعلانات صورتين متجاورتين للرجل نفسه ، الأولى وهو منتوف مثل شمامة ، والثانية بشعر أغزر من لبدة أسد : قبل وبعد استخدام الدواء المضمون . وبعد مرور ست سنوات ، كان قد جرب مئة واثنين وسبعين دواء ، اضافة إلى وسائل أخرى مكملة كانت ترد في الوصفة المرفقة بقناني الدواء . لكن الشيء الوحيد الذي حصل عليه هو نوع من الاكزيما في رأسه ، قرحة حارقة ومنتنة ، يطلق عليها أولياء المارتينيك الصالحين اسم القرع الشمالي ، لأن اشعاعاً فسفورياً ينبعث منها في الظلام وبعد ذلك لجأ الى

جميع أصناف الأعشاب التي يروجها الهنود في السوق العام ، وجميع الأدوية السحرية والاكاسير الشرقية التي تباع في زقاق الكتبة العموميين ، وحين أدرك أنه ليس سوى ضحية عمليات غش ، كانت قرعة كقرعة القديسين قد غزت منتصف رأسه . وفي السنة صفر ، عندما كانت حرب الألف يوم الأهلية تستنزف البلاد ، مر في المدينة ايطالي يصنع بيروكات من الشعر الطبيعي على المقاس . كانت الواحدة منها تكلف ثروة ، ولا يحتمل الصانع أية مسؤولية بعد ثلاث شهور من الاستعمال . ولكن عدداً ضئيلاً فقط من الصلعان الموسرين لم يرضخوا للاغراء . وكان فلورينتينو اريثا أحد الأوائل . جرب بيروكة مشابهة تماما لشعره الأصلي ، حتى أنه خشي من وقوف الشعر مع تبدلات مزاجه . لم يستطع استيعاب فكرة حمل شعر انسان ميت على رأسه . كان عزاؤه الوحيد أن شراهة الصلع لم تتح له التعرف على لون شعراته الشائبات . وفي يوم من الأيام عانقه أحد سكارى الميناء النهري السعداء بعاطفة متدفقة أكثر من المعتاد وهو خارج من المكتب ، فأفلتت الباروكة أمام سخرية عمال الشحن ، وطبع السكران قبلة مدوية على رأسه وهو يصرخ :

ـ صلعة ربانية!

في تلك الليلة بالذات ، وكان قد بلغ الثامنة والأربعين من العمر ، حلق الشعيرات القليلة المتبقية على الصدغين والرقبة ، واستسلم تماماً لمصيره كأصلع مطلق . بل أنه لم يعد يطلي صباح كل يوم قبل الحمام ذقنه وحدها بالرغوة ، وانما كذلك أجزاء من رأسه حيث يجد أن بعض الشعر آخذ بالظهور ، فيجعلها بموس الحلاقة مثل إلية طفل رضيع . لم يكن ينزع القبعة حينئذ حتى ولو في المكتب ، اذ كانت الصلعة تثير فيه شعوراً بالعري يبدو له غير وقور . ولكنه حين اعتاد عليها تماماً ، نسب اليها فضائل ذكورية كان قد سمع بها ، وكان يزدريها من قبل على أنها مجرد أوهام من الصلعان . ثم

انتقل فيما بعد الى العادة الجديدة باستخدام شعر المفرق الأيمن الطويل لتغطية الصلعة ، ولم يتخل عنها أبداً . ولكنه استمر في استخدام القبعة وهو على هذه الحال ، بالطريقة الجنائزية ذاتها ، حتى بعد أن شاعت قبعة تارتاريتا ، وهو الاسم المحلي لقبعة كانوتية .

أما فقدانه اسنانه فلم يكن نتيجة بلوى طبيعية ، وانما نتيجة عمل غير متقن قام به طبيب أسنان متجول رأى أنه لا بد من نزع الاسنان اثر التهاب عادي . كان الرعب من آلة ثقب الأسنان قد منع فلورينتينو اريثا من زيارة طبيب الأسنان رغم آلام أضراسه المستمرة ، إلى أن فقد القدرة على الاحتمال . وقد فزعت أمه حين سمعت أنينه في الغرفة المجاورة طوال الليل ، اذ بدت لها كتأوهاته في زمن آخر شبه مطموس في ضباب ذاكرتها ، لكنها حين طلبت منه أن يفتح فمه لترى أين هو ألم الحب ، اكتشفت أن ما يضنيه هي الخراجات والدمامل الصغيرة .

ارسله العم ليون الثاني عشر الى الدكتور فرانسيس ادوناي ، وهو مارد زنجي يلبس سروالا خاصاً بركوب الخيل ، ويتنقل في السفن النهرية حاملاً عيادته السنية كلها في أكياس ، فيبدو أشبه بمندوب متجول للرعب في قرى النهر . وبعد نظرة واحدة الى فم فلورينتينو اريثا ، قرر أنه لا بد من نزع أسنانه كلها ، بما في ذلك الأسنان والأضراس السليمة ، لانقاذه الى الأبد من محن أخرى . وعلى العكس من الصلعة ، لم يسبب له هذا العلاج الحماري أي نوع من القلق ، باستثناء خوفه الطبيعي من المجزرة دون مخدر . كما لم تزعجه فكرة الأسنان الاصطناعية ، أولا لأن إحدى ذكريات طفولته التي يحن اليها هي ذكرى ساحر رآه في مهرجان وكان ينزع فكيه ويضعهما على طاولة ليتكلما بمفردهما ، وثانياً لأنه سيضع حداً لآلام الأضراس التي عذبته منذ طفولته ، وهي آلام تكاد تشبه بقسوتها آلام الحب . لم ير في الأمر ضربة غادرة من ضربات الشيخوخة ، كما رأى في الصلعة ، اذ كان مقتنعاً ، رغم

طعم المطاط المكبرت ، بأن مظهره سيكون أجمل بابتسامة قويمة . هكذا سلم نفسه دون مقاومة لكماشة الدكتور ادناي المضمخة بالدم ، واحتمل آلام العلاج بصبر حمير العتالة .

اهتم العم ليون الثاني عشر بتفاصيل العملية كما لو كانت تجرى له بالذات . فقد كان يولي الأسنان الاصطناعية اهتماماً خاصاً اثر احدى رحلاته الأولى في نهر مجدلينا ، وبسبب هوسه بالغناء الجميل . ففي احدى الليالي المقمرة ، وقريباً من ميناء غامارا ، راهن مساح أراض ألماني بأنه قادر على ايقاظ مخلوقات الغابة بغنائه رومنس نابولي من فوق شرفة القبطان . وكاد أن يكسب الرهان . اذ انطلقت في عتمة النهر خفقات أجنحة طيور مالك الحزين في المستنقعات ، وضرب ذيول التماسيح ، وأنفاس أسماك الشابل وهي تحاول القفز الى اليابسة ، ولكنه حين وصل القفلة الختامية ، وحين خشي المجتمعون من تمزق شرايين المغني لقوة صوته ، افلت طقم الاسنان الاصطناعية من فمه مع النفس الأخير ، وغرق في الماء .

وقد اضطرت السفينة للانتظار ثلاثة أيام في ميناء تينيريفي ، ريثما صنعوا له مجموعة أسنان طوارئ جديدة . وقد كانت هذه الأسنان الجديدة متقنة . ولكنه في رحلة العودة ، وأثناء محاولته أن يشرح للقبطان كيف أضاع طقم أسنانه السابق ، استنشق العم ليون الثاني عشر ملء رئتيه هواء الغابة الملتهب ، وصدح بأعلى لحن يستطيعه ، واحتفظ به حتى النفس الأخير محاولا افزاع التماسيح الجاثمة تحت الشمس متأملة مرور السفينة دون أن يطرف لها رمش ، فغرق طقم الأسنان الجديد في مجرى النهر أيضاً . منذ ذلك الحين وضع نسخاً من الاسنان الاصطناعية في كل مكان ، في عدة أماكن بالبيت ، وفي درج مكتبه ، كما وضع طقماً في كل سفينة من سفن الشركة الثلاث . واضافة الى ذلك ، صار يحمل معه كلما ذهب لتناول الطعام خارج المنزل ، طقماً اضافياً يضعه في علبة لاقراص السعال في جيبه ، وذلك

لأن أسنانه الاصطناعية كُسرت يوماً وهو يحاول أكل قطعة من شحم الخنزير المقدد في غداء ريفي . وخشية أن يقع ابن أخيه ضحية مفاجآت من هذا النوع ، أمر العم ليون الثاني عشر الدكتور ادوناي بأن يصنع له مجموعتين من الأسنان : احداهما من مواد عادية ، للاستخدام اليومي في المكتب ، وأخرى لأيام الآحاد والأعياد ، مزودة بلمعة ذهبية في ضرس الابتسامة ، مما منحها لمسة اضافية حقاً . وأخيراً ، رجع فلورينتينو اريثا ، في يوم أحد يضج بنواقيس العيد ، الى شارعه بهوية جديدة ، وجعلته ابتسامته الصائبة يشعر بأن شخصاً آخر قد احتل مكانه في الدنيا .

حدث هذا في الحقبة التي ماتت فيها أمه وبقي فلورينتينو اريثا وحده في البيت الذي كان ركناً مناسباً لغرامياته ، اذ ان شارعه يكتم الأسرار رغم أن النوافذ الكثيرة التي تمنحه الاسم توحي بوجود عيون تتلصص من وراء الستائر . ولكن كل ما في هذا البيت انما صنع لاسعاد فيرمينا داثا ، وسيكون لها وحدها . وهكذا فضل فلورينتينو اريثا تبديد فرص كثيرة خلال أكثر سنواته إثماراً ، على أن يدنس بيته بغراميات أخرى . ولحسن الحظ أن كل درجة كان يرتقيها في مناصب ش . ك . م . ن . ، كانت تعني امتيازات جديدة ، ومكاسب سرية على وجه الخصوص ، وأكثر هذه الامتيازات فائدة بالنسبة اليه كانت امكانية استخدامه المكاتب خلال الليل . وفي أيام الآحاد والعطل ، بالاتفاق مع البوابين . وفي إحدى المرات ، حين كان نائباً أول للرئيس ، فُتح باب مكتبه بغتة بينما كان يمارس حباً مستعجلاً مع إحدى الفتيات اللواتي يعملن أيام الآحاد ، وكان جالساً على الكرسي فيما هي رابضة في حضنه ، وبعد فتح الباب ، أطل العم ليون الثاني عشر برأسه ، كما لو أنه أخطأ في المكتب ، وقف يتأمل من فوق نظارته ابن أخيه المرتبك . ثم قال العم دون أي قدر من الدهشة : « كراخو! إنه لعنة أبيك نفسها! » . وقبل أن يغلق الباب ثانية ، قال ونظره تائه في الفراغ :

ـ وأنت أيتها الآنسة ، تابعي بلا خوف . أقسم لك بشرفي أنني لم أر وجهك .

لم يعد للحديث في هذا الأمر . ولكن العمل كان مستحيلاً في مكتب فلورينتينو اريثا خلال الأسبوع التالي : فقد دخل الكهربائيون يوم الاثنين بجلبة لتركيب مروحة ذات رياش في السقف الأملس ، أتى صانعو الأقفال دون انذار مسبق ، وأثاروا ضجة حرب وهم يثبتون مزلاجاً في الباب لاغلاقه من الداخل . وأخذ النجارون مقاسات دون أن يقولوا لماذا ، وجاء المنجدون بنماذج من قماش الكريتون ليروا إن كانت تتناسب مع لون الجدران ، وكان عليهم في الأسبوع التالي أن يستخدموا النافذة ، لأن الأبواب لم تتسع لادخال اريكة مزدوجة مزينة برسوم أزهار . اشتغلوا في ساعات لا تخطر على بال ، بوقاحة لا تبدو أنها مصادفة ، وكانوا يرددون على كل من يعترض بالقول : « إنها أوامر الادارة العامة » . لم يعلم فلورينتينو اريثا أبداً ان كان هذا التدخل لطفاً من العم ، الساهر على غرامياته الضالة ، أم إنه أسلوب خاص به للفت انتباهه إلى سوء سلوكه في استخدام صلاحياته . لم يتبين حقيقة أن العم ليون الثاني عشر كان يشجعه ، فقد وصلت إلى مسامعه كذلك أنباء تقول إن لابن أخيه عادات مختلفة عن عادات معظم الرجال ، وقد أقلقه ذلك لأنه رأى فيه عائقاً أمام تعيينه خليفة له .

لقد عاش ليون الثاني عشر لوائيا ، على عكس أخيه ، حياة زوجية مستقرة ، استمرت ستين سنة ، كان يفاخر دوماً بأنه لا يشتغل أيام الآحاد . وقد أنجب أربعة أبناء وابنة واحدة ، وكان يريد اعدادهم جميعاً ليرثوا عنه امبراطوريته ، ولكن الحياة أعدت له واحدة من هذه المصادفات التي كانت شائعة في روايات عصره ، والتي لم يكن هناك من يؤمن بوجودها في الحياة الواقعية : لقد مات الأبناء الأربعة ، واحداً بعد الآخر ، وبعد وصولهم إلى مناصب المسؤولية . أما الابنة ، التي لا تتمتع بأية ميول

نهرية ، ففضلت الموت وهي تتأمل مراكب هدسن من نافذة على ارتفاع خمسين متراً . فوُجد هناك بعد كل هذه الميتات من يؤمن بأسطورة أن فلورينتينو اريثا ، بمظهره المشؤوم ومظلته التي كمظلة مصاصي الدماء ، قد فعل شيئاً لتحدث كل هذه المصادفات معاً .

وعندما تقاعد العم عن العمل مكرهاً ، بأمر طبي ، ضحى فلورينتينو اريثا راضياً ببعض غرامياته في أيام الآحاد ليرافق العم إلى ملجأه الريفي في سيارة من السيارات الأولى التي شوهدت في المدينة ، والتي كانت ذراع ادارة محركها قوية الارتداد لدرجة أنها انتزعت ذراع سائقها الأول . كانا يتحدثان لساعات طويلة فيما العجوز مستلق في أرجوحة نومه المطرز عليها اسمه بخيوط حريرية ، بعيداً عن كل شيء ، في مزرعة عبيد قديمة كانت تظهر من مصاطبها المشرفة مساء قمم سلسلة الجبال المكللة بالثلج . كان يصعب على فلورينتينو اريثا وعمه الخوض في حديث آخر سوى الملاحة النهرية ، وبقي هذا هو موضوع تلك المسامرات الطويلة ، حيث كان الموت دوماً ضيفاً لا مرئياً . لقد كانت احدى مشاغل العم ليون الثاني عشر هي الحيلولة دون انتقال الملاحة النهرية إلى ايدي رجال أعمال من أقاليم الداخل الذين يرتبطون بالاحتكارات الاوربية . وكان يقول : «لقد كان هذا العمل دوماً هو عمل الماتاكونغيين . اما اذا تولاه الداخليون فسيهدونه ثانية إلى الألمان» . وكان قلقه ناجماً عن قناعة سياسية يحب تكرارها بمناسبة وبلا مناسبة :

ـ أكاد أكمل مئة سنة ، وقد رأيت كل شيء يتغير ، بما في ذلك مواقع الكواكب في الكون ، ولكنني لم أر حتى الآن شيئاً يتغير في هذه البلاد . فهنا توجد دساتير جديدة ، وقوانين جديدة ، وحروب جديدة كل ثلاثة شهور ، لكننا مازلنا نعيش في العهد الاستعماري .

وكان يردد دائماً على أخويه الماسونيين اللذين يعزوان كل الشرور

إلى فشل الاتحادية : «لقد كانت حرب الألف يوم خاسرة قبل اندلاعها بعشرين سنة... منذ حرب ٧٦» . وكان فلورينتينو اريثا ، الذي تتجاوز لا مبالاته السياسية حدود المطلق ، يستمع الى هذا الكلام الطويل المكرور كمن يستمع إلى صوت البحر ولكنه كان بالمقابل نقيضاً صارماً فيما يتعلق بسياسة الشركة . اذ كان يرى ، على العكس من عمه ، بأن تخلف الملاحة النهرية ، التي تبدو دائماً على شفير الكارثة ، لا يمكن معالجته إلا بالتخلي التلقائي عن احتكار الملاحة النهرية الذي منحه الكونغرس الوطني لشركة الكاريبي لمدة تسعة وتسعين عاماً ويوم واحد . وكان العم يعترض : «هذه الأفكار تحشوها في رأسك سَميَّتي ليونا المولعة بالفوضوية» . وكان هذا هو نصف الحقيقة فقط ، اذ كانت مبررات فلورينتينو اريثاتستند الى تجربة الربان الألماني جون ب . البيرس ، الذي أفسد بطموحه الشخصي المفرط نبوغه النبيل . أما العم ليون فكان يرى أن فشل البيرس لم يكن بسبب امتيازاته . وانما نتيجة التعهدات اللا واقعية التي التزم بها في حينه ، فكان كمن يلقي على كاهله مسؤولية الجغرافية الوطنية بأسرها : فقد تحمل مسؤولية الحفاظ على الملاحة النهرية ، وبناء المنشآت المرفأية ، والطرق البرية المؤدية إلى الموانئ ، ووسائط النقل . أضف إلى ذلك ـ كما يقول ـ إن معارضة الرئيس سيمون بوليفار الشديدة لم تكن بالعائق الذي يبعث على الضحك .

كان معظم المساهمين في الشركة يرون في ذلك الخلاف كواحد من الخلافات الزوجية ، حيث كلا الجانبين على حق . فعناد الشيخ يبدو لهم طبيعياً ، ليس لأن الشيخوخة جعلته أقل وهماً مما كان عليه دوماً ، كما اعتاد القول عن نفسه بسهولة كبيرة وانما لأن التخلي عن الاحتكار برأيه هو إلقاء إلى القمامة بمكاسب النصر الذي تحقق في معركة تاريخية خاضها وأخواه منفردين في الأزمنة البطولية ، ضد خصوم جبارين من العالم بأسره .

ولهذا لم يعارضه أحد حين ربط حقوقه بطريقة لا تتيح لأحد المس بها قبل غيابه القانوني . لكن حين سلم فلورينتينو اريثا أسلحته في مسامرات التأمل في المزرعة ، أبدى العم ليون الثاني عشر موافقته في التخلي عن الامتياز المنوي ، بشرط مشرف وحيد هو ألا يتم التنازل قبل وفاته .

كان هذا هو عمله الأخير . ولم يعد بعده للحديث في شؤون العمل ، بل أنه لم يعد يسمح لهم بأن يستشيروه فيه . ولم يفقد تجعيدة واحدة من تجاعيد رأسه الامبراطوري ، ولا ذرة واحدة من وضوحه ، لكنه فعل كل ما أمكنه حتى لا يبدو عليه شيء يثير الشفقة . كانت أيامه تمضي وهو يتأمل الثلوج الدائمة من شرفته ، محركاً كرسيه الفينيّ الهزاز ببطء ، إلى جانب طاولة صغيرة تحرص الخادمات على وجود ابريق قهوة مرة ساخنة عليها دوماً ومجموعتين من أسنانه الاصطناعية التي ما عاد يستخدمها إلا لاستقبال الزيارات . كان يلتقي عدداً محدوداً من الأصدقاء ، ولا يتحدث معه إلا عن ماض سحيق جداً وسابق للملاحة النهرية . ولكن بقي له مع ذلك موضوع جديد للحديث : رغبته بزواج فلورينتينو اريثا . وقد عبر عن ذلك عدة مرات ، وبالطريقة ذاتها دوماً .

كان يقول له :

ـ لو أنني كنت أصغر بخمسين سنة لتزوجت من سَمِيَّتي ليونا . فأنا لا أستطيع تصور زوجة أفضل منها .

كان فلورينتينو اريثا يرتعش لخوفه من أن يضيع كل ما عمله خلال سنوات طويلة بهذا الشرط الطارئ في اللحظة الأخيرة . لكنه كان يفضل الاستقالة ، والتخلي عن كل شيء ، والموت ، قبل أن يخلف وعده لفيرمينا داثا . ولحسن الحظ أن العم ليون الثاني عشر لم يصر في طلبه . وحين أتم الثانية والتسعين من العمر ، اعترف بابن أخيه وريثاً وحيداً وتقاعد من الشركة .

بعد ذلك بستة شهور ، وباجماع المساهمين ، عُيّن فلورينتينو اريثا رئيساً لمجلس الادارة ومديراً عاماً للشركة . ويوم تولى مهام منصبه ، بعد تناول الشمبانيا ، طلب العجوز ليون المتقاعد السماح له بالحديث وهو جالس على الكرسي الهزاز ، وارتجل خطبة قصيرة بدت أشبه بمرثية . قال ان حياته بدأت وانتهت بحدثين صادرين عن العناية الالهية . الحدث الأول هو أن بطل التحرير حمله بين ذراعيه ، في بلدة توورباكو ، أثناء رحلته المشؤومة التي قادته إلى الموت . والحدث الثاني كان عثوره ، رغم كل العوائق التي فرضها القدر ، على خليفة جدير بالشركة . وأخيراً ، في محاولة لنزع المأساوية من المأساة ، اختتم حديثه قائلاً :

ـ المَرارة الوحيدة التي أحملها من هذه الحياة هي أنني غنيت في جنازات كثيرة ، باستثناء جنازتي .

و لاختتام الاحتفال ، وكيف لا ، غنى منفرداً أغنية وداعاً للحياة ، من اوبريت توسكا . غناها بلحن كنانسي ، كما يحب أن يغنيها ، وبصوت مايزال ثابتاً . لقد تأثر فلورينتينو اريثا ، لكنه لم يكد يُظهر ذلك في ارتعاشة صوته حين القى كلمة شكر . مثلما فعل وفكر بكل ما فعله وفكر به في الحياة . لقد وصل إلى القمة دون هدف سوى قراره الشرس بالبقاء حياً وفي حالة صحية جيدة لحظة توليه مصيره في ظل فيرمينا داثا .

ولكن لم تكن ذكراها وحدها هي التي رافقته تلك الليلة في الحفلة التي دعت اليها ليونا كاسياني . بل رافقته كذلك ذكرى جميع من عرفهن . سواء من يرقدن في المقابر ، مفكرات به من خلال الزهور التي زرعها فوقهن ، أو أولئك اللواتي مازلن يسندن رؤوسهن على الوسادة ذاتها التي نام عليها أزواجهن بقرون مذهبة تحت ضوء القمر . وباستثناء واحدة منهن ، كان يرغب بأن يكون معهن جميعاً في وقت واحد ، وهو ما كان يخشاه دائماً . ففي أصعب سنوات حياته ، وأقسى لحظاته ، احتفظ بعلاقة ما ، وان كانت

واهية ، مع عشيقاته اللواتي لا حصر لهن : لقد تابع دائماً خيط حياتهن .

تذكر في تلك الليلة روساليا ، أقدمهن جميعاً ، التي فضت عذريته ومازالت ذكراها تعذبه كما عذبته في اليوم الأول . كان يكتفي بإغماض عينيه ليراها بفستان الموسلين والقبعة ذات شرائط الحرير الطويلة وهي تهز قفص الطفل عند حافة السفينة . وكان قد أعد عدة كل شيء مرات عديدة في سنوات حياته الطويلة للانطلاق في البحث عنها دون أن يعرف أين ، ودون أن يعرف ما هو لقبها ، ودون أن يعرف إن كانت هي حقاً من يبحث عنها ، ولكنه كان متأكداً من أنه سيجدها في أي مكان ما بين أزهار السحلبيات . وفي كل مرة ، بفعل عائق حقيقي يطرأ في اللحظة الأخيرة ، أو بفعل خلل خارج عن ارادته ، كانت الرحلة تتأجل وهو على وشك أن يرفع جسر السفينة : وقد كانت للاسباب دوماً علاقة ما بفيرمينا داثا .

تذكر أرملة ناثاريت ، الوحيدة التي دنس معها بيت أمه في شارع لاس فينتاناس ، على الرغم من أنه لم يكن هو ، وانما ترانسيتو اريثا ، من سمح لها بالدخول . ولقد كرس لها تفهماً أكثر من أي واحدة سواها ، لأنها الوحيدة التي كانت تشع حناناً يكفي لاحلالها محل فيرمينا داثا ، برغم بلادتها في الفراش . لكن ميولها كقطة متشردة ، وغير مروضة ، تفوقت على قوة حنانها وحكمت عليهما بالخيانة . ومع ذلك ، فقد أصبحا عاشقين متقطعين خلال ما يقرب من ثلاثين سنة بفضل شعاره الفروسي : خائنان ، ولكن غير مخادعين . وكانت هي الوحيدة كذلك التي كشف فلورينتينو عن وجهه الحقيقي من أجلها : فحين وصله خبر موتها ، علم أنها ستدفن في مدافن الاحسان ، تكفل بدفنها على نفقته ،وكان الوحيد الذي حضر جنازتها .

تذكر أرامل أخريات محبوبات . بروديثيا بيترا ، أقدم اللواتي مازلن على قيد الحياة ، والمعروفة للجميع باسم أرملة الرب ، لأنها ترملت مرتين . وتذكر بوردينثيا الأخرى ، أرملة اربيانو المتيمة بحبه ، والتي كانت تقطع

ازرار ملابسه ليضطر للبقاء في بيتها ريثما تعيد اصلاحها . وخوسيفا ، أرملة زونيغا ، المجنونة بحبه ، التي كادت تقص عضوه بالمقص وهو نائم ، كي لا يكون لأحد سواها .

تذكر انخيلس الفارو ، التي غابت سريعاً وكانت أحبهن اليه ، اذ جاءت لمدة ستة أشهر لتعليم موسيقى الآلات الوترية في مدرسة الموسيقى ، وكانت تقضي معه الليالي المقمرة على سطح بيتها ، كما قذفت بها أمها إلى الدنيا ، عازفة أجمل المقطوعات الموسيقية على البيولونتشيلو[1] ، الذي يتحول صوته إلى صوت انسان بين فخذيها الذهبيين . ومنذ الليلة المقمرة الأولى ، تفتت قلباهما ارباً بحب مبتدئين شرسين . لكن انخليس الفارو مضت مثلما جاءت ، بعضوها الغض وآلتها الموسيقية ، في سفينة ترفع راية النسيان ، والشيء الوحيد الذي بقي منها في ليالي السطح المقمرة هو تلويحة وداعها بمنديل أبيض بدا وكأنه حمامة متوحدة وحزينة في الأفق ، كما في أشعار مهرجان الزهور . لقد تعلم فلورينتينو اريثا معها ما كان قد عاناه كثيراً دون أن يدرك كنهه : هو أن بوسع المرء أن يعشق عدة أشخاص في الوقت نفسه ، ويتألم الألم ذاته لهم جميعاً ، دون خيانة أي منهم . وفيما هو يقف وحيداً وسط الجموع في الميناء ، قال غاضباً : «ان في القلب حجرات أكثر مما في فندق للعاهرات» . كان مبللاً بدموع آلام الوداع . ولكن ما ان اختفت السفينة عند خط الأفق ، حتى عادت ذكرى فيرمينا داثا لتشغل الفراغ كله .

تذكر اندريه بارون ، التي مر من أمام بيتها الأسبوع الماضي ، ونبهه الضوء البرتقالي المنبعث من نافذة الحمام إلى أنه لا يستطيع الدخول : لقد سبقه أحدهم . أحدهم... رجل أو امرأة ، لأن اندريه بارون لم تكن لتتوقف عند ترهات من هذا النوع في فوضى الحب . وبين جميع من هن في قائمته ،

(١) آلة موسيقية وترية شائعة الاستخدام في كولومبيا .

كانت هي الوحيدة التي تعيش من جسدها ، ولكنها كانت تتحكم به حسب رغبتها ، دون وكيل أعمال . في سنواتها الطيبة مارست المهنة القديمة كمومس سرية ، مما جعلها جديرة باسم سيدتنا قديسة الجميع . لقد فتنت حكاماً وأمراء بحر . ورأت بعض نبلاء السلاح والأدب ممن لم يكونوا مشهورين كما كانوا يظنون أنفسهم يبكون على كتفها ، وكذلك بعض من كانوا مشهورين حقاً . كما كان صحيحاً أن الرئيس رافائيل رييس ، وبعد نصف الساعة المستعجلة التي أمضاها في زيارتيه للمدينة خصص لها راتباً تقاعدياً مدى الحياة لقاء خدمات قدمتها في وزارة الخزينة ، حيث لم تكن يوماً موظفة . لقد كانت توزع عطايا متعتها إلى أقصى ما أتاحه لها الجسد ، ورغم أن سلوكها غير اللائق كان معروفاً للجميع ، فإنه لم يكن بامكان أحد تقديم أدلة دامغة ضدها ، لأن زبائنها البارزين كانوا يحمونها كما يحمون أنفسهم ، مدركين أنهم هم وليس هي من سيخسر أكثر بالفضيحة . وقد خرق فلورينتينو اريثا من أجلها مبدأه المقدس بعدم الدفع ، وخرقت هي قانونها بألا تمارس الحب مجاناً حتى ولو مع الزوج . اذ اتفقا على سعر رمزي هو بيزو واحد عن كل مرة ، لكنها لم تكن تأخذ البيزو كما لم يكن هو يعطيها إياه في يدها ، وانما كان يُسقطه في الحصالة إلى أن يصل المبلغ إلى ما يكفي لشراء أية بدعة من زقاق الكتبة العموميين . وهي التي عزت إلى الحقن الشرجية التي يستخدمها في إمساكه ، حسية مختلفة في الحب ، وأقنعته بصواب فكرتها ، ليستخدما الحقن الشرجية معاً في أمسياتهما المجنونة ، محاولين بذلك ابتداع مزيد من الحب في الحب .

كان يرى نفسه محظوظاً ، لأن الوحيدة التي أذاقته قطرة مرارة وسط كل هذه اللقاءات الخطرة ، هي سارا نوريغا المتقلبة ، التي أنهت حياتها في مشفى الراعية الالهية للمجاذيب ، ملقية أشعاراً شيخوخية بذاءتها تتجاوز كل الحدود ، مما اضطرهم في المشفى إلى عزلها حتى لا تسبب الجنون

للمجنونات الأخريات . وحين تسلم فلورينتينو اريثا كامل مسووليات ش . ك . م . ن . لم يعد لديه متسع كبير من الوقت لمحاولة احلال أحد محل فيرمينا داثا : كان قد أوقن بأنها عصية على الاستبدال . وراح يهوي شيئاً فشيئاً في روتين زياراته لمن يعرفهن ، ليضاجعهن إلى المدى الذي تستطعنه ، وإلى حيث يستطيع ، وإلى حيث تسمح لهم الحياة ، وفي يوم أحد العنصرة ، حين مات خوفينال اوربينو ، لم تكن قد بقيت له سوى واحدة ، واحدة فقط ، لها أربعة عشر عاماً من العمر اكملتها لتوها ، وتتمتع بكل ما لم تمتلكه الأخريات حتى ذلك الحين لجعله يجن حباً .

اسمها اميركا فيكونيا . وكانت قد جاءت قبل سنتين من بلدة بويرتوباردي البحرية ، مبعوثة من أهلها إلى فلورينتينو اريثا ، ولي أمرها الذي تربطهم به صلة قربى معروفة . جاءت بمنحة حكومية لتتأهل كمعلمة ، وبدت كدمية حين وصولها بصرة سفرها وحقيبتها الصفيحية . ومنذ نزولها من السفينة بحذائها الأبيض وضفيرتها الذهبية ، خطرت له الفكرة الفظيعة بأنهما سيقضيان معاً قيلولات آحاد كثيرة . كانت ماتزال طفلة بكل ما في ذلك من معنى ، القلح في أسنانها ، وقروح المدرسة الابتدائية في ركبتيها ، لكنه تخيل فوراً المرأة التي ستصيرها عما قريب . فرعاها لنفسه خلال سنة بطيئة من سبوت في السيرك ، واحاد في الحدائق ومحلات المثلجات ، وأمسيات طفولية نال بها ثقتها ، وكسب ودها ، وراح يقودها من يدها برقة خبيثة كجد كريم إلى مسلخه السري . وكانت استجابتها فورية : لقد فتحت لها أبواب السماء فانفجرت في تفتُّح وردي جعلها تفيض سعادة ، وكان ذلك دافعاً ناجحاً لدراستها ، اذ احتفظت دوماً بالموقع الأول في الفصل كي لا تخسر الخروج من المدرسة في نهاية الأسبوع . وكانت بالنسبة له الركن الأكثر خفاء في خليج شيخوخته . فبعد سنوات طويلة من الغراميات المحبوسة ، أحس لمذاق البراءة المفسدة فتنة ضلال مستجد .

انسجما . كانت تتصرف على سجيتها : طفلة متأهبة لاستكشاف الحياة تحت اشراف رجل موقر لا يفاجأ بشيء ، وتصرف وهو واع بالشكل الذي كان يخشى أن يصير اليه في الحياة : خطيب شائخ . ولم يطابق بينها وبين فيرمينا داثا أبداً ، رغم التشابه الكبير بينهما ، وليس في السن ، والزي المدرسي ، والضفيرة ، والمشية البرية فقط ، بل وبالطبع المتكبر وغير المتوقع . ثم أن فكرة الاستبدال ، التي كانت حافزاً جيداً في استعطاء الحب من قبل ، قد تلاشت نهائياً من ذهنه . انها تعجبه كما هي ، ويحبها لما هي عليه بحمى لذة غسقية . وكانت الوحيدة التي اتخذ معها احتياطات صارمة للحيلولة دون حبل عرضي . وبعد بضعة لقاءات ، لم يعد لكليهما من حلم سوى مساء الآحاد .

بما أنه الشخص الوحيد المخول باخراجها من المدرسة الداخلية ، فقد كان يذهب بحثاً عنها في سيارة الهدسون ذات الستة سلندرات التابعة لشركة الكاريبي للملاحة النهرية ، وكان ينزع غطاء السيارة القماشي في بعض الأمسيات غير المشمسة ليتنزها على الشاطئ ، هو بقبعته الكئيبة ، وهي منفجرة بالضحك ، وممسكة بكلتا يديها قبعتها البحرية التي تشكل جزءاً من زيها المدرسي ، كي لا تطير مع الريح . لقد قال لها أحدهم يوماً ألا ترافق ولي أمرها أكثر من اللازم ، وألا تأكل شيئاً كان قد تذوقه وألا تقترب كثيراً من أنفاسه ، لأن الشيخوخة معدية . لكنها لم تول ذلك اهتماماً . كل منهما كان يبدي لا مبالاته لما يمكن للناس أن يظنوه بهما ، لأن قرابتهما كانت معروفة جيداً ، ثم أن سنيهما النقيضين يضعانهما بمنأى عن كل الشبهات .

كانا قد انتهيا من ممارسة الحب يوم أحد العنصرة ، في الرابعة بعد الظهر ، حين بدأ قرع النواقيس . وقد فوجئ فلورينتينو اريثا لفزع قلبه . فقرع النواقيس كان يدخل ـ في شبابه ـ ضمن تكاليف الجنازة ، وكان يحظر

على الفقراء فقط . وبعد حربنا الأخيرة ، في الجسر الواصل بين القرنين ، رسخ النظام المحافظ تقاليده الموروثة من العهد الاستعماري وأصبحت الأبهة الجنائزية مكلفة بحيث لم يعد هناك من هو قادر على دفعها سوى أغنى الأغنياء ، وحين توفي الأسقف اركولي دي لونا ، قرعت نواقيس المقاطعة كلها لتسعة أيام بلياليها ، وبلغ الضيق العام حداً دفع خليفته إلى إلغاء تقليد قرع أجراس الكنائس في المآتم ، وحصره بالموتى البارزين . ولذلك حين سمع فلورينتينو اريثا قرع النواقيس في الكتدرائية في الرابعة من مساء يوم أحد العنصرة ، أحس أن شبحاً من أيام شبابه المنسية يزوره . لم يتصور مطلقاً أن قرع النواقيس هذا هو الذي تشوق اليه لسنوات وسنوات ، منذ يوم الأحد الذي رأى فيه فيرمينا داثا تخرج من القداس الكبير وهي حبلى في الشهر السادس .

قال في العتمة :

ـ اللعنة . لا بد أنه حوت سمين كي تقرع من أجله أجراس الكتدرائية .

أما اميركا فيكونيا ، التي استيقظت لتوها ، عارية تماماً ، فقالت :

ـ لا شك أنها من أجل العنصرة .

لم يكن فلورينتينو اريثا خبيراً أو ما شابه ذلك في شؤون الكنيسة ، كما أنه لم يذهب إلى الصلاة مذ كان يعزف الكمان في الكورس مع ألماني علمه كذلك علم التلغراف ، ولم يتوصل إلى خبر مؤكد عن مصيره أبداً . لكنه كان يعرف دون شك أن النواقيس ما كانت من أجل العنصرة . صحيح أن في المدينة مأتماً ، وهو يعرف ذلك ، اذ زارت بيته لجنة من لاجئي الكاريبي لتخبره أن جيرميا دي سانت ـ آمور قد وجد ميتاً في معمل تصويره . ومع أن فلورينتينو اريثا لم يكن من أصدقائه المقربين ، إلا أنه كان صديقاً لعدد كبير من اللاجئين الذين اعتادوا على دعوته إلى مناسباتهم العامة ، وخصوصاً المآتم . لكنه كان متأكداً من أن الأجراس لا تقرع لجيرميا دي سانت ـ

آمور . الذي كان ملحداً مصمماً وفوضوياً متمادياً ، اضافة إلى أنه قتل نفسه بيده .

قال :

ـ لا . إن قرع أجراس كهذا لا يمكن أن يكون إلا من أجل حاكم فما فوق .

لم تكن اميركا فيكونيا ، بجسدها الشاحب المرقط بفعل انعكاس أشعة الضوء المتسربة من اباجور النافذة المغلقة ، قد بلغت سناً يمكنها من التفكير بالموت . كانا قد مارسا الحب بعد الغداء واضطجعا في سكون القيلولة ، عاريين تحت مروحة السقف التي لم يطغ ازيزها على نقر طيور الرخمة التي كانت تدب كحبات البرد فوق سطح الصفيح الساخن . كان فلورينتينو اريثا يحبها كما أحب كثيرات من النساء الأخريات العابرات في حياته الطويلة ، لكنه كان يحب هذه بكرب أشد ، لأنه كان موقناً من أنه سيكون قد مات من الشيخوخة حين تنتهي هي من المدرسة العليا .

كانت الحجرة تبدو أشبه بقمرة سفينة ، بجدرانها المصنوعة من ألواح خشبية طليت مرات ومرات فوق طلانها الأول ، كما هو الحال في السفن . لكن الحر كان أشد من حر قمرات سفن النهر في الرابعة مساء ، برغم المروحة المعلقة فوق السرير ، وذلك للحر الذي يعكسه السقف المعدني . لم تكن حجرة نوم عادية وانما قمرة على اليابسة أمر فلورينتينو اريثا ببنائها خلف مكاتبه في ش . ك . م . ن . ، دون نية أو ذريعة أخرى سوى الحصول على ملجأ جيد لغرامياته كعجوز . كان النوم هناك مستحيلاً في الأيام العادية بسبب صراخ عمال شحن السفن وقعقعة رافعات الميناء النهري ، وجؤار السفن الضخمة في الميناء . ولكنها كانت بالنسبة للطفلة جنة أيام الآحاد .

فكرا بالبقاء معاً في يوم العنصرة حتى موعد عودتها إلى المدرسة الداخلية ، قبل خمس دقائق من صلاة التبشير ، لكن قرع النواقيس ذكر

فلورينتينو اريثا بوعده في حضور جنازة جيرميا دي سانت ـ آمور ، فارتدى ملابسه بأسرع مما يفعل في العادة ، وكان قد جدل قبل ذلك ، كعادته ، ضفيرة الطفلة التي يحلها قبل ممارسة الحب ، ورفعها فوق الطاولة ليعقد لها شريط حذائها المدرسي ، الذي لم تحسن ربطه يوماً . كان يساعدها دون خبث ، وكانت تساعده ليساعدها كما لو كان ذلك واجباً عليها... لقد فقد كلاهما الاحساس بالسن منذ لقاءاتهما الأولى ، وتعاملا بثقة زوجين أخفيا عن بعضهما أموراً كثيرة في هذه الحياة حتى لم يعد لديهما ما يقولانه .

كانت مكاتب الشركة مقفلة وغارقة في الظلام لأن اليوم عطلة ، لم يكن في الميناء المقفر سوى سفينة واحدة مراجلها مطفأة . وكان الحر المحتدم ينذر بهطول المطر ، أول أمطار السنة ، لكن شفافية الهواء وصمت الميناء الأحدي بديا وكأنهما من شهر لطيف . وكانت الدنيا من هناك أكثر فجاجة من ظلمة القمرة ، وكان قرع النواقيس أكثر ايلاماً دون معرفة لمن تقرع . نزل فلورينتينو اريثا والطفلة إلى فناء ملح البارود الذي استخدمه الاسبان فيما مضى كميناء للنخاسة وحيث مازالت بقايا المثقال وحدائد أخرى من تجارة الرقيق . كانت السيارة تنتظرهما في ظل الحانات ، ولم يوقظا السائق النائم فوق المقود إلى أن استقرا في مقعديهما . دارت السيارة من وراء الحانات المسيجة بشبكة معدنية كشباك أقنان الدجاج ، واجتازت الفراغ الذي كان يشغله في السابق سوق لاس اينماس ، حيث كانت جماعة من اليافعين شبه العراة يلعبون بالكرة ، وخرجت من الميناء النهري وسط زوبعة من الغبار الملتهب . كان فلورينتينو اريثا متأكداً أن التشريف الجنائزي لا يمكن أن يكون من أجل جيرميا دي سانت ـ آمور ، لكن الحاح النواقيس جعله يرتاب . وضع يده على كتف السائق وسأله لماذا تقرع الأجراس .

فقال السائق :

ـ أنها من أجل الطبيب المعروف... ما اسمه ؟

لم يكن على فلورينتينو اريثا أن يفكر بالأمر ليعرف من المقصود . ولكن سرعان ما غار الوهم الفوري حين روى له السائق كيف مات ، لأنه لم يجد الأمر محتملاً . فلا شيء يشبه الانسان كطريقة موته ، وليس من موت يبدو أقل شبهاً للرجل الذي تصوره من هذه الميتة . لكنه كان هو نفسه ، حتى ولو بدا الأمر غير معقول : فالطبيب الأكبر سناً والأكثر تأهيلاً في المدينة ، وأحد رجالها المرموقين لمشاركته في نشاطات أخرى كثيرة ، قد مات اثر تهشم نخاعه الشوكي ، عن احدى وثمانين سنة ، لدى سقوطه من شجرة مانغا وهو يحاول امساك ببغاء .

كل ما فعله فلورينتينو اريثا منذ زواج فيرمينا داثا ، كان يرتكز على أمل هذا الخبر . ولكن حين أزفت الساعة لم يشعر برعشة الانتصار التي كثيرا ما تصورها في أوقات أرقه ، وإنما أحس بضربة من مخلب الرعب : لقد رأى بوضوح عجيب أنه كان يمكن لهذه النواقيس أن تقرع لموته هو . وفزعت اميركا فيكونيا ، الجالسة إلى جواره في السيارة المتقافزة على الشوارع الحجرية ، لشحوبه وسألته عما أصابه . فأمسك فلورينتينو اريثا يدها بيده المتجمدة وتنهد قائلاً :

ـ آه يا صغيرتي . تلزمني خمسون سنة أخرى لأروي لك . نسي جنازة جيرميا دي سانت ـ آمور . وترك الصغيرة أمام باب المدرسة الداخلية واعداً إياها على عجل بالمجيء اليها يوم السبت القادم ، ثم أمر السائق بالتوجه إلى بيت الدكتور خوفينال اوربينو . وجد ازدحام سيارات وعربات أجرة في الشوارع المجاورة ، وحشداً من الفضوليين مقابل البيت فمدعوو الدكتور لاثيديس اوليفيا ، الذين تلقوا النبأ المشؤوم وهم في أوج الحفلة ، جاؤوا على عجل . ولم يكن التحرك في البيت سهلاً بسبب الازدحام ، لكن فلورينتينو اريثا تمكن من شق طريقه حتى غرفة النوم الرئيسية ، ورفع نفسه أعلى من المجموعة المحتشدة أمام الباب ، ورأى خوفينال اوربينو على

السرير الزوجي كما تمنى رؤيته مذ سمع باسمه لأول مرة ، محاطاً بوقار الموت . انتهى النجار حينئذ من أخذ المقاسات لصنع التابوت . وإلى جانبه ، بفستان الجدة حديثة الزواج الذي ارتدته للحفلة ، كانت تقف فيرمينا داثا منذهلة وكئيبة .

كان فلورينتينو اريثا قد تخيل تفاصيل تلك اللحظة منذ أيام شبابه ، حين كرس نفسه كلياً لقضية هذا الحب المتهور . فمن أجلها أحرز لقباً وثروة ، ومن أجلها عني بصحته وبمظهره الشخصي عناية لم تكن تبدو جديرة بالرجولة لأبناء عصره ، وانتظر ذلك اليوم كما لم يستطع أحد انتظار أحد أو شيء في هذا العالم : دون لحظة واحدة من التقاعس . ويقينه بأن الموت قد تدخل أخيراً لصالحه ، بث فيه الشجاعة التي كان يحتاجها ليكرر أمام فيرمينا داثا ، في ليلتها الأولى كأرملة ، يمين الولاء الأبدي وحبه الدائم .

لم ينف أمام نفسه بأن ما فعله كان عملاً طائشاً ، لا معنى له في هذا الوقت وهذه الطريقة ، وأنه قد تسرع لخوفه من أن لا تسنح له الفرصة ثانية . كان قد أعد ما يريده بطريقة أقل فظاظة ، لكن الحظ لم يسعفه بأحسن مما فعل . خرج من بيت العزاء متألماً لأنه تركها تعاني حالة الاضطراب التي كان يعانيها هو نفسه ، ولكنه لم يستطع عمل شيء لمنع ذلك عنها ، لأنه أحس بأن تلك الليلة الهمجية كانت مكتوبة منذ الأزل في قدرهما معاً .

لم يستطع النوم ليلة واحدة خلال الأسابيع التالية . كان يتساءل يائساً أين يمكن أن تكون فيرمينا داثا من دونه ، وبماذا تفكر ، وماذا ستفعل خلال السنوات المتبقية لها في الحياة بثقل الرعب الذي خلفه بين يديها . عانى من نوبة إمساك نفخت بطنه كطبل ، وكان عليه أن يلجأ إلى المسكنات الأكثر لطفاً من الحقن الشرجية . كما أن آلام الشيخوخة ، التي

كان يحتملها خيراً من معاصريه ، لأنه عرفها منذ شبابه ، هاجمته كلها دفعة واحدة . وعندما حضر إلى المكتب ، يوم الأربعاء ، بعد أسبوع من الغياب ، ارتعدت ليونا كاسياني لرؤيته على تلك الحالة من الشحوب والاسترخاء . لكنه طمأنها : إنه الأرق ثانية كالعادة ، وعاد يعض لسانه كي لا تفلت الحقيقة من ثقوب قلبه الكثيرة . ولم يمنحه المطر هدنة مشمسة ليفكر فقضى أسبوعاً لا واقعياً آخر ، دون قدرة على التركيز في شيء . وكان يأكل بشكل سيء وينام بطريقة أسوأ ، ويحاول تحسس اشارات مبهمة تهديه إلى سبيل الخلاص . لكن طمأنينة داهمته منذ يوم الجمعة بلا أية مبررات ، ففسرها على أنها نذير بأن شيئاً جديداً لن يحدث ، وأن كل ما فعله في الحياة كان بلا جدوى وليس لديه ما يتابع من أجله : انها النهاية . ومع ذلك ، فلدى وصوله يوم الاثنين إلى بيته في شارع لاس فينتاناس ، واصطدم برسالة مبللة بالماء المتجمع وراء الباب ، وتعرف من المغلف في الحال على الخط المتسلط الذي لم تستطع تبديله كل تَقَلّبات الحياة ، بل إنه أحس برائحة العطر الليلي لأزهار الياسمين الذابلة ، لأن قلبه حدثه بكل شيء منذ الرهبة الأولى : إنها الرسالة التي انتظرها ، دون لحظة راحة واحدة ، خلال أكثر من نصف قرن .

لم تتصور فيرمينا داثا أنه يمكن لفلورينتينو اريثا فهم تلك الرسالة التي دفعها الغضب لكتابتها على أنها رسالة حب . لقد ضمنتها كل السخط الذي استطاعته ، مستخدمة أقسى ما لديها من عبارات وإهانات جارحة ، وظالمة أيضاً ، ومع ذلك رأت أنها ضئيلة أمام حجم الاساءة . كانت الرسالة ذروة مرارة دامت أسبوعين ، وقد حاولت الوصول من خلالها إلى مصالحة مع وضعها الجديد . أرادت أن تعود إلى ذاتها ، وأن تسترد كل ما اضطرت للتخلي عنه خلال نصف قرن من العبودية التي كانت سعيدة بها دون شك . ولكن موت زوجها لم يترك لها أثراً من هويتها . كانت شبحاً في بيت غريب تحول بين يوم وآخر إلى بيت فسيح موحش ، وكانت هي تهيم فيه على غير هدى ، متسائلة بمرارة من هو الميت : أهو الذي مات أم هي التي بقيت على قيد الحياة .

ما كانت قادرة على تصريف احساس عميق بالغضب من الزوج الذي تركها وحيدة وسط بحر الظلمات . كان كل شيء من أشيائه يدفعها للبكاء : البيجاما التي تحت الوسادة ، والخف الذي كان يبدو لها دوماً وكأنه خف مريض ، وذكرى صورته المطبوعة في عمق المرآة وهو يخلع ملابسه فيما هي تسرح شعرها للنوم ، ورائحة بشرته التي ستبقى عالقة ببشرتها لوقت طويل

بعد موته . كانت تتوقف عن أي عمل تقوم به وتضرب جبهتها بكفها ، لأنها تذكرت فجأة شيئاً نسيت أن تخبره به ، وترد إلى ذهنها في كل لحظة الأسئلة اليومية الكثيرة التي لا يستطيع الاجابة عنها أحد سواه . لقد قال لها في أحد الأيام شيئاً لم تستطع تصوره : إن المبتورين يحسون آلاماً وخدراً ، ودغدغة في أرجلهم التي ما عادوا يمتلكونها . وهذا ما شعرت به هي من دونه... كانت تشعر بوجوده حيث لم يعد له من وجود .

لدى استيقاظها في ليلتها الأولى كأرملة ، تقلبت في السرير دون أن تفتح عينيها ، بحثاً عن وضع مريح لمتابعة النوم ، فكان أن مات بالنسبة لها في هذه اللحظة . إذ وعت حينئذ فقط بأنه قضى الليل لأول مرة خارج البيت . ثم كان انفعالها الآخر على المائدة ، ليس لشعورها بأنها وحيدة ، كما كانت فعلاً ، وإنما لقناعتها الغريبة بأنها تتناول الطعام مع شخص ما عاد موجوداً . وانتظرت قدوم ابنتها اوفيليا من نيو اورليانز ، مع زوجها وبناتها الثلاث ، كي تجلس من جديد إلى المائدة لتناول الطعام ، ولكنها لم تستخدم الطاولة المعتادة ، وانما مائدة مرتجلة ، أصغر حجماً ، أمرت بوضعها في الممر . ولم تكن حتى ذلك الحين قد أعدت وجبة نظامية ، بل كانت تمر من المطبخ في أي وقت ، حين تشعر بالجوع ، فتغرز الشوكة في القدر وتأكل قليلاً من كل شيء دون أن تضع الطعام في طبق ، وهي واقفة أمام الموقد ، تتحدث إلى الخادمات اللواتي كانت تشعر معهن وحدهن بأنها على ما يرام ، وتتفاهم معهن على أحسن وجه . ورغم كل محاولاتها ، لم تتمكن من تجنب حضور زوجها : فحيث ذهبت وحيث مرت ، ومهما فعلت ، كانت تصطدم بشيء من أشيائه يذكرها به . ومع أن ذلك الألم كان يبدو لها نبيلاً ولازماً ، إلا أنها كانت تريد عمل أي شيء أيضاً كي لا تتلذذ بالألم . وهكذا اتخذت قرارها الحاسم بإخراج كل ما يذكرها بالزوج الميت من البيت ، وهي الوسيلة الوحيدة التي خطرت لها كي تتمكن من مواصلة الحياة بدونه .

كانت عملية استئصال . وافق الابن على أخذ الكتب لتحول المكتب الى غرفة الخياطة التي لم تمتلكها أبداً وهي متزوجة . أما الابنة ، فأخذت بعض الأثاث وعدداً من الأشياء التي تبدو ملائمة جداً للبيع في مزاد العاديات في نيو اورليانز . كان هذا كله مهدئاً لفيرمينا داثا ، التي لم تر أية ظرافة في تحققها من أن ما اشترته في رحلة زفافها قد صار آثارا قديمة . وأمام الذهول الصامت للخادمات ، والجيران ، والصديقات المقربات اللواتي كن يأتين لمرافقتها في تلك الأيام ، أضرمت محرقة في أرض خلاء وراء البيت ، وأحرقت هناك كل ما يذكرها بزوجها : أكثر الملابس التي رأتها المدينة منذ القرن الماضي كلفة وأناقة ، وأكثر الأحذية دقة ، والقبعات التي تشبهه أكثر من صوره ، وكرسي القيلولة الهزاز الذي نهض عنه آخر مرة ليموت ، وأشياء لا تحصى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحياته وتشكل جزءاً من هويته . فعلت ذلك دون أي تردد ، وبيقين كامل في أن زوجها كان سيؤيد ذلك ، ليس لأسباب تتعلق بالوقاية الصحية فقط ، بل ولأنه كثيراً ما أعرب لها عن رغبته بأن تُحرق جثته ، وألا يحشر في الظلام دون أية فجوة في صندوق من خشب الأرز . إن دينه يمنع ذلك دون ريب : وكان بإمكانها أن تتجرأ على جس نبض الأسقف ، لترى وجهة نظره على أية حال ، وكان هذا سيرد عليها بجواب سلبي قاطع . فالأمر محض وهم ، لأن الكنيسة لا تسمح بإقامة أفران لإحراق الجثث في مقابرنا ، حتى ولو كانت تابعة لأديان غير الدين الكاثوليكي . كما أنه لم يخطر لأحد سوى خوفينال اوربينو جدوى بناء محارق كهذه لم تنس فيرمينا داثا رعب زوجها هذا ، بل إنها تذكرت في فوضى الساعات الأولى التي تلت موته أن تأمر النجار بترك ثغرة تسمح بدخول الضوء إلى التابوت .

كانت محرقة بلا جدوى على أي حال . فسرعان ما أدركت فيرمينا داثا أن ذكرى زوجها الميت كانت مقاومة للنار كمقاومتها لمرور الأيام على ما

يبدو . ورغم ذلك ، فإنها لم تحتفظ بعد إحراق الثياب بحنينها لكل ما أحبت فيه فقط ، وإنما أيضاً ، وقبل كل شيء ، لأكثر ما كان يزعجها : الضجة التي كان يثيرها عند استيقاظه . وقد ساعدتها هذه الذكريات على الخروج من أحراش الحداد . فاتخذت قراراً حاسماً بمتابعة الحياة ، متذكرة زوجها وكأنه لم يمت . كانت تعلم أن استيقاظها كل صباح سيكون صعباً ، ولكنه سيصبح أقل وطأة يوماً بعد يوم .

بدأت تلمح فعلاً ، عند انتهاء الأسبوع الثالث ، أول الأنوار . ولكن كلما ازدادت تلك الأنوار وأصبحت أشد وضوحاً ، كانت تعي أن في حياتها شبحاً مطعوناً لا يتركها لحظة بسلام . لم يكن الشبح المثير للشفقة الذي كان يترصدها في حديقة البشارة ، والذي اعتادت تذكره منذ شيخوختها بشيء من الرقة ، وإنما الشبح البغيض الذي يرتدي سترة الجلاد ويحمل قبعته مستندة الى صدره ، والذي أقلقتها سفاهته السخيفة إلى حد يستحيل عليها عدم التفكير به . لقد كانت مقتنعة دوماً ، منذ صدته وهي في الثامنة عشرة من عمرها ، بأنها تركت فيه بذرة حقد لم يفعل الزمن شيئاً سوى تنميتها . وكانت تحسب حساب هذا الحقد في كل لحظة ، وتشعر به في الهواء حين يكون الشبح قريباً منها ، وكانت مجرد رؤيته تقلقها وترعبها إلى حد أنها لم تجد أبداً أسلوباً طبيعياً للتعامل معه . وفي الليلة التي كرر فيها عرض حبه ، حين كانت أزهار زوجها الميت ما تزال تعبق في جو البيت ، لم تستطع أن تفهم تلك الحركة الخبيثة إلا كخطوة أولى من انتقام مشؤوم لا يعرف مداه أحد .

وقد فاقم الحاح ذكراه من غضبها . وحين استيقظت وهي تفكر به ، في اليوم التالي للدفن ، استطاعت محوه من ذاكرتها بإشارة بسيطة من ارادتها . لكن الغضب كان يعاودها دوماً ، وسرعان ما أدركت أن رغبتها في نسيانه كانت أقوى محرض لتذكره . حينئذ تجرأت لأول مرة ، في اذعانها للحنين

على استحضار ذكرى الزمان الوهمي لذلك الحب اللاواقعي . كانت تحاول أن تتذكر كيف كانت الحديقة بالضبط في ذلك الحين ، وكيف كانت أشجار اللوز المحطمة ، والمقعد الحجري الذي كان يحبها منه ، لأن شيئاً من هذا ما عاد موجوداً كما كان يومها . لقد تبدل كل شيء ، اذ استأصلوا الأشجار وسجادتها من الأوراق الصفراء ، وأقاموا مكان تمثال البطل مقطوع الرأس تمثالاً لشخص آخر يرتدي زي المراسم العسكري ، بلا اسم ولا تاريخ وبلا تفسير يبرر نصبه هناك ، على قاعدة فخمة وضعوا في جوفها لوحة مفاتيح التحكم بكهرباء الحي . أما بيتها ، الذي بيع أخيراً ، فقد كان يتهاوى خراباً بعد هذه السنوات الطويلة بين يدي الحكومة الاقليمية . ولم يكن من السهل عليها تصور فلورينتينو اريثا كما كان في ذلك الحين ، كما لم تكن قادرة على أن تصدق بأن ذلك الشاب المكفهر ، البائس جداً تحت المطر ، هو ذات الشيخ المنخور الذي وقف أمامها دون أي اعتبار لحالتها ، وبلا أي احترام لألمها ، وكوى روحها بإهانة لاهبة ما زالت تثقل على أنفاسها .

كانت ابنة الخال هيلديبراندا سانتشيث قد جاءت لزيارتها بعد وقت قصير من عودتها من مزرعة فلوريس دي ماريا ، وحين كانت تستجمع قواها من ساعة نحس الآنسة لينتش . لقد جاءت هيلديبراندا عجوزاً ، بدينة وسعيدة ، يرافقها ابنها البكر ، الذي أصبح عقيداً في الجيش ، مثل أبيه الذي تبرأ منه اثر تصرفه الدنيء في مجزرة عمال الموز في سان خوان دي لاثيناغا . كانت ابنة الخال وابنة العمة قد التقتا مرات عديدة ، وكانتا تقضيان الساعات دوماً وهما تحنان إلى الحقبة التي تعارفتا فيها . وقد كانت هيلديبراندا أكثر حنيناً في زيارتها الأخيرة مما كانت عليه في أي لقاء آخر ، وأكثر تأثراً بثقل الشيخوخة . وكتأكيد لحنينها ، أحضرت معها نسختها من الصورة التي التقطها لهما المصور البلجيكي مساء اليوم الذي وجه فيه الشاب خوفينال اوربينو طعنة الرحمة لارادة فيرمينا داثا . كانت نسخة هذه الأخيرة

من الصورة قد ضاعت ، بينما كانت نسخة هيلديبراندا غير واضحة المعالم ، لكنهما تعرفتا على نفسيهما من خلال غلالة الخيبة : شابتان وجميلتان كما لن تصبحا أبداً .

كان مستحيلاً ألا تتحدث هيلديبراندا عن فلورينتينو اريثا ، لأنها كانت تجد قدرها في قدره . وكانت تتذكره كما رأته يوم بعثت أولى برقياتها ، ولم تتمكن أبداً من أن تنزع من قلبها ذكراه كعصفور كئيب محكوم عليه بالنسيان . أما فيرمينا ، فقد رأته مرات ومرات ، دن أن تبادله الحديث طبعاً ، ولم تكن قادرة على أن تتصور أنه هو حبها الأول ذاته . لقد كانت تصلها على الدوام أخبار عنه ، مثلما تصلها عاجلاً أو آجلاً أخبار كل من له مكانة في المدينة . كان يقال بأنه لم يتزوج لأنه ذو عادات مختلفة ، ولكنها لم تول هذه الأقاويل اهتماماً أيضاً ، لأنها لم تهتم يوماً بالشائعات من جهة ، ولأنه كانت تقال أشياء مشابهة عن رجال كثيرين لا مجال للشك فيهم من جهة أخرى . وكانت تستغرب بالمقابل احتفاظ فلورينتينو اريثا بزيه الصوفي ، وعطره الغريب ، وبقائه غامضاً هكذا بعد أن شق سبيله في الحياة بطريقة جد استعراضية اضافة إلى كونها شريفة . ولم تكن لتصدق بأنه الشخص نفسه ، وكانت تفاجأ دائماً حين تتنهد هيلديبراندا قائلة : «يا للرجل المسكين ، كم تألم!» . اذ كانت تراه دون آلام منذ زمن بعيد : فهو شبح ممحو .

ومع ذلك ، فقد أصاب قلبها شي غريب ليلة التقت به في السينما ، بعد رجوعها من فلوريس دي ماريا . لم تفاجأ بخروجه مع امرأة ، وامرأة زنجية كذلك . لكن ما فاجأها هو أنه ما زال في حالة جيدة ، وأنه يتصرف بطلاقة شديدة ، ولم يخطر لها أن تفكر بأنها قد تكون هي ، وليس هو ، من طرأ عليه التبدل بعد دخول الآنسة لينتش العاصف في حياتها الخاصة . منذ ذلك الحين ، وخلال أكثر من عشرين سنة ، تابعت رؤيته بعينين أكثر اشفاقاً .

وفي ليلة السهر على زوجها الميت لم يبد لها وجوده هناك أمراً مفهوماً وحسب ، بل رأت فيه النهاية الطبيعية للاحقاد : تصرف ينم عن العفو والنسيان . ولهذا لم تكن تتوقع اعادة المأساوية لعرض حب لم تشعر بوجوده يوماً ، وفي سن لم يبق لفلورينتينو اريثا ولها فيها من شيء ينتظرانه من الحياة .

بقي غضب الوهلة الأولى القاتل بكامل زخمه بعد الإحراق الرمزي للزوج ، وراح ينمو ويتشعب أكثر فأكثر كلما شعرت بأنها أقل قدرة في السيطرة عليه . بل وأكثر من ذلك : ففراغات الذاكرة التي تتمكن من اخلائها بإقصاء ذكرى الميت منها ، كان يحتلها شيئاً فشيئاً ، ولكن باصرار ، مرجُ البرقوق الذي كانت ذكرى فلورينتينو اريثا مدفونة فيه . وهكذا كانت تفكر فيه دون أن تحبه ، وكلما فكرت فيه أكثر ازداد غضبها عليه ، وكلما ازداد غضبها منه كانت تفكر فيه أكثر ، إلى أن أصبح شيئاً لا يطاق وطفح به ذهنها . حينئذ جلست إلى طاولة زوجها الميت ، وكتبت إلى فلورينتينو اريثا رسالة من ثلاث صفحات متهورة ومشحونة بالسباب والاستفزازات الشنيعة ، التي هدأت من روعها لاقترافها بذلك أحط فعلة في حياتها الطويلة .

لقد كانت تلك الأسابيع الثلاثة بالنسبة لفلورينتينو اريثا أيضاً أسابيع احتضار . ففي الليلة التي كرر فيها عرض حبه على فيرمينا داثا هام على غير هدى في الشوارع المخربة بطوفان المساء ، متسائلاً بفزع ما الذي سيفعله بجلد النمر الذي انتهى من قتله بعد أن قاوم حصاره لأكثر من نصف قرن . كانت المدينة تعيش حالة طوارئ بسبب عنف الأمطار . وفي بعض البيوت كان ثمة رجال ونساء شبه عراة يحاولون انقاذ ما يشاؤه الله من وسط الطوفان ، أحس فلورينتينو اريثا بأن لتلك الكارثة الجماعية علاقة ما بكارثته الشخصية . لكن الهواء كان وديعاً وكانت نجوم الكاريبي ساكنة في

مواقعها . وفجأة ، كما في سكون أزمنة أخرى ، تعرف فلورينتينو اريثا على صوت الرجل الذي كان قد سمعه وليونا كاسياني يغني مرات كثيرة ، في مثل هذه الساعة وعند الناصية نفسها : من الجسر رجعت مبللاً بالدموع . أغنية كان لها ، بالنسبة له فقط ، علاقة ما بالموت في تلك الليلة .

لم يشعر يوماً بالحاجة إلى ترانسيتو اريثا كما شعر يومئذ ، كان بحاجة لكلمتها الحكيمة ، ورأسها كملكة سخرية متوجة بأزهار ورقية . ولم يستطع الحيلولة دون ذلك : فكلما وجد نفسه في خضم الكارثة ، أحس بحاجته إلى الانزواء في كنف امرأة . وهكذا مر من أمام مدرسة المعلمات بحثاً عمن هن في متناول يده ، ورأى نوراً ينبعث من نافذة اميركا فيكونيا . وقد اضطر للقيام بمجهود كبير كي لا يقدم على حماقة جدّ هرم باخراجها في الساعة الثانية فجراً ، وهي دافئة بالحلم بين اقمطتها ، ورائحة المهد ماتزال تفوح منها .

في الطرف الآخر من المدينة كانت ليونا كاسياني ، وحيدة وحرة . ومستعدة دون ريب لأن تقدم له الحنان الذي يحتاجه سواء أكان الساعة الثانية ، أو الثالثة فجراً ، أو أي ساعة أخرى . ولم تكن المرة الأولى التي يدق بابها في أرقه المقفر ، لكنه أحس بأنها ذكية إلى حد بعيد ، وأنهما يحبان بعضهما كثيراً ، بحيث لا يمكنه الذهاب للبكاء في حضنها دون أن يفضي لها بالسبب . وبعد تفكير طويل ، سار مسرعاً في المدينة المقفرة ، وخطر له بأنه لن يجد بينهن خيراً من بروديثيا بيترا : أرملة الرب . كانت أصغر منه بعشر سنوات . وكانا قد تعارفا في القرن الماضي ، واذا كانا لا يلتقيان منذ زمن فلأنها أصرت ألا تسمح لأحد بأن يراها وهي في الحال الذي صارت اليه : شبه عمياء ، وعلى حافة الشيخوخة فعلاً . وما أن تذكرها فلورينتينو اريثا حتى عاد إلى شارع لاس فينتاناس ، ودس في حقيبة المشتريات زجاجتي نبيذ وقطرميز مخلل ، ومضى لزيارتها دون أن يدري إن كانت

ماتزال في بيتها نفسه ، أو اذا كانت وحدها ، أو اذا كانت ماتزال على قيد الحياة .

لم تكن برودينثيا بيترا قد نسيت اشارة الخمش على الباب ، التي كان يُعرف بها على نفسه حين كانا يظنان أنهما مايزالان شابين على الرغم من أنهما لم يكونا كذلك ، وفتحت له دون أسئلة . كان الشارع مظلماً ولم يكن هو مرئياً ببدلته السوداء وقبعته القاتمة ومظلة الخفاش المعلقة بذراعه ، كما لم تكن لعينيها القدرة على رؤيته إلا في وضح الضوء ، لكنها تعرفت عليه من انعكاس وميض عمود النور على اطار نظارته المعدني . كان يبدو كقاتل مازالت يداه ملطختين بالدم .

قال :

ـ المأوى ليتيم بائس .

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استطاع قوله . وفوجئ بكم هرمت مذ رآها لآخر مرة ، وكان مدركاً بأنها تراه كذلك . ولكنه عزّى نفسه بالتفكير بأنهما بعد دقيقة ، وحينما يستعيدان أنفاسهما من أثر الوهلة الأولى ، سيلاحظ كل منهما أقل فأقل آثار السن في الآخر ، وسيعودان ليريا بعضهما أكثر شباباً ، كما كان كل منهما بالنسبة للآخر عندما تعرفا .

قالت له :

ـ تبدو وكأنك ذاهب إلى جنازة .

ولقد كان كذلك . كما أنها وقفت هي أيضاً إلى النافذة منذ الساعة الحادية عشرة ، مثلما فعل جميع أهل المدينة تقريباً لرؤية مرور أكثر المواكب حشداً وفخامة منذ موت الأسقف دي لونا . لقد أيقظتها من النوم أصوات المدافع التي كانت تهز الأرض ، واختلاط فرق الموسيقى العسكرية ، وفوضى الأغاني الجنائزية التي تعلو على ضجة نواقيس جميع الكنائس المدوية دون توقف منذ اليوم السابق . وقد رأت من شرفتها العسكريين

وهم يمرون على صهوات جيادهم بزي المراسم ، والهيئات الدينية ، وتلامذة المدارس ، وسيارات السلطات اللامرئية الطويلة السوداء ، وعربة الدفن الفاخرة التي تجرها خيول رؤوسها مزينة بالريش وسروجها بالذهب ، والتابوت الأصفر المغطى بالعلم فوق عربة مدفع تاريخية ، وأخيراً مجموعة عربات الفيكتوريا القديمة المكشوفة التي مازالت على قيد الحياة لحمل أكاليل المآتم . وبعد حوالي نصف ساعة من مرورهم أمام شرفة بروديثنيا بيترا ، انهمر المطر طوفاناً ، وتفرق الموكب في كل الأنحاء .

قالت :

- يا لها من طريقة سخيفة في الموت .

فقال :

- ليس في الموت ما هو مضحك - ثم أضاف بحزن - : وخصوصاً في مثل سننا .

كانا يجلسان على المصطبة ، مقابل البحر الفسيح ، يتأملان القمر المحاط بهالة تحتل نصف السماء ، ويرنوان إلى الأضواء الملونة المنبعثة من السفن في الأفق ، وينعمان بالنسيم الدافئ والعطر بعد العاصفة . كانا يشربان النبيذ ويأكلان المخلل مع قطع من الخبز القروي الذي اقتطعته بروديثيا بيترا من رغيف في المطبخ . لقد أمضيا معاً ليالي كثيرة مثل هذه الليلة بعد أن أصبحت أرملة وبلا أولاد وهي في الخامسة والثلاثين من العمر . لقد التقاها فلورينتينو اريثا في حقبة كانت مستعدة فيها لاستقبال أي رجل يرغب بمرافقتها ، حتى لو استأجرته بالساعة ، وتمكنا من إقامة علاقة أكثر جدية وأطول أمداً مما بدا ممكناً .

وعلى الرغم من أنها لم تلمح للأمر أبداً ، إلا أنها كانت مستعدة لأن تبيع روحها للشيطان في سبيل الزواج منه في زفاف ثان . كانت تعلم أن الخضوع لشحه ليس سهلا ، وكذلك الاذعان لحاجاته كشيخ مبكر ، ولأوامره

المخبولة ، وجشعه في طلب كل شيء دون اعطاء أي شيء . ولكنها لم تكن تجد بالمقابل رجلا يمكن العيش معه في هذه الدنيا خيراً منه ، لأنه لا وجود في الدنيا لرجل آخر فقير مثله إلى الحب لهذا الحد . لكن لم يكن هناك في الوقت ذاته من هو أكثر تقلباً منه ، اذ لم يكن يمكن للحب أن يصل إلى أبعد مما كان يصل اليه : إلى حيث لا يؤثر في قراره بالاحتفاظ بحريته من أجل فيرمينا داثا . ومع ذلك ، استمرت علاقتهما سنوات طويلة ، حتى بعد أن رتب أمر زواج برودينثيا بيترا ثانية من وكيل تجاري كان يستقر ثلاثة شهور في المدينة ثم يقضي ثلاثة شهور أخرى مرتحلا ، وأنجبت منه ابنة واحدة وأربعة أبناء ، كان أحدهم ، حسب زعمها ، من فلورينتينو اريثا .

تحادثا دون احساس بالوقت ، لأنهما كانا معتادين على مشاطرة بعضهما سهاد شبابهما ، وكان ما سيخسرانه في سهاد الشيخوخة أقل بكثير . ورغم أن فلورينتينو اريثا ما كان يتجاوز الكأس الثانية حين يشرب ، إلا أنه لم يستعد أنفاسه يومها رغم تناوله الكأس الثالثة . كان يتعرق بغزارة ، وقالت له أرملة الرب أن يخلع سترته ، أن يخلع صدريته ، بنطاله ، أن يخلع كل ما يشاء ، اللعنة ، فهما في نهاية المطاف يعرفان بعضهما عاريين خيراً من معرفتهما بالملابس . وقال أنه سيفعل ذلك إن هي فعلت ، لكنها لم تقبل : لقد رأت نفسها منذ زمن في مرآة الخزانة ، وأدركت فجأة أن الشجاعة لن تواتيها للظهور عارية أمامه أو أمام سواه .

وفي حالة الهيجان التي لم يستطع فلورينتينو اريثا تهدئتها بأربع كؤوس من النبيذ ، تابع الحديث عن الماضي ، عن ذكريات الماضي الطيبة موضوع حديثه الوحيد منذ زمن بعيد ، لكنه كان يتشوق للعثور على طريق سريّ في الماضي ليغرق نفسه فيه . كان هذا هو ما يحتاجه : أن يقذف روحه من فمه . وحين أحس بأول بريق في الأفق حاول الاقتراب من الموضوع مداورة ، فسألها بطريقة بدت عرضية : «ماذا تفعلين اذا ما عرض أحدهم عليك

الزواج ، هكذا كما أنت ، أرملة وفي هذه السن ؟ » . ضحكت ضحكة مجعدة كعجوز ، وسألت بدورها :

ـ أتعني بهذا أرملة اوربينو ؟

كان فلورينتينو اريثا ينسى دائماً ، حين لا يحب النسيان ، أن النساء يفكرن بالمعنى الخفي للأسئلة أكثر من تفكيرهن بالأسئلة ذاتها ، وتفعل بروديثيا بيترا ذلك أكثر من سواها . قال لها وقد أحس بأنه وقع ضحية ريح مباغتة نتيجة تسديده الطائش : « إنني أعنيك أنت بهذا » . فعادت تضحك : « اذهب واسخر من العاهرة أمك ، ليرحمها الله » . ثم ألحت عليه ليصارحها بما يريد أن يقوله ، لأنها تعلم أنه لا يمكن له ولا لأي رجل آخر أن يوقظها في الثالثة فجراً ، بعد الانقطاع عنها كل هذه السنوات ، ليشرب النبيذ ويأكل الخبز القروي مع المخلل فقط . قالت : « لا يحدث هذا إلا لمن يبحث عمن يود البكاء معه » . ارتعش فلورينتينو اريثا ثانية ، وقال لها :

ـ انك مخطئة هذه المرة . فأسباب مجيئي الليلة يناسبها الغناء .

فقالت :

ـ فلنغن اذن .

بدأ يدندن بصوت لابأس به الأغنية الدارجة : رامونا ، لا أستطيع العيش بدونك . وكان في ذلك نهاية تلك الليلة ، اذ أنه لم يعد يجرؤ على لعب ألعاب محرمة مع امرأة قدمت له أدلة كافية في معرفة الوجه الآخر للقمر . خرج الى مدينة مختلفة تعبق برائحة أزهار الداليا الأخيرة لشهر حزيران ، وسار في شارع من شوارع شبابه حيث تمر الأرامل في العتمة وهن خارجات من صلاة الساعة الخامسة . وكان هو الذي انتقل الى الرصيف الآخر هذه المرة ، وليس هن ، كي لا يرين دموعه التي ما عاد يطيق حبسها ، ليس منذ منتصف الليل ، كما كان يظن ، لأن هذه الدموع كانت دموعاً أخرى : إنها التي غص بها منذ حوالي إحدى وخمسين سنة وتسعة شهور وأربعين يوماً .

كان قد فقد الاحساس بالزمن حين استيقظ دون أن يدري المكان الذي هو فيه مقابل نافذة مضيئة . ونقله الى الواقع صوت اميركا فيكونيا التي كانت تلعب بالكرة مع الخادمات في الحديقة... إنه في سرير أمه التي مازالت حجرة نومها على حالها ، حيث اعتاد النوم كي لا يشعر بالوحدة في المناسبات القليلة التي أقلقته فيها العزلة . وكانت تنتصب مقابل السرير مرآة مطعم دون سانتشو الضخمة ،والتي كانت رؤيتها عند استيقاظه كافية لجعله يرى فيرمينا داثا مرسومة فيها . عرف أن اليوم هو السبت ، لأنه اليوم الذي يُحضر فيه السائق اميركا فيكونيا من المدرسة الداخلية ، ويأتي بها الى بيته . وانتبه الى أنه قد نام دون أن يدري ، حالما أنه غير قادر على النوم ، في حلم يعذبه فيه وجه فيرمينا داثا الغاضب . استحم وهو يفكر كيف ستكون الخطوة التالية ، وارتدى أفضل ملابسه على مهل ، وتعطر وصمغ شاربه الأبيض ذا الطرفين المدببين ، ولدى خرجه من حجرة النوم ، رأى من ممر الطابق الثاني البنية الجميلة ذات الزي المدرسي وهي تمسك الكرة في الهواء بالسحر الذي بعث فيه القشعريرة لآحاد كثيرة ، لكنها لم تبعث فيه هذا الصباح أي قلق . أشار لها بأن تأتي معه ، وقبل أن يصعدا الى السيارة قال لها دون داعٍ للقول : «لن نفعل أشياء هذا اليوم» . ورافقها الى المقهى الأميركي للمثلجات ، الذي كان يغص في مثل هذه الساعة بآباء يتناولون البوظة مع أطفالهم تحت المراوح ذات الرياش الكبيرة المعلقة بالسقف . طلبت اميركا فيكونيا بوظة من عدة طبقات متنوعة الألوان في كأس كبير ، وهو النوع الذي تفضله ، والذي يلقى رواجاً شديداً لأن بخاراً سحرياً كان ينبعث منه . تناول فلورينتينو اريثا قهوة قوية ، وهو يتأمل الطفلة دون أن يتكلم فيما هي تتناول البوظة بملعقة طويلة جداً ، تصل الى قاع الكأس . ثم قال لها فجأة ، دن أن يتوقف عن مراقبتها :

- سأتزوج .

نظرت الى عينيه نظرة مرتابة ، وهي ترفع الملعقة في الفضاء ، لكنها استعادت أنفاسها فوراً ، وابتسمت قائلة :

ـ إنها خدعة . فالشيوخ لا يتزوجون .

أوصلها مساء هذا اليوم الى المدرسة الداخلية عند موعد صلاة الانخيلوس ، تحت وابل من المطر العنيد ، بعد أن رأيا معاً دمى الحديقة ، وتناولا الغداء في أكشاك السمك المقلي عند ملطم الأمواج ، وبعد أن رأيا أقفاص الحيوانات المفترسة التابعة لسيرك وصل يومئذ الى المدينة ، واشتريا من الأزقة كل أنواع الحلوى لتحملها معها الى المدرسة الداخلية ، وبعد أن جابا المدينة عدة مرات بالسيارة المكشوفة لتبدأ الاعتياد عليه باعتباره ولي أمرها ، وليس عشيقاً لها . وفي يوم الأحد التالي بعث اليها السيارة لتقوم اذا كانت ترغب بنزهة مع صديقاتها ، لكنه لم يشأ رؤيتها ، لأنه وعى منذ الأسبوع الفائت وعياً كاملاً فارق السن بينهما . وفي هذه الليلة بالذات قرر أن يكتب الى فيرمينا داثا رسالة اعتذار ، حتى ولو كان ذلك لمجرد عدم الاستسلام ، لكنه أجل الأمر لليوم التالي ، وفي يوم الاثنين ، بعد ثلاثة أسابيع كاملة من الآلام ، دخل الى بيته مبللاً بالمطر ، ووجد رسالتها .

كانت الساعة الثامنة ليلاً . وكانت فتاتا الخدمة قد نامتا ، تاركتين الضوء الوحيد الذي يبقى مضاء في الممر ليتمكن فلورينتينو اريثا من الوصول الى حجرة نومه . كان يعلم أن عشاءه البسيط موجود على طاولة حجرة الطعام ، لكن الجوع الذي كان يشعر به بعد كل هذه الأيام من الأكل العشوائي تلاشى بانفعال الرسالة . ووجد صعوبة في اضاءة نور حجرة النوم الرئيسي لارتعاش يديه . وضع الرسالة المبللة على السرير ، وأضاء مصباح الكوميدينو ، ثم خلع سترته المبللة بهدوء مصطنع ، هو من أساليبه في طمأنة نفسه ، وعلقها على مسند الكرسي ، ثم نزع الصدرية ووضعها بعد طيها جيداً فوق السترة ، وحل شريط العنق الحريري الأزرق والياقة القاسية التي ما

عادت تستعمل في العالم ، وفك أزرار القميص حتى الخصر ثم حل الحزام ليتنفس براحة ، ونزع القبعة أخيراً ووضعها الى جوار النافذة لتجف ، ارتعش فجأة لأنه لم يدر أين هي الرسالة ، ووصل به الانفعال حداً جعله يفاجأ حين وجدها ، فهو لا يذكر بأنه وضعها على السرير . وقبل أن يفتحها جفف المغلف بمنديل ، محاذراً ألا يمسح الحبر المكتوب به اسمه ، وفيما هو يفعل ذلك انتبه الى أن ذلك السر لم يعد مشتركاً بين اثنين فقط ، وانما بين ثلاثة على الأقل ، فلا بد أن حامل الرسالة ، كائناً من كان ، قد انتبه الى أن أرملة اوربينو تكتب لشخص من خارج عالمها ولما تمض على وفاة زوجها سوى ثلاثة أسابيع ، وأنها تفعل ذلك بتسرع لم يتح لها ارسال الرسالة بالبريد ، وبتكتم شديد جعلها تطلب عدم تسليمها باليد ، وانما دسها من تحت الباب كما لو كانت رسالة من مجهول . لم يكن بحاجة الى تمزيق المغلف ، لأن الماء حلل صمغه ، لكن الرسالة كانت جافة : ثلاث ورقات ، دون ترويسة ، موقعة بالحروف الأولى من اسمها كمتزوجة .

قرأها أول مرة بسرعة وهو جالس على السرير ، مستسلماً للهجتها أكثر من تمعنه بمضمونها ، وقبل أن ينتقل الى الصفحة الثانية كان متأكداً من عدالة الشتائم التي انتظر تلقيها . وضعها مفتوحة تحت ضوء مصباح الكوميدينو ، ونزع حذاءه والجوربين المبللين ، ثم أطفأ نور الحجرة الرئيسي بمفتاح الكهرباء المجاور للباب ، وضع على وجهه غطاء الشوارب المصنوع من الشمواه واستلقى دون أن يخلع بنطاله والقميص ، مسنداً رأسه الى وسادتين كبيرتين كان يستخدمهما كمسند حين يقرأ . وهكذا أعاد قراءة الرسالة حرفاً حرفاً ، مدققاً في كل حرف كي لا تبقى أية نية من نواياها الخفية دون حل . ثم قرأها أربع مرات أخرى ، الى أن تشبع بها وأصبحت الكلمات المكتوبة تفقد معناها . بعد ذلك خبأ الرسالة دون المغلف في درج الكوميدينو ، واستلقى شابكاً يديه على عنقه ، وثبت نظره أربع

ساعات في المرآة حيث كانت هي ، دون أن يرمش ، ودون أن يتنفس تقريباً ، وكان أكثر موتاً من ميت . وعند منتصف الليل تماماً خرج الى المطبخ ، فأعد ترمس قهوة كثيفة كالبترول الخام ، وحمله الى حجرة نومه ، وألقى بأسنانه الاصطناعية في كأس الماء الممزوج بمطهر البورون الذي كان يجده بانتظاره دوماً فوق الكوميدينو ، وعاد ليستلقي بوضعية تمثال المرمر السابقة مع حركة محدودة بين وقت وآخر لارتشاف بعض القهوة ، وبقي على هذه الحال الى أن دخلت الخادمة في الساعة السادسة وهي تحمل ترمساً آخر مليئاً بالقهوة .

في هذه الساعة كان فلورينتينو اريثا قد عرف تماماً كل خطوة من خطواته التالية . الحقيقة أن الشتائم لم تسبب له الألم كما لم تقلقه الاتهامات الجائرة ، التي كان يمكن لها أن تكون أقسى نظراً لمعرفته طبع فيرمينا داثا وخطورة السبب . الشيء الوحيد الذي كان يهمه هو الرسالة ذاتها لأنها تتيح له الفرصة وتعترف له بحق الرد عليها . بل وتتطلب ذلك منه . وهكذا وصلت الحياة الى الحد الذي أراد ايصالها اليه . وكل ما سوى ذلك يعتمد عليه الآن . كان مقتنعاً قناعة راسخة أن جحيمه الخاص المستمر منذ نصف قرن سيقدم له مزيداً من التجارب القاتلة الكثيرة التي أصبح مستعداً لمواجهتها بحماسة أشد ومعاناة أصلب وحب أقوى من كل ما فات ، لأنها ستكون التجارب الأخيرة .

بعد خمسة أيام من تلقيه رسالة فيرمينا داثا ، ولدى وصوله الى مكاتب شركته ، أحس بأنه يطفو في الفراغ الوعر وغير المألوف لآلات الكتابة ، اذ أن ضجيجها المطري لم يكن ملحوظاً كصمتها . كانت وقفة قصيرة . وحين عاد الضجيج من جديد أطل فلورينتينو اريثا الى مكتب ليونا كاسياني وتأملها وهي جالسة وراء آلتها الكاتبة ، التي تستجيب لرؤوس أصابعها وكأنها اداة بشرية . فأحست هي بأنها مراقبة ، ونظرت نحو الباب

بابتسامتها الشمسية المذهلة ، لكنها لم تتوقف عن الكتابة حتى نهاية الفقرة .

سألها فلورينتينو اريثا :

ـ أخبريني يا لبوة روحي . بماذا تشعرين اذا تلقيت رسالة حب مكتوبة على هذه الأداة ؟

وبدت عليها ، هي التي لم تفاجأ بشيء ، علائم مفاجأة حقيقية ، وهتفت :

ـ يا للرجل! لم يحدث لي شيء من هذا القبيل .

لم تجد جواباً آخر على الأقل . ولم يكن فلورينتينو اريثا قد فكر بالأمر حتى ذلك الحين ، لكنه قرر المضي بالمغامرة الى نهايتها . نقل الى بيته إحدى آلات المكتب وسط سخرية مرؤوسيه المتوددة : «لا يمكن لببغاء عجوز أن تتعلم الكلام» . وعرضت عليه ليونا كاسياني ، المتحمسة لكل جديد ، أن تعطيه دروساً بالكتابة على الآلة في البيت . لكنه كان ضد التعليم المنهجي مذ أراد لوتاريو توغوت تعليمه عزف الكمان على النوتة ، متوعداً بأنه سيحتاج لسنة على الأقل كي يبدأ ، وخمس سنوات ليُقبل في فرقة اوركسترا محترفة ، وحياته كلها ، بمعدل ست ساعات يومياً ليعزف بشكل جيد . ولكنه استطاع رغم ذلك اقناع أمه بأن تشتري له كمان عميان ، ومن خلال القواعد الأساسية الخمس التي علمه إياها لوتاريو توغوت ، تجرأ على العزف ضمن كورال الكتدرائية قبل مضي أقل من سنة وعلى عزف السيرنادات لفيرمينا داثا من مقبرة الفقراء حسب اتجاه الريح . فاذا كان قد فعل ذلك وهو في العشرين بآلة صعبة كالكمان ، فلماذا لا يستطيعه أيضاً وهو في السادسة والستين بآلة لا تحتاج إلا لاصبع واحد كآلة الكتابة .

وهذا ما فعله ، احتاج لثلاثة أيام كي يتعرف على مواقع الحروف على لوحة الملامس ، وستة أيام ليتعلم التفكير في الوقت الذي يكتب فيه ، ثم

لثلاثة أيام أخرى لينهي الرسالة الأولى دون أخطاء ، بعد أن مزق نصف ماعون من الورق . بدأ الرسالة بمطلع وقور : سيدتي . ووقعها بالحروف الأولى من اسمه ، كما اعتاد أن يفعل في رسائل الحب المعطرة في شبابه . بعثها بالبريد ، في مغلف خاص برسائل التعزية كما هو محتم في رسالة مرسلة إلى أرملة حديثة الترمل ، بدون كتابة اسم المرسل على الوجه الآخر للمغلف .

كانت رسالة في ست ورقات لا علاقة لها بأي رسالة من رسائله السابقة . لم تكن لها النبرة ، ولا الأسلوب ولا النَفَس الخطابي الذي كان يتمتع به في سنوات الحب الأولى ، بل كانت عقلانية ومتقنة التأمل ، لو خالطتها رائحة زهرة ياسمين لبدت غير لائقة . لقد كانت الى حد ما ، اقتراباً من الرسائل التجارية التي لم يستطع كتابتها أبداً .

ان رسالة شخصية مكتوبة بوسائل آلية ستعتبر أمراً مهيناً بعد سنوات ، أما في ذلك الحين ، فكانت الآلة الكاتبة ماتزال مجرد حيوان مكتبي ، بلا فلسفة خاصة بها ، ولم يكن تدجينها للاستخدامات الخاصة وارداً في مناهج التمدن . وكانت تبدو كصرعة جريئة ، ولا بد أن فيرمينا داثا قد فهمت الأمر كذلك ، لأنها حين كتبت رسالتها الثانية الى فلورينتينو اريثا ، بعد أن تلقت منه ما يزيد عن الأربعين رسالة ، بدأت بالاعتذار لعثرات خطها ، لكونها لا تملك وسائط كتابة أحدث من قلم الحبر ذي الريشة الفولاذية .

لم يشر فلورينتينو اريثا مجرد اشارة الى الرسالة الرهيبة التي بعثتها اليه ، بل جرب منذ البداية منهجاً مختلفاً في الغواية ، دون أية اشارة الى غراميات الماضي ، أو الماضي بحد ذاته : شطب كل ما سبق وفتح صفحة جديدة . كانت الرسالة أشبه بتأمل مسهب في الحياة ، يستند الى أفكاره وتجاربه في العلاقات بين الرجل والمرأة ، التي فكر بكتابتها يوماً كملحق متمم لسكرتير العاشقين . ولم يفعل حينئذ سوى صياغة تلك التأملات

بأسلوب بطريركي ، لذكريات شيخ ، كي لا تظهر بوضوح حقيقة كونها رسالة حب . لقد كتب قبل ذلك عدة مسودات على الطريقة القديمة ، قد تتأخر في قراءتها ببرودة أعصاب أكثر مما تتأخر في القائها الى النار . كان يعلم أن أي زلة في الاشارة الى الماضي ، أو الى أي طيش في الحنين قد يثير في قلبها ترسبات قديمة ، ومع أنه كان يشعر بأنها ستعيد اليه مئة رسالة قبل أن تتجرأ على فتح الرسالة الأولى ، إلا أنه تمنى ألا يحدث ذلك ولو مرة واحدة . هكذا وضع مخططه بكل تفاصيله كما في معركة حاسمة : كل شيء يجب أن يكون مختلفاً ليبعث فضولات جديدة ، ووساوس جديدة وآمالاً جديدة ، في امرأة عاشت حياة كاملة على اتساعها . لا بد له من جعل الأمر حلماً لا معقولاً ، قادراً على منحها الشجاعة الكافية لتلقي الى القمامة بأعراف طبقة لم تكن هي طبقتها الأصلية ، ولكنها انتهت الى الاندماج فيها وجعلها طبقتها أكثر من أي طبقة أخرى . كان عليه أن يعلمها التفكير بالحب على أنه حالة غير وسيطة لأي شيء ، بل هو منشأ ومستقر بحد ذاته .

لقد كان من القناعة بحيث أنه لم يعد ينتظر رداً فورياً ، بل اكتفى بألا تعاد اليه الرسالة . ولم تعد ، كما لم تعد الرسالة التالية . وكلما مرت الأيام كانت أشواقه تتأجج ، وكلما ازدادت الأيام التي تمر كانت آماله بالرد تزداد . كان تواتر رسائله مشروطاً بمهارة أصابعه : بدأ برسالة واحدة في الأسبوع أول الأمر ، ثم رسالتين ، الى أن تمكن أخيراً من كتابة رسالة في كل يوم . ولقد أثلج صدره التطور الذي حققه البريد بالمقارنة مع زمانه ، حين كان يعمل رافع أعلام ، لأنه لم يكن مستعداً للمغامرة بالظهور في مكتب البريد كل يوم كي يبعث رسالته الى الشخص ذاته ، ولا لارسالها مع أحد قد يحصيها عليه . أما الآن ، فمن السهل ارسال موظف ليشتري الطوابع البريدية لشهر بكامله ، ثم القاء الرسالة في واحد من صناديق جمع الرسائل الثلاثة الموزعة في المدينة القديمة . وسرعان ما أدخل تلك المهمة في

روتينه اليومي : كان ينتهز ساعات أرقه ليكتب ، وأثناء ذهابه الى المكتب في اليوم التالي ، يطلب من السائق التوقف لحظة أمام صندوق بريد معلق عند ناصية أحد الشوارع ، فينزل بنفسه ويلقي الرسالة فيه . لم يسمح للسائق أبداً القيام بهذا العمل بدلا منه ، رغم أنه طلب ذلك في صباح يوم ماطر . وصار يحتاط أحياناً فيرسل مجموعة رسائل في الوقت ذاته بدلا من رسالة واحدة ، كي يبدو الأمر أكثر طبيعية . ولم يكن السائق يعلم بكل تأكيد ، أن الرسائل الأخرى ليست إلا أوراقاً بيضاء يبعثها فلورينتينو اريثا بنفسه لنفسه ، لأنه لم يكن يرتبط بمراسلة خاصة مع أحد باستثناء تقريره الذي يبعثه كوصي في أواخر كل شهر الى والديّ اميركا فيكونيا ويضمنه انطباعاته الشخصية حول سلوك الصغيرة ، ومعنوياتها وصحتها ، وتقدمها المطرد في الدراسة .

أخذ يرقم الرسائل منذ الشهر الأول ، وصار يبدأها بملخص للرسائل السابقة كما هي الحال في روايات الصحف المسلسلة ، خشية ألا تنتبه فيرمينا داثا إلى أن الرسائل مترابطة ببعضها إلى حد ما . وحين أصبحت الرسائل يومية ، استبدل مغلفات الحداد التي كان يستخدمها بمغلفات بيضاء وطويلة ، مما منحها مظهر الرسائل التجارية الغامض والمتواطئ . حين بدأ يبعث برسائله كان مستعداً لاخضاع صبره لتجربة أكبر ، الى أن يجد على الأقل دليلا قاطعاً على أنه يضيع وقته بهذا الأسلوب الوحيد الذي استطاع تصوره . وانتظر فعلاً دون الاحساس بالقلق الذي كان يسببه له الانتظار في شبابه... انتظر بعناد شيخ اسمنتي ليس لديه ما يفكر فيه ولا ما يفعله في شركة ملاحة نهرية كانت تبحر وحدها في ذلك الحين مدفوعة برياح مواتية ، اضافة الى يقينه بأنه سيكون حياً في الغد ، آجلاً أو آبداً ، حين تقتنع فيرمينا داثا أخيراً بأنه لا علاج لجزعها كأرملة متوحدة إلا بانزال جسور حصنها له .

وتابع أثناء ذلك حياته المعتادة . متهيئاً لتلقي ردٍّ إيجابي . بدأ بأعمال ترميم جديدة في البيت ليكون جديراً بمن يمكن اعتبارها صاحبته وسيدته منذ تم شراؤه . وتردد عدة مرات على بروديثيا بيترا ، كما وعدها ، ليثبت لها بأنه يحبها رغم آثار السن ، في وضح النهار ، وليس في ليالي خذلانه فقط . وتابع المرور مقابل بيت اندريه بارون الى أن وجد نور الحمام مطفأ ، وحاول تخدير نفسه في حماقة من حماقات السرير كي لا يفقد قدرته على الحب ، حسب خرافة أخرى من خرافاته التي لم يجد ما ينقضها حتى ذلك الحين ، والقائلة بأن الجسد يستمر ما دام صاحبه مواظباً .

كانت علاقته باميركا فيكونيا هي العائق الوحيد . لقد ثابر على ارسال السائق لاحضارها من المدرسة الداخلية في الساعة العاشرة من صباح أيام الآحاد ، لكنه لم يكن يدري ما الذي يفعله بها خلال عطلة نهاية الأسبوع . ولقد أحست بالتغير حين لم يبدِ اهتماماً بها في المرة الأولى . كان يعهد بها للخادمات كي يرافقنها الى السينما المسائية ، ولمشاهدة الدمى المتحركة في حديقة الأطفال ، وإلى اليانصيبات الخيرية ، أو يدعوها الى برامج آحاد احتفالية مع زميلات أخريات لها من المدرسة كي لا يضطر لمرافقتها الى الجنة السرية وراء المكاتب ، حيث كانت تود الذهاب دوماً مذ أخذها هناك أول مرة . ولم ينتبه وهو في غيبوبة حلمه الجديد ، الى أن النساء قد يصبحن راشدات في ثلاثة أيام ، بينما انقضت ثلاث سنوات منذ استقبلها في بويرتوبادري حين جاءت في السفينة الشراعية المزودة بمحرك . وبرغم كل محاولاته لاضفاء الحلاوة على الوضع الجديد ، إلا أن التبدل الذي طرأ كان قاسياً بالنسبة لها ، لكنها لم تستطع تصور سبب هذا التبدل . يوم قال لها في مقهى المثلجات أنه سيتزوج ، كاشفاً لها بذلك عن الحقيقة ، عانت صدمة ذعر عابرة ، لكن الأمر بدا لها بعد ذلك احتمالاً لا معقولاً ما لبثت أن نسيته تماماً . لكنها سرعان ما أيقنت أنه يتصرف كما لو كان ذلك صحيحاً ،

بمراوغة لا تفسير لها ، وكما لو لم يكن أكبر منها بستين سنة ، وانما أصغر منها بستين سنة .

وفي مساء أحد أيام السبت ، وجدها فلورينتينو اريثا وهي تحاول الكتابة على الالة الكاتبة في غرفة نومه ، وكانت تفعل ذلك بشكل لابأس به ، اذ أنها تتلقى في المدرسة دروساً في الضرب على الآلة الكاتبة . كانت قد كتبت ما يزيد على نصف صفحة ، وكان من السهل افراز عبارة من بعض الفقرات تكشف عن حالتها المعنوية . انحنى فلورينتينو اريثا فوق كتفها ليقرأ ما تكتبه ، فاختجلت بحرارته الرجولية ، ونفسه المتقطع ، وعطر ملابسه ، الذي هو عطر وسادته ذاته . لم تعد تلك الطفلة حديثة الوصول التي كان يعريها من ثيابها قطعة قطعة بخدع أطفال : هذا الحذاء أولا للدب ، ثم هذه البلوزة للكلب ، ثم هذا السروال الداخلي المزين بالأزهار للأرانب... والآن قبلة حلوة سيطبعها البابا على هذه الحمامة الصغيرة . لا : إنها الآن امرأة مكتملة الأنوثة تحب أن تمسك زمام المبادرة . واصلت الكتابة باصبع واحدة من يدها اليمنى ، وبحثت باليد اليسرى عن ساقه باللمس... استكشفته ، ووجدته ، وأحست به ينبعث ، ينمو ، يتنهد بشوق ، فتعثر تنفسه كشيخ وصار ثقيلاً . كانت تعرفه : فمنذ هذه اللحظة سيفقد السيطرة على نفسه... ستتفكك مفاصله... سيصبح تحت رحمتها ، ولن يجد سبيلاً للرجوع قبل أن يصل الى النهاية . قادته من يده الى السرير ، كما تقود ضريراً بائساً في الشارع ، وعرته من ثيابه قطعة قطعة برقة خبيثة ، رشت ملحاً لذوقه ، وبهاراً ذا رائحة ، وفص ثوم ، وبصلة مفرومة ، وعصير ليمونة ، وورقة غار ، الى أن تبلته تماماً في الصينية وجهزت الفرن بدرجة الحرارة المناسبة . لم يكن في البيت أحد ، فالخادمات خرجن ، وعمال البناء والنجارين الذين كانوا يرممون البيت لا يشتغلون أيام السبت : كان العالم بأسره لهما . لكنه خرج من غيبوبته وهو على شفير الهاوية ، فأزاح يدها ونهض قائلاً بصوت مرتعش :

ـ حذار ، لا يوجد هنا موانع للحمل :

بقيت مستلقية في الفراش لوقت طويل ، وهي غارقة في التأمل ، وحين رجعت الى المدرسة الداخلية ، قبل ساعة من الموعد ، كانت قد تجاوزت الرغبة بالبكاء ، وركزت حاسة شمها وشحذت أظافرها لتجد آثار الأرنبة البرية المختفية التي قلبت لها حياتها رأساً على عقب . أما فلورينتينو اريثا ، فقد أقدم بالمقابل على ارتكاب خطأ آخر من أخطاء الرجال : ظن بأنها قد اقتنعت بعدم جدوى نواياها وقررت نسيانه .

كان غارقاً في شؤونه . وحين لم يتلق أية اشارة ، بعد مرور ستة شهور ، وجد نفسه يتقلب في السرير حتى الفجر ، تائهاً في صحراء أرق مختلف . كان يفكر بأن فيرمينا داثا قد فتحت الرسالة الأولى لمظهرها البريء ، وتمكنت من رؤية المطلع المعروف لها من رسائل أخرى غابرة ، وألقت بها في محرقة القمامة دون أن تتكلف مشقة تمزيقها . وكان يكفيها أن ترى مغلف الرسائل التالية لتحكم عليها بالمصير نفسه دون أن تفتحها ، وهكذا حتى نهاية الأزمان ، فيما هو يصل الى نهاية تأملاته المكتوبة . لم يكن يصدق بأن هناك امرأة قادرة على مقاومة فضول نصف سنة من الرسائل دون أن تعرف حتى لون الحبر الذي كتبت به . ولكن اذا كان من وجود لامرأة من هذا النوع ، فلا يمكن الا أن تكون هي وحدها .

بدأ فلورنتينو اريثا يشعر بأن زمن الشيخوخة ليس تياراً أفقياً ، وانما خزاناً مثقوب القعر تتسرب منه الذاكرة . كانت قريحته تُستنفد . وبعد عدة أيام من التجوال في حي لامانغا ، أدرك أن ذلك الأسلوب الشبابي لن يتمكن من تحطيم الأبواب المحكومة بالحداد . وفي صباح أحد الأيام ، وبينما هو يبحث عن رقم في دليل الهاتف ، وجد مصادفة رقمها . اتصل بها . ورن الجرس مرات كثيرة ، وأخيراً تعرف على الصوت ، جدياً وأبح : « من ؟ » . أعاد وضع السماعة دون أن يتكلم ، لكن البعد اللانهائي لذلك الصوت الغائم أعاد التماسك لمعنوياته .

في أحد هذه الأيام ، احتفلت ليونا كاسياني بعيد ميلادها ، ودعت مجموعة محدودة من الأصدقاء الى بيتها ، كان هو ساهياً فلوث ملابسه بصلصة الدجاج . غمست طرف الفوطة في كأس الماء ومسحت طية سترته ، ثم وضعت له الفوطة كمريلة لتحول دون وقوع حادث أكبر : فبدا كرضيع هرم . ولاحظت أنه نزع نظارته عدة مرات خلال تناول الطعام ليمسحها بالمنديل ، لأن عينيه كانتا تدمعان . وعند تناول القهوة ، غفا وهو يحمل الفنجان بيده ، فحاولت انتزاع الفنجان دون ايقاظه ، لكنه أفاق خجلا : «كنت أريح بصري فقط» . وقد نامت ليونا كاسياني تلك الليلة مذهولة وهي تفكر كيف أن الشيخوخة أخذت تبدو عليه بوضوح .

في الذكرى الأولى لموت خوفينال أوربينو ، بعثت أسرته بطاقات دعوة لصلاة على ذكراه في الكتدرائية . كان فلورنتينو اريثا قد بعث في ذلك الحين الرسالة رقم مئة واثنتين وثلاثين دون أن يتلقى أي رد ، وهذا ما دفعه الى اتخاذ القرار الطائش بحضور الصلاة رغم أنه لم يكن مدعواً . لقد كان حدثاً اجتماعياً باذخاً أكثر من كونه ذكرى مؤثرة . كانت مقاعد الصفوف الأولى محجوزة لورثة الألقاب الكبيرة ، وكانت على قفا كل مقعد لوحة نحاسية تحمل اسم صاحبه . حضر فلورنتينو اريثا مع أول الضيوف ليجلس في مكان لا يمكن لفيرمينا داثا أن تمر دون أن تراه . وفكر بأن أفضل المقاعد ، بعد الأماكن المحجوزة ، هي مقاعد القسم الأوسط ، لكن عدد الحضور كان كبيراً لدرجة أنه لم يجد مكاناً هناك أيضاً ، فاضطر للجلوس في الصف المخصص للأخوة الفقراء . ومن هناك رأى فيرمينا داثا تدخل ممسكة بذراع ابنها . كانت ترتدي ثوباً مخملياً أسود يصل الى معصميها ، ولا وجود فيه لأية حلية سوى مجموعة من الأزرار المتتالية من العنق وحتى القدمين ، فكان يبدو أشبه برداء قسيس ، وكانت تضع ياقة ذات تخريمات قشتالية بدلاً من القبعة ذات الخمار التي تستخدمها الأرامل ، وكثير من السيدات اللواتي يأملن بأن

يصبحن أرامل . كان لوجهها السافر بريق كبريق المرمر المعرق ، وكانت عيناها الرمحيتان تعيشان حياة خاصة تحت الثريات الضخمة في ممر الكتدرائية الأوسط ، كانت تمشي باستقامة ، وكبرياء ، وسيطرة تامة على نفسها ، حتى أنها لم تكن لتبدو أكبر سناً من ابنها . استند فلورنتينو اريثا ، الواقف ، بأطراف أصابعه على المقعد الذي أمامه الى أن مرت الاغماءة التي أحس بها مرور الكرام ، فقد شعر بأن المسافة الفاصلة بينهما ليست سوى ست خطوات كما هي في الواقع ، وانما هما في يومين مختلفين .

احتملت فيرمينا داثا طقوس الحفل في المقعد العائلي مقابل المذبح الكبير ، ممضية معظم الوقت وهي واقفة ، مثلما كانت تفعل عند حضورها حفلات الأوبرا . لكنها حطمت طقوس المراسم الدينية في النهاية ، ولم تبق في مكانها لتتلقى تجديد العزاء ، كما هي التقاليد السائدة ، وانما شقت طريقها لتشكر كل واحد من المدعوين : انها لفتة تجديدية تتفق تماماً مع أسلوبها في الحياة . صافحت الموجودين هنا وهناك الى أن وصلت الى مقاعد الأقارب الفقراء ، ثم التفتت أخيراً فيما حولها لتتأكد من أنها لم تنس أحداً تعرفه . أحس فلورينتينو اريثا حينئذ أن ريحاً غير مألوفة قد أخرجته من جوه : لقد رأته . وفعلاً ، ابتعدت فيرمينا داثا عن مرافقيها بطلاقتها التي تتصرف بها في المجتمع ، ومدت له يدها ، وقالت بابتسامة شديدة الرقة :

ـ شكراً لحضورك .

لم تكن قد تلقت الرسائل وحسب ، بل انها قرأتها كذلك باهتمام بالغ ، ووجدت فيها أسباباً جدية للتأمل والاستمرار في الحياة . كانت تجلس الى المائدة لتناول الفطور مع ابنتها حين تلقت الرسالة الأولى . فتحتها بفضول لكونها مكتوبة على الآلة الكاتبة ، واتقدت وجنتاها بتورد سريع حين تعرفت على الحروف الأولى من اسم صاحب التوقيع . لكنها سيطرت على نفسها في الحال وخبأت الرسالة في جيب مريلتها . قالت : «انها رسالة

تعزية من الحكومة» . فوجئت الابنة : «ولكنها وصلت كلها» . فلم تتأثر هي : «وهذه واحدة أخرى» . كانت تنوي احراق الرسالة فيما بعد ، بعيداً عن أسئلة ابنتها ، لكنها لم تستطع مقاومة اغراء القاء نظرة عليها قبل ذلك . كانت تتوقع رداً جديراً برسالتها المليئة بالاهانات ، والتي سببت لها ضيقاً منذ لحظة ارسالها ، ولكنها حين رأت مطلع الرسالة التوقيري ونوايا الفقرة الأولى ، ادركت أن شيئاً قد تبدل في الدنيا . سيطر عليها الذهول لدرجة انها حبست نفسها في غرفة النوم لتقرأها بهدوء قبل احراقها ، وقرأتها ثلاث مرات دون أن تلتقط أنفاسها .

كانت الرسالة تتضمن تأملات حول الحياة ، والحب ، والشيخوخة ، والموت : أفكار طالما مرت مرفرفة كعصافير ليلية فوق رأسها ، لكنها كانت تقذفها بنثارة ريش كلما حاولت امساكها . وها هي الآن واضحة ، بسيطة ، تماماً كما كانت تحب أن تقولها . وتألمت مجدداً لأن زوجها ليس حياً لتناقشها معه ، كما اعتادا أن يناقشا بعض الأمور اليومية قبل النوم . وهكذا تكشف لها فلورينتينو اريثا مجهولاً ، ذا بصيرة لا تتفق مع رسائل الحب المحمومة في شبابه ولا مع سلوكه الغامض طوال حياته . كانت أقرب الى كلمات الرجل الذي بدا للعمة اسكولاستيكا بأنه ملهم بالروح القدس ، فعاد هذا الخاطر ليفزعها كما أفزعها في المرة الأولى . وكان أكثر ما ساعد في تهدئتها على أي حال هو يقينها بأن رسالة الشيخ الحكيم تلك ليست محاولة لتكرار سفاهة ليلة المأتم ، وانما طريقة جد نبيلة لمحو الماضي .

وجاءت الرسائل التالية لتبعث فيها الطمأنينة . لكنها أحرقتها على أي حال بعد أن قرأتها باهتمام متزايد ، على الرغم من أنها كلما أحرقت الرسائل كانت تشعر برواسب احساس بالذنب ماتلبث أن تزيحها . وحين بدأت تتلقى الرسائل مرقمة ، وجدت ذريعة أخلاقية لرغبتها في وقف اتلافها . لقد كانت نيتها الأولية ، على أية حال ، عدم الاحتفال بالرسائل لذاتها ، وانما

لانتظار أن تسنح فرصة لاعادتها الى فلورينتينو اريثا كي لا يفقد شيئاً يبدو لها أنه ذو قيمة انسانية . ولكن الوقت كان يمضي والرسائل تتوالى ، واحدة كل ثلاثة أو أربعة أيام خلال سنة كاملة ، ولم تعرف كيف تعيدها دون أن يبدو ذلك على أنه صد من جانبها ما عادت ترغب في القيام به ، ودون أن تجد نفسها مضطرة لشرح الأمر في رسالة يمنعها كبرياؤها من كتابتها .

كانت تلك السنة كافية لأن تعتاد على حياتها كأرملة . ولم تعد ذكرى الزوج النقية تشكل عائقاً أمام أعمالها اليومية ، وتحول حضوره في أفكارها الحميمة ، وفي أبسط نواياها إلى حضور حارس ، يراقبها دون أن يزعجها . وكانت تجده أحياناً ، ليس كرؤيا ، وانما بلحمه وعظمه ، حيث تحتاج اليه حقاً . كان اليقين يلهمها بأنه هنا ، مايزال حياً ، انما دون نزواته كرجل ، دون طلباته البطريركية ، دون الحاجة المضنية لأن تحبه بنفس طقوس القبلات غير المناسبة والكلمات الرقيقة التي يحبها بها . كانت تفهمه حينئذ أفضل مما فهمته وهو حي ، فهمت قلق حبه ، واستعجاله للعثور فيها على الأمن الذي كان يبدو أنه ركيزة حياته العامة ، والذي لم يحصل عليه في الواقع أبداً . ففي أحد الأيام ، صرخت به وهي في قمة يأسها : «ألا تشعر كم أنا تعيسة» . فنزع نظارته بحركة من صميم حركاته ، دون أن يتأثر ، وأغرقها بماء عينيه الصبيانيتين الصافي ، وألقى على كاهلها ثقل حكمته الذي لا يطاق بعبارة واحدة : «تذكري دائماً أن أهم شيء في زواج جيد ليس هو السعادة وانما الاستقرار» . ومنذ أيام عزلتها الأولى كأرملة أدركت أن تلك العبارة لا تخفي التهديد المسكين الذي نسبته اليها يوم قالها ، وانما هي الحجر القمري الذي خصص لهما معاً ساعات طويلة من السعادة .

كانت فيرمينا داثا ، في رحلاتها الكثيرة عبر العالم ، تشتري كل جديد يلفت نظرها . كانت ترغب الأشياء لانطباعها الأولي وكان زوجها يشاركها منطقها . ولقد كانت تلك الأشياء جميلة ونافعة ما دامت في بلدها المنشأ ،

في واجهات روما ، وباريس ، ولندن ، أو في نيويورك ذلك الزمان المهتزة بالشارلستون ، حيث بدأت ناطحات السحاب بالنمو ، لكنها لا تحتمل تجربة فالسات شتراوس مع شحم الخنزير القاسي ومعارك الزهور في درجة حرارة تصل الى الأربعين في الظل . وهكذا كانت ترجع من رحلاتها ومعها نصف دستة من الصناديق المعدنية البراقة ، المزودة بأقفال وزوايا نحاسية ، تشبه نعوشاً خيالية . فتجد نفسها صاحبة وسيدة آخر عجائب الدنيا التي لم تكن مع ذلك تساوي ثمنها ذهباً إلا في اللحظة السريعة التي يراها فيها أحد من عالمها المحلي لمرة واحدة . اذ أنها مشتراة لهذا الغرض : كي يراها الآخرون مرة واحدة . لقد وعت لا جدوى صورتها العامة قبل أن تبدأ بالشيخوخة بزمن طويل ، وكثيراً ما سُمعت تقول في البيت : «لا بد من التخلي عن كل هذه التفاهات التي لا تترك مكاناً للمعيشة» . وكان الدكتور اوربينو يسخر من نواياها العقيمة ، لأنه يعرف أن الأماكن الشاغرة لن تفيد إلا لملئها من جديد . لكنها كانت تصر على موقفها ، لأنه لم يكن يوجد في الواقع مكان لأي شيء جديد . ولم يكن يوجد في أي مكان شيء صالح لشيء ، كالقمصان المعلقة على مقابض الأبواب أو المعاطف الشتوية الأوروبية المدسوسة كيفما اتفق في خزائن الطبخ . وهكذا فإنها كانت تنهض في صباح أحد الأيام بمعنويات عالية لتلقي إلى الأرض كل ما في الخزائن ، وتفرغ الصناديق ، وتجرد غرف المهملات ، وتعلنها حرباً على أكوام الملابس التي شوهدت بما يكفي ، والقبعات التي لم تلبسها أبداً لأنها لم تجد فرصة مناسبة أثناء شيوع موضتها ، والأحذية التي كان يحاكي بها فنانو أوروبا أحذية الامبراطورات في حفلات تتويجهن ، والتي كانت تقابل هنا باحتقار الآنسات النبيلات لأنها تشبه تماماً الأحذية التي تشتريها الزنجيات من السوق لاستخدامها في البيت . وتبقى الشرفة الداخلية للبيت في حالة طوارئ خلال فترة الصباح كلها ، ويصبح التنفس في البيت أمراً شاقاً

بفعل الرائحة الحادة لكرات النفتالين . لكن الهدوء ما يلبث أن يعم بعد ساعات قليلة ، اذ أنها ترق لكل هذا الحرير المبعثر على الأرض ، وكل هذا البروكار الفائض مع بقايا الحرير المخرم ، كل ذيول الثعالب الزرقاء هذه المحكومة بالمحرقة .

وكانت تقول :

ـ إن احراقها ، بينما هناك أناس كثيرون لا يجدون ما يأكلونه ، هو خطيئة .

وهكذا كانت عملية الاحراق تتأجل... لقد تأجلت دوماً ، وكل ما في الأمر هو أن أماكن الأشياء كانت تتبدل ، فتنتقل من مواقع الامتياز إلى الحظائر القديمة التي تحولت إلى مستودع للتصفيات ، بينما تبدأ الأماكن التي أخليت بالامتلاء من جديد ، كما كان يقول هو بالضبط ، إلى أن تفيض بأشياء تعيش لحظة زهو ثم تمضي لتموت في الخزائن ، ريثما يحين موعد التصفية التالية . كانت تقول : «يجب ابتداع ما يمكن عمله بالأشياء التي لم تعد نافعة لشيء والتي لا يمكن الالقاء بها كذلك» . انها هكذا : ترتعد للنهم الذي تغزو به الأشياء أماكن المعيشة ، محتلة مكان البشر ، وزاجة بهم في الزوايا ، إلى أن تضعها فيريمنا داثا حيث لا تبدو للعيان ، لم تكن امرأة مرتبة اذن كما يشاع عنها ، وانما كان لديها منهج خاص ويائس لتبدو كذلك : انها تخفي الفوضى . ولقد اضطروا يوم وفاة خوفينال اوربينو إلى افراغ نصف محتويات المكتب ، وتكويم الأشياء في غرف النوم ليجدوا مكاناً يسهرون فيه على الميت .

مرور الموت من البيت جاء بالحل . فما إن أحرقت فيرمينا داثا ملابس زوجها ، حتى لاحظت أن نبضها لم يرتعش ، فتابعت بالنبض ذاته ايقاد المحرقة بين فترة وأخرى ، ملقية اليها بكل شيء ، القديم والجديد ، دون أن تفكر بحسد الأغنياء ولا بآلام الفقراء الذين يموتون جوعاً . ثم أمرت أخيراً

بقطع شجرة المانغا من جذورها حتى لا يبقى أي أثر من آثار المحنة ، وأهدت الببغاء حية إلى متحف المدينة الجديد . وعندئذ فقط تنفست حسب رغبتها في بيت كالبيت الذي حلمت به دوماً : فسيح وبسيط ولها وحدها .

أقامت ابنتها اوفيليا معها ثلاثة شهور ثم رجعت الى نيو اورليانز . وكان الابن يأتي مع أسرته لتناول غداء عائلي أيام الآحاد ، وكلما أتيح له ذلك خلال أيام الأسبوع . وبدأت صديقات فيرمينا داثا المقربات يزرنها بعد اجتيازها أزمة الحداد ، ويلعبن معها الورق مقابل الفناء المقفر ، ويجربن اعداد أصناف جديدة من الطعام ، ويطلعنها على أخبار الحياة الخفية للعالم الجشع الذي مازال قائماً من دونها . ومن أكثرهن مواظبة على زيارتها كانت لوكريثيا دل ريال دل اوبيسبو ، وهي أرستقراطية على الطريقة القديمة ، كانت تربطها بها صداقة متينة من قبل ، وقد تقربت منها أكثر بعد وفاة خوفينال اوربينو . ولم تكن لوكريثيا دل ريال المخدرة بالتهاب المفاصل والساخطة على حياتها السيئة ، خير رفيقة لها وحسب ، بل إنها كانت تستشيرها حول المشاريع التمدنية والدنيوية التي يجري الاعداد لها في المدينة ، مما يجعلها تشعر بقيمتها لنفسها وليس لظل زوجها الحامي ، على الرغم من أنها لم ترتبط به أبداً كارتباطها به حينئذ ، فقد نزعوا عنها اسمها الذي كانوا ينادونها به دوماً ، لتصبح أرملة اوربينو .

لم تكن فيرمينا داثا قادرة على تصور الأمر ، لكنها كلما اقتربت من الذكرى الأولى لوفاة زوجها ، كانت تشعر بأنها تلج عالماً ظليلاً ورطباً وساكناً : انها الايكة التي لا مخرج منها . لم تكن واعية حينئذ ، كما لن تعي لعدة سنوات ، كم ساعدتها التأملات التي كان يكتبها فلورينتينو اريثا على استعادة سلامها الروحي . فالرسائل ، بمطابقتها مع تجاربها ، هي التي أتاحت لها فهم حياتها بالذات ، واعانتها على انتظار تقدم الشيخوخة وباطمئنان وهدوء . وقد كان اللقاء في ذكرى وفاة الزوج فرصة دبرتها

العناية الالهية لافهام فلورينتينو اريثا بأنها هي أيضاً وبفضل رسائله المشجعة ، كانت مستعدة لمحو الماضي .

بعد يومين من ذلك ، تلقت منه رسالة مختلفة : مكتوبة بخط اليد على ورق مسطر ، واسمه الكامل موضح على المغلف . كان الخط هو خط رسائل الشباب الأولى نفسه ، والعبارات الغنائية نفسها ، مسبوكة في مقطع شكر بسيط لاهتمامها بمصافحته في الكتدرائية . وبقيت فيرمينا داثا تفكر بها بحنين قَلِقٍ بعد عدة أيام من قراءتها ، حتى أنها سألت لوكريثيا دل ريال دل اوبيسبو ، دون أي مناسبة ، اذا ما كانت تعرف فلورينتينو اريثا ، صاحب السفن النهرية . وأجابت لوكريثيا أن نعم : « يبدو أنه شاذ ضائع » . وأعادت سرد الرواية المتداولة بأنه لم يعرف امرأة أبداً رغم انطلاقته الطيبة ، وأن له مكتباً سرياً يأخذ اليه الصبية الذين يلاحقهم ليلاً على أرصفة الميناء . كانت فيرمينا داثا قد سمعت هذه الأسطورة منذ أمد بعيد ، لكنها لم تصدقها يوماً ولم تولها أي اهتمام . أما حين سمعت لكريثيا دل ريال دل اوبيسبو ، التي أشيع عنها يوماً أنهاذات أمزجة غريبة ، ترددها بهذه القناعة ، لم تستطع مقاومة رغبتها بوضع الأمور في نصابها . فروت لها بأنها كانت تعرف فلورينتينو اريثا منذ الصغر . وذكرتها بأنه أمه كانت تملك دكان خردوات في شارع لاس فينتاناس ، وأنها كانت تشتري كذلك القمصان الشراشف القديمة لتنسل خيوطها وتبيعها كقطن طوارئ أثناء الحرب الأهلية . وختمت حديثها بقول صحيح : « انه رجل شريف ، كون نفسه بنفسه » . كانت محتدة احتدادا دفع لوكريثيا لأن تسحب ما قالته : « ثم انهم في آخر المطاف يقولون عني أنا أشياء مشابهة » . لم يكن لدى فيرمينا داثا فضول لتسألها عن تلك الأشياء لأنها كانت تقوم بدفاع مؤثر عن رجل لم يكن أكثر من ظلٍ في حياتها . تابعت التفكير فيه ، وخصوصاً حين كانت تصلها رسالة منه وبعد مضي أسبوعين من الصمت ، أيقظتها احدى الخادمات من قيلولتها لتهمس لها منذرة :

ـ سيدتي ، ها هو دون فلورينتينو هنا .

ها هو هنا . كانت ردة فعل فيرمينا داثا الأولى صدمة ذعر . وفكرت أن لا ، فليرجع في يوم آخر ، وانها ليست قادرة على استقباله ، وأنه ليس لديها ما تتحادث وإياه به . لكنها استردت انفاسها في الحال وأمرت بادخاله إلى الصالة تقديم القهوة له ريثما تستعد لمقابلته . كان فلورينتينو اريثا ينتظر عند الباب الخارجي ، متقداً تحت شمس الساعة الثالثة الجهنمية ، ولكنه كان مسيطراً تماماً على أعصابه وممسكاً الأعنة بقبضته . فهو موقن من أنها ستعتذر اعتذاراً لطيفاً عن استقباله ، وكان يقينه هذا يمنحه الطمأنينة . لكن القرار الذي نُقل اليه هزه حتى النخاع ، وعند دخوله الى عتمة الصالة الرطبة ، لم يتسع له الوقت للتفكير بالمعجزة التي يعيشها ، لأن أحشاءه امتلأت بانفجار رغوة مؤلمة . جلس حابساً أنفاسه ، تحاصره ذكرى ذرق العصفور المشؤوم على رسالته الغرامية الأولى ، وبقي متجمداً في العتمة ريثما تفارقه القشعريرة ، مستعداً لتقبل أي نكبة قد تلحق به في هذه اللحظة ، باستثناء تلك المحنة الظالمة .

لقد كان يعرف نفسه جيداً : ويعلم أنه برغم اصابته بالامساك المزمن ، إلاأن أمعاءه قد خانته في أماكن عامة ثلاث أو أربع مرات خلال حياته الطويلة ، ولم يجد بداً من الاستسلام لجسده في تلك المرات الثلاث أو الأربع . وكان يرى في هذه المناسبات فقط وفي مناسبات أخرى شديدة الحرج ، حقيقة العبارة التي يحب ترديدها مازحاً : «أنا لا أومن بالرب ، ولكنني أخشاه» . ولم يكن له حينئذ متسع للشك ، فحاول تلاوة أي صلاة يذكرها ، لكنه لم يجد شيئاً في ذاكرته . لقد علمه زميل له ، حين كان طفلاً ، بضع كلمات سحرية لاصابة العصافير بحجر «تك تاك تك تاك ، ان لم أصبك سأدوخك» وقد جربها حين ذهب إلى الجبل لأول مرة حاملاً مقلاعاً جديداً ، فهوى العصفور مصعوقاً . وأعاد العبارة بحرارة كحرارة الصلاة ، لكنه لم يصل

إلى النتيجة ذاتها . ثارت أحشاؤه بحركة ملتوية وكأن فيها محوراً محلزناً رفعه عن مقعده ، وانبعثت قرقرة من رغوة بطنه المتعاظمة الكثافة والألم ، تركته مغطى بعرق مثلج . ارتعدت الخادمة التي حملت اليه القهوة لسيماء الميت التي بدت عليه . فتنهد قائلاً : «انه الحر» . فتحت النافذة معتقدة أنها تُسعده بذلك ، لكن شمس الأصيل لفحت وجهه ، مما اضطرها لاغلاقها من جديد . أحس بأنه عاجز عن الاحتمال دقيقة أخرى حين ظهرت فيرمينا داثا وهي لا تكاد تُرى في العتمة ، وارتعدت لرؤيته على هذا الحال ، فقالت له :

ـ يمكنك خلع السترة .

لكن ما كان يؤلمه أكثر من التواءات المغص القاتلة هو خوفه من أن تتمكن من سماع قرقرة أحشائه . واستطاع الصمود لحظة قال فيها ان لا ، وأنه إنما جاء ليسأل متى يمكنها استقباله فقط . فقالت وهي ماتزال واقفة وقد أصابها الذهول : «هاأنتذا هنا» . ودعته للدخول إلى شرفة الفناء حيث الحر أقل . فرفض بصوت بدا لها وكأنه تنهدة أسف :

ـ أرجوك أن تؤجلي اللقاء ليوم غد .

تذكرت أن يوم غد هو الخميس ، يوم الزيارة المنتظمة للوكريثيا دل ريال دل اوبيسبو ، لكنها عرضت له حلاً نهائياً : «بعد غد الساعة الخامسة» . شكرها فلورينتينو اريثا ، وأشار لها بحركة وداع متعجلة بقبعته ، وانصرف دون أن يتذوق القهوة . بقيت حائرة في وسط الصالة ، دون أن تفهم ما الذي حدث ، إلى أن سمعت فرقعة السيارة في الشارع . بحث فلورينتينو اريثا حينئذ عن الوضع الأقل ألماً في مقعد السيارة الخلفي ، وأغمض عينيه وأرخى عضلاته ، واستسلم لمشيئة الجسد . وأحس حينئذ وكأنه يولد من جديد . أما السائق ، الذي لم يعد يفاجأ بشيء بعد عمله لسنوات طويلة في خدمته ، فقد حافظ على عدم تأثره . لكنه حين فتح باب السيارة أمام البيت ، قال له :

ـ حذار يا دون فلورو ، قد تكون الكوليرا .

لكن الأمر كان كالمعتاد . ولقد حمد فلورينتينو اريثا الله يوم الجمعة في الساعة الخامسة تماماً ، حين قادته الخادمة عبر الصالة المظلمة إلى شرفة الفناء ، ووجد فيرمينا داثا جالسة وراء طاولة معدة لشخصين . عرضت عليه أن يتناول الشاي أو الشوكولاته أو القهوة ، فطلب فلورينتينو اريثا قهوة ، ساخنة جداً وقوية جداً . وأمرت هي الخادمة قائلة : «ولي الشراب المعتاد» . الشراب المعتاد هو شراب قوي محضر من تشكيلة متنوعة من الشاي الشرقي ، يساعدها في رفع معنوياتها بعد القيلولة . حين انتهت من تناول ابريق الشاي ، وانتهى هو من ابريق القهوة ، كانا قد خاضا واجتازا عدة موضوعات ، ليس لأنها كانت تهمهما كثيراً ، وانما لتجنب الدخول في المسائل الأخرى التي لم يكن أي منهما ليتجرأ على ملامستها . كان كل منهما مرتعداً ، لا يعرف ما الذي يفعلانه بعيداً عن شبابهما ، على شرفة بلاطها كرقعة الشطرنج في بيت ليس ملكهما ولا يزال يعبق برائحة أزهار الميت . انهما يجلسان معاً للمرة الأولى ، لا تفصل بينهما سوى هذه المسافة الضيقة ، ولديهما فائض من الوقت ليريا بعضهما بهدوء بعد نصف قرن من الانتظار . ولقد رأى كل منهما الآخر كما هما : عجوزان يترصدهما الموت ، لا يجمعهما شيء سوى ذكرى ماض غابر لم يعد ملكاً لهما وانما لشابين مختفيين كان يمكن أن يكونا حفيديهما . وفكرت بأنه سيقتنع أخيراً بعدم واقعية حلمه ، وهذا سيخلصه من سفاهته .

وللحيلولة دون لحظات صمت غير مريحة أو أحاديث غير مرغوبة ، وجهت اليه أسئلة محددة حول السفن النهرية . ولم تكد تصدق أنه هو ، صاحب السفن ، لم يسافر فيها إلا مرة واحدة ، منذ سنوات بعيدة ، حين لم تكن له أية علاقة بالشركة . ولم تكن هي تعرف النهر أيضاً . اذ أن زوجها كان يمقت الأهواء الأنديزية ، ويعلل ذلك بذرائع متنوعة : مخاطر

الارتفاعات على القلب ، المخاطرة بالاصابة بذات الرئة ، نفاق الناس . وهكذا كانا يعرفان نصف العالم ولكنهما لا يعرفان بلدهما . كانت هناك يومئذ طائرة مائية من نوع جنكرز تنطلق من قرية إلى قرية في حوض نهر مجدلينا ، كجرادة من الألمنيوم ، تتسع لطاقمها المؤلف من شخصين ، ولستة مسافرين اضافة إلى أكياس البريد . وقد علق فلورينتينو اريثا قائلاً : «انها أشبه بتابوت طائر في الجو» . وكانت هي قد شاركت في الرحلة الأولى بالمنطاد ، ولم تعان أية صعوبة ، ولكنها لا تكاد تصدق اليوم أنها هي نفسها التي تجرأت على تلك المغامرة ، وقالت : «الأمر مختلف» . تعني بذلك أنها هي التي تغيرت ، وليس أساليب السفر .

كان أزيز الطائرات يفاجئها أحياناً . فمع أنها رأتها تمر على ارتفاع منخفض ، وتقوم بمناورات بهلوانية ، في الاحتفال بالذكرى المئوية لموت بطل التحرير ، ورغم أنها رأت إحدى تلك الطائرات ، سوداء مثل طائر رخمة عظيم ، وهي تلامس أسطح بيوت لامانغا ، مخلفة جزءاً من جناحها عالقاً بشجرة مجاورة ، قبل أن يبقى هيكلها معلقاً بأسلاك الكهرباء ، إلا أن فيرمينا داثا لم تستوعب مع ذلك حقيقة وجود الطائرات . بل انها لم تشعر بالفضول في السنوات الأخيرة للذهاب إلى خليج مانثانييو ، حيث كانت تطير الطائرات المائية بعد أن تقوم زوارق خفر السواحل بابعاد مراكب الصيادين وزوارق اللهو ، التي كانت اعدادها في ازدياد . وقد اختاروها وهي عجوز بهذه الحالة لاستقبال تشارلز ليندبيرغ بباقة زهور حين جاء بطائرته في رحلة نوايا حميدة ، ولم تستطع أن تفهم كيف كان لرجل بهذه الضخامة ، وهذه الشقرة ، وهذا الجمال أن يرتفع في الجو بجهاز يبدو وكأنه من الصفيح المجعد ، يقوم ميكانيكيان بدفعه من ذيله لمساعدته على الصعود . ولم يكن رأسها ليتسع لفكرة وجود طائرات أكبر من تلك بقليل تتسع لثمانية أشخاص . بينما سمعت بالمقابل أن السفن النهرية هي متعة خالصة لأنها لا

تتأرجح كسفن البحر . ولكن لهذه السفن مخاطرها الأقسى ، كاصطدامها بالمصاطب الرملية في قاع النهر ، وتعرضها لهجمات قطاع الطرق .

وبين لها فلورينتينو اريثا أن هذه ليست إلا أساطير من أزمنة غابرة : ففي السفن الحالية صالة رقص ، وقمرات واسعة وفخمة كأنها غرف الفنادق مزودة بحمامات خاصة ومراوح كهربائية ، كما أنه لم يحدث أي هجوم مسلح على السفن النهرية منذ انتهاء الحرب الأهلية الأخيرة . وبين لها كذلك ، بسعادة من حقق نصراً شخصياً ، ان هذا التقدم يعود قبل كل شيء إلى حرية الملاحة التي دعا اليها هو ، مما شجع المنافسة : فبدلاً من شركة واحدة وحيدة ، كما كانت الحال من قبل ، أصبحت هناك ثلاث شركات نشيطة ومزدهرة . ومع ذلك فإن تقدم الطيران السريع يشكل خطراً حقيقياً على الجميع . حاولت مواساته : فالسفن ستبقى دائماً ، لأن المجانين المستعدين لحشر أنفسهم في جهاز يبدو مناقضاً للطبيعة ليسوا بالكثيرين . وأخيراً تحدث فلورَينتينو اريثا عن التقدم الذي أحرزه البريد ، سواء في أساليب نقله أو توزيعه ، آملاً بذلك أن تحدثه عن رسائله . لكنه لم يتوصل لما أراد .

وجاءت الفرصة بعد قليلَ وحدها . كانا قد ابتعدا كثيراً عن الموضوع ، حين قاطعتهما إحدى الخادمات لتسلم فيرمينا داثا رسالة تلقتها حينئذ من البريد المديني الخاص ، الذي أنشئ مؤخراً ، وكان يستخدم في توزيع الرسائل أسلوب توزيع البرقيات ذاته . ولم تجد هي نظارة القراءة ، كما يحدث معها دائماً . فقال لها فلورينتينو اريثا برزانة :

ـ لا لزوم لذلك . فهذه الرسالة مني .

وكانت كذلك فعلاً . لقد كتبها في اليوم السابق ، وهو يعاني حالة انقباض رهيبة لانه لم يستطع تناسي خجله من زيارته الأولى الفاشلة . وكان يعتذر في تلك الرسالة عن سفاهته بالأقدام على زيارتها دون اذن مسبق ،

ويبدي تخليه عن نية العودة لزيارتها . لقد ألقاها في صندوق البريد دون أن يفكر مرتين ، وحين تروى بالأمر كان الوقت قد فات لاستردادها . لكن هذه الشروحات كلها لم تبد له ضرورية ، فاكتفى بالطلب إلى فيرمينا داثا أن تتفضل بعدم قراءة الرسالة .

فقالت :

ـ طبعاً . فالرسائل في نهاية المطاف هي ملك لمن كتبها . أليس كذلك ؟

فخطا خطوة واثقة بقوله :

ـ أجل . ولذا فانها أول شيء يعاد عند وقوع القطيعة .

مرت على اشارته دون اهتمام ، وأعادت له الرسالة قائلة : « من المؤسف أنني لن أستطيع قراءتها ، فقد كانت الرسائل الأخرى ذات نفع كبير لي » . أخذ نفساً عميقاً عندما فوجئ بأنها قالت بشكل عفوي أكثر بكثير مما كان ينتظره منها ، وقال لها : « لا يمكنك أن تتصوري مدى سعادتي لمعرفة ذلك » . لكنها غيرت الموضوع ، ولم يتمكن من العودة اليه ثانية في بقية المساء .

ودعها بعد الساعة السادسة ، حين بدأوا يضيئون أنوار البيت . كان يشعر بثقة أكبر ، ولكنها ثقة بلا أوهام ، لأنه لم ينس طبع فيرمينا داثا المتقلب وردود فعلها المفاجئة حين كانت في العشرين ، ولم يكن لديه من الأسباب ما يدفعه للتفكير بأنها قد تغيرت . ولهذا تجرأ على سؤالها بمذلة صريحة ان كان يستطيع العودة في يوم آخر ، وجاء الجواب ليفاجئه مجدداً .

قالت :

ـ عد متى شئت ، فأنا وحيدة في أغلب الأحيان .

بعد أربعة أيام ، أي يوم الثلاثاء ، عاد دون ابلاغ مسبق ، ولم تنتظر هي أن يقدموا لهما الشاي لتحدثه عن مدى النفع الذي أصابته من رسائله .

فقال لها بأنها ليست رسائل بالمعنى الدقيق للكلمة ، وانما هي أوراق متفرقة من كتاب كان يتمنى تأليفه . وكانت هي قد فهمت الرسائل على هذا النحو أيضاً ، لدرجة أنها فكرت بإعادتها اليه ، اذا هو لم ير ذلك على أنه صد من جانبها ، كي يحمل تلك الرسائل الى مصير أفضل . تابعت الحديث عن الدور الطيب الذي قدمته اليها الرسائل في لحظة قاسية من حياتها ، وكانت تقول ذلك باندفاع شديد ، وعرفان بالجميل شديد ، وربما بعاطفة شديدة أيضاً ، مما جعل فلورينتينو اريثا يتجرأ على التقدم بأكثر من خطوة واثقة : اذ أنه قفز قفزة قاتلة بقوله :

ـ لقد كنا نتخاطب دون كلفة من قبل .

كانت كلمة من قبل كلمة محرمة . وأحست بمرور ملاك الماضي الوهمي ، وحاولت تفاديه . لكنه توغل أكثر : «أعني في رسائلنا التي تبادلناها من قبل» . استاءت ، وكان عليها القيام بمجهود جدي كي تخفي استياءها . لكنه انتبه للأمر ، وأدرك أن عليه التقدم بحذر ، وتلمس مواقع اقدامه جيداً ، رغم أن العثرة اطلعته على أنها مازالت على شراستها التي كانت عليها في شبابها ، لكنها تعلمت أن تكون شرسة برقة .

قال :

ـ أعني أن هذه الرسائل هي شيء آخر مختلف تماماً .

فقالت :

ـ كل شيء في الدنيا يتغير .

قال :

ـ أنا لم أتغير . وحضرتك ؟

أوقفت فنجان الشاي في منتصف الطريق الى فمها ، وزجرته بعينين استمرتا تلمعان بالحياة برغم القسوة . وقالت :

ـ لقد صار الأمر سيان . فقد اكملت اثنتين وسبعين سنة .

تلقى فلورينتينو اريثا الطعنة في القلب . وودّ العثور على جواب سريع كسرعة السهم تلقائية ، لكن ثقل السن هزمه : لم يشعر بمثل هذا الارهاق في محادثة قصيرة كهذه . كان قلبه يؤلمه ، وكانت كل ضربة منه ترتد دوياً معدنياً في شرايينه . أحس أنه شيخ ، حزين ، عديم النفع ، راودته رغبة ملحة في البكاء حتى لم يعد قادراً على البكاء . تناولا فنجان الشاي الثاني بصمت ثلمته الخواطر المنذرة ، وحين عادت هي للتكلم ، فعلت ذلك بأن توجهت إلى إحدى الخادمات طالبة منها احضار حقيبة الرسائل . كاد أن يطلب منها الاحتفاظ بالرسائل ، لأن لديه نسخة كربون منها ، لكنه فكر بأن كشفه عن اتخاذه مثل هذا الاحتياط سيبدو عملاً غير نبيل . ولم يعد لديهما ما يتحدثان فيه . وقبل أن يودعها ، اقترح أن يعود يوم الثلاثاء التالي في نفس الساعة . فسألته لماذا عليه أن يكون متلطفاً إلى هذا الحد . وقالت :

ـ لا أرى من معنى لهذه الزيارات .

فقال :

ـ أنا لم أفكر بأن يكون لها أي معنى .

وعاد على أي حال في يوم الثلاثاء التالي ، في الساعة الخامسة ، ثم في جميع أيام الثلاثاء التالية ، دون اعلان مسبق ، لأن الزيارة الأسبوعية دخلت في روتين كل منهما ـ اعتباراً من نهاية الشهر الثاني . كان فلورينتينو اريثا يأتي حاملاً معه البسكويت الانكليزي لتناوله مع الشاي ، والكستناء الملبس بالسكر ، والزيتون اليوناني ، وغيرها من لذائذ الصالونات الصغيرة التي يجدها في عابرات المحيطات التي تتوقف في الميناء . وفي أحد أيام الثلاثاء جاءها بصورتها الفتوغرافية مع هيلديبراندا ، التي التقطها لهما مصور بلجيكي منذ أكثر من نصف قرن ، وكان قد اشتراها بخمسة عشر سنتافو من مزاد بطاقات بريدية في بوابة الكتبة العموميين . لم تستطع فيرمينا داثا أن تفهم كيف وصلت الصورة إلى هناك ، كما لم يستطع هو فهم الأمر إلا على أنه

معجزة غرامية . وفي أحد الأيام ، وبينما كان فلورينتينو اريثا يقطف وروداً من حديقته ، لم يستطع مقاومة اغراء حمل وردة اليها في زيارته التالية . وكانت تلك مشكلة عويصة في لغة الزهور ، لأنها تتعلق بأرملة حديثة الترمل . فوردة حمراء ، ترمز إلى العاطفة المتأججة ، قد تعتبر اهانة لحدادها . أما الورود الصفراء التي ترى فيها إحدى لغات الزهور رمزاً لحسن الطالع ، فهي في العرف الشائع تعبير عن الغيرة . وعلى الرغم من أنه سمع يوماً عن ورود تركيا السوداء ، التي قد تكون الأكثر ملاءمة ، إلا أنه لم يستطع الحصول عليها ليأقلمها مع الجو في حديقة بيته . لكنه غامر بعد تفكير طويل بحمل وردة بيضاء ، كان اعجابه بها أقل من اعجابه بالزهور الأخرى ، لأنها بكماء لا تعني شيئاً . ولخوفه من أن يجد خبثُ فيرمينا داثا معنى لها ، قام بتقليم أشواكها في اللحظة الأخيرة .

وجدت الوردة لديها صدى طيباً ، على أنها هدية بلا أية نوايا خفية . مما أثرى تقليد الثلاثاء بطقس جديد ، حتى أنه أصبح يجد مزهرية مملوءة بالماء في وسط طاولة الشاي الصغيرة لدى وصوله حاملاً الوردة البيضاء . وفي أحد أيام الثلاثاء ، وفيما هو يضع الوردة ، قال بطريقة بدت عرضية :

ـ لم يكن أحد يهدي وروداً في زماننا ، بل كانوا يتبادلون أزهار الياسمين .

فقالت :

ـ هذا صحيح ، لكن الغرض منها كان مختلفاً كما تعلم حضرتك .

هذا ما كان يحدث دوماً : فكلما حاول التقدم خطوة قطعت عليه الطريق . لكنه في هذه المناسبة ، وبرغم الجواب الدقيق ، أدرك أنه قد أصاب الهدف ، لأنها اضطرت للالتفات جانباً كي تخفي تورد خديها . كان توردا متقداً ، فتياً ، له حياته الخاصة ، مما أثار سخطها ضد نفسها . وقد أحسن فلورينتينو اريثا صنعاً بالانصراف إلى موضوعات أقل فظاظة ، لكن

شهامته كانت بينة بحيث أنها انتبهت اليها ، وضاعف هذا من سخطها . كان يوم ثلاثاء منحوساً . فقد كادت تطلب منه عدم الرجوع لزيارتها ، ولكن فكرة الخوض في خصام كخصومات فترة الخطوبة بدت لها مضحكة وهما في هذه السن وهذا الوضع ، مما سبب لها نوبة ضحك . وبينما كان فلورينتينو اريثا يضع الوردة في المزهرية يوم الثلاثاء التالي ، أمعنت التأمل في وعيها وتأكدت وهي سعيدة بأنه لم يبق لديها أدنى أثر للغضب الذي اعتراها في الأسبوع السابق .

سرعان ما بدأت الزيارات تتخذ بعداً عائلياً غير مريح ، اذ كان الدكتور اوربينو داثا وزوجته يحضران أحياناً بشكل يبدو كأنه مصادفة ، ويبقيان هناك للعب الورق ، لكن فيرمينا داثا علمته ذلك خلال زيارة واحدة ؛ وبعثا كلاهما إلى الزوجين اوربينو داثا بتحدٍ مكتوب للقاء في لعبة ورق يوم الثلاثاء التالي . كانت لقاءات مفرحة للجميع ، سرعان ما اتخذت طابعاً منتظماً كالزيارات ، وأقرت لها أعراف بأن يأتي كل منهم بشيء معه في كل لقاء . فالدكتور اوربينو داثا وزوجته التي كانت حلوانية بارعة ، يساهمان باحضار قوالب حلوى متقنة ، وذات طعم مختلف في كل مرة ، أما فلورينتينو اريثا فتابع احضار طرائف مثيرة للفضول كان يجدها في السفن الأوروبية ، بينما كانت فيرمينا داثا تبتدع لهم كل أسبوع مفاجئة جديدة . وكانت مباريات لعب الورق هذه تجري في الثلاثاء الثالث من كل شهر ، وعلى الرغم من أنهم ما كانوا يتراهنون على نقود ، إلا أنه كان يُفرض على الخاسر المساهمة باحضار شيء خاص للمباراة التالية .

كانت طبيعة الدكتور اوربينو داثا منسجمة مع صورته الاجتماعية : فهو رجل ذو امكانيات ضئيلة ، وأساليب مضطربة يعاني من نوبات قلق مفاجئة ، مبعثها السعادة أو السخط على حد سواء ، كما كان وجهه يتورد بلا مناسبة مما يثير المخاوف حول متانته الذهنية . لكنه كان بلا شك ، وكما يبدو عليه

من النظرة الأولى ، رجلاً طيباً . وقد كان فلورينتينو اريثا يخشى أن يعتبره الدكتور كذلك أيضاً . أما زوجته فكانت ذكية وفيها شرارة امرأة لعوب ، كما كانت تقدم بانسجامها وتوافقها لمسة أكثر انسانية إلى سعادتها . ولم يكن لفلورينتينو اريثا أن يتمنى زوجين أفضل منهما للعب الورق ، ثم أن حاجته للحب التي لا ترتوي ، تُوجت أخيراً باحساس أنه في وسط عائلي .

في إحدى الليالي ، وعند خروجهما معاً من البيت ، دعاه الدكتور اوربينو داثا لتناول الغداء معه : «غداً ، الساعة الثانية عشرة والنصف ، في النادي الاجتماعي» . وكانت وليمة لذيذة مع نبيذ فاخر . كان النادي الاجتماعي يحتفظ لنفسه بحق عدم السماح بالدخول لاسباب متنوعة ، وأحد أهم هذه الأسباب هو حالة الابن الطبيعي الذي لا أب له . ولقد كانت للعم ليون الثاني عشر تجربة مثيرة في هذا المجال ، كما عانى فلورينتينو اريثا نفسه عار اخراجه من النادي يوماً بعد جلوسه إلى الطاولة بدعوة من أحد الأعضاء المؤسسين ، كان فلورينتينو اريثا قد قدم له خدمات كبيرة في مجال التجارة النهرية ، وما كان من الداعي إلا أن اصطحبه لتناول الطعام في مكان آخر ، قائلاً له :

ـ علينا نحن الذين نضع الانظمة ، أن نكون أول من يطبقها .

لكن فلورينتينو اريثا غامر رغم ذلك بالذهاب مع الدكتور اوربينو داثا ، وقد استقبل هناك استقبالاً خاصاً ، رغم أنهم لم يطلبوا منه التوقيع في السجل الذهبي المخصص للمدعوين البارزين . كانت دعوة محدودة ، اقتصرت عليهما فقط ، ودار الحديث بينهما بصوت منخفض . والمخاوف التي ساورت فلورينتينو اريثا منذ مساء اليوم السابق بشأن ذلك اللقاء ، تلاشت مع تناولهما كأس الاوبورتو الفاتح للشهية . كان الدكتور اوربينو داثا يود الحديث عن أمه . ولكثرة ما تحدث ، انتبه فلورينتينو اريثا إلى أنها قد حدثته عنه . كما انتبه إلى شيء أكثر إثارة : لقد كذبت على ابنها لصالحه ،

اذ أخبرته بأنهما كانا صديقين منذ الطفولة ، وكانا يلعبان معاً منذ قدومها من سان خوان دي لاثيناغا ، وأنه هو الذي شجعها على قراءاتها الأولى ، ولذا فهي مدينة له بجميل قديم . وقالت له كذلك انها كثيراً ما كانت تذهب بعد خروجها من المدرسة لقضاء ساعات طويلة مع ترانسيتو اريثا البارعة ، التي كانت تطرز أعمالاً رائعة في دكان الخردوات . واذا كانت لم تعد تلتقي بفلورينتينو اريثا كما كانت تلتقيه في السابق ، فليس لأنها غير راغبة في ذلك ، وانما لافتراق حياتيهما .

وقبل أن يصل إلى عمق اغراضه ، جال الدكتور اوربينو داثا حول موضوع الشيخوخة . كان يرى أن العالم سيتقدم بسرعة أكبر لو أنه تخلص من عرقلة الشيوخ . قال : «ان الانسانية كالجيوش في المعركة ، تقدمها مرتبط بسرعة أبطأ افرادها» . وكان يأمل بمستقبل أكثر انسانية ، وبالتالي أكثر تحضراً ، تعزل فيه الكائنات البشرية التي لم تعد قادرة على الاعتماد على نفسها في مدن هامشية ، كي تتجنب عار وآلام وعزلة الشيخوخة المخيفة . وقال إن حد السن المناسب لذلك من وجهة نظره يمكن أن يكون ستين عاماً . ولكن ريثما يتم الوصل الى هذا المستوى من الاحسان ، فإن الحل الوحيد هو الملاجئ ، حيث يتسنى للشيوخ أن يتسلوا مع بعضهم البعض ، وأن يتفقوا فيما يحبون ويمقتون ، وفي عاداتهم وأحزانهم ، بعيداً عن الخلافات الطبيعية مع الأجيال التالية . وقال : «ان اجتماع الشيوخ مع الشيوخ يجعلهم أقل شيخوخة» . حسناً اذن : كان الدكتور اوربينو داثا يود شكر فلورينتينو اريثا على مرافقته الطيبة لأمه في وحدة الترلم ، ورجاه الاستمرار في ذلك لمصلحتهم معاً ولراحة الجميع ، وطلب منه الصبر على مزاجها الشيخوخي . أحس فلورينتينو اريثا بالراحة لنتائج اللقاء ، وقال له : «كن مطمئناً . فأنا أكبر منها بأربع سنوات ، وهذا ليس الآن فقط ، وانما من قبل... قبل مولدك بكثير» . ثم استسلم لاغراء التخفيف عن نفسه بضربة تهكم ، فاختتم قائلاً :

ـ في مجتمع المستقبل ، عليك أن تذهب إلى المقبرة ، لتحمل إليها وإليّ باقة من الانتوريو من أجل الغداء .

لم يكن الدكتور اوربينو داثا قد لاحظ حتى ذلك الحين عدم لياقة نبوءته عن المستقبل ، فدخل في متاهة من الشروحات لم تزده إلا تخبطاً . لكن فلورينتينو اريثا ساعده للخروج من ورطته . كان مشعاً ، لأنه كان يعلم بأن عليه أن يلتقي عاجلاً أو آجلاً مع الدكتور اوربينو داثا في لقاء كهذا ، لاستكمال شرط اجتماعي لا يمكن تجاوزه : طلب يد أمه رسمياً وقد كان جو الغداء مشجعاً ، اذ بين له سهولة ذلك الطلب وحتمية الترحيب به . ولم تكن هناك فرصة أفضل من هذه ، لو أنه كان حاصلاً على موافقة فيرمينا داثا . بل ان رسميات الطلب ، بعد حديثهما خلال ذلك الغداء التاريخي ، كانت تبدو فائضة عن الحاجة .

لقد اعتاد فلورينتينو اريثا صعود الادراج ونزولها بحذر خاص ، حتى حين كان شاباً ، فقد كان يفكر دوماً بأن الشيخوخة انما تبدأ بزلة قدم أولى لا أهمية لها ، ثم يتلوها الموت في الزلة الثانية . وكان يرى أن أخطر الأدراج هو درج مكتبه ، لأنه ضيق وشبه منتصب . وقد اعتاد منذ زمن طويل ، قبل أن يبدأ بجر قدميه بصعوبة على صعوده متفحصاً كل درجة من درجاته جيداً وممسكاً الدرابزين بكلتا يديه . ورغم أنهم كثيراً ما اقترحوا عليه استبداله بدرج أقل خطورة ، إلا أن قراره كان يتأجل إلى الشهر التالي دائماً ، لأن استبداله كان يبدو له كاقرار بشيخوخته . وكان يحتاج لوقت أطول في الصعود كلما تقدمت به السن ، ليس لأنه كان يتكلف مشقة أكبر ، كما يدعي هو باصرار ، بل لأنه كان يضاعف من حذره في كل مرة . ومع ذلك ، فإنه بعد عودته من الغداء مع الدكتور اوربينو داثا ، وبعد كأس الاوبورتو الذي تناوله قبل الطعام ونصف كأس النبيذ الأحمر مع الطعام ، وبعد تلك المحادثة الظافرة خصوصاً ، حاول الوصول إلى الدرجة الثالثة بخطوة كخطوات

راقص شاب مما لوى كاحله الايسر وجعله يهوي على ظهره ، وينجو من الموت باعجوبة . لقد كان يتمتع في لحظة وقوعه بوعي كافٍ ليفكر بأنه لن يموت في تلك العشرة ، لأن منطق الحياة لا يسمح لرجلين تدلها لسنوات طويلة في حب المرأة ذاتها ، بأن يموتا بالطريقة نفسها وبفارق سنة واحدة بينهما . وكان محقاً . لفوا ساقه من القدم وحتى ربلة الساق واجبروه على البقاء في السرير دون حراك ، لكنه كان حياً أكثر مما كان عليه قبل الوقوع . وعندما أمره الطبيب بالبقاء ثابتاً لمدة ستين يوماً ، لم يستطع أن يصدق كل هذه التعاسة ، فقال له متوسلاً :

ـ لا تفعل بي هذا يا دكتور . ان شهرين من حياتي هما كعشر سنوات من حياتك أنت .

حاول أن ينهض عدة مرات ، حاملاً ساقه التي كالتمثال بكلتا يديه ، فكان الواقع يهزمه دوماً . لكنه حين عاد للمشي أخيراً وكاحله مايزال يؤلمه ، وظهره مسلوخ من النوم الطويل في الفراش ، كانت لديه أسباب كافية للاعتقاد بأن القدر قد كافأ اصراره بزلة من العناية الالهية .

أسوأ أيام مرضه كان يوم الاثنين الأول . كان الألم قد تراجع ، وكان التشخيص الطبي مشجعاً ، إلا أنه كان يرفض الرضوخ لنكبة عدم رؤية فيرمينا داثا مساء اليوم التالي ، لأول مرة منذ أربعة أشهر . ولكنه بعد قيلولة اذعان ، أخضع نفسه للواقع وكتب لها بطاقة اعتذار . كتبها بخط يده على ورق معطر وبحبر فوسفوري لتقرأها في الظلام ، وبالغ في مأساويته حيال خطورة الحادث دون خجل ، محاولاً استنهاض عطفها . وردت عليه بعد يومين ، متأثرة جداً ، ولطيفة جداً ولكن دون كلمة واحدة خارج الحدود ، مثلما كانت في أيام الحب العظيمة . وتشبث بالفرصة فوراً ليكتب اليها ثانية . وحين ردت عليه للمرة الثانية ، قرر المضي أبعد مما كانت عليه احاديثهما الملغزة أيام الثلاثاء ، فأمر بوضع هاتف إلى جوار السرير بحجة

أنه يريد متابعة سير العمل اليومي في الشركة . وطلب من مقسم الهاتف المركزي أن يصلوه بالرقم الثلاثي الذي حفظه في ذاكرته منذ أن اتصل بها لأول مرة . سمع صوت الجرس الخافت ، المتوتر بغموض البعد ، ثم الصوت المحبوب يرد ، وتعرفت هي على «الصوت الآخر» فودعته بعد ثلاث عبارات عادية حول الصحة . أحس فلورينتينو اريثا بالغم لهذه اللامبالاة ، ورأى أنه يعود إلى نقطة البداية من جديد .

لكنه تلقى بعد يومين رسالة من فيرمينا داثا ترجوه فيها الا يتصل بالهاتف ثانية . وكانت أسبابها وجيهة . فقد كان عدد الهواتف في المدينة محدوداً جداً ، وكانت المكالمات تتم عبر عاملة مقسم تعرف جميع المشتركين ، حياتهم ومعجزاتهم ، وليس مهما اذا هم كانوا خارج البيت : فهي تجدهم حيث يكونون . ومقابل هذه الفعالية ، كانت تتنصت الى المحادثات ، وتكتشف أسرار الحياة الخاصة ، والمآسي المحفوظة بتكتم ، ولم يكن غريباً عليها أن تتدخل في حوار دائر لتدلي بوجهة نظرها أو لتخفف من حدة الغضب . كما كانت قد تأسست في تلك الأيام أيضاً جريدة العدالة ، وهي صحيفة مسائية هدفها الوحيد انتقاد العائلات ذات الألقاب الكبيرة ، بالاسم الصريح وبلا أية اعتبارات ، كرد من صاحب الجريدة على عدم قبول ابنائه كأعضاء في النادي الاجتماعي . ورغم نظافة حياتها ، فقد كانت فيرمينا داثا تلتزم جانب الحذر حينئذ أكثر من أي وقت مضى في كل ما تقوله أو تفعله ، حتى مع أصدقائها المقربين . وهكذا بقيت مرتبطة مع فلورينتينو اريثا بخيط الرسائل البائد . وأصبح تبادل الرسائل ما بينهما كثيفاً إلى حد جعله ينسى ساقه المصابة ، وعقوبة البقاء في السرير ، وكل شيء آخر ، ويكرس نفسه تماما للكتابة على طاولة متنقلة كتلك المستخدمة في المشافي لتقديم الطعام للمرضى .

رفعا الكلفة بينهما من جديد ، وعادا لتبادل الآراء حول حياتهما كما

كانا يفعلان في رسائلهما السابقة ، لكن فلورينتينو اريثا حاول المضي ثانية بسرعة : كتب اسمها بوخز دبوس على وريقات زهرة كاميليا ، وبعثها في رسالة ، وبعد يومين أعيدت اليه دون أي تعليق . لم تستطع فيرمينا داثا منع ذلك : فالأمر كله كان يبدو لها كلعبة أطفال . وحين أصر فلورينتينو اريثا على استعادة ذكرى أمسيات الأشعار الكئيبة في حديقة البشارة ، ومخابئ الرسائل في الطريق الى المدرسة ، ودروس التطريز تحت أشجار اللوز . وضعته في مكانه الطبيعي ، وروحها تتألم ، بسؤال بدا عرضيا وسط مجموعة أخرى من الأحاديث المطروقة : «لماذا تصر على الحديث في أمر لا وجود له ؟» . ثم أنبت فيما بعد عناده العقيم في عدم الرضوخ لشيخوخة طبيعية . وهذا هو حسب رأيها ، سبب سقوطه واحباطاته الدائمة في تذكر الماضي . لم تكن تفهم كيف يمكن لرجل قادر على صياغة الافكار التي ساعدتها على تجاوز الترمل ، أن يورط نفسه بتلك الطريقة الصبيانية حين يحاول تطبيق افكاره على حياته بالذات . فانقلبت الأدوار ، وأصبحت هي حينئذ من حاولت تشجيعه ليرى المستقبل بعبارة لم يستطع فهمها في تسرعه الطائش : دع الزمن يمضي وسنرى ما الذي يحمله ، اذ لم يكن في يوم من الأيام تلميذاً نجيباً كما كانت هي . إن قعوده الاجباري ، ويقينه الذي كان يتضح أكثر فأكثر بتسرب الزمن ، ورغبته المجنونة لرؤيتها ، أكدت له أن مخاوفه من الزلل كانت أكثر اصابة ومأساوية مما توقعه . وبدأ يفكر لأول مرة بحقيقة الموت تفكيراً عقلانياً .

كانت ليونا كاسياني تساعده في الاستحمام واستبدال البيجاما مرة كل يومين ، وتضع له الحقن الشرجية ، والمبولة ، وكمادات البابونج على قروح ظهره ، وتجري له المساجات بارشاد الطبيب كي لا يسبب له انعدام الحركة مشاكل أخرى أسوأ . وكانت تحل محلها في هذه المهمات يومي السبت والأحد اميركا فيكونيا ، التي كانت ستنهي دراستها كمعلمة في شهر كانون

الأول من تلك السنة . وقد وعدها بإيفادها في دورة عليا إلى الاباما على نفقة الشركة النهرية ، وذلك ؛ ليكمّ فم ضميره من جه ، وليتخلص من مواجهة تعنيفاتها التي لا تجد مناسبة لقولها ، والتفسيرات التي يتوجب عليه أن يقدمها اليها من جهة أخرى . لم يتصور يوماً مدى معاناتها في ساعات أرقها في المدرسة الداخلية ، وفي نهايات الأسبوع التي تقضيها بعيداً عنه ، وفي حياتها من دونه ، لأنه لم يتصور أبداً كم كانت تحبه . وعلم من رسالة بعثتها اليه المدرسة أن الموقع الأول الذي كانت تحتله دوماً قد أصبح الأخير ، وأنها على وشك الرسوب في الامتحانات النهائية . لكنه تناسى واجبه كوصي ولم يبلغ والديّ اميركا فيكونيا بالأمر ، يمنعه احساس بالذنب يحاول التخلص منه . كما أنه لم يبحث الأمر معها . وذلك لمخاوفه الراسخة بأنها ستحاول القاء جريرة فشلها عليه . وهكذا ترك الأمور على حالها . وأخذ يؤجل مشاكلها دون أن يدري ، على أمل أن يتكفل الموت بحلها .

لم تصب المفاجأة المرأتين اللتين كانتا تسهران على العناية به فقط ، بل ان فلورينتينو اريثا نفسه فوجئ بالتبدل الذي طرأ عليه . فمنذ أقل من عشر سنوات ، كان قد هاجم احدى خادماته وراء السلم الرئيسي في بيته ، وهي بملابسها وواقفة على قدميها ، وتركها حبلى في وقت أقصر مما يحتاجه ديك فيليبيني ، وكان عليه أن يهديها بيتا مفروشاً لتقسم أن الفاعل الذي لطخ شرفها هو صديق لها تخرج معه أيام الآحاد ، لم يكن في الواقع قد قبلها مجرد قبلة ، فقام أبوها وأعمامها ، وهم من أمهر قاطعي القصب بالسيوف في موسم الحصاد ، باجباره على الزواج منها ، ولم يكن يبدو على فلورينتينو اريثا أنه الرجل نفسه الذي تقلبه ظهراً وبطناً امرأتان كانتا حتى زمن لا يتجاوز بضعة شهور تجعلانه يرتعش حباً ، فتدعكانه بالصابون من فوق ومن تحت ، وتنشفانه بمناشف من قطن مصري وتدلكانه في كل أجزاء جسده ، دون أن تفلت منه تنهدة نشوة . وكان لكل منهما تفسيرها لفقدانه

الرغبة . فليونا كاسياني تظن بأنها مقدمات الموت ، بينما تعزوه اميركا فيكونيا الى منشأ خفي لا تستطيع إدراك كنهه . وكان هو وحده يعرف الحقيقة ، ويعرف أن لها اسماً محدداً . لكن ذلك كان ظلماً على أية حال : فقد كانت تعانيان وهما تخدمانه أكثر من معاناته هو الذي يتلقى أحسن الخدمات .

ان ثلاثة أيام ثلاثاء فقط كانت كافية لتدرك فيرمينا داثا مدى الفراغ الذي تركته زيارات فلورينتينو اريثا . كانت تقضي تلك الأيام مع صديقاتها المواظبات على زيارتها . وكانت لكريثيا دل ريال دل اوبيسبو قد ذهبت الى بناما لتنظر في أمر ألم أصاب سمعها ولم يعد يتوقف بأي ثمن ، وعادت وهي مطمئنة جداً بعد شهر ، لكن سمعها كان أخف مما كان عليه قبلاً ببوق تضعه في أذنها . وكانت فيرمينا داثا هي الصديقة الأكثر احتمالا لاختلاط اسئلتها واجاباتها ، مما شجع لوكريثيا على زيارتها يومياً ، وفي أي وقت يخطر لها . لكن فيرمينا داثا لم تجد في أحد تعويضاً عن أمسيات فلورينتينو اريثا المُسكّنة .

لم تكن ذكرى الماضي لتعرض عن المستقبل ، كما كان يظن . بل انها على العكس من ذلك ، كانت ترسخ قناعة فيرمينا داثا الدائمة في أن ذلك الهياج المحموم في العشرين من العمر انما كان شيئاً نبيلاً وجميلاً جداً ، لكنه ليس بالحب . ورغم صراحتها الفجة ، فإنها لم تشأ أن تكشف له ذلك سواء بالبريد أو شخصياً ، كما لم تجد في قلبها متسعا لتقول له كم هو زائف رنين العواطف في رسائله بعد أن عرفت آية تأملاته المكتوبة ، وكيف تخفض أكاذيبه الغنائية من قيمته ، وكم يضر به إصراره المجنون على استعادة الماضي . لا... لم يكن بإمكان أي سطر من سطور رسائله القديمة ولا أية لحظة من لحظات شبابها المضجر اشعارها بأن أمسيات الثلاثاء ستكون بهذه الرحابة ، كما هي في الواقع ، من دونه ، وبهذا التوحد والخواء .

كانت قد بعثت الى مستودع المهملات في الاصطبل خلال احدى نوباتها المفاجئة بمذياع أهداها إياه زوجها في ذكرى زواجهما لأحد الأعوام ، وقد فكرا كلاهما بتقديمه الى المتحف باعتباره أول مذياع وصل الى المدينة ، وكانت قد قررت وهي في عتمة حدادها عدم استخدامه ، لأن أرملة لها ألقابها لا يمكن لها الاستماع الى أية موسيقى دون أن تسيء إلى ذكرى زوجها الميت ، حتى ولو فعلت ذلك في مخدعها . ولكنها بعد يوم الثلاثاء الثالث للوحدة أمرت بإعادته ثانية الى الصالة ، لتستمتع بأغنيات اذاعة ريوبامبا العاطفية ، كما كانت من قبل ، وانما لتشغل ساعات فراغها بالاستماع الى روايات الدموع التي تبثها اذاعة سنتياغو دي كوبا . وكان ذلك قراراً صائباً ، لأنها بدأت تفتقد منذ ميلاد ابنتها عادة المطالعة التي أكسبها إياها زوجها باجتهاد منذ رحلة الزفاف ، وفقدت تلك العادة تماما مع ما أصاب بصرها من ضعف متزايد ، الى أن أصبحت تمضي بضعة شهور أحياناً دون أن تعرف أين هي نظارتها .

لقد استهوتها الروايات الاذاعية من اذاعة سنتياغو دي كوبا ، حتى صارت تنتظر بجزع الحلقات اليومية المتسلسلة ، وكانت تستمع بين الحين والآخر الى الأخبار لتعرف ما الذي يحدث في الدنيا ، وفي بعض المناسبات النادرة ، حين تبقى وحدها في البيت ، كانت تستمع بصوت منخفض جداً ، الى موسيقى الميرينغي من اذاعة سانتو دومينغو وموسيقى بلينا من اذاعة بورتريكو النائيتين والواضحتين . وفي احدى الليالي ، سمعت خبراً مؤثراً من محطة اذاعة مجهولة انطلقت فجأة بقوة ووضوح كما لو كانت تبث من البيت المجاور ، وجاء في الخبر ان عجوزين اعتادا أن يكررا شهر عسلهما في نفس المكان منذ أربعين سنة ، قد قُتلا بضربات مجذاف على يد صاحب الزورق الذي كان يحملهما في نزهة ، وذلك ليسرق ما معهما من مال : أربعة عشر دولاراً . وكان تأثرها أشد حين روت لها لوكريثيا دل ريال القصة

الكاملة كما نشرتها احدى الصحف المحلية . فقد اكتشفت الشرطة أن العجوزين المقتولين ـ المرأة في الثامنة والسبعين والرجل في الرابعة والثمانين ـ هما عاشقان سريان ، يقضيان اجازتهما معاً منذ أربعين سنة ، لكن كل منهما متزوج زواجاً محترماً ومستقراً وسعيداً ، ولكل منهما عائلة كبيرة . وفيرمينا داثا التي لم تبك يوماً بسبب المسلسلات الاذاعية ، جاهدت بصعوبة لقهر عقدة الدموع التي علقت في حلقها ، حين بعث اليها فلورينتينو اريثا في رسالته التالية قصاصة الجريدة التي تحمل الخبر بلا أي تعليق منه .

لم تكن تلك الدموع هي آخر دموع تضطر فيرمينا داثا لقهرها . فقبل أن يكمل فلورينتينو اريثا أيام اعتكافه الستين ، كشفت صحيفة العدالة على صدر صفحتها الأولى مع صور المعنيين ، عن غراميات سرية مزعومة للدكتور خوفينال اوربينو ولكريثيا دل ريال دل اوبيسبو . وأسهبت الجريدة في تفاصيل العلاقة ، ومداها وأسلوبها ، وكذلك حول تواطؤ الزوج ، المستسلم لانحرافاته السوقية مع الزنوج العاملين في مصنعه لتكرير السكر . وكان للقصة المنشورة بحروف بارزة وبحبر له لون الدم دوي كدوي رعد الكارثة في أوساط الطبقة الارستقراطية الآخذة بالتفسخ . ومع ذلك لم يكن فيها سطر واحد يحمل الحقيقة : صحيح أن خوفينال اوربينو ولوكريثيا دل ريال كانا صديقين حميمين مذ كانا عازبين وبقيا صديقين بعد زواجهما ، لكنهما لم يكونا عاشقين في يوم من الأيام . ولم يكن هنالك ما يشير على كل حال الى أن المقال المنشور كان يريد التشهير باسم الدكتور خوفينال اوربينو ، الذي تتمتع ذكراه باحترام مجمع عليه ، وانما كان المقصود هو زوج لوكريثيا دل ريال ، الذي اختير رئيساً للنادي الاجتماعي في الأسبوع السابق . وقد تم اخماد الفضيحة خلال ساعات قليلة . لكن لوكريثيا دل ريال لم تعد لزيارة فيرمينا داثا ، واعتبرت هذه الأمر على انه اعتراف بالذنب .

وقد اتضح بعد وقت قصير جداً أن فيرمينا داثا نفسها لم تكن كذلك بمنجى من مخاطر طبقتها . فقد حملت عليها جريدة العدالة مستغلة نقطة ضعفها الوحيدة : أعمال أبيها التجارية . فعندما اذعن هذا للنفي الاجباري ، كانت تعرف حادثة واحدة من أعماله الغامضة ، كما روتها لها غالا بلاثيديا . وفيما بعد ، حين أكد لها الدكتور اوربينو الأمر بعد مقابلته للحاكم ، أيقنت أن أباها كان ضحية مكيدة مدبرة . والمسألة هي أن اثنين من رجال الشرطة الحكوميين حضرا ومعهما أمر بتفتيش بيت حديقة البشارة ، وقد فتشا البيت كله دون أن يجدا ما يبحثان عنه ، ثم أمرا أخيراً بفتح خزانة الملابس ذات الأبواب المغطاة بمرايا والموجودة في حجرة نوم فيرمينا داثا سابقاً . كانت غالا بلاثيديا وحدها في المنزل حينئذ ، ولم يكن لديها من وسيلة لانذار أحد ، فرفضت فتح الخزانة متذرعة بأنها لا تملك المفتاح . عندئذ حطم أحد الشرطيين مرايا الأبواب بعقب مسدسه ، واكتشف وجود فراغ ما بين الزجاج والخشب مملوء بأوراق نقدية مزيفة من فئة المئة دولار . كانت هذه هي ذروة سلسلة من الأبحاث التي قادت إلى لورينثو داثا على أنه الحلقة الأخيرة من عملية دولية واسعة . وكان التزوير متقناً جداً ، فالأوراق النقدية المزيفة تتمتع بجميع مواصفات ورق النقود الأصلي : اذ أنهم محوا الكتابة والرسوم عن أوراق من فئة دولار واحد باستخدام مادة كيماوية تشبه السحر ، ثم طبعوا على الورق ذاته نقوداً من فئة المئة دولار . وادعى لورينثو داثا أنه اشترى الخزانة بعد زمن طويل من زواج ابنته ، وأن الخزانة وصلت الى البيت دون شك والأوراق النقدية مخبأة فيها ، لكن الشرطة أثبتت أن الخزانة موجودة في البيت مذ كانت فيرمينا داثا تذهب الى المدرسة . وأنه لا يمكن لأحد سواه اخفاء الثروة الزائفة وراء المرايا . هذا هو الشيء الوحيد الذي رواه الدكتور اوربينو لزوجته يوم تعهد أمام الحاكم باعادة حميه الى موطنه للتغطية على الفضيحة . أما الجريدة فروت أموراً كثيرة أخرى .

روت أن لورينثو داثا توسط خلال احدى الحروب الأهلية الكثيرة في القرن الماضي ، بين حكومة الرئيس الليبرالي اكيلوبارا وشخص بولوني الأصل ، يدعي جوزيف ك . مورزينوفسكي ، أقام هنا عدة شهور مع طاقم السفينة التجارية سانت انطون ، التي ترفع العلم الفرنسي ، في محاولة لتصريف صفقة سلاح معقدة ، ولم يعرف أحد كيف اتصل كورزينوفسكي ، الذي ذاع صيته للعالم فيما بعد باسم جوزيف كونراد ، مع لورينثو داثا ، الذي اشترى منه شحنة الأسلحة لحساب الحكومة ، بوثائق وايصالات نظامية ، ودفع الثمن ذهباً حقيقياً . وحسب رواية الجريدة ، فقد ادعى لورينثو ضياع الأسلحة في هجوم مباغت ، ثم أنه أعاد بيعها بضعف الثمن الحقيقي إلى المحافظين الذي يخوضون حرباً ضد الحكومة .

وروت العدالة أيضاً أن لورينثو داثا اشترى بثمن زهيد جداً شحنة أحذية عسكرية فائضة لدى الجيش الانكليزي ، في الزمن الذي أسس فيه الجنرال رافائيل رييس البحرية الحربية ، وأنه ضاعف في هذه العملية وحدها ثروته خلال ستة شهور . وحسبما جاء في الصحيفة ، فإنه لدى وصول الشحنة الى هذا الميناء ، رفض لورينثو داثا استلامها لأن الأحذية التي وصلت كانت جميعها للقدم اليمنى فقط ، ولكنه كان المشارك الوحيد في المزايدة التي أعلنتها الجمارك حسب القوانين النافذة ، واشترى الشحنة بمبلغ رمزي هو مئة بيزو . وفي أثناء ذلك ، اشترى شريك له في ظروف مشابهة شحنة أحذية للقدم اليسرى ، كانت قد وصلت الى جمارك ريوهاتشا . وما ان انتظمت الأحذية مع بعضها حتى باعها لوريثنو داثا ، مستفيداً من نسبه مع آل اوربينو دي لاكايي ، للبحرية الحربية الناشئة بأرباح بلغت ألفين بالمئة .

وانتهت رواية العدالة الى القول إن لورينثو داثا لم يغادر سان خوان دي لاثيناغا في أواخر القرن الماضي بحثاً عن مكان أفضل لمستقبل ابنته ، كما كان يدعي ، وانما لانكشاف أمره في مزج التبغ المستورد مع ورق مفروم ،

وهي الصناعة المزدهرة التي مارسها بمهارة فائقة ، حتى أنها كانت تنطلي على المدخنين المحترفين . كما كشفت علاقاته بشركة سرية دولية ، كان نشاطها الرائج في أواخر القرن الماضي يتمثل في تهريب الصينيين من بناما الى البلاد بأساليب غير مشروعة . أما تجارة البغال المشبوهة ، والتي أساءت كثيرا إلى سمعته ، فيبدو أنها التجارة الشريفة الوحيدة التي مارسها في حياته .

عندما غادر فلورينتينو اريثا الفراش ، وظهره ملتهب بالقروح ، مستخدماً لأول مرة في حياته عكازاً بدلا من المظلة ، كان خروجه الأول الى بيت فيرمينا داثا . وجدها وقد تدلت تماماً ، بفعل آثار السنين على بشرتها ، وبحقد أفقدها الرغبة في الحياة . وفي الزيارتين اللتين قام بهما الدكتور اوربينو داثا لفلورينتينو اريثا أثناء مرضه ، حدثه عن الأسى الذي سببته لأمه مقالتا العدالة . فالمقالة الأولى أثارت فيها غضبا مجنونا لخيانة زوجها وغدر صديقتها ، مما جعلها تتوقف عن زيارتها لضريح زوجها التي كانت تقوم بها في يوم من أيام الأحد كل شهر ، وذلك لسخطها من أنه لن يستطيع وهو في تابوته سماع اللعنات التي تريد أن تكيلها له : لقد اختلفت مع الميت . وبعثت الى لوكريثيا دل ريال ، مع كل من يريد أن يوصل الكلام إليها ، تقول لها بأن تقنع بالعزاء لأنها وجدت على الأقل رجلا بين جميع من مروا في فراشها . أما في المقالة عن لورينثو داثا فلم يكن معروفاً ما هو الذي يؤلمها أكثر : أهي المقالة ، أم اكتشافها المتأخر لهوية أبيها الحقيقية . لكن أحد الاحتمالين ، أو كلاهما معاً ، قصم ظهرها . فالشعر ذو اللون الفولاذي الذي كان يزيد من نبل وجهها ، صار يبدو وكأنه نسالات الذرة الصفراء ، وعينا الفهدة الجميلتان ما عادتا تلمعان ببريقهما القديم رغم روعة الغضب فيهما . وكان قرارها برفض الاستمرار في الحياة يظهر في كل حركة من حركاتها . ورغم اقلاعها منذ سنوات طويلة عن عادة التدخين ، سواءوهي

محبوسة في الحمام أو في أي مكان آخر ، فقد عادت اليه مجددا بشكل علني وبشراهة لا كابح لها . وبدأت أول الأمر بتدخين سجائر تلفها بنفسها ، كما كانت تحب أن تفعل من قبل ، ثم أخذت تدخن الأنواع العادية التي تجدها في المتجر ، لأنها لم تعد تجد متسعا من الوقت والصبر للف السجائر .

لو أن أي رجل آخر كان في موقع فلورينتينو اريثا لتساءل ما الذي سيقدمه المستقبل لشيخ مثله ، أعرج ومكوي الظهر بقروح كقروح حمار ، ولامرأة لا تتوق لسعادة أخرى سوى الموت . أما هو فلم يتساءل . بل وجد بصيصاً من الأمل ما بين أنقاض الكارثة ، وبدا له أن نكبة فيرمينا داثا تجعلها أعظم شأناً ، والغضب يجعلها أجمل ، والحقد على العالم قد أعاد اليها طبعها الجموح الذي كانت عليه وهي في العشرين من العمر .

كان لديها الآن سبب آخر للاعتراف بجميل فلورينتينو اريثا . فقد بعث على اثر المقالات الشنيعة برسالة نموذجية الى العدالة حول مسؤولية الصحافة الأخلاقية ودورها في احترام شرف الآخرين . لم تنشر الصحيفة الرسالة ، لكن الكاتب بعث بنسخة منها الى دياريو دل كوميرثو ، أقدم صحف ساحل الكاريبي وأكثرها جدية ، فأبرزتها هذه على صفحتها الأولى . كانت الرسالة تحمل توقيع جوبيتر ، وكانت عقلانية ولاذعة ومتقنة ، مما حمل البعض على نسبتها الى بعض أبرز كتاب المقاطعة : كانت صوتاً منفرداً وسط الاقيانوس ، لكنه سمع بعمق ووصل بعيدا جداً . وعرفت فيرمينا داثا هوية الكاتب دون أن يخبرها أحد بذلك ، لأنها تعرفت على بعض الأفكار ، بل وعلى جملة حرفية ، من تأملات فلورينتينو اريثا الأخلاقية . ولذا ، فقد استقبلته بحيوية في فوضى يأسها . وفي هذه الفترة بالذات ، وجدت اميركا فيكونيا نفسها وحيدة في مساء أحد الأيام في غرفة النوم ببيت شارع لاس فينتاناس ، واكتشفت دون أي بحث ، وبمحض الصدفة ، في خزانة بلا

مفاتيح ، نسخاً من تأملات فلورينتينو اريثا المطبوعة على الآلة الكاتبة ، ورسائل فيرمينا داثا المكتوبة بخط اليد .

ابتهج الدكتور اوربينو لتجدد الزيارات التي ترفع كثيرا من معنويات أمه . وكان بذلك على عكس أخته اوفيليا ، التي رجعت في أول سفينة فواكه قادمة من نيو اورليانز فور سماعها بأخبار الصداقة الغريبة التي تقيمها فيرمينا داثا مع رجل ، سمعته الأخلاقية ليست على ما يرام . وقد تسبب هياجها بنشوب أزمة منذ الأسبوع الأول ، حين لاحظت درجة الألفة والسلطة التي يدخل بها فلورينتينو اريثا الى البيت ، والوشوشات والنزاعات العابرة الشبيهة بوشوشات ونزاعات خطيبين وذلك أثناء زياراته التي تمتد حتى ساعة متأخرة من الليل . وما كان يراه الدكتور اوربينو داثا تآلفاً صحياً بين عجوزين متوحدين ، كانت ترى فيه أسلوبا مريبا في اتخاذ خليل سري . هكذا كانت اوفيليا اوربينو دوماً ، أقرب شبها بدونيا بلانكا جدتها لابيها ، منها لامها . فهي مترفعة مثل جدتها ، ومتعجرفة مثلها ، وتعيش مثلها على الأوهام . وما كانت قادرة على تصور صداقة بريئة تجمع بين رجل وامرأة حتى ولو كانا في الخامسة من العمر ، فكيف اذا كانا في الثمانين . وفي احدى نزاعاتها المعتادة مع أخيها ، قالت ان الشيء الوحيد المتبقي لكي يواسي فلورينتينو اريثا به أمها هو أن ينام معها في سريرها كأرملة . ولم تكن لدى الدكتور اوربينو داثا الشجاعة لمواجهتها ، لأنه لم يكن يمتلك الشجاعة أمامها يوماً ، لكن زوجته تدخلت بتبرير جدي حول الحب في أي سن كان . ففقدت اوفيليا صوابها وصرخت بها :

ـ ان الحب في سننا شيء مضحك ، أما في سنهما فهو قذارة خنازير .

وقررت في حدة اندفاعها أن تطرد فلورينتينو اريثا من البيت ، ووصل هذا الى سمع فيرمينا داثا . فاستدعتها الى حجرة النوم ، كما تفعل كلما أرادت الحديث في أمر لا تريد أن تسمعه الخادمات ، وطلبت منها أن تعيد أمامها ما

قالته من شتائم . ولم تحاول اوفيليا أن تخفف من قسوتها : كانت موقنة ان فلورينتينو اريثا ، بسمعته الفاسدة التي لا تخفى على أحد ، انما يريد الوصول الى علاقة آثمة ، ستشوه اسم العائلة الطيب أكثر مما شوهته اساءات لورينثو داثا ومغامرات خوفينال اوربينو الغبية . استمعت اليها فيرمينا داثا دون أن تنطق بكلمة واحدة ، بل ودون أن ترمش ، لكنها حين انتهت من الاستماع كانت قد تحولت إلى امرأة أخرى... كانت قد عادت إلى الحياة ، فقالت لها :

ـ الشيء الوحيد الذي يؤلمني هو أنني لا أملك القوى لضربك الضرب الذي تستحقين ، لوقاحتك وخبث نيتك . ولكنك ستخرجين الآن من هذا البيت ، وأقسم لك برفات أمي أنك لن تدخليه مادمت على قيد الحياة .

لم تكن هنالك من قوة قادرة على ثنيها عن قرارها . فذهبت اوفيليا للاقامة في بيت أخيها ، وبعثت من هناك بكل أنواع التوسلات عبر وسطاء من الأعيان . ولكن دون جدوى . فلا وساطة الابن ولا تدخل الصديقات استطاع ثنيها . ثم أنها أطلقت أخيراً أمام كنتها التي كانت تربطها بها دائماً علاقة بعيدة عن الرسميات ، سراً باحت به بطلاقة كطلاقتها في سنوات شبابها : «منذ قرن من الزمان أفسدوا حياتي مع هذا الرجل المسكين لأننا كنا مانزال صغيرين ، وها هم يريدون افسادها الآن ثانية لأننا أصبحنا عجوزين» . ثم أشعلت سيجارة من عقب الأخرى ، ونفثت السم الذي كان ينخر جوفها قائلة :

ـ فليذهبوا الى الخراء . ان كان لنا نحن معشر الأرامل من مكسب ، انه لم يعد هناك من يأمرنا .

لم يكن للصلح من مكان . وحين اقتنعت اوفيليا أخيراً بعدم جدوى جميع المحاولات ، رجعت الى نيو اورليانز . والشيء الوحيد الذي استطاعت التوصل اليه مع أمها هو أن تودعها . ووافقت فيرمينا داثا على ذلك بعد توسلات كثيرة ، لكنها لم تسمح لها بالدخول إلى البيت : لقد أقسمت على

ذلك بعظام أمها ، التي كانت بالنسبة لها ، في تلك الأيام الغائمة ، الشيء الوحيد الذي بقي طاهراً .

في احدى زياراته الأولى ، وأثناء الحديث عن سفنه ، وجه فلورينتينو اريثا دعوة رسمية لفيرمينا داثا لتقوم برحلة استجمام عبر النهر . حيث يمكنها من هناك الوصول ، بعد يوم واحد في القطار ، إلى عاصمة الجمهورية ، التي مازالا ، مثلهم كمثل معظم الكاريبيين من أبناء جيلهم ، يطلقون عليها الاسم الذي كانت تحمله حتى القرن الماضي : سانتافي . لكنها كانت تحتفظ بوجهة نظر زوجها ولا تريد معرفة مدينة باردة وقاتمة حيث النساء لا يخرجن من بيوتهن إلا إلى صلاة الخامسة ، ولا يستطعن الدخول إلى مقاهي بيع المثلجات ولا إلى الدوائر العامة ، كما قيل لها ، وحيث توجد في كل وقت زحمة جنازات في الشوارع ومطر خفيف متواصل منذ سنوات البغلة ذات الحدوات... انها أسوأ من باريس . ولكنها كانت تشعر بالمقابل بميل شديد إلى النهر ، فهي تريد رؤية التماسيح تتشمس على الضفاف ، وتريد الاستيقاظ في منتصف الليل على نواح الأطم لذي يشبه بكاء النساء ، لكن فكرة القيام برحلة شاقة في هذه السن ، اضافة إلى كونها أرملة ووحيدة ، كانت تبدو لها أمراً لا واقعياً .

كرر فلورينتينو اريثا الدعوة لها فيما بعد ، حين كانت قد قررت الاستمرار في الحياة بدون زوجها ، فبدت لها الفكرة حينئذ أكثر احتمالاً . ولكن بعد خلافها مع ابنتها ، واحساسها بالمرارة للاهانات الموجهة الى أبيها ، وحقدها على زوجها الميت ، وغضبها من تملقات لوكريثيا دل ريال المنافقة ، والتي اعتبرتها لسنوات طويلة أفضل صديقاتها ، أخذت تشعر بأنها مجرد شيء زائد عن الحاجة في بيتها . وفي مساء أحد الأيام وفيما هي تشرب شرابها الخاص المحضر من أوراق شاي كونية ، نظرت إلى مستنقع الفناء ، حيث لم تعد تبرعم شجرة نكبتها ، وقالت :

ـ ما أريده هو هجر هذا البيت ، والانطلاق قدماً ، قدماً قدماً ، وعدم العودة إليه أبداً .

فقال فلورينتينو اريثا :

ـ اذهبي في سفينة نهرية .

نظرت اليه فيرمينا داثا وهي ساهمة وقالت :

ـ يمكنك الاعتقاد بأن هذا وارد .

لم تكن قد فكرت بذلك لحظة واحدة قبل أن تنطق به ، ولكن مجرد ورود الاحتمال كان كافياً لاعتبار الأمر ناجزاً . وقد سر الابن والكنة حين علما بالخبر . وسارع فلورينتينو اريثا ليؤكد أن فيرمينا داثا ستكون ضيفة شرف على سفنه ، وستجد تحت تصرفها قمرة مجهزة بكل شيء وكأنها في بيتها ، وستكون الخدمة على أكمل وجه ، وسيكلف القبطان بالذات لحمايتها والسهر على راحتها . وجاء بخرائط تبين خط سير الرحلة ليشجعها ، وبطاقات بريدية لمناظر غروب هائجة ، وقصائد شعرية عن جنة نهر مجدلينا البدائية كتبها رحالة مشهورون ، أو أنهم أصبحوا مشهورين لروعة القصيدة . فكانت تلقي عليها نظرة عابرة حين يكون مزاجها رائقاً وتقول له :

ـ ليس عليك أن تخدعني كما لو أنني طفلة . اذا كنت أريد الذهاب فلأنني قررت ذلك ، وليس اهتماماً بالمناظر الطبيعية .

وحين اقترح ابنها بأن تذهب زوجته معها لمرافقتها ، قاطعته بلهجة مسالمة : «لقد كبرت ولم أعد بحاجة لمن يرعاني» . ورتبت بنفسها تفاصيل الرحلة . وكانت تشعر براحة كبيرة لفكرة أنها ستمضي ثمانية أيام في صعود النهر وخمسة أيام في نزوله دون أن تحمل معها شيئاً باستثناء الحاجات التي لا غنى عنها : نصف دزينة من الفساتين القطنية ، وأدوات زينتها ونظافتها ، وزوج من الأحذية للصعود به إلى السفينة وللنزول الى البر ، ونعال بيتي لاستخدامه أثناء الرحلة ، ولا شيء آخر... انه حلم حياتها .

في شهر كانون الثاني لعام ١٨٢٤ ، قام الربان خوان برناردو البيرس ، مؤسس الملاحة النهرية ، برفع راية السفينة البخارية الأولى التي مخرت مياه نهر مجدلينا ، وقد كانت آلة بدائية بقوة أربعين حصاناً ، تدعى وفاء . وبعد مرور أكثر من قرن ، في السابع من تموز ، وفي الساعة السادسة مساء ، رافق الدكتور اوربينو داثا وزوجته ، فيرمينا داثا لتركب السفينة التي ستحملها في رحلتها الأولى عبر النهر . وكانت تلك السفينة هي الأولى التي جرى بناؤها في أحواض بناء السفن المحلية ، وقد عمدها فلورينتينو اريثا باسم وفاء الجديدة تخليداً لذكرى سلفتها المجيدة . ولم تستطع فيرمينا داثا أن تصدق أبداً بأن ذلك الاسم ذا المغزى الشديد هو مجرد مصادفة تاريخية حقاً ، وليس ظرافة أخرى من ظرافات فلورينتينو اريثا ، الرومنسي المزمن .

وعلى خلاف جميع السفن النهرية الأخرى ، القديمة منها والحديثة ، كان في وفاء الجديدة ، وإلى جانب قمرة القبطان ، قمرة اضافية واسعة ومريحة ، مكونة من صالة استقبال مؤثثة بمفروشات من البامبو الملون بألوان احتفالية ، ومخدع زوجي مزخرف بكامله بزخارف صينية ، وحمام فيه حوض بانيو ودوش ، وشرفة مغلقة وفسيحة جداً ، فيها نباتات زينة معلقة وتسمح بالرؤية إلى أمام السفينة وجانبيها ، ومزودة بأجهزة تبريد صامتة تحافظ على الجو في ربيع دائم بعيداً عن القيظ المتقد في الخارج . كان هذا الجناح الفاخر يعرف باسم قمرة الرئاسة ، لأن ثلاثة من رؤساء الجمهورية سافروا فيه حتى ذلك الحين ، ولم يكن لهذه القمرة أي غرض تجاري ، بل كانت مخصصة للسلطات العليا والضيوف الخاصين جداً . وقد بناها فلورينتينو اريثا لهذا الغرض المعلن فور تعيينه رئيساً لشركة الكاريبي للملاحة النهرية ، لكنه كان متأكداً في دخيلته من أنها ستكون عاجلاً أم آجلاً الملجأ السعيد لرحلة زفافه مع فيرمينا داثا .

وفعلاً جاء اليوم المنتظر ، واتخذت موقعها في القمرة الرئاسية كربة

وسيدة للمكان . وقدم القبطان فروض التشريف للدكتور اوربينو داثا وزوجته ولفلورينتينو اريثا بالشمبانيا والسلمون المدخن . كان اسمه ديغو سامارتيانو ، وكان يرتدي بدلة من الكتان الأبيض ، محكمة على مقاسه تماماً ، من الحذاء حتى القبعة التي تحمل شعار ش . ك . م . ن . مطرزاً بخيوط ذهبية ، وكان يشبه غيره من قباطنة السفن النهرية بضخامته التي كضخامة أشجار الثيبا ، وبصوته الحازم وحركاته التي كحركات كردينال فلورنسي .

في الساعة السابعة ليلاً أُطلقت أولى اشارات الابحار ، وأحست بها فيرمينا داثا تدوي بألم حاد في أذنها اليسرى . لقد حلمت في الليلة السابقة أحلاماً مثلمة ذات نذر مشؤومة لم تتجرأ على تفسيرها . ومنذ الصباح الباكر ذهبت إلى مدفن المجمع الاكليريكي الذي صار يعرف باسم مقبرة لامانغا ، وصالحت زوجها الميت ، وهي واقفة أمام قبره ، وذلك بمنولوج أطلقت فيه العنان للومها العادل الذي كانت تغص به . ثم روت له تفاصيل الرحلة ، وودعته متمنية اللقاء به قريباً . لم تشأ أن تخبر أحداً آخر بأنها ذاهبة ، وذلك ما كانت تفعله كلما سافرت إلى اوروبا ، لتحول دون الوداعات المنهكة . ورغم رحلاتها الكثيرة ، فقد أحست وكأن هذه هي رحلتها الأولى ، وكان قلقها يتزايد كلما تقدم النهار واقترب الموعد . وحين أصبحت على متن السفينة ، أحست بالهجران والكآبة ، ورغبت بالبقاء وحيدة لتبكي .

عند انطلاق اشارة الابحار الأخيرة ، ودعها الدكتور اوربينو داثا وزوجته دون دراماتيكية ، ورافقهما فلورينتينو اريثا إلى جسر النزول إلى البر . حاول الدكتور اوربينو داثا أن يفسح له الطريق ليمشي وراء زوجته ، ولكنه انتبه حينئذ فقط إلى أن فلورينتينو اريثا ذاهب في الرحلة أيضاً . ولم يستطع الدكتور اوربينو داثا السيطرة على حيرته ، فقال :

ـ ولكننا لم نتحدث في هذا من قبل .

أراه فلورينتينو اريثا ، مفتاح قمرته كدليل كاف على حسن نواياه : قمرة عادية في جناح المسافرين العاديين . ولكن الدكتور اوربينو لم ير في ذلك دليلاً كافياً على البراءة . فاتجه الى زوجته بنظرة غريق ، باحثاً عن نقطة استناد لحيرته ، ولكنه التقى بعينين ثلجيتين . وقالت له بصوت خافت جداً ، وحازم في الوقت ذاته : «وأنت أيضاً ؟» أجل . هو أيضاً ، مثل أخته اوفيليا ، يفكر أن للحب سناً معينة يصبح بعدها أمراً غير لائق . لكنه استطاع السيطرة على نفسه في الوقت المناسب ، وودع فلورينتينو اريثا شاداً على يده بحركة فيها من الاذعان أكثر مما فيها من الشكر .

رآهما فلورينتينو اريثا ينزلان من السفينة وهو واقف عند درابزين الصالة . تماماً كما كان ينتظر ويأمل ، والتفت الدكتور اوربين داثا وزوجته بنظرهما اليه قبل أن يدخلا السيارة ، فودعهما ملوحاً بيده وردا عليه بتحية مماثلة . وبقي عند الدرابزين إلى أن اختفت السيارة وسط غبار باحة الشحن ، ثم مضى الى قمرته ليرتدي ملابس أكثر ملاءمة للعشاء الأول على متن السفينة ، في صالة الطعام الخاصة بالقبطان .

كانت ليلة رائعة ، تبّلها القبطان ديغو ساماريتانو بحكايات لذيذة عن سنواته الأربعين في النهر ، لكن فيرمينا داثا اضطرت للقيام بمجهود كبير لتبدو سعيدة . ورغم انطلاق صفارة التنبيه الأخيرة في الساعة الثامنة ، ورغم انزال الزائرين ورفع جسر النزول في هذه الساعة أيضاً ، فان السفينة لم تنطلق إلى أن انتهى القبطان من تناول طعامه وصعد إلى مركز القيادة ليشرف على مناورة الخروج من الميناء . بقيت فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا يتطلعان من فوق درابزين الصالة العامة ، مختلطين مع المسافرين الصاخبين الذين كانوا يلعبون لعبة تمييز أضواء المدينة ، إلى أن خرجت السفينة من الميناء وولجت قنوات لا مرئية ومستنقعات مبرقعة بأنوار متموجة تنبعث من

زوارق الصيادين ، وشخرت أخيراً ملء رئتيها في الهواء الطلق لنهر مجدلينا العظيم . حينئذ انطلقت الفرقة الموسيقية في عزف مقطوعة شعبية دارجة ، وهيمنت على المسافرين موجة من المرح ، وبدأ الرقص الصاخب .

فضلت فيرمينا داثا اللجوء إلى القمرة . لم تكن قد نطقت بأية كلمة خلال الليل ، وقد تركها فلورينتينو اريثا تتيه في تأملاتها ، ولم يقاطعها إلا ليودعها أمام قمرتها . لكنها لم تكن تشعر بالنعاس ، وانما بشيء من البرد فقط ، واقترحت أن يجلسا قليلاً ليراقبا النهر معاً من الشرفة الخاصة . فسحب فلورينتينو اريثا كرسيين خيزرانيين إلى الشرفة ، وأطفأ الأنوار ، ووضع لها بطانية صوفية على كتفيها ، وجلس إلى جانبها . لفت سيجارة من العلبة التي أهداها اياها . لفتها بمهارة مذهلة ، ودخنتها ببطء واضعة الجمرة في فمها ، دون أن تتكلم ، ثم لفت سيجارتين أخريين متتاليتين ودخنتهما دون توقف . وشرب فلورينتينو اريثا ترمسين من القهوة المرة رشفة بعد أخرى .

كانت أضواء المدينة قد اختفت في الأفق . ومن خلال الشرفة المظلمة كان النهر المنبسط الساكن ، ومرابع العشب على ضفتيه تبدو تحت ضوء القمر المكتمل بدراً وكأنها سهوب فسفورية . وبين الحين والحين كان يظهر كوخ من القش إلى جانب محارق كبيرة يعلنون بها أنهم يبيعون هناك حطباً لمراجل السفن . كان فلورينتينو اريثا يحتفظ بذكريات غائمة عن رحلته النهرية في شبابه ، لكن مرأى النهر جعله يستعيدها في دفقات مبهرة كما لو أنها حدثت بالأمس . روى بعضاً من تلك الذكريات لفيرمينا داثا معتقداً أن ذلك قد يبث فيها الحماس ، لكنها كانت تدخن في عالم آخر . فتخلى فلورينتينو اريثا عن ذكرياته وتركها وحيدة مع أفكارها ، وكانت أثناء ذلك تلف السجائر وتشعلها إلى أن نفدت العلبة . توقفت الموسيقى بعد منتصف الليل ، وتلاشى صخب المسافرين ، ثم تحول إلى همسات هاجعة ، وبقي القلبان وحدهما في الشرفة المظلمة يعيشان ايقاع أنفاس السفينة .

بعد مرور بعض الوقت ، نظر فلورينتينو اريثا إلى فيرمينا داثا من خلال بريق النهر ، فرآها طيفية ، ورأى بروفيل وجهها الذي كتمثال يصبح أكثر حلاوة تحت البريق الأزرق الخفيف ، وانتبه إلى أنها كانت تبكي بصمت . ولكنه بدلاً من مواساتها ، أو الانتظار إلى أن تنفد دموعها ، كما كانت ترغب هي ، سمح للقلق بأن يداهمه ، فسألها :

ـ أتودين البقاء وحدك ؟

قالت :

ـ لو كنت أريد ذلك لما طلبت منك الدخول .

عندئذ مد أصابعه الباردة في الظلام ، وبحث باللمس عن اليد الأخرى ، ووجدها بانتظاره . لقد كانا يتمتعان ، في اللحظة السريعة ذاتها بما يكفي من الصحو ليدركا أن أياً من اليدين لم تكن هي اليد التي تخيلاها قبل أن يلمساها ، وانما كانتا يدين هرمتين معروقتين . ولكنهما ما لبثتا أن أصبحتا كما أرادا في اللحظة التالية . بدأت تتحدث في الزمن الحاضر ، عن زوجها الميت ، وكأنه ما يزال حياً ، وعرف فلورينتينو اريثا أنه قد أزفت بالنسبة لها أيضاً لحظة التساؤل بوقار وعظمة ، ورغبة جامحة في الحياة ، ما الذي تفعله بالحب الذي بقي لديها دون سيد .

توقفت فيرمينا داثا عن التدخين كي لا تفلت يدها التي كان يمسكها بيده . كانت تائهة في قلق البحث عن الوعي . ما كانت قادرة على تصور زوج أفضل من ذاك الذي كان زوجها ، ولكنها كانت تجد العراقيل بدلاً من السهولة في استحضار حياته ، كانت تجد كثيراً من سوء الفهم المتبادل والنزاعات الجوفاء ، والأحقاد التي فضت على غير مايرام . وتنهدت فجأة : «لا أستطيع أن أصدق كيف يمكن للانسان أن يكون سعيداً خلال سنوات طويلة ، وسط كل هذه الخلافات ، وكل هذه المشاكل ، اللعنة ، وكل ذلك دون أن نعرف إن كان هذا حباً أم لا » . وعندما انتهت من التفريج عن

قلبها ، أطفأ أحد القمر . كانت السفينة تتقدم بخطواتها المحسوبة ، واضعة قدماً قبل أن ترفع الأخرى : كحيوان ضخم يترصد . وكانت فيرمينا داثا قد أفاقت من ذهولها . فقالت :

ـ انصرف الآن .

ضغط فلورينتينو اريثا على يدها ، ومال نحوها ، محاولاً تقبيل وجنتها . لكنها أعرضت عنه قائلة بصوت أبح ورقيق :

ـ لا ، ما عاد هذا ممكناً... إن لي رائحة عجوز .

أحست به يخرج في الظلام ، وأحست بوقع خطواته على الأدراج ، وأحست باختفائه عن الوجود حتى اليوم التالي . أشعلت فيرمينا داثا سيجارة أخرى ، وفيما هي تدخنها رأت الدكتور خوفينال اوربينو بملابسه الكتانية الناصعة ، وصرامته المهنية ، ولطفه المبهر ، وحبه الرسمي ، وأشار لها مودعاً بقبعته البيضاء من سفينة أخر ى من الماضي . «لسنا نحن معشر الرجال سوى عبيد مساكين للوهم . أما حين تقرر امرأة مضاجعة أحد الرجال ، فليس هناك من حاجز إلا وتجتازه ، ولا حصن إلا وتحطمه ، ولا اعتبار أخلاقي إلا وتكون مستعدة لخرقه من أساسه : وليس ثمة رب ينفع» . هذا ما قاله لها في أحد الأيام . وبقيت فيرمينا داثا جامدة حتى الفجر ، تفكر بفلورينتينو اريثا ، ليس كحارس كئيب في حديقة البشارة لا تثير ذكراه فيها أي حنين ، وانما كما هو حينئذ ، عجوز وأعرج ، لكنه واقعي : انه الرجل الذي كان رهن اشارتها دوماً ولم تستطع التعرف اليه . وفيما السفينة اللاهثة تسحبها نحو بريق الأزهار البدائي ، كانت تدعو الله أن يلهم فلورينتينو اريثا ليعرف كيف يبدأ ثانية في اليوم التالي .

وقد عرف . كانت فيرمينا داثا قد أعطت تعليماتها للجرسون بأن يتركها نائمة إلى أن تستيقظ من تلقاء نفسها . وحين استيقظت وجدت على الكوميدينو مزهرية فيها زهرة بيضاء طازجة ، ماتزال مضمخة بالندى ، ومعها

رسالة من فلورينتينو اريثا مؤلفة من الصفحات التي استطاع كتابتها مذ ودعها . كانت رسالة هادئة ، لا غرض لها سوى التعبير عن الحالة المعنوية التي عاشها منذ الليلة الماضية... وكانت شديدة الغنائية كرسائله الأخرى ، وخطابية مثلها جميعها ، ولكنها مستندة الى الواقع . قرأتها فيرمينا داثا ببعض الخجل من نفسها لقفزات قلبها المكشوفة . وكانت الرسالة تنتهي بالطلب اليها أن تخبر الجرسون حين تكون جاهزة ، لأن القبطان ينتظرهما في مركز القيادة ليشرح لهم سير العمل في السفينة .

في الساعة الحادية عشرة كانت جاهزة ، مستحمة منتعشة بالصابون الذي له رائحة أزهار ، ومرتدية فستان أرملة رمادي اللون وشديد البساطة ، موفورة النشاط بعد هيجان الليلة الماضية . طلبت فطوراً بسيطاً من الجرسون الّذي يرتدي ملابس بيضاء ناصعة ، ويعمل في خدمة القبطان شخصياً ، لكنها لم تبعث اليهم كي يحضروا لمرافقتها . صعدت وحدها ، مبهورة بالسماء الصافية ، ووجدت فلورينتينو اريثا يتحدث الى القبطان في مركز القيادة . بدا لها مختلفاً ، ليس لأنها رأته بعينين أخريين حينئذ ، وانما لأنه كان مختلفاً بالفعل . فبدلاً من الملابس الجنائزية التي ارتداها طوال حياته ، كان ينتعل حذاء أبيض ويرتدي بنطالاً وقميصاً من الكتان مفتوحاً عند العنق وأكمامه قصيرة وعلى جيبه الذي فوق الصدر نقشت الحروف الأولى من اسمه . وكان يعتمر قبعة اسكتلندية ، بيضاء اللون أيضاً ، ويضع نظارة ذات عدسات قاتمة فوق نظارة قصر النظر الأزلية . ومما لا شك فيه أن كل ذلك كان يستخدم للمرة الأولى ، وأنه اشتراه من أجل الرحلة ، باستثناء حزام الجلد البني العتيق ، والذي لفت انتباه فيرمينا داثا من النظرة الألى وكأنه ذبابة في طبق الحساء . حين رأته على هذه الحال ، مرتدياً ملابس متميزة من أجلها ، لم تستطع منع تورد ناري من الصعود إلى وجنتيها . وانبهرت عند مصافحته ، وانبهر هو أكثر لانبهارها . وادراكهما بأنهما يتصرفان كخطيبين زاد من

انبهارهما ، ووعيهما بأنهما منبهرين كليهما أبهرهما إلى الحد الذي جعل القبطان سامارتيانو يلاحظ ذلك بارتعاشة حب . وأخرجهما من الحرج بأن شرح لهما مهمات القيادة والآلية العامة للسفينة خلال ساعتين . كانوا يبحرون ببطء شديد في نهر بلا ضفاف ، يتبدد بين كثبان رملية قاحلة حتى الأفق . وعلى عكس مياه المصب العكرة ، كانت تلك المياه بطيئة وصافية ،ولها بريق معدني تحت الشمس الحارقة . وأحست فيرمينا داثا بأن المكان هو دلتا تتخللها جزر رملية . فقال لها القبطان :

ـ هذا ما تبقى لنا من النهر .

لقد فوجئ فلورينتينو اريثا حقاً بالتبدل الذي أصاب النهر ، وازدادت مفاجأته في اليوم التالي ، حين أصبح الابحار أصعب ، رأى أن النهر الأب ، نهر مجدلينا ، أحد الأنهار الكبرى في العالم ، ليس إلا وهماً من أوهام الذاكرة . واخبرهما القبطان ساماريتانو أن عمليات قطع الغابات اللا عقلانية قد قضت على النهر خلال خمسين سنة : فمراجل السفن التهمت غابات الأشجار الضخمة المتشابكة التي أحسها فلورينتينو اريثا تثقل على أنفاسه في رحلته الأولى . وأفنى صيادو جلود الدباغة القادمين من نيو اورليانز التماسيح التي كانت تتظاهر بالموت واشداقها مفتوحة لساعات وساعات فوق رمال الضفاف لتقتنص الفراشات ، بينما راحت تموت الببغاوات ذات الرطانة الغريبة والقرود ذات الصرخات المجنونة كلما تناقصت الغابات ، بينما كانت الأطم التي ترضع صغارها من أثدائها الأمومية وتبكي بأصوات كأصوات النساء الثكالى على الضفاف هي الصنف المفضل لرصاص صيادي المتعة .

كان القبطان ساماريتانو يشعر نحو الأطم بعاطفة شبه أمومية ، لأنه كان يرى فيها سيدات مُسخن لخطيئة حب اقترفنها ، وكان يؤمن بصحة الأسطورة القائلة بأنها الاناث الوحيدة التي لا ذكور لها في مملكة الحيوان . وكان

يعارض دوماً اطلاق النار عليها من سفينته ، كما هي العادة ، رغم وجود قوانين تحظر ذلك . وقد رفض صياد من كارولينا الشمالية ، يحمل وثائق نظامية ، الرضوخ لتعليماته يوماً ، وهشم رأس أطومة أم بطلقة صائبة من بندقيته السبرينغفيلد ، وبقي الوليد الذي أطار الألم صوابه يبكي صارخاً فوق جثة أمه الممدة فحمل القبطان الأطوم اليتيم ليتدبر له مخرجاً ، وترك الصياد مهجوراً على الشاطئ المقفر إلى جوار جثة الأم المقتولة . وقد أمضى ستة أشهر في السجن ، بفعل الاحتجاجات الدبلوماسية ، وكاد يفقد تصريح عمله كبحار ، لكنه خرج من السجن وهو مستعد لتكرار ما فعله كلما اقتضى الأمر منه ذلك . وقد كان ذلك الحادث حدثاً تاريخياً : فالأطوم اليتيم ، الذي رُعي وعاش لسنوات طويلة في حديقة الحيوانات النادرة في سان نيكولا دي لاس بارانكاس ، كان الأطوم الأخير الذي شوهد في النهر .

قال القبطان :

ـ كلما مررت بهذا الشاطئ ، أدعو الله أن يعود ذلك الاميركي للابحار في سفينتي ، كي أتركه وحيداً من جديد .

فيرمينا داثا ، التي لم تكن تستلطفه أول الأمر ، أحست بميل شديد نحو ذلك المارد الرقيق ، وانزلته منذ ذلك الصباح في منزلة متميزة من قلبها . وقد أحسنت صنعاً بذلك : فالرحلة لم تكد تبدأ بعد ، وستجد مناسبات كثيرة لتتأكد من أنها لم تكن مخطئة .

بقيت فيرمينا داثا مع فلورينتينو اريثا في مركز القيادة حتى موعد الغداء ، بعد قليل من مرورهما قبالة بلدة كالامار ، التي كانت تعيش منذ بضع سنوات في عيد دائم ، ولم تعد الآن سوى أطلال ميناء شوارعها مقفرة . الكائن الوحيد الذي رأوه من السفينة ، هو امرأة متشحة بالبياض تلوح بمنديل في يدها . ولم تفهم فيرمينا داثا لماذا لم يحملوها في السفينة ، مع أنها كانت تبدو مغمومة جداً ، ولكن القبطان أوضح لها بأنها شبح امرأة

غارقة تلوح للمراكب باشارات مخادعة لتحرفها نحو الدوامات المائية الخطرة عند الضفة الأخرى . ولقد مروا قريباً جداً منهاحتى أن فيرمينا داثا رأتها بكل تقاطيعها ، واضحة تماماً تحت الشمس ، ولم ترتب في أنها غير موجودة حقاً ، لكن وجهها بدا لها مألوفاً .

كان يوماً طويلاً وقانظاً . وقد رجعت فيرمينا داثا إلى القمرة بعد الغداء ، لتنام قيلولتها المعتادة ، لكنها لم تنم نوماً مريحاً بسبب ألم أذنها ، الذي اشتد بعد أن تبادلت السفينة تحية قوية مع سفينة أخرى تابعة لشركة الكاريبي للملاحة النهرية التقت بها على بعد عدة فراسخ من بارانكا بييخا . قطع فلورينتينو اريثا حلماً عابراً وهو جالس في الصالون الرئيسي ، حيث ينام معظم المسافرين كما لو كان الوقت منتصف الليل . حلم بروساليا ، قريباً جداً من المكان الذي رآها تنزل فيه من السفينة إلى البر . رآها في حلمه تسافر وحدها ، بملابس من القرن الماضي ، وكانت هي ، وليس الطفل ، تنام القيلولة في قفص الخيزران المعلق على حافة جانب السفينة .كان حلماً غامضاً ومسلياً في الوقت ذاته ، وبقي يعيش متعته طوال ما بعد الظهر ، حين كان يلعب الدومينو مع القبطان واثنين من المسافرين .

كان الحر يخمد مع غروب الشمس ، فتنبعث الحياة في السفينة . يخرج المسافرون كما لو كانوا يخرجون من سبات طويل ، وقد استحموا وارتدوا ملابس نظيفة ، ويحتلون مقاعد الخيزران في الصالة بانتظار العشاء ، الذي يعلن عنه في الخامسة تماماً جرسون يذرع السفينة من طرف إلى آخر وهو يقرع وسط التصفيق الساخر جرس شماس . وفيما هم يأكلون ، تبدأ الفرقة بعزف موسيقى فاندانغو الراقصة ، ويستمر الرقص بعد ذلك حتى منتصف الليل .

لم تشأ فيرمينا داثا العشاء بسبب ألم أذنها ، وتفرجت على تحميل شحنة الحطب الأولى للمراجل ، وذلك في وهدة جرداء حيث لا شيء سوى

جذوع مكومة ، ورجل عجوز جداً يشرف على تلك التجارة . لم يكن يبدو أن هناك أحداً على مدى فراسخ كثيرة . ولقد كان التوقف بالنسبة لفيرمينا داثا بطيئاً ومملاً ، وغير وارد في عابرات المحيط الأوروبية ، وكان الحر شديداً حتى داخل الشرفة المبردة . ولكن حين انطلقت السفينة من جديد ، تحركت ريح باردة محملة بروائح بطن الغابة ، وأصبحت الموسيقى أكثر مرحاً . وفي بلدة سيتيونويغو ، كان ثمة ضوء وحيد ينبعث من نافذة وحيدة في بيت وحيد ، ولم يعط مكتب الميناء الاشارة الاصطلاحية بوجود بضائع أو مسافرين لحملهم في السفينة ، لذلك تابعت السفينة قدماً دون أن تطلق صفارة تحية .

كانت فيرمينا داثا قد أمضت طوال ما بعد الظهر متسائلة عن الذرائع التي سيلجأ اليها فلورينتينو اريثا ليراها دون أن يقرع باب القمرة ، ولم تعد عند حلول الليل قادرة على احتمال شوقها للقائه . فخرجت إلى الممر على أمل اللقاء به بشكل يبدو عرضياً ، ولم يكن عليها أن تمشي كثيراً : كان فلورينتينو اريثا يجلس على أحد مقاعد الممر ، صامتاً وحزيناً كما كان يجلس في حديقة البشارة ، وكان يسائل نفسه منذ أكثر من ساعتين ما الذي سيفعله ليراها . وأبدى كلاهما سيماء الدهشة والمفاجأة التي يتقنان تصنعها على حد سواء ، ومضيا معاً إلى القسم المخصص لركاب الدرجة الأولى من سطح المركب ، وكان يغص بمسافرين شبان معظمهم من الطلبة الصاخبين الذين ينهكون أنفسهم مع بعض القلق في الحفلة الأخيرة من الاجازة . وتناول فلورينتينو اريثا وفيرمينا داثا من الكانتين زجاجتي مرطبات وهما جالسان كالطلاب مقابل البار ، ورأت نفسها فجأة في موقف مخيف . وقالت : «يا للهول!» . وسألها فلورينتينو اريثا ما الذي تفكر به ويسبب لها هذا الانطباع . فقالت :

ـ يا للعجوزين المسكينين ، اللذين قتلا بضربات المجذاف في القارب .

ومضيا للنوم عندما توقفت الموسيقى ، بعد محادثة طويلة دون عثرات في الشرفة المظلمة . لم يكن هناك قمر ، وكانت السماء ملبدة ، وفي الأفق تلمح بروق بلا رعود فتضيئها هنيهة . لف فلورينتينو اريثا لها السجائر ، لكنها لم تدخن منها سوى أربع ، وهي تتعذب بالألم الذي كان يهدأ لحظات ثم ما يلبث أن يشتد حين تجأر الفينة لدى لقائها بسفينة أخرى ، أو مرورها مقابل قرية هاجعة ، أو حين تمضي ببطء لتسبر عمق النهر . روى لها كيف أنه كان يراها بشوق في مهرجانات الربيع ، وفي رحلة المنطاد ، وعلى الدراجة الاكروباتية ، وحدثها عن الشوق الذي كان ينتظر به الاحتفالات العامة طوال السنة ، وذلك ليراها فقط . وكانت هي تراه أيضاً في مناسبات كثيرة ، ولم تتصور يوماً بأنه موجود ليراها فقط . ومع ذلك ، فقد تساءلت فجأة حين قرأت رسائله قبل أقل من سنة ، كيف أمكن له ألا يشارك أبداً في مسابقات مهرجان الزهور ، لأنه كان سيفوز دون ريب . وكذب فلورينتينو اريثا عليها : لم يكن يكتب إلا لها ، جميع أشعاره لها ، ولم يكن يقرأها أحد سواه . حينئذ بحثت هي عن يده في الظلام ، ولم تجدها في انتظارها كما انتظرت هي يده في الليلة السابقة ، انما أمسكت بها بغتة . فتجمد قلب فلورينتينو اريثا ، وقال :

ـ يا لغرابة النساء .

أفلتت ضحكة عميقة ، ضحكة يمامة فتية ، وعادت تفكر بشيخي القارب . لقد كان ذلك مقدراً : وستلاحقها تلك الصورة دوماً . لكنها قادرة على احتمالها هذه الليلة ، لأنها تشعر بالطمأنينة والراحة ، كما شعرت مرات قليلة في حياتها : أحست أنها مطهرة من أية خطيئة . وكانت قادرة على البقاء هكذا حتى الفجر ، صامتة ، ويده تتعرق في يدها ، لكنها لم تستطع احتمال ألم أذنها . فحين انطفأت الموسيقى ، وتوقفت حركة مسافري الدرجة العادية الذين كانوا يعلقون أراجيح نومهم في الصالة ، أدركت أن ألمها أقوى

من رغبتها في البقاء معه . كانت تعلم أن مجرد اخباره بألمها سيخفف عنها لكنها لم تفعل كي لا تقلقه . اذ كانت تشعر حينئذ بأنها تعرفه كما لو أنها عاشت معه حياتها كلها ، وكانت ترى أنه لن يتورع عن اعطاء الأمر بعودة السفينة إلى الميناء اذا كان هذا يخلصها من الألم .

أحس فلورينتينو اريثا أن الأمر ستمضي هذه الليلة على هذا الحال ، فانسحب . وفيما هو عند باب القمرة ، حاول توديعها بقبلة ، لكنها وضعت له خدها الأيسر . فأصر ، وقد تهدجت أنفاسه ، فقدمت له خدها الآخر بغنج لم يعرفه في تلميذة مدرسة . وعندئذ أصر للمرة الثانية ، فتلقته بشفتيها ، وضمته برعشة عميقة حاولت خنقها بضحكة منسية منذ ليلة زفافها وقالت :

ـ رباه ، كم أنا مجنونة في السفن!

ارتعش فلورينتينو اريثا : فقد كانت تنبعث منها حقاً ، كما قالت ، رائحة الشيخوخة . ولكنه فيما كان يتقدم نحو قمرته شاقاً طريقه وسط متاهة أراجيح النائمين ، عزى نفسه بأن له رائحة كتلك ، إلا أنها أكبر بأربع سنوات ، ولا بد أنها قد أحستها بالانفعال نفسه . انها رائحة الخمائر البشرية التي أحسها في عشيقاته القديمات وأحسسنها فيه . لقد قالت له أرملة ناثاريت ، التي لا تخفي شيئاً ، بطريقة فجة يوماً : «ان رائحتنا أصبحت كرائحة طيور الرخمة» . وكان كلاهما يحتمل رائحة الآخر ، لأنهما كانا متساويين : رائحتي مقابل رائحتك . لكنه كان شديد الحذر مع اميركا فيكونيا ، فرائحة الأقمطة التي تنبعث منها كانت توقظ غرائزه الأمومية ، لكنه كان يتعذب لفكرة أنها لا تستطيع احتمال رائحته : رائحة الشيخ المتصابي . غير أن هذا كله أصبح من الماضي . والمهم الآن هو أن فلورينتينو اريثا لم يشعر بسعادة كسعادته هذه الليلة منذ ذلك المساء الذي تركت فيه العمة اسكولاستيكا كتاب الصلوات على طاولة مكتب التلغراف... انها سعادة غامرة إلى حد يبعث فيه الخوف .

كان قد بدأ يغفو ، حين أيقظه مراسل السفينة في الساعة الخامسة عند ميناء ثامبروان ليسلمه برقية مستعجلة . كانت البرقية تحمل توقيع ليونا كاسياني ، وتاريخ اليوم السابق ، وكل رعبها ضمنته في سطر واحد : اميركا فيكونيا ماتت أمس . الأسباب غير معروفة . وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً عرف التفاصيل من خلال اتصال تلغرافي مع ليونا كاسياني ، وقام هو بنفسه بالعمل على جهاز الارسال كما لم يفعل منذ سنواته كعامل تلغراف . وعلم أن اميركا فيكونيا ، التي وقعت ضحية احباط قاتل لرسوبها في الامتحانات النهائية ، شربت قنينة لودانوم سرقتها من مستوصف المدرسة . كان فلورينتينو اريثا يعلم في أعماق روحه أن ذلك الخبر غير مكتمل . ولكن لا : فاميركا فيكونيا لم تترك أية ملاحظة تتيح القاء مسؤولية قرارها على أحد . كان أفراد عائلتها قد وصلوا من بويرتوبادري ، بعد أن أعلمتهم ليونا كاسياني بالأمر ، وسيتم الدفن في الخامسة مساء . تنفس فلورينتينو اريثا الصعداء . فالشيء الوحيد الذي يستطيع عمله كي يستمر في الحياة هو ألا يسمح لنفسه بالعذاب في تلك الذكرى . محا الأمر من ذاكرته ، رغم أنه سيشعر به ينبعث على نحو مفاجئ بين الحين والآخر في سنوات حياته الباقية ، دون أي داعٍ ، وكأنه وخزة عابرة في جرح قديم مندمل .

كانت الأيام التالية حارة لا تطاق . وأصبح النهر عكراً وأخذ يضيق شيئاً فشيئاً ، وبدلاً من الأشجار الضخمة المتشابكة التي أذهلت فلورينتينو اريثا في رحلته الأولى ، كانت هناك بطاح كلسية ، وبقايا غابات التهمتها مراجل السفن ، وأنقاض قرى مهجورة لرحمة الله ، مازالت شوارعها غارقة في أزمنة الجفاف القاسية . ولم تكن توقظهم في الليل أغنيات عرائس الماء التي تغنيها الأطم على الضفاف ، وانما روائح النتانة المنبعثة من الجثث التي تمر طافية صوب البحر . لم تكن ثمة حروب ولا أوبئة ، لكن الجثث المنتفخة مازالت تمر طافية . وقد كان القبطان متواضعاً مرة واحدة : «لدينا أوامر بأن نقول

للمسافرين بأنها جثث غرقى» . وبدلاً من رطانة الببغاوات وصخب القرود اللامرئية التي كانت تفاقم من احتدام حر الظهيرة في أزمنة أخرى ، لم يبق سوى صمت الأرض الخراب .

كانت أماكن التحطيب المتبقية قليلة جداً ، ومتباعدة أحدها على الآخر ، مما أبقى وفاء الجديدة بلا وقود بعد أربعة أيام من بدء الرحلة . ورست لمدة أسبوع تقريباً ، الى أن توغل أفراد الطاقم في المستنقعات الرمادية بحثاً عن آخر الأشجار المبعثرة . لم تكن هنالك أشجار أخرى : فالحطابون هجروا عملهم هرباً من قسوة ملاكي الأراضي ، وهرباً من الكوليرا اللامرئية ، وهرباً من الحروب الخفية التي تحاول الحكومات التستر عليها بمراسيم تشغل الناس عنها . وأثناء ذلك ، نظم المسافرون الضجرون مسابقات في السباحة ، وحملات صيد ، كانوا يعودون منها بعظاءات ضخمة حية يشقون صدورها ويعيدون خياطتها ثانية بابر تنجيد بعد أن يستخرجوا منها عناقيد البيض البراقة الطرية ، التي يعلقونها في سلاسل لتجف على حوافي السفينة . واقتفت عاهرات القرى المجاورة البانسات أثر حملات الصيد ، فنصبن خياماً مرتجلة عند ضفة النهر ، وجنن بالموسيقى والخمر ، وأقمن مهرجاناً مقابل السفينة المتوقفة .

قبل أن يصبح رئيساً لشركة الكاريبي النهرية بوقت طويل ، كان فلورينتينو اريثا يتلقى تقارير مفزعة عن حالة النهر ، لكنه لم يكن ليهتم بقراءتها . وكان يطمئن شركاءه : «لا تقلقوا ، فحين ينتهي الحطب ستكون قد بنيت سفن تعمل بالبترول» . ولم يكلف نفسه يوماً مشقة التفكير بالأمر ، لأنه كان مبهوراً بهوى فيرمينا داثا ، وحين وعى الحقيقة كان الوقت قد فات ولم يعد بامكانه عمل شيء ، اللهم الا شق نهر جديد . في الليل وحتى في مواسم ارتفاع منسوب الماء ، كان لابد من ربط السفن للنوم ، وحينئذ يصبح مجرد كون المرء حياً أمراً لا يطاق . فيغادر معظم

المسافرين ، والأوربيين منهم بشكل خاص ، عفونة القمرات ويقضون الليل سائرين على سطح السفينة ، وهم يهشون جميع أنواع الهوام بالمناشف ذاتها التي يمسحون بها عرقهم المتواصل ، ويدركهم الصباح وهم منهكون ومتورمون بلسع الحشرات . لقد كتب رحالة انكليزي في أوائل القرن التاسع عشر ، مشيراً الى الرحلة التي كانت تتم في الزوارق أولاً ثم على متن البغال ، والتي كانت تدوم حتى خمسين يوماً ، يقول : «انها من أسوأ الأسفار التي يمكن لانسان أن يقوم بها وأكثرها مشقة» . ولكن هذا التقدير لم يعد صحيحاً خلال ثمانين السنة الأولى من الملاحة البخارية ، ثم عاد ليصبح كذلك والى الأبد ، حين أكلت التماسيح آخر الفراشات ، وانقرضت الأطم الأمومية ، واختفت الببغاوات ، والقرود ، والقرى : وانتهى كل شيء .

كان القبطان يقول ضاحكاً :

ـ لا وجود لأي مشكلة ، فخلال بضع سنوات سنذرع مجرى النهر الجاف في سيارات فاخرة .

احتمت فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا خلال الأيام الثلاثة الأولى في كنف الشرفة المغلقة ذات الجو الربيعي ، ولكن جهاز التبريد بدأ يتوقف حين جرى تقنين الحطب ، فتحولت القمرة الرئاسية الى ما يشبه طنجرة الضغط . وكان الفضل في بقاء فيرمينا داثا على قيد الحياة خلال الليل يعود الى الهواء النهري الذي يدخل من النوافذ المفتوحة فيما هي تهش البعوض بالمنشفة ، لأن مضخة المبيد الحشري كانت بلا جدوى أثناء توقف السفينة . وأصبح ألم أذنها لا يطاق ، لكنه توقف تماماً عند استيقاظها في صباح أحد الأيام فجأة ، كما يتوقف غناء زيز منفجر . ولكنها لم تدرك حتى حلول الليل أنها فقدت السمع بأذنها اليسرى وذلك حين كلمها فلورينتينو اريثا من هذه الجهة ، فاضطرت لأن تلتفت برأسها كي تسمع ما يقوله . لم تخبر أحداً بذلك ، مؤمنة بأن الأمر ليس سوى نقيصة أخرى لا مناص منها من نقائص التقدم في السن .

لكن تأخر السفينة كان بالنسبة لها محنة مباركة رغم كل شيء ولقد قرأ فلورينتينو اريثا ذلك يوماً :«ان الحب يصبح أعظم وأنبل في المحن» . كانت رطوبة القمرة الرناسية تغرقهما في سبات لا واقعي يصعب الحب فيه دون أسئلة . كانا يعيشان ساعات لا يمكن تخيلها وهما يمسكان أحدهما بيد الآخر أثناء جلوسهما على مقاعد الشرفة ، يتبادلان قبلاً بطيئة ، وينعمان بنشوة المداعبات دون عراقيل الغضب . وفي ليلة السبات الثالثة ، انتظرته وقد هيأت زجاجة من خمر اليانسون ، الذي كانت تشرب منه خفية مع عصبة ابنة خالها هيلديبراندا ، ثم مع صديقات عالمها المستعار فيما بعد ، حين تزوجت وصارت أماً . لقد كانت تحتاج لبعض النشوة كي لا تفكر في مصيرها بوعي تام ، ولكن فلورينتينو اريثا ظن أنها تريد بذلك الحصول على الشجاعة للاقدام على الخطوة الأخيرة ، ومدفوعاً بهذا الوهم ، تجرأ على التقدم برؤوس أصابعه لاستكشاف عنقها الذاوي ، وصدرها المصفح بأسياخ معدنية وردفيها العظميين المتآكلين ، وفخذي الغزالة الهرمة . وتقبلت ذلك منتشية ، بعينين مغمضتين ، ولكن دون أن ترتعش ، فيما هي تدخن تشرب رشفات متباعدة من الخمر . وأخيراً حين نزلت المداعبات الى بطنها وأصبحت كمية الخمر في قلبها كافية ، قالت :

ـ اذا كنا سنمارس الحماقات ، فلنفعل ، على أن يكون ذلك كأناس طاعنين في السن .

قادته الى المخدع ، وراحت تتعرى دون خفر زائف تحت الأنوار المضاءة . واستلقى فلورينتينو اريثا على ظهره فوق السرير ، محاولاً استعادة السيطرة على نفسه ، دون أن يدري ثانية ما الذي يفعله بجلد النمر الذي قتله . قالت له : «لا تنظر» . فسألها لماذا دون أن يرفع نظره عن السقف الأملس .

فقالت :

ـ لأنني لن أعجبك .

عندئذ نظر اليها ، ورآها عارية حتى وسطها ، تماماً كما تخيلها . كان كتفاها مجعدين وثدياها متهدلين ، وأضلاعها مغطاة بجلد شاحب وبارد كجلد ضفدع . غطت صدرها ببلوزتها التي انتهت من خلعها ، وأطفأت النور . حينئذ اعتدل في السرير وبدأ يخلع ملابسه في الظلام ، قاذفا إياها بكل قطعة يخلعها من ثيابه ، وكانت تعيد قذفه بها وهي غارقة في الضحك .

بقيا مستلقيين على ظهرهما لوقت طويل ، وكان يزداد ذهولاً كلما فارقته النشوة . ، فيما هي هادئة ، وشبه هامدة ، لكنها كانت تدعو الله ألا يجعلها تنفجر بالضحك دون سبب ، مثلما يحدث لها كلما فقدت السيطرة على نفسها بفعل خمر اليانسون . تحدثا لشغل الوقت . تكلما عن نفسيهما وعن حياتيهما المختلفتين ، وعن المصادفة التي لا تصدق في كونهما عاريين داخل قمرة مظلمة في سفينة متوقفة ، في الوقت الذي كان عليهما أن يفكرا بأنه لم يبق لديهما متسع من الوقت إلا لانتظار الموت . لم تكن قد سمعت يوماً بأنه كان على علاقة بامرأة ، ولو بامرأة واحدة ، في مدينة يشيع فيها كل شيء قبل حدوثه . قالت له ذلك عرضاً ، فرد عليها مباشرة ودون أية ارتعاشة في صوته :

ـ لقد احتفظت بعذريتي من أجلك .

ما كانت ستصدق ذلك على أية حال ، حتى ولو كان صحيحاً ، لأن رسائله الغرامية كانت مصوغة من عبارات كتلك التي لا تكمن قيمتها في معناها ، وإنما في قدرتها على الابهار . لكنها أعجبت بالشجاعة التي قال فيها ذلك . وتساءل فلورينتينو اريثا بدوره بغتة حول الأمر الذي ما كان يتجرأ على التفكير فيه : أي نوع من الحياة السرية مارست على هامش حياتها الزوجية . ولم يكن ليفاجأ بأي شيء ، لأنه كان يعلم أن النساء مثل الرجال في مغامراتهن السرية : يلجأن إلى الحيل ذاتها ، والمكائد المباغتة

ذاتها ، والخيانات بلا وازع من ضمير ذاتها . ولكنه أحسن صنعاً بعدم توجيه السؤال اليها . ففي حقبة كانت علاقاتها بالكنيسة متردية إلى حد بعيد ، سألها كاهن الاعتراف دون أي مبرر إذا ما كانت غير وفية لزوجها يوماً ، فنهضت دون أن تجيب ، ودون أن تنتهي ، ودون أن تودع ، ولم تعد منذ ذلك الحين للاعتراف سواء مع هذا الكاهن أو مع أي كاهن آخر . أما فطنة فلورينتينو اريثا فقد جاءت بمردود غير منتظر : مدت يدها في الظلام ، وداعبت بطنه ، وخاصرته ، وعانته شبه الجرداء ، وقالت : « إن لك بشرة طفل رضيع » . ثم قامت بخطوة أخيرة : بحثت عنه حيث لم يكن ، وعادت تبحث دون أوهام ، فوجدته أعزل .

قالت :

ـ إنه ميت .

لقد كان يحدث له ذلك دوماً في المرة الأولى ، معهن جميعاً ، ودائماً إلى أن تعلم التعايش مع ذلك الوهم : في كل مرة عليه أن يتعلم من جديد ، كما لو كانت المرة الأولى . أمسك يدها ووضعها على صدره ، فأحست فيرمينا داثا عند سطح الجلد تقريباً بالقلب الهرم الذي لا يكل وهو يخفق بقوة ، وسرعة وعدم انتظام قلب مراهق . فقال : « إن حباً فائضاً له من التأثير على القلب كما لقلة الحب » . لكنه قال ذلك دون قناعة : كان خجلاً وغاضباً من نفسه ، يتلهف الى مبرر يتيح له اتهامها بإخفاقه . وكانت تعرف ذلك ، فأخذت تستنفد الجسد الأعزل بمداعبات ساخرة ، كقطة ناعمة تتلذذ بالقسوة ، الى أن فقد القدرة على احتمال مزيد من العذاب ومضى الى قمرته ، تابعت التفكير فيه حتى الفجر ، مقتنعة أخيراً من حبها له ، وكلما كان يفارقها بموجات بطيئة ، كان القلق يهاجمها بأنه قد غضب منها ولن يعود أبداً .

لكنه عاد في اليوم ذاته ، في الساعة الحادية عشرة غير المألوفة ،

وكان منتعشاً ومرمماً ، ووقف يتعرى أمامها بشيء من المباهاة . وابتهجت وهي تراه تحت الضوء الغامر كما تخيلته في الظلام : رجلا بلا سن محدد ، ذا بشرة قاتمة ، ومشدودة كمظلة مفتوحة ، دون أي شعر سوى بعض الزغب السبط تحت الابطين وفي العانة . سلاحه عامراً ، وانتبهت الى أنه لا يُظهره مصادفة وإنما هو يعرضه كنصب حربي ليبث الشجاعة في نفسه . لم يتح لها الفرصة لخلع قميص نومها الذي لبسته حين بدأ يهب نسيم الفجر وسبب لها تسرعه كمبتدئ ارتعاشة عطف ، لكنها لم تزعجها ، إذ لم يكن من السهل عليها في حالات كتلك التمييز بين العطف والحب . ومع ذلك فقد أحست آخر الأمر بالخواء .

كانت المرة الأولى التي تمارس فيها الحب منذ أكثر من عشرين سنة ، وقد مارسته مدفوعة بفضول التعرف الى كنهه في سنها وبعد عطالة طويلة الأمد . لكنه لم يتح لها الوقت الكافي لتعرف ما إذا كان جسدها يحبه أيضاً . لقد كان سريعاً وحزيناً ، وفكرت : «ها نحن ذا قد أفسدنا كل شيء الآن» . لكنها كانت مخطئة : فرغم خيبة أملهما ، ورغم ندمه لبلادته وتأنيبها نفسها لجنون اليانسون ، لم يفترقا عن بعضهما لحظة واحدة خلال الأيام التالية . لم يغادرا القمرة إلا قليلاً لتناول الطعام . وكان القبطان ساماريتانو ، الذي يكتشف بالغريزة أي سر مخبأ في سفينته ، يبعث اليهما بالوردة البيضاء كل صباح ، ويأمر بعزف موسيقى من زمنهما ، ويعد لهما أصنافاً من الطعام بطريقة لا تخلو من مزاح ، وذلك بأن يضيف اليها مواد مهيجة . ولم يحاولا ممارسة الحب إلا بعد وقت طويل ، حين جاءهما الالهام دون أن يسعيا في طلبه . لقد كانا يكتفيان بسعادة وجودهما معاً .

لم يفكرا بالخروج من القمرة لولا أن القبطان بعث اليهما يخبرهما بأن السفينة ستصل بعد الغداء الى ميناء لادورادا ، الميناء الأخير بعد أحد عشر يوماً من السفر . ورأت فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا من القمرة رابية البيوت

المضاءة بشمس شاحبة ، وظنا بأنهما توصلا لمعرفة سبب تسمية البلدة بهذا الاسم ، لكن الأمر ما لبث أن بدا لهما أقل وضوحاً حين أحسا بالحر الذي يلهث مثل مراجل السفينة ، ورأيا اسفلت الشوارع وهو يفور . ثم أن السفينة لم تتوقف هناك ، وإنما رست عند الضفة المقابلة ، حيث المحطة النهائية لقطار سانتافي .

غادرا مخبأهما فور نزول المسافرين الى البر . وتنفست فيرمينا داثا هواء الخلاص الطيب في الصالون الخاوي ، وراقب كلاهما من حافة السفينة الحشود الصاخبة التي كانت تبحث عن أمتعتها في عربات القطار الذي بدا أشبه بدمية . كان يمكن الاعتقاد بأنهم قادمون من أوروبا ، وخصوصاً النساء اللواتي كن يرتدين المعاطف الشمالية وقبعات القرن الماضي التي كانت تشكل نقيضاً للقيظ الأغبر . وكانت بعض النسوة يزين شعورهن بأزهار بطاطا ذابلة بفعل الحر . إنهن قادمات من السهل الأنديزي بعد رحلة في القطار عبر سهوب حالمة ، ولم تسنح لهن الفرصة بعد لاستبدال ملابسهن بما يتلاءم مع الجو الكاريبي .

وسط صخب السوق ، كان ثمة رجل عجوز يُخرج صيصاناً من جيوب معطفه الذي كمعطف متسول . لقد ظهر فجأة ، شاقاً طريقه وسط الحشود بمعطف مرقع لا بد أنه كان لشخص أكثر منه طولاً وبدانة . خلع قبعته ووضعها على الرصيف ليلقي بها نقوداً من يشاء الالقاء ، وراح يُخرج من جيوبه حفنات من صيصان لينة وباهتة بدت وكأنها تتكاثر بين اصابعه . وبدا رصيف الميناء خلال لحظة وكأنه مفروش بالصيصان المرتعدة التي تزقزق في كل مكان ، بين المسافرين المتعجلين الذين يدسونها دون أن يشعروا بها . وفيما فيرمينا داثا مسحورة بالمشهد الرائع الذي بدا وكأنه يجري على شرفها ، لأنها الوحيدة التي كانت تراقبه ، لم تنتبه متى بدأ المسافرون في رحلة العودة يصعدون الى السفينة . لقد انتهت حفلتها : اذ رأت بين

القادمين عدداً كبيراً من الوجوه المعروفة ، منهم بعض الأصدقاء الذين رافقوها في حدادها منذ وقت قريب ، فسارعت إلى اللجوء مجدداً الى القمرة . وجدها فلورينتينو اريثا مذعورة : كانت تفضل الموت على أن يكتشفها جماعتها وهي في رحلة متعة ، ولما يمضِ على موت زوجها سوى هذا الوقت القليل . وقد تأثر فلورينتينو اريثا شديد التأثر لجزعها ، مما جعله يعدها بالتفكير في وسيلة لحمايتها غير السجن في القمرة .

لقد خطرت له الفكرة فجأة أثناء تناولهم العشاء في صالة الطعام الخاصة . كان القبطان قلقاً لمشكلة يريد أن يناقشها منذ زمن طويل مع فلورينتينو اريثا ، الذي كان يتجنب الخوض في هذا الحديث دوماً بذريعة عادية : «بإمكان ليونا كاسياني تدبر هذه الأمور خيراً مني» . ولكنه استمع اليه هذه المرة . المسألة هي أن السفن تشحن البضائع في صعودها ، ولكنها تعود فارغة في رحلة العودة ، بينما يكاد يحدث العكس بالنسبة للمسافرين ، قال : «هذا مع أفضلية البضائع ، لأن أجور شحنها أعلى اضافة الى أنها لا تأكل» . كانت فيرمينا داثا تتناول العشاء بلا شهية ، ضجرة من المناقشة الخافتة بين الرجلين حول ضرورة اقرار فروق في التعرفة . استمع فلورينتينو اريثا حتى النهاية ، وحينئذ فقط وجه سؤالاً بدا للقبطان على أنه فكرة الخلاص ، اذ قال :

ـ أيمكننا ، نظريا ، القيام برحلة مباشرة بلا حمولة ولا مسافرين ودون التوقف في أي ميناء ، ودون أي شيء ؟

وقال القبطان أن ذلك ممكن نظرياً فقط ، لأن لدى ش . ك . م . ن . التزامات عمل يعرفها فلورينتينو اريثا أفضل من سواه ، وهي ملتزمة بعقود لشحن البضائع والركاب والبريد وأشياء أخرى كثيرة لا يمكن تجنب معظمها . والسبيل الوحيد الذي يتيح القفز فوق كل شيء هو وجود مصاب بالوباء على متن السفينة . لأن السفينة ستعتبر حينئذ محجورة صحياً ،

وسترفع الراية الصفراء وتبحر في حالة طوارئ . لقد اضطر القبطان ساماريتانو لعمل ذلك عدة مرات بسبب اصابات الكوليرا الكثيرة في قرى النهر ، على الرغم من أن السلطات الصحية كانت تجبر الأطباء فيما بعد على اصدار وثائق تثبت أن الحالة ليست الا ديزنطاريا عادية . ثم أن راية الوباء الصفراء رفعت كثيراً عبر تاريخ النهر للتهرب من الضرائب ، أو للتخلص من مسافر غير مرغوب فيه ، أو للحيلولة دون عمليات التفتيش غير الملائمة . وجد فلورينتينو اريثا يد فيرمينا داثا تحت المائدة ، وقال :

ـ حسناً . فلنفعل هذا .

فوجئ القبطان ، ولكنه بغريزة الثعلب العجوز التي يتمتع بها ، رأى كل شيء واضحاً في الحال . فقال :

ـ أنا آمر في هذه السفينة ، ولكنك تأمر علينا ، فإذا كنت تتكلم بجد ، أعطني الأمر مكتوباً ، وسننطلق الآن في الحال .

كان جدياً بالطبع ووقع فلورينتينو اريثا الأمر . فالجميع يعلمون في نهاية المطاف أن الكوليرا لم تنته بعد ، رغم احصائيات السلطات الصحية المتفائلة . أما بالنسبة للسفينة فلا وجود لأية مشكلة . تم تحليل البضائع القليلة لنقلها في سفينة أخرى ، وقيل للمسافرين إن عطلاً طرأ على المحركات ، وإنهم سينقلونهم في سفينة تابعة لشركة أخرى في الصباح . ولم يجد فلورينتينو اريثا ما يمنع من اقتراف هذه الأمور في سبيل الحب ، إذا كانت تقترف لأسباب كثيرة غير أخلاقية ، وغير وقورة أحياناً . والرجاء الوحيد الذي تقدم به القبطان هو التوقف في ميناء بويرتوناريه ، لاصطحاب من ترافقه في الرحلة ؛ فقد كان له قلبه المخبأ أيضاً .

وهكذا أبحرت وفاء الجديدة عند فجر اليوم التالي ، بلا بضائع ولا مسافرين ، فيما راية الكوليرا الصفراء تخفق طرباً على صاريها الأكبر . وعند الظهر التقطوا من ميناء بويرتوناريه امرأة أطول من القبطان وأضخم منه ،

ذات جمال فظيع ، لا تنقصها سوى اللحية كي تتعاقد للعمل في سيرك . زينايدا ينفيس ، لكن القبطان كان يدعوها ممسوستي : إنها صديقة قديمة اعتاد حملها من أحد الموانئ وتركها في ميناء آخر ، وما إن صعدت الى السفينة حتى هبت ريح شديدة مواتية . وفي ذلك الحجر الكئيب ، استعاد فلورينتينو اريثا الحنين لذكرى روسالبا وهو يرى قطار انفيغادو يصعد بمشقة على الطريق القديم الذي كانت تسلكه البغال ، وهطل وابل من المطر الأمازوني ، سيستمر طوال الرحلة تتخلله انقطاعات قصيرة . ولكن أحداً لم يهتم لذلك ؛ إذ أن للحفلة العائمة سقفها الخاص . في تلك الليلة ، وكمساهمة شخصية في الحفلة ، نزلت فيرمينا داثا الى المطابخ وسط تشجيع طاقم السفينة ، وأعدت طبقاً مبتكراً للجميع ، عمده فلورينتينو اريثا باسم : باذنجان الحب .

كانوا يلعبون الورق خلال النهار ، ويأكلون حتى التخمة ، وينامون قيلولات غرانيتية تستنفد قواهم ، وما أن تغيب الشمس حتى يطلقون الموسيقى ويشربون خمر اليانسون مع السلمون الى ما بعد الارتواء . لقد كانت رحلة سريعة ، في السفينة الخفيفة والمياه الطيبة ، التي تحسنت بالفيضانات الرافدة من الجبال ، حيث هطل مطر غزير في ذلك الأسبوع كالمطر الذي هطل على طول مجرى النهر . وكانوا يطلقون لهم في بعض القرى مدافع الرحمة لافزاع الكوليرا ، فيردون شاكرين بجؤار حزين . وكلما التقوا بسفينة تابعة لأية شركة نهرية ، كانت تبادلهم اشارات المواساة . وفي بلدة ماغنغيه ، حيث ولدت ناديا ، حملوا حطباً لبقية الرحلة .

فزعت فيرمينا داثا حين بدأت تحس بصفارة السفينة تدوي في أذنها السليمة ، لكنها في اليوم الثاني من تناول خمر اليانسون ، أصبحت تسمع جيداً بكلتا أذنيها . واكتشفت أن للأزهار رائحة أقوى بكثير من رائحتها السابقة ،وأن العصافير تغرد في الصباح أفضل بكثير من تغريدها السابق ،

وأن الله خلق أطومة ووضعها عند ضفة تامالاميكي لتوقظها فقط . سمعها القبطان ، فحرف السفينة عن مسارها ، ورأوا أخيراً الأم الضخمة وهي تُرضع صغيرها على ذراعيها . لم تنتبه فيرمينا داثا كما لم ينتبه فلورينتينو اريثا كيف اندمجا معاً الى هذا الحد : كانت تساعده في ارتداء سترته ، وتستيقظ قبله لتنظف أسنانه الاصطناعية التي يتركها في كأس الماء حين ينام ، وحلت مشكلة النظارات ، لأن نظارته كانت تناسبها تماماً للقراءة ورفو الجوارب . وعند استيقاظها في صباح أحد الأيام ، رأته في الظلمة يخيط زراً لقميصه ، فسارعت لتفعل ذلك بنفسها ، قبل أن يكرر العبارة الروتينية عن حاجته لزوجتين . والشيء الوحيد الذي طلبته هي منه كان أن يضع لها كأس حجامة لألم أصاب ظهرها .

ومن جهة أخرى ، كان فلورينتينو اريثا يتحرق شوقاً للعزف على كمان الفرقة الموسيقية ، وقد استطاع أن يعزف لها فالس الربة المتوجة بعد أن تدرب عليه في نصف نهار ، وعزفه خلال ساعات وساعات ، الى أن اوقفوه مكرها . وفي إحدى الليالي ، استيقظت فيرمينا داثا للمرة الأولى في حياتها مختنقة ببكاء لم يكن وليد غضب وانما بكاء حزن ، لذكرى العجوزين اللذين ماتا بضربات مجذاف صاحب القارب الذي كانا فيه . أما المطر المتواصل فلم يكن يؤثر فيها ، وفكرت متأخرة بأن باريس قد لا تكون كئيبة الى الحد الذي تصورته من قبل ، وأن سنتافي ليست مدينة جنازات كثيرة تجوب الشوارع فقط . ووسع من آفاقها الحلم برحلات أخرى مع فلورينتينو اريثا في المستقبل : رحلات مجنونة ، بلا صناديق كثيرة ، وبلا التزامات اجتماعية : رحلات حب .

أقاموا عشية الوصول حفلة كبيرة ، وعلقوا أكاليل ورقية ومصابيح ملونة . كان المطر قد توقف عن الهطول عند المغيب . ورقص القبطان وزينايدا متلاصقين رقصة البولير والتي كانت تخلب القلوب في تلك

السنوات . وتجرأ فلورينتينو اريثا ، فاقترح على فيرمينا داثا أن يرقصا فالس الانسجام ، لكنها رفضت ، ومع ذلك ، فقد أمضت الليل وهي تضبط الايقاع بحركة من رأسها وكعبي حذائها ، ووصل بها الأمر في بعض اللحظات الى الرقص وهي جالسة دون أن تنتبه الى ذلك ، بينما القبطان يتيه مع ممسوسته في عتمة البوليرو . شربت كثيراً من الخمر مما اضطرهم لمساعدتها في ارتقاء السلالم ، واجتاحتها نوبة ضحك صاخب مترافقة مع دموع أثارت قلقهم جميعاً . لكنها حين سيطرت على نفسها في سكون القمرة المعطرة ، مارست مع فلورينتينو اريثا حبا هادئا وصحياً... حب جدين ملوثين ، سيستقر في ذاكرتها كأفضل ذكرى من تلك الرحلة العسلية . ما عادا يشعران بنفسيهما كخطيبين حديثين ، على خلاف ما كان يفترضه القبطان وزينابيدا ، ولا كعاشقين متأخرين .كانا يشعران كأنهما قد اجتازا جلجلة الحياة الزوجية الصعبة ، ووصلا دون لف ولا دوران الى جوهر الحب . كانا ينسابان بصمت كزوجين قديمين كوتهما الحياة ، الى ما وراء خدع العاطفة ، الى ما وراء حيل الأوهام القاسية وسراب خيبة الأمل : الى ما وراء الحب . لقد عاشا معا ما يكفي ليعرفا أن الحب هو أن نحب في أي وقت وفي أي مكان ، وأن الحب يكون أكثر زخماً كلما كان أقرب الى الموت .

استيقظا في الساعة السادسة . كانت تعاني وجع رأس مضمخ باليانسون ، وكان قلبها مذهولا لاحساسها بأن الدكتور خوفينال اوربينو قد رجع ، أكثر بدانة وشبابا مما كان عليه حين انزلق عن الشجرة ، وأنه كان يجلس بانتظارها على الكرسي الهزاز أمام باب البيت . ولكنها كانت صاحية بما يكفي لتدرك أن ذلك لم يكن بتأثير خمر اليانسون ، وإنما بفعل الوصول الوشيك . قالت :

ـ سيكون هذا الرجوع كأنه الموت .

ـ فوجئ فلورينتينو اريثا ، لأنها عبرت بما قالته عن فكرة لم تتح له

العيش منذ بدأت رحلة العودة . لم يكن بامكانه ولا بامكانها تصور نفسيهما يعيشان في بيت آخر سوى القمرة ، أو يأكلان بطريقة غير طريقة الأكل في السفينة ،أو يندمجان في حياة ستكون غريبة عليهما الى الأبد . لقد كان ذلك كأنه الموت حقا . ولم يستطع العودة الى النوم . بقي مستلقيا في السرير ، ويداه متقاطعتان وراء رقبته . وفي لحظة معينة ، وخزته ذكرى اميركا فيكونيا وجعلته يتلوى ألما ، فلم يستطع تأجيل الحقيقة أكثر : حبس نفسه في الحمام وبكى ما شاء له البكاء ، دون تسرع ، الى أن جفت دمعته الأخيرة . وحينئذ فقط واتته الشجاعة ليعترف لنفسه كم أحبها .

عندما استيقظا وارتديا ملابسهما للنزول الى البر ، كانت السفينة قد خلفت وراءها مجاري ومستنقعات القنال الاسباني القديم ، وكانوا يبحرون وسط انقاض السفن وبقع الزيت الميت في الخليج . وكان يوم خميس مشع يعلو قباب مدينة الفيريس المذهبة ، لكن فيريمنا داثا التي كانت تنظر الى المدينة من الشرفة ، لم تستطع احتمال عفونة امجادها ، ولا غطرسة حصونها التي تنتهكها السحالي... لقد كانت تشعر بالرعب من الحياة الواقعية . لم يشعر هو كما لم تشعر هي ، دون أن يقول احدهما ذلك للآخر ، بالرغبة في الاستسلام بمثل هذه السهولة .

وجدا القبطان في صالة الطعام ، في حالة اضطراب لا تتفق مع عاداته المهذبة : كانت ذقنه غير حليقة ، وعيناه محتقنتين بالأرق ، وعلى جسده ما زالت ملابس الليلة الماضية المضمخة بالعرق ، وكانت كلماته المضطربة تخرج مختلطة بتجشؤات خمر اليانسون . أما زينايدا فكانت ما تزال نائمة . بدأوا بتناول الفطور صامتين ، حين اقترب زورق يسير بالبترول تابع لسلطات الميناء الصحية وأمر السفينة بالتوقف .

ورد القبطان صارخاً من فوق مركز القيادة على أسئلة الدورية المسلحة . كانوا يريدون معرفة نوع الوباء الذي يحملونه ، وعدد

المسافرين في السفينة ، وعدد المرضى بينهم ، وما هي احتمالات انتقال العدوى الى آخرين . ورد القبطان بأن السفينة تحمل ثلاثة مسافرين فقط ، وجميعهم مصابين بالكوليرا ، ولكنهم معزولون بشكل صارم ، وأن أحدا لم يتصل بهم ، سواء من المسافرين الذين كانوا يصعدون الى السفينة في لادورادا أو من رجال الطاقم . لكن قائد الدورية لم يطمئن ، فأمرهم بالخروج من الميناء والانتظار في مستنقع لاس ميرثيدس حتى الثانية بعد الظهر ، ريثما يجهزون لهم اجراءات الحجر الصحي على السفينة . أطلق القبطان فرقعة حوذي من فمه ، وأمر عامل الدفة باشارة من يده للدوران والعودة الى المستنقعات .

سمع كل من فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا ما دار من حديث وهما على المائدة ، ولكن لم يبد على القبطان أنه مهتم بالأمر . تابع تناول طعامه بصمت ، وكان تعكر المزاج يبدو حتى في خرقه لقوانين التمدن التي ترسخ سمعة قباطنة النهر العريقة . وخز برأس السكين البيضات الأربع المقلية ، وحركها في الطبق مع شرائح من الموز الأخضر كان يدسها كاملة في فمه ويمضغها بلذة متوحشة . نظرت فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا اليه دون كلام ، وكأنهما بانتظار الامتحان النهائي على مقعد مدرسي . لم يتبادلا اي كلمة خلال حواره مع الدورية الصحية ، ولم تخطر لهما أدنى فكرة عما سيصيب حياتيهما ، لكنهما كانا يعرفان أن القبطان يفكر من أجلهما : كان ذلك يبدو في نبض صدغيه .

وفيما هو يلتهم وجبة البيض ، وصحن الموز الأخضر ، وفنجان القهوة مع الحليب ، خرجت السفينة ومراجلها مطفأة من الميناء ، وشقت طريقها في المجاري المائية عبر مفارش الطحالب ، ونباتات اللوتس الطافية ذات الأزهار البنفسجية والأوراق الكبيرة التي لها شكل قلوب ، وعادت الى المستنقعات . كان الماء براقا بفعل عالم الأسماك الطافية على جنوبها ، ميتة بديناميت

الصيادين ، وكانت طيور الأرض والماء تحوم من فوقها مطلقة صرخات معدنية . ونفذت ريح الكاريبي من النوافذ محملة بصخب العصافير ، فأحست فيرمينا داثا في دمائها خفقات حريتها القلقة . والى اليمين ، كان مصب نهر مجدلينا العظيم المعكر والرصين يمتد حتى الجانب الآخر من الدنيا .

عندما لم يبق في الأطباق شيء يؤكل ، مسح القبطان شفتيه بطرف شرشف الطاولة ، وتكلم برطانة قوضت الى الأبد سمعة حسن التحدث التي عرف بها قباطنة النهر . لم يتكلم عنهما ولا عن أحد ، وانما كان يحاول التوافق مع غضبه . والنتيجة التي وصل اليها بعد سلسلة من الشتائم البربرية ، هي أنه لا يجد سبيلاً للخروج من ورطة راية الكوليرا التي أدخلوا أنفسهم فيها .

استمع اليه فلورينتينو اريثا دون أن يطرف له رمش . ثم نظر عبر النافذة الى دائرة ساعة أجهزة الملاحة ، والى الأفق الرائق ، والى سماء كانون الأول التي لا تشوبها غيمة ، والى المياه المواتية للابحار الى الأبد ، وقال :

- فلنتابع قدما ، قدما ، قدماً ، ونرجع الى لادورادا ثانية . ارتعشت فيرمينا داثا ، لأنها تعرفت على الصوت القديم المضاء بنعمة الروح القدس ، ونظرت الى القبطان : كان هو القدر . لكن القبطان لم يرها ، لأنه كان غارقا في قدرة فلورينتينو اريثا الرهيبة على الالهام .

وسأله :

- أتقول هذا جاداً ؟

فقال فلورينتينو اريثا :

- منذ ولدت لم أقل كلمة واحدة غير جدية .

نظر القبطان الى فيرمينا داثا ورأى في رموشها البريق الأول لصقيع شتوي .ثم نظر الى فلورينتينو اريثا ، بتماسكه الذي لا يقهر ، وحبه الراسخ ، وأرعبه ارتيابه المتأخر بأن الحياة ، أكثر من الموت ، هي التي بلا حدود .

سأل :

ـ الى متى تظن بأننا سنستطيع الاستمرار في هذا الذهاب والاياب الملعون ؟

كان الجواب جاهزاً لدى فلورينتينو اريثا منذ ثلاث وخمسين سنة وستة شهور وأحد عشر يوماً بلياليها . فقال :

ـ مدى الحياة .

غابرييل غارسيا ماركيز

نوبل ١٩٨٢

■ ولد غابرييل غارسيا ماركيز عام ١٩٢٨ في أراكاتاكا ، شمال كولومبيا ، ودرس في بوغوتا العاصمة في مدرسة يسوعية ، لينتقل بعدها الى الجامعة .

■ عمل صحفياً وجاب كثيراً من بلدان العالم أهمها روما ، وباريس (عام ١٩٦٠ حيث كان بلا مال سوى ثمن تذكرة العودة الذي استعاده ، فاضطر الى بيع الزجاجات الفارغة والاشتراك مع آخرين من مواطني أميركا اللاتينية في تبادل العظام ليصنعوا منه الحساء!) - كتب حينذاك روايته « ليس للكولونيل من يكاتبه » . كما أنه أقام في مكسيكو وكتب عدة سيناريوهات سينمائية . نشر ماركيز أول قصة له عام ١٩٥٥ وكانت « غرباء الموز » ، ولم يتجاوز وقتها عدد نسخها الألف نسخة .

■ ذاع صيته بعد نشره لرائعته « مائة عام من العزلة » عام ١٩٦٧ ، والتي نبّهت العالم إليه ككاتب متميز (تُرجمت الى ٣٢ لغة بينها العربية) ؛ لا بل فجرت اهتماماً استثنائياً بأدب أميركا اللاتينية ككل .

ربما يكون أهم ما في « الحب في زمن الكوليرا » هو تلك الحيرة التي نجد أنفسنا غارقين فيها منذ بداية الرواية حتى آخرها . وإن الدهشة التي أصابتنا في « مائة عام من العزلة » لكفاءتها العالية ، تصيبنا عند قراءة هذه الرواية . غير أنها قادمة من طرق أخرى . هنا كل شيء ممكن ، كل شيء يتحول الى الممكن ، ويظهر بعد معرفة الأحداث بأنه لم يكن بالامكان حدوثها بشكل آخر .

أما الفكرة الثابتة في هذه الرواية فهي أنها « رواية حب » ، ويكتب المؤلف عن روايته فيقول : « إن هذا الحب في كل زمان وفي كل مكان ، ولكنه يشتد كثافة كلما اقترب من الموت » .

خوسي كارثيا نيثيو

شاعر وعضو بالأكاديمية الملكية الاسبانية

ISBN => 2-84305-098-7
EAN => 9782843050985